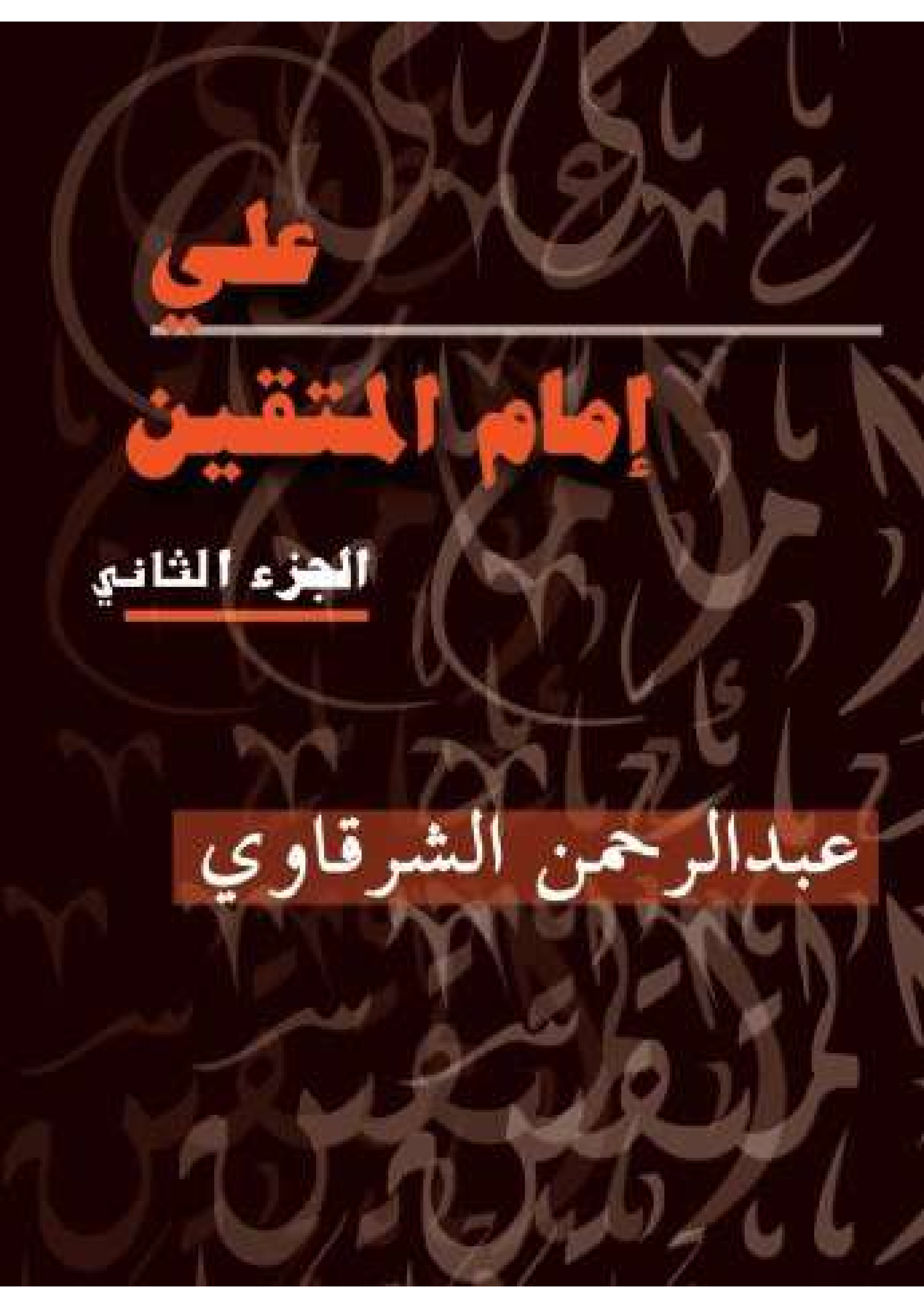
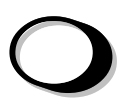

علي
إمام المتقين
الجزء الثاني
عبدالرحمن الشرقاوي



في مقدمة الطبعة الأولى للجزء الأول من هذا الكتاب وعدت أن أضع في نهاية ذلك الجزء الأول التعقيبات والمحاورات التي أثيرت حوله حينما كان ينشر على صفحات جريدة الأهرام صباح كل أربعاء..

ولكني خشيت أن أقطع على القارئ استرساله من الجزء الأول إلى الجزء الثاني، فرأيت أن أجعلها في نهاية الجزء الثاني.. ثم إني أشفقت من أن أفسد على القارئ انفعالاته وتأملاته بعد أن يفرغ من الجزء الثاني، فاخترت أن تستقل المحاورات وما يدخل في بابها بكتاب خاص عنوانه "محاورات" أرجو أن يصدر قريبا إن شاء الله.

وكنت قد أشرت في نهاية الطبعة الأولى من الجزء الأول إلى أن الجزء الثاني سيكون عنوانه "علي إمام المساكين".. ولكني تلقيت نصائح صادقة بأن أعدل عن هذا، لأن هناك من سيؤولون العنوان تأويلاً قبيحا منكرا: إما عن جهل
بمعنى المساكين، وإما عن سوء قصد، أو عن غفلة الكريم.

فلما نظرت في الأمر، استمعت للنصح عسى أن أستنقذ هذا الكتاب مما قد يثار عليه من غبار ينبغي أن تتنزه عنه حياتنا الفكرية والثقافية.. وأبقيت في الجزء الثاني على عنوان: "على إمام المتقين"، داعيا الله تعالى أن ينفع به من يلتمس النفع فيما يقرأ، وأن يشفى الذين في قلوبهم مرض، وأن يضيء بالمعرفة من تغشى عقولهم الظلمات.

ثم إني في هذا الجزء الثاني من كتاب" على إمام المتقين" قد خرجت عما ألفته من قبل كلما رسمت صورة قلمية فنية من تراثنا الجليل معتمدة على الحقائق الثابتة في التاريخ.. خرجت في هذا الكتاب عما ألفته وعما تعوده القراء مني،ذلك

أني أوردت من الوقائع والأقوال ما قد يصدم بعض العقول، فأثبت أوثق المراجع من كتب أئمة أهل السنة.. وعذري في ذلك أن من الناس من تحداني أن أذكر المراجع التي تثبت ما لم يقبله لأنه في الحق بناقض مصالحه..!! ثم لأن من الناس من يتهم بدلاً من أن يفكر ويبحث ويتعلم، ومن

الناس من يجادل بغير علم ولا هدى ولا سراج منير..!!

وهؤلاء جميعا هم في الحق قلة ضئيلة لا وزن لها ولا خطر إلا أنها قلة احترفت الغوغائية، فانطلقت في عماية

تطرفها تحاول أن تصرف كل الأبصار والبصائر عن نصاعة تراثنا، وعما في تاريخنا العظيم مما يعتبر به أولو الألباب، ومن ذكرى.. والذكرى تنفع المؤمنين..!!

إن المصالح الفاسدة هي التي تصرخ وتعوي وتتهم.. هي التي تحرك ذلك الصنف من الرجال.. المصالح، لا العقول ولا الأفهام ولا البصائر ..!! وتعسا لهذه المصالح الفاسدة التي جعلت ومازالت تجعل من بعض الرجال أنصاف

رجال..!! ولقد أود في هذا المجال أن أذكر القارئ بما كتبته في
مقدمة الجزء الأول تعليلاً لذكرى المراجع في نهاية الكتاب، على خلاف الكتب المماثلة السابقة، فليرجع إليه مشكورا..

وبعد.. فحسبي جزاء لما بذلت من جهد، وعزاء عما لقيت وألقى من عنت وعما كابدت وأكابد من حماقات ومن عربدة ضجيج أصحاب المصالح الفاسدة، وشغبهم على عزائي عن كل هذا العناء هو أن يجد الصادقون في هذا الكتاب ما يدفعهم إلى مقاومة الباطل والدفاع عن الحق..!!
عزائي وجزائي ومكافأتي الصحيحة أن يكشف هذا الكتاب

عن وضاءة مبادئ الإسلام، وعما يملكه الإسلام من قدرات

هائلة ومتجددة على العطاء في مواجهة الجدب الروحي والمادي مهما يختلف الزمان والمكان..!!

حسبي جزاء ومكافأة وعزاء عن كل ما قاسيت وما أقاسي، أن يهدي الله تعالى بما كتبته ولو عقلاً واحدا، وأن يفتح لحب الحقيقة التي دافع عنها ولو قلبا واحدا..!!

ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين..

١٤٠٥هجرية

عبد الرحمن الشرقاوي

أقبل الحجاج بن الصمة على معاوية في قصره بدمشق فقال له: " يا أمير المؤمنين"!.

وكان معاوية يجلس مسترخيا على كرسي فاخر في قاعة ضخمة من قصره، وحوله بعض أتباعه من أهل الشام، فالتفت معاوية لمن حوله يرى أثر النداء على وجوههم، وحين لم ير على وجوههم الرفض،اطمأنت نفسه،وابتسم ..!

وابتهج معاوية إلى أغوار قلبه.. لقد أحسن عندما رفض البيعة لعلي، وطالب بدم عثمان، وجعل نفسه ولي الدم، وتأول الآية الكريمة: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً ﴾.

وأحسن حين أعلن العصيان، ورد أمر علي بعزله وحرض الناس على خلع علي وقتاله.. وها هو ذا يرى أحد المسلمين يعدل عن علي، ويناديه هو معاوية: "يا أمير

المؤمنين". فيرضى عن ذلك من يشهد من رؤساء المسلمين بالشام..!!

ونظر معاوية إلى الرجل يستزيده، فعاد الرجل يقول: "يا أمير المؤمنين.. إني أخبرك يا أمير المؤمنين أنك تقوى على علي بدون ما يقوى به عليك، لأن معك قوما لا يقولون إذا قلت، ولا يسألون إذا أمرت وإن مع علي قوما يقولون إذا قال، ويسألون إذا أمر، فقليل ممن معك خير من كثير ممن معه"!

لقد بايع أهل الشام معاوية من قبل على الطلب بدم عثمان رضي الله عنه.. بايعوه لما عزله أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه.. بايعوا معاوية أميرا على الشام، ووليا لدم عثمان، لا يطمع في الخلافة، وإنما يطالب عليا بالاعتزال ليكون الأمر شورى بين المسلمين..!!

فلما قتل طلحة والزبير رضي الله عنهما في معركة الجمل، بدأ معاوية يشرئب إلى الخلافة، حتى نجح في إقناع الناس بأن يبايعوه خليفة، وبأن ينادوه بلقب الخلافة: "أمير المؤمنين".

ثم أخذ يحشد الجنود ليزحف إلى الكوفة، ويثب على أمير المؤمنين على بن أبي طالب الذي بايعه من قبل أهل بدر، والمهاجرون والأنصار، وفي طليعتهم الزبير وطلحة..!!

وكان قد اعتزل الناس نفر قليل من المهاجرين والأنصار، فأرسل إليهم معاوية يستنصرهم فخذلوه، وردوا طلبه ردا عنيفًا.. فكتب إليه محمد بن مسلمة الأنصاري: "... وأما أنت فلعمري ما طلبت إلا الدنيا، ولا اتبعت إلا الهوى، فإن تنصر عثمان ميتاً فقد خذلته حيا..".

كما رد سعد بن أبي وقاص على كتاب معاوية إليه: "أما بعد

فإن عمر بن الخطاب لم يدخل في الشورى إلا من يحل له الخلافة من قريش (وهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص.. وهم بقية العشرة الكرام البررة الذين بشرهم رسول الله ❐ بالجنة). فلم يكن أحد منا أحق بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه، غير أن عليا كان فيه ما فينا وليس فينا ما فيه. وهذا أمر قد كرهنا أوله، وكرهنا آخره، فأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما كان خيرا لهما. والله يغفر لأم المؤمنين ما أتت".

أما عبد الله بن عمر بن الخطاب فقد أسخطه كتاب معاوية إليه.. وكان معاوية قد كتب إليه: "أما بعد، فلم يكن أحد من قريش أحب إلى أن يجتمع عليه الناس بعد قتل عثمان منك. ثم ذكرت خذلك إياه وطعنك على أنصاره فتغيرت عليك. وقد هون ذلك علي□ خلافك على علي، ومحا عنك بعض ما كان منك. فأعنا رحمك الله على حق هذا الخليفة المظلوم فإني لست أريد الإمارة عليك، ولكني أريدها لك. فإن أبيت كانت شورى بين المسلمين".

فأجابه عبد الله بن عمر: "أما بعد فإن الرأي الذي أطمعك في□ هو الذي صيرك إلى ما صرت إليه: أني تركت عليا في المهاجرين والأنصار، وطلحة والزبير، وعائشة أم المؤمنين، واتبعتك! أما زعمك أني طعنت على علي□ فلعمري ما أنا كعلي في الإيمان والهجرة، ولكن حدث أمر لم يكن من رسول الله □ إلي□ فيه عهد. ففزعت إلى الوقوف (يعني الصمت) وقلت: "إن كان هدى ففضل تركته، وإن كان ضلالة فشر نجوت منه. فأغن عنا نفسك".

ولكن معاوية كان قد أعد العدة ليكون هو الخليفة، وإنه ليجهز جند الشام للزحف على الكوفة لقتال علي.. ثم ها هو ذا ينصب نفسه خليفة!

قال لرؤساء أهل الشام الذين اصطنعهم لنفسه: "يا أهل الشام. قد علمتم أني خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة عثمان وقد قتل مظلوما وأنا ابن عمه ووليه، والله يقول في كتابه: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾. وأنا أحب أن تعلموني ما في أنفسكم من قتل عثمان".

فبايعوه على الطلب بدم عثمان.

ثم ظل بهم يصطنعهم لنفسه، ويغدق عليهم، ويسترضيهم، حتى بايعوه خليفة، ولكنهم لم يجسروا على أن ينادوه: " يا أمير المؤمنين"، حتى خاطبه بها الحجاج ابن الصمة الذي كان عينًا له على الإمام علي أمير المؤمنين.

ولم يلبث معاوية حتى قدم عليه عبيد الله بن عمر، وهو الذي خرج بسيفه مغاضبا لما اغتيل أبوه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقتل ابنة القاتل أبي لؤلؤة، وقتل الهرمزان

ورجلاً آخر، كانا مع أبي لؤلؤة يفحصان الخنجر الذي اغتيل به عمر، قبل الجريمة بيوم..

وتكاثر الناس على عبيد الله وحبسوه، حتى إذا تمت البيعة لعثمان طالبه علي رضي الله عنهما بأن يقتل عبيد الله بمن قتلهم.. ولكن عثمان أبى، ودفع من ماله دية القتلى.. فلما تمت البيعة لعلي، خشي عبيد الله أن يقتص منه الخليفة الجديد فترك المدينة ناجيا بنفسه من القصاص، وطوف في الأرض ثم انتهى به المطاف إلى معاوية!

وفرح به معاوية، وأكرمه وأغدق عليه.

قال معاوية لعمرو بن العاص: "يا عمرو، إن الله أحيا لك عمر بن الخطاب بالشام بقدوم عبيد الله بن عمر، وقد رأيت أن أقيمه خطيبا فيشهد عل علي بقتل عثمان وينال منه".

فقال عمرو: "الرأي ما رأيت".

فأرسل معاوية إلى عبيد الله، فلما أتاه قال معاوية: "يا ابن أخي. إن لك اسم أبيك، فانظر بملء عينيك، وتكلم بملء فيك، فأنت المأمون المصدق فاصعد المنبر واشتم عليا وأشهد عليه أنه قتل عثمان".

فقال عبيد الله: "يا أمير المؤمنين!".

وطرب معاوية إذ ناداه بلقب الخلافة، فابتسم، وأكمل عبيد الله: "أما شتمي عليا فإنه علي بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم. فما عسى أن أقول في حسبه. وأما بأسه فهو الشجاع كما قد علمت، وأما أيامه فما قد عرفت! ولكني ملزمه دم عثمان".

فقال عمرو: "قد وأبيك إذن نكأت القرحة".

ولكن معاوية لم يعقب. وبانت على وجهه خيبة الأمل في عبيد الله.. وغشى المجلس صمت كئيب متوتر!

وانصرف عبيد الله فقال معاوية: "أما والله لولا قتله الهرمزان، ومخافته عليا على نفسه، ما أتاني أبدا. ألم تر إلى تقريظه عليا ..؟!".

فقال عمرو: " يا معاوية إن لم تغلب فاخلب".

ثم إن عبيد الله قام في الناس خطيبا، فأمسك عن علي، ولم يتهمه بقتل عثمان.!

فلما فرغ من خطابه بعث إليه معاوية وعاتبه في حدة: "ابن أخي! إنك بين غي أو خيانة" فقال عبيد الله: "كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان".

فهجره معاوية مليا، واتهمه بالفسق!

فلما انتهى إلى عبيد الله بن عمر ما قاله فيه معاوية أغلظ عليه في العتاب، واستعد للرحيل..

وأحس معاوية أنه من الخير له أن يترضى عبيد الله بن عمر، وأن يكسبه إلى صفه، فيفيد من اسم أبيه عمر بن الخطاب.. فما من أنصار لمعاوية من المهاجرين والأنصار وأبنائهم إلا نفر قليل، إذ جيش علي يضم منهم آلافًا، تنكر على معاوية أنه أعلن العصيان، وخالف الإمام، وشق عصا الطاعة وفرق الجماعة، وإنهم ليشحذون سيوفهم ليلقوه تحت راية أمير المؤمنين الإمام علي فيلزموا العصاة الطاعة..!!

ثم إن القراء من أهل الشام، كانوا ينكرون على معاوية عصيانه للإمام، والقراء هم الذين يحفظون القرآن الكريم ويعلمونه.

فأقبل نفر منهم على معاوية ومعهم أبو مسلم الخولاني وهو زاهد من أهل الشام، كان قد رحل إلى النبي فلم يدركه، فتلقى علوم الدين وتفقه فيه على علي وعاد إلى موطنه يأمر بالمعروف، وينهي عن المنكر، ويأمر الناس بأن يعملوا في دنياهم لآخرتهم..

وكان زهد أبي مسلم على غرار زهد الإمام علي.. وقد منح هذا الزهد أبا مسلم جرأة في الحق، وجسارة على الباطل، وشجاعة القلب، فأصبح في غنى بالله عن الناس،يتهم من بايعوا معاوية بالخلافة أنهم دعاة فتنة، وأنهم باعوا دينهم بدنياهم، وأن طاعة أمير المؤمنين علي ▯ تجب عليهم.. وأقبل أبو مسلم مع القراءة الشاميين من أهل التقوى فتكلم باسمهم. قال: "يا معاوية!".

ودهش معاوية.. فما من أحد من الرعية يناديه باسمه اليوم إلا عمرو بن العاص، أما بقية الرعية فلا تخاطبه إلا بأمير المؤمنين!

وعاد الرجل الصالح يقول: "يا معاوية" ونظر معاوية إلى القراء الذين أقبل فيهم أبو مسلم، فوجدهم جميعا ينادونه: "يا معاوية". ثم إنهم قالوا له في حدة حاسمة: "علام تقاتل عليا وليس لك مثل صحبته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته ..؟! إنك لتعلم أنك من الطلقاء ولا حق لك في الخلافة.. إنك لمن المؤلفة قلوبهم وما أسلمت إلا يوم فتح مكة أنت وأبوك ومن معه من مشركي قريش، فقال لكم الرسول ❐ ، اذهبوا فأنتم الطلقاء.. إنا لنذكرك إن كنت نسيت.. فما أنت وأمير

المؤمنين علي بن أبي طالب ..؟! قد والله يا معاوية عدوت...".

فقاطعهم معاوية: "حسبكم! ".

ثم الآن لهم صوته، ووطأ أكنافه قائلاً: " ما أقاتل علياً وأنا أدعي أن لي في الإسلام مثل صحبته، ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته. ولكن خبروني ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوما ..؟" قالوا: "بلى" قال: " فليدفع إلينا قتلته فنقتلهم به" قالوا: "فاكتب إليه كتابا يأتيه به بعضنا".

فكتب معاوية كتابا لعلي يطالبه فيه بتسليم قتلة عثمان!

وحمل أبو مسلم كتاب معاوية إلى علي، حتى إذا جاءه وهو في المسجد الجامع بالكوفة يعظ الناس، قال له بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "أما بعد يا أمير المؤمنين فإنك قد قمت بأمر وتوليته. والله ما أحب أنه لغيرك إن أعطيت الحق من نفسك. إن عثمان قتل مسلما محرما صائما مظلوما، فادفع إلينا قتلته وأنت أميرنا وأمير المؤمنين، فإن خالفك أحد من الناس كانت أيدينا لك ناصرة، وألسنتنا لك شاهدة، وكنت ذا عذر وحجة" ثم سلمه كتاب معاوية.

وعندما فرغ علي من قراءة كتاب معاوية، ألفاه مثل كتبه السابقة.. فهو يطالبه بقتلة عثمان، ويعده إن هو فعل أن يبايعه..!!

ومعاوية يعرف أن الآلاف قتلوا في يوم الجمل، وفيهم قتلة عثمان، منهم من كان في جيش علي، ومنهم من كان في جيش طلحة والزبير ..!

ومعاوية يدرك أنه ليس من حقه أن يقيم نفسه وليا له سلطان على القتلة فذلك لولي الأمر، وما على معاوية إلا أن يدخل في الجماعة ويبايع، ثم يطالب ولي الأمر بأن يجري القصاص..!!

والأمة كلها تعلم أن عليا نصح عثمان حتى اعتزله، فلما اعتزله عاتبه عثمان واشتد عليه فلم يجبه، فلما سأله: "مالك لا تجيبني ..؟" قال الإمام: "لأني لا أريد أن أسمعك ما تكره، وليس لك عندي إلا ما تحب!".

والأمة كلها تعلم أن معاوية يتعلل بالطلب بدم عثمان، وتسليم قتلته لتكون له حجة في قتال علي..

قال علي لرسول معاوية: "ا علي غدا فخذ جواب كتابك".

فلما كان الغد جاء الناس في السلاح فامتلأ بهم المسجد والرحبة أمامه وهم يتنادون: "كلنا قتلة عثمان!".

ودخل أبو مسلم على الإمام في داره، فوجدها دار ضيقة خشنة واضحة الفقر.. أهذا هو مقر الخلافة ..؟! أين هذا الدار التي هي أدنى من دار أفقر رجل من المسلمين، من قصر معاوية الضخم الشامخ بفخامته وأبهته ..؟!

قال أبو مسلم: "يا أمير المؤمنين.. قد رأيت قوما ما لك معهم أمر!" قال علي: "وما ذاك ..؟" . قال: "بلغ القوم أنك تريد أن تدفع إلينا قتلة عثمان فضجوا واجتمعوا ولبسوا السلاح وزعموا أنهم كلهم قتلة عثمان".

فدفع إليه على برده على معاوية، قائلاً: "والله ما أردت أن أدفعهم إليك طرفة عين. لقد ضربت هذا الأمر أنفه وعينيه ما رأيته ينبغي لي أن أدفعهم إليك ولا إلى غيرك"!

وانصرف أبو مسلم في سلام عائدا إلى دمشق. وخرج الإمام علي إلى الناس فوجدهم يشتمون ويلعنون معاوية ومن تبعه، فزجرهم الإمام، فقال الأشْتَرَ: "ألسنا محقين ..؟". قال: "بلى". قال حجر بن عدي: "أليسوا مبطلين ..؟" قال: "بلى". قال الناس: "فلم تمنعنا عن شتمهم ..؟" قال:

"كرهت لكم أن تكونوا شتَّامين لاعنين ولكن لو وصفتم مساوئ أعمالهم كان أصوب في القول. فإن قلتم مكان لعنكم إياهم وبراءتكم منهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وذات بينهم، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق منهم من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به، كان هذا أحب إلى وخيرا لكم".

فقال الأشْتَر وحجر بن عدي:" يا أمير المؤمنين نقبل عظتك، ونتأدب بأدبك".

وحجر صحابي من رواة الحديث، وعبد الله بن عمر يتخير منه.

***

ومرت أيام والناس يلحون على أمير المؤمنين أن يخرج بهم إلى الشام، قبل أن يقود معاوية وعمرو بن العاص إليهم جند الشام، ويغزوهم في ديارهم.

وجمع الإمام من كان معه من المهاجرين والأنصار، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أما بعد فإنكم ميامين الرأي، مقاويل بالحق، أهل الحلم، مباركو الفعل والأمر، وقد أردنا المسير إلى عدونا وعدوكم فأشيروا علينا برأيكم".

فقام عمار بن ياسر فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "يا أمير المؤمنين إن استطعت ألا تقيم يوما واحدا فافعل. اشد َخص بنا قبل استعار نار الفجوة واجتماع رأيهم على العدوان والفرقة، وادعهم إلى رشدهم، فإن قبلوا سعدوا، فإن أبوا إلا حربنا فو الله إن سفك دمائهم، والجد في جهادهم لقربة عند الله".

فقال الإمام: "الله درك يا عمار. سمعت رسول الله ❐ يقول: إن عمارا مليء إيماناً إلى مشاشه (رؤوس العظام كالمرفقين والمنكبين والركبتين)". وكان عمار إذا استأذن على النبي ❐ يقول: ائذنوا له. فإذا دخل استقبله عليه الصلاة والسلام بقوله: مرحبا بالطيب المطيب.

فلما فرغ الإمام من الثناء على عمار، قام سعد بن قيس بن عبادة فقال: "يا أمير المؤمنين. عجل بنا إلى عدونا، فو الله لجهادهم أحب إلي من جهاد الترك والروم لإدهانهم في دين الله، واستذلالهم أولياء الله من أصحاب محمد ❐ من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان! إذا غضبوا على رجل حبسوه أو ضربوه أو حرموه أو سيروه (نفوه)، وفيئنا

لهم في أنفسهم حلال، ونحن لهم فيما يزعمون قطين (أي رقيق وعبيد)".

ثم قام سهل بن حنيف فقال: "يا أمير المؤمنين. نحن سلم لمن سالمت وحرب لمن حاربت. ورأينا رأيك. ونحن كف يمينك، وقد رأينا أن تقوم بهذا الأمر في أهل الكوفة، فتأمرهم بالشخوص، وتخبرهم بما صنع الله لهم في ذلك من الفضل، فإنهم هم أهل البلد وهم الناس. فإن استقاموا لك استقام لك الذي تريد وتطلب. وأما نحن صحابة رسول الله ، فليس عليك منا خلاف، متى دعوتنا أجبناك، ومتى أمرتنا أطعناك".

وقام عدي بن حاتم الطائي فقال: "يا أمير المؤمنين، ما قلت إلا بعلم، ولا دعوت إلا إلى حق، ولا أمرت إلا برشد، فإن رأيت أن تستأني القوم حتى تأتيهم كتبك، ويقدم عليهم رسلك، فإن يقبلوا يصيبوا ويرشدوا، والعافية أوسع لنا ولهم، وإن يتماروا ولا ينزعوا عن الغي فسر لهم وقدمنا إليهم بالعذر، ودعوناهم إلى ما في أيدينا من الحق، فو الله لهم من الله أبعد، وعلى الله أهون من قوم قاتلناهم بناحية البصرة أمس".

وقال أبو زبيب بن عوف: "يا أمير المؤمنين، لئن كنا على الحق لأنت أهدانا سبيلاً، وأعظمنا في الخير نصيبا، ولئن كنا في ضلالة إنك لأثقلنا ظهرا وأعظمنا وزرا! أمرتنا بالمسير إلى هذا العدو وقد قطعنا ما بيننا وبينهم من الولاية، وأظهرنا لهم العداوة نريد بذلك ما يعلم الله من طاعتك وفي أنفسنا من ذلك ما فيها. أليس الذي نحن عليه هو الحق المبين والذي عليه عدونا هو الغي والحوب الكبير (الحوب: الإثم)".

فقال له الإمام:" بلى. شهدت أنك إن مضيت معنا ناصرا لدعوتنا صحيح النية في نصرتنا، قد قطعت منهم الولاية، وأظهرت لهم العداوة كما زعمت، فإنك ولي الله تسبح في رضوانه، وتركض في طاعته، فأبشر أبا زبيب!".

وقال له عمار: "أثبت أبا زبيب ولا تشك في الأحزاب عدو الله ورسوله".

وقال يزيد بن قيس: "يا أمير المؤمنين. إنا على جهاز وعدة (الجهاز: ما يحتاج إليه المقاتل والمسافر)، فمر مناديك فليناد الناس يخرجوا إلى معسكرهم بالنخيلة فإن أخا الحرب ليس بالسؤوم ولا النؤوم (من السأم والنوم)، ولا من إذا

جاءته الفرصة أجلها واستشار فيها، ولا من يؤخر الحرب في اليوم إلى غد وبعد غد".

فقال زياد بن النضر: "لقد نصح لك يا أمير المؤمنين وقال ما يعرف فتوكل على الله وثق به، واشخص بنا إلى هذا العدو راشدا معانا".

ثم قام عبد الله بن بديل فقال: "يا أمير المؤمنين، إن القوم لو كانوا يريدون الله أو يعملون الله ما خالفونا، ولكن القوم إنما يقاتلون فرارا من التسوية (التسوية بين المسلمين في قسمة المال)، وحبا للأثرة، وضناً بسلطانهم، وكرها لفراق دنياهم التي في أيديهم، وعلى إحنٍ (أحقاد) في أنفسهم، وعداوة يجدونها في صدورهم، لوقائع أوقعتها يا أمير المؤمنين بهم قديمة، قتلت فيها آباءهم وإخوانهم. كيف يبايع معاوية عليا وقد قتل أخاه حنظلة وعمه الوليد وجده عتبة في موقف واحد يوم بدر ..؟! والله ما أظنهم يفعلون، والله لن يستقيموا لكم دون أن تقطع على هامهم السيوف".

ثم وقف أحد الأنصار فقال: "اذكروا قول رسول الله ❐ لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولو سلك الناس شِعبا (أي: طريقاً) وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار.

ونحن الأنصار نؤيدك يا أمير المؤمنين لم ينجز منـا إلـى خصمك غير ثلاثة نفر فرارا من التسوية فـي القسـمة. والله درك يا أمير المؤمنين يوم جاءك طلحة والزبير مغاضـبين فقالا: "أنت تقسم القسم، وتقطع الأمر، وتمضي الحكم بغيـر مشاورتنا ولا علمنا". الله درك إذ أجبتهما: "لقد نقمتما يسيرا، فاستغفرا الله يغفر لكما. ألا تخبراني أدفعتكما عن حق وجب لكما وظلمتكما إياه ..؟" قالا: " معـاذ الله! فسـألت: "فهـل استأثرت من هذا المال لنفسي بشئ ..؟" قـالا: "معـاذ الله!: قلت: "أفوقع حكم أو حق لأحد مـن المسـلمين فجهلتـه أو ضعفت عنه ..؟" قالا: "معاذ الله!" قلت: "فما الذي كرهتما من أمري حتى رأيتما خلافي ..؟" قالا: "إنك جعلت حقنـا فـي القسم (القِسمة) كحق غيرنا، وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله تعالى علينا بأسيافنا ورماحنا، وأوجفنـا عليـه بخيلنا ورجلنا". فقلت لهما: "فأما ما ذكرتما من الاستشـارة، فو الله ما كانت لي في الولاية رغبة، ولكنكم دعوتموني إليها، وجعلتموني عليها، فخفت أن أردكم، فتختلـف الأمـة، فلما أفضت إلي نظرت في كتاب الله وسنة رسوله، فأمضيت ما دلاني عليه، واتبعته، ولم أحتج إلي آرائكما فيـه ولا رأى

غيركم. ولو وقع حكم ليس في كتاب الله بيانه، ولا في السنة، واحتيج إلى المشاورة فيه لشاورتكما فيه. وأما القسم والأسوة فإن ذلك أمر لم أحكم فيه بادئ بدء، فقد وجدت أنا وأنتما رسول الله وآله يحكم بذلك، وكتاب الله ناطق به، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتنزيل من حكيم حميد. وأما قولكما جعلت فيئنا وما أفاءت سيوفنا ورماحنا سواء بيننا وبين غيرنا، فقديما سبق إلى الإسلام قوم، ونصروه بسيوفهم ورماحهم، فلم يفضلهم رسول الله ❐ وآله – في القسم (قِسمة المال)، ولا آثرهم بالسبق، والله سبحانه موفٍّ السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم، وليس لكما والله عندي ولا لغيركما إلا هذا، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق"، كان هذا من طلحة والزبير يا أمير المؤمنين، فما بال معاوية وعمرو وأين هما من طلحة والزبير ..؟".

وحين سمع الإمام اسمي طلحة والزبير جاشت نفسه، وفاضت عيناه بالدمع، ودعا لهما بالرحمة..ثم

قام عمرو بن الحمقِ فقال: "إني والله يا أمير المؤمنين ما أحببتك ولا بايعتك على قرابة بيني وبينك، ولا إرادة مال تؤتينه، ولا التماس سلطان يرفع ذكرى، ولكني أجبتك

لخصال خمس: أنك ابن عمر رسول الله ❐ وآله، وأول من آمن به، وزوج سيدة نساء الأمة فاطمة بنت محمد ❐ وعلى آله، وأبو الذرية التي بقيت فينا من رسول الله ، وأعظم رجل من المهاجرين سهما في الجهاد. فلو أني كلِّفتُ نقل الجبال الرواسي، ونزح البحور الطَّوامي في أمر أقوى به وليَك، وأوهن به عدوك، ما رأيت أني قد أديت فيه كل الذي يحق علي من حقك".

فدعا له الإمام: "اللهم نور قلبه بالتُّقى، واهده إلى صراطك المستقيم ليت أن في جندي مائة مثلك!".

فقال حجر بن عدي: "إذن والله يا أمير المؤمنين صح جندك وقَلَّ فيهم من يغشك! يا أمير المؤمنين، نحن بنو الحرب وأهلها، ولنا أعوان ذوو سلاح، وعشيرة ذات عدد، ورأى مجرب وبأس محمود، وزمامنا منقاد لك بالسمع والطاعة، فإن شرقت شرقنا، وإن غرَبت غربنا، وما أمرتنا من أمر فعلناه" فسأله الإمام: "أكل قومك يرى مثل رأيك ..؟" أجاب: "ما رأيت منهم إلا خيرا. وهذي يدي عنهم بالسمع والطاعة".

وامتدت أيدي المهاجرين والأنصار والتابعين بالبيعة على السمع والطاعة، ودوت جنبات الكوفة وآفاقها بصيحات المتقين: "الله أكبر"؛ تجاوبها آمال المساكين في عصر مطمئن من الأمن والرخاء تخفق على النداء العذب الجسور المقتحم: "الله أكبر الله أكبر".

ثم رأى الإمام أن يأخذ بمشورة سهل بن حنيف الأنصاري، فيتجه إلى أهل الكوفة فيأمرهم بالخروج إلى معاوية جنده قبل أن يغزوهم في ديارهم.. أما المهاجرون والأنصار فمتى دعاهم أجابوا، ومتى أمرهم أطاعوا، كما قال سهيل.. ليت أهل العراق وسائر الناس يسلكون خلفه شعب الأنصار..!!

***

ودعا علي أهل الكوفة إلى لقائه بالمسجد الجامع إذا كان الغد، ثم أرسل إلى عماله على الأمصار.. وكتب إلى كل واحد منهم: "سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو. أما بعد.. فإن جهاد من صدف عن الحق رغبة عنه، و في نعاس الضلال اختيارا له، لفريضة على العارفين بالله. إن الله ليرضى أرضاه، ويسخط على من عصاه.

وإنا قد هممنا بالمسير إلى هؤلاء القوم الذين عملوا في عباد الله بغير ما أنزل الله، واستأثروا بالفيء، وعطلوا الحدود، وأماتوا الحق، وأظهروا في الأرض الفساد، واتخذوا الفاسقين وليجةً (بطانة) من دون المؤمنين. فإذا ولي [illegible] الله أعظَم أحداثهم (أي شجب أعمالهم) أبغضوه وأقصوه وحرموه، وإذا أ [illegible]حد[illegible] ساعدهم على ظلمهم أحبوه وأدنوه وبوه، فقد أصـروا على الظلم وأجمعوا على الخلاف، وقديما ما [illegible]وا عن الحق، وتعاونوا على الإثم، وكانوا ظالمين، فإذا جاءك كتابي هذا فاستخلف على عملك أوثق أصحابك في نفسك، وأقبل إلينا لعلك تلقى هذا العدو الم[illegible]حل (المحل: الخارج من ميثاق كان عليه، يعني البيعة، فهي واجبة على من لم يشهدها من المسلمين بعد أن بايعه أهل بدر والمهاجرون والأنصار بالمدينة)، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فإنه لا غناء بنا ولا بك عن أجر الجهاد. وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم".

ثم كتب إلى أمراء الجند الذين دعاهم للحاق به: "... خذوا على أيدي سفهائكم، واحترسوا أن تعملوا أعمالاً لا يرضى الله بها عنا، فير[illegible]د علينا وعليكم دعاءنا، فإن الله تعالى يقول:

{قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما} فإن الله إذا مقت قوما من السماء، هلكوا في الأرض، فلا تألوا أنفسكم خيرا، ولا الجند حسن سيرة، ولا الرعية معونة، ولا دين الله قوة، وأبلوا في سبيله ما استوجب عليكم،فإن الله قد اصطنع عندنا وعندكم ما يجب علينا أن نشكره بجهدنا، وأن ننصره ما بلغت قوتنا. ولا قوة إلا بالله".

وكتب إلى الجنود: "من عبد الله علي أمير المؤمنين. أما بعد. فإن الله جعلكم في الحق جميعا سواء أسودكم وأحمركم (أي العرب وغير العرب) وجعلكم من الوالي بمنزلة الولد من الوالد، وجعل الوالي منكم بمنزلة الوالد من الولد. وإن حقكم على الوالي إنصافكم والعدل بينكم، والكف عن فيئكم، فإذا فعل ذلك معكم وجبت عليكم طاعته بما وافق الحق، ونصرته في سيرته، والدفع عن سلطان الله، فإنكم وز ع ة الله في الأرض (المدافعون عما أمر به) فكونوا له أعوانًا، ولدينه أنصارا، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها".

ثم مضى أمير المؤمنين يعبئ رؤساء الكوفة وأهل الرأي إلى لقائه في المسجد ليشاورهم في أمر الحرب، فإن استقاموا

له كما استقام من معه من المهاجرين والأنصار، نهض بهم إلى الشام قبل أن يزحف معاوية على العراق.

***

وتوافى عليه عماله الذين كتب إليهم، وفيهم ابن عباس، وحشدوا ما استطاعوا من جند، وحملوا إليه ما بقى من مال ليجهز به الجيش بعد أن أنفقوا على ولاياتهم ما اقتضته

مصالحها. وأسرع أهل الرأي من رؤساء الكوفة إلى المسجد ليلقوا
الإمام، ومعهم القراء (الذين يحفظون القرآن ويعلمونه)، ورهط كبير من محبي الإمام.

وأضاءت لحيته البيضاء وجهه الأسمر، وهو يحدث الناس في صوت يجلجل بالإصرار على الرغم من الشيخوخة، وتخفق كلماته بنبض إيمان عميق.. هذا الإيمان الذي يمنح المؤمن القدرة على خوض الغمرات حتى الاستشهاد وهو يبتسم!

قال عمار: "إننا نحن صحابة رسول الله ❐ نرى لأمير المؤمنين علي كرم الله وجهه من السوابق ما لو أن سابقة

واحدة منها بين الخلائق لوسعتهم خيرا. وما ظـنكم برجـل

يقول عن الدنيا: إنما الدنيا جيفة، فمن أراد منها شيئًا، فليصبر على مخالطة الكلاب، يقول هذا إذ عدوه يصطنع الناس بحبهم الدنيا وزينتها.. ..؟!".

وهز المستمعون رؤوسهم طربا وعجبا، ونظروا إلى عمار بن ياسر في جلال شيخوخته يمسك بلحيته الشيباء ثم يطلقها، وعيناه تنظران إلى بعيد، وكأن نظراته الثاقبة تقتحم الستار الذي أسدله الزمن على الذكريات!

ثم قال: "سمعت رسول الله ❐ يقول لعلي بن أبي طالب: "إن الله عز وجل قد زينك بزينة لم يتزين العباد بزينة أحب إليه منها: الزهد في الدنيا، فجعلك لا تنال من الدنيا شيئًا، ولا تنال منك شيئًا. ووهب لك حب المساكين، ورضوا بك إماما، ورضيت بهم أتباعا، فطوبى لمن أحبك وصدق فيك، وويل لمن أبغضك وكذب عليك، فأما الذين أحبوك وصدقوا فيك: فهم جيرانك في دارك، ورفقاؤك في قصرك في الجنة، وأما الذين أبغضوك وكذبوا عليك، فحق على الله أن يوقفهم موقف الكذابين يوم القيامة".

فضج الحاضرون: "صدق رسول الله ❐.. ينصرك الله يا أمير المؤمنين، يا إمام المساكين".. وقال أحد الحاضرين:

"عزاؤنا نحن المساكين أن يكون إمامنا هو أعلم الناس بكتاب الله وسنة رسوله. أم يعرف أحدكم من هو أعلم منه ..؟".

فقال أحد المهاجرين: "إن عليا له ما شئت من ضرس قاطع في العلم والبسطة في العشيرة، والقدم في الإسلام، والصهر لرسول الله ، والفقه في السنة، والنجدة في الحرب، والجود بالماعون".

فقال رجل من أهل الكوفة: "متى يقودنا أمير المؤمنين لنغزو الشام قبل أن يغزونا معاوية ..؟".

وقال آخر: "تعلمنا من الإمام أنه ما غُزي قوم في دارهم قط إلا ذَلُّوا.. ..؟".

فأجابه شيخ: "دع الأمر للإمام فهو أدرى بالأمر منا".

فارتفع صوت: "لا والله لا يصنع بنا كما يصنع معاوية بأصحابه: يأمرهم فيطيعون، دون أن يفقهوا! إن لنا في الأمر رأيا، وقد علَّمنا أمير المؤمنين، أنه ما خاب من استشار، وأن من استشار الرجال شاركهم في عقولهم. لا والله لا يبرم أمرا دوننا أبدا".

فقال رجل آخر من أهل الكوفة: "لسنا أعلم بالأمر من أمير المؤمنين فلا تحملوه على ما يكره". وقد سمعناه يروي

عن رسول الله أنه قال له: "لأن يهدي الله بك رجــلاً واحـدا خير لك من حمر النعم. فعسى أن يكـون فـي نيـة أمير المؤمنين أن ينصح معاوية كما نصحه آنفًــا لـيحقن دمـاء المسلمين".

وتنادي الناس: "أمير المـؤمنين قـادم". فاشرأبت إليـه الأعناق، وهو يقبل مسرعا مهيبا جليلاً. فقـال لهـم ابـن عباس: "سلوه.. فوالله لقد أُعطِي علي تسعة أعشار العلم، و أيم الله لقد شاركهم في العشر العاشر".

وصعد الإمام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال مـا تعـود أن يقوله كلما صعد المنبر: "سلوني قبل ألا تسألوني. لن تسألوا بعدي مثلي". فقال ابن الكواء: "ما الذاريات ..؟" قال الإمـام: "الريح" قال "فما الحاملات وقرا ..؟" أجابه: "السحب" فسـأل ابن الكواء:" فما الجاريات يسرا" قال: "السفن". فسأل: "فمـا المقسمات أمرا" قال: "الملائكة".

وتعالت الصيحات: "الله أكبر.. صدق الرسول إذ قال أنـا مدينة الحكمة وعلى بابها".

ثم ساد صمت، قطعه قول الإمام: "اسألوني. فـو الله مـا نزلت آية في كتاب الله عز وجل إلا وقد علمت متى أنزلت،

و فيم أنزلت. وما من رجل في قريش إلا نزلت فيه آية تسوقه إلى جنة أو نار". فسأله أحد القراء: فما نزل فيك ..؟ قال: " لولا أنك سألتني على رؤوس الملأ ما حدثتك! أما تقرأ قوله تعالى في سورة هود: "أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ..؟". فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على بينة من ربه وأنا الشاهد منه أتلوه وأتبعه".

ثم أمسك الإمام كرم الله وجهه عن الحديث عن نفسه حياء وتحرجا.

فقام ابن عباس فقال: "وقول الله تعالى في سورة المائدة:

﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾ نزلت في المؤمنين وعلى بن أبي طالب أولهم.. وبقية الآية: {الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون}. نزلت في علي بن أبي طالب خاصة، كان يصلي فمر سائل وهو راكع فأعطاه خاتمه".

قال عمار: "قال رسول الله ﷺ: أنا مدينة العلم وعلى بابها، فأتوا البيوت من أبوابها".

فقال أحد الأنصار: "اسألوا أمير المؤمنين، فما أحد اليوم يقول اسألوني غيره. وقد كان يفتي ويقضي على عهد

الرسول فيرضى. وقد كنا في ذلك الزمان ولا أحد منا يحفظ القرآن كله إلا علي كرم الله وجهه. وقد كنا نعرف المنافقين ببغضهم لعلي! ولقد كنا مع رسول فانقطع شِ سع نعله، فأخذها علي ليصلحها فمضى رسول الله فقال إن منكم رجلاً يقاتل على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله، فاستشرف لها القوم، فقال رسول الله : لكنه خاصف النعل. فجاء فبشرناه بذلك فلم يرفع به رأسا، كأنه شئ قد سمعه من النبي ".

فقال أحد الأنصار: "أمرنا رسول الله بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين فقلنا: (يا رسول الله أمرتنا بقتال هؤلاء فمع من ..؟) قال: (مع علي بن أبي طالب. معه يقتل عمار بن ياسر) فهتف عمار: الله أكبر! إذن أقتل شهيدا.. قال لي رسول الله أبشر يا عمار: تقتلك الفئة الباغية. أما والله لأقاتلنَّها مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فقد سمعت رسول الله يقول عنه: من أحبه فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغضه فقد أبغضني، ومن أبغض عليا فقد أبغض الله عز وجل، وقال صلى الله عليه وآله لعلي: لا

يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق، وقال له: أوحى إلى أنك سيد المسلمين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين".

فقام رجل فقال: "سئل رسول الله ﷺ من يؤمر بعدك ..؟ قال: إن تؤمروا أبا بكر تجدوه أميناً زاهدا في الدنيا، راغباً في الآخرة، وإن تؤمروا عمر تجدوه قويا، لا يخاف في الله لومة لائم، وإن تؤمروا علياً – ولا أراكم فاعلين – تجدوه هاديا مهديا يأخذ بكم الصراط المستقيم".

وتكلم الإمام علي رضي الله عنه كرم الله وجهه من على المنبر فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "إن الله قد أكرمكم بدينه، وخلقكم لعبادته، فانصبوا أنفسكم في أداء حقه، وتنجزوا موعوده، واعلموا أن الله جعل أمراس (حبال) الإسلام متينة، وعراه وثيقة، ثم جعل الطاعة حظ الأنفس برضا الرب، وغنيمة الأكياس (الحكماء) عند تفريط الفجرة، وقد حملت أمر أسودها وأحمرها (يعني العرب وغيرهم)، ولا قوة إلا بالله. ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سفه نفسه، وتناول ما ليس له ومالا يدركه: معاوية وجنده – الفئة الباغية الطاغية.. وأنتم أعلم الناس بحلاله وحرامه، فاستغنوا بما علمتم، واحذروا ما حذركم الله من الشيطان، وارغبوا فيما أنالكم من

الأجر والكرامة، واعلموا أن المسلوب من سُلِب دينه وأمانته، والمغرور من آثر الضلالة على الهدى. فلا أعرف أحدًا منكم تقاعس عني وقال: في غيري كفاية. ومن لم يذُد عن حوضه يتهدم. ثم إني آمركم بالشدة في الأمر، والجهاد في سبيل الله، وألا تغتابوا مسلما، وانتظروا النصر العاجل من الله إن شاء

الله". وتصايح أهل الكوفة مكبرين، وأجابوا الإمام، ووافقوه

على الخروج لصد معاوية وجنده إلا جماعة من أتباع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. جاءته فقال قائلهم: " يا أمير المؤمنين إنَّا نخرج معكم ولا ننزل عسكركم، ونعسكر على حدة حتى ننظر في أمركم وأمر أهل الشام، فمن رأيناه أراد ما لا يحل له، أو بدا منه بغى كنا عليه".

فتبسم الإمام قائلاً: "مرحبا وأهلاً هذا هو الفقه في الدين، والعلم بالسنة، من لم يرض بهذا فهو جائر خائن.. رحم الله عبد الله بن مسعود ورضي الله عنه".

وجاءته جماعة أخرى في نحو أربعمائة رجل فقال كبيرهم: "يا أمير المؤمنين إنَّا شككنا في هذا القتال على

معرفتنا بفضلك، ولا غناء بنا ولا بك ولا المسلمين عمن يقاتل العدو، فولِّنا بعض الثغور نكمن به، ثم نقاتل عن أهله".

فوجههم إلى الري.

ثم شعر الإمام أن جماعة أخرى لا تحب الخروج معه، ولكنها لم تفصح عما في أعماقها تحرجا وحياء منه، فذهب إليهم وقال لهم: "خذوا عطاءكم واخرجوا إلى الديلم". فحمدوا الله إليه.

وهكذا أرسل الجماعات التي لا تريد أن تنغمس في القتال، إلى حدود البلاد ليحموا الثغور مع حماتها مما عسى أن يتهددها من الأعداء. ولم يغاضب أحدا لأنه أبى الخروج معه..

وأمر الإمام مناديه أن ينادي الناس والمقاتلين إلى أن يخرجوا من ساعتهم إلى النخيلة خارج الكوفة فيعسكروا فيها في انتظار أن يوافيهم بقية الجند من أقطار البلاد..

وأمر الإمام مناديه أن ينادي الناس والمقاتلين إلى أن يخرجوا من ساعتهم إلى النخيلة خارج الكوفة فيعسكروا فيها في انتظار أن يوافيهم بقية الجند من أقطار البلاد..

وأمر الإمام صاحبه زياد بن خالد أن يعد ثمانيـة آلاف مقاتل طليعة للجيش، وأمر صاحبه شرُيح بن هانئ أن يعـد أربعة آلاف، وأوصى كلاً منهما: "اتَّق الله، و َقِ على نفسك الغرور. وكن لنفسك مانعـا وازعـا مـن البغـي والظلـم والعدوان، فإني قد وليتك هذا الجند، فلا تستطيلن عليهم وإن خيركم عند الله أتقاكم، وتعلم من عالمهم، وعلِّم جاهلهم، واحلم عن سفيههم، فإنك إنما تدرك الخير بالحلم، وكف الأذى والجهل (الحماقة)".

وانطلقت طليعة الجيش في طريقها إلى الشام في ثمانيـة آلاف مقاتل بقيادة زياد ومعه شرُيح بن هـانئ فـي أربعـة آلاف.

***

لبث الإمام علي في النخيلة عدة أيام وجنـوده يتوافـدون عليه مع أمرائهم وعماله من كل الأمصار.

وكان معاوية قد أعد العدة ليرسل جيشه تحت قيادة أحـد رجاله ويبقى هو في دمشق، ولكن عمرو بن العاص قال له: "أما إذا سار علي بن أبي طالب فسر إليه بنفسك، ولا تغـب عنه برأيك ومكيدتك".

ودخل جند الشام شئ من التهيب والإشفاق مذ عرفوا أن عليا يقود جيشه بنفسه، فقد علموا أنه ما قاد جيشًا قط إلا نصره الله.

وقام عمرو بن العاص يشجع الناس ويهون عليهم أمر علي قائلاً: "إن أهل العراق قد تفرقوا عنه.. وإن أهل البصرة مخالفون لعلي بمن قتل منهم، وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل، وإنما سار علي بن أبي طالب في شرذمة قليلة، وقد قتل خليفتكم عثمان، والله الله في حقكم أن تضيعوه، وفي دمكم أن تطلُّوه (تهدرونه ولا تثأرون له)".

فتشجع أهل الشام.

وعقد معاوية لواء لعمرو، ولوا ءلابنيه عبد الله ومحمد، وسار معاوية بجيشه متجها إلى العراق.

وقضى الإمام علي أياما في النخيلة يدرب الجند، ويعلمهم ويعظهم بروائع الحكمة، من ذلك قوله:

"من خاف الله خافه كل شئ.. إذا تناهت إليكم أطراف النعم، فلا تنفروها بقلة الشكر.. إذا خبث الزمان كسدت الفضائل وضرت، ونفقت الرذائل ونفعت، وكان خوف

الموسر أشد من خوف المعسر.. إذا رغبت في المكارم فاجتنب المحارم.. إذا أيسر َتفكل الرجال رجالك، وإذا أعسرتَ أنكرك أهلك.. إذا تحركت صورة الشر ولم تظهر ولدت الفزع، فإذا ظهرت ولَّدت الألم، وإذا تحركت صورة الخير ولم تظهر ولَّدت الفرح، فإذا ظهرت ولَّدت اللذة.. إذا استشارك عدوك فجرد له النصيحة، لأنه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل في مودتك.. إذا أعجبك ما يتواصفه الناس من محاسنك، فانظر فيما بطن من مساوئك، ولتكن معرفتك بنفسك أوثق عندك من مدح المادحين لك.. إذا أردت أن تحمد فلا يظهر منك حرص على الحمد.. من تكلف ما لا يعنيه فاته ما يعنيه... لا تنظر إلى من قال.. لا تفرح بسقطة غيرك فإنك لا تدري ما تتصرف الأيام بك".

فلما اكتمل جيشه ترك النخيلة، وضم إليه عسكر المدائن، وسار بهم فلما وصل إلى الرقة أمر أهلها أن يصنعوا له جسرا من سفنهم ليعبر عليه الفرات إلى الشام، فأبوا، لصلاتهم بمعاوية، فأقسم الأشترَ: إن لم يعملوا جسرا لأمير المؤمنين أن يحاربهم ويستولي على أموالهم التي رشاهم بها

معاوية، فخافوه على أنفسهم وأموالهم، وأقاموا من السفن جسرا عبر عليه أمير المؤمنين.. وفي

طريقه إلى الشام فوجئ بزياد بن النضر وشُريح بمقدمة جيشه يسيران خلفه فقال الإمام ضاحكاً: "ما هذا. مقدمتي تسير من ورائي ..؟".

فأخبره زياد وشرُيح أنهما سبقاه في الطريق إلى الشام، فلما بلغا مدينة بالقرب من دمشق علما أن معاوية قادم في جيش من مائة وعشرين ألف مقاتل، فقالا: "لا خير في أن نلقي جنود الشام بمن معنا" وكانوا نحو اثني عشر ألفًا فحسب، فعادا وعبرا الفرات إلى أمير المؤمنين.

فاستحسن رأيهما، فسيرهما أمامه، حتى إذا أشرفا على موضع يقال له سور الروم لقيهما أبو الأعور السلمي في جند من أهل الشام، فأرسلا إلى أمير المؤمنين، فبعث إليهما الأشْتَر في عدة آلاف أمير على مقدمة الجيش وقال له: "إياك أن تبدأ بقتال إلا أن يبدأوك، حتى تلقاهم فتدعوهم وتسمع منهم، ولا يحملك بغضهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم مرة بعد مرة، واجعل على ميمنتك زيادا ًوعلى ميسرتك

شُريحا، ولا تدنُ منهم دنو من يريد أن ينشب الحرب، ولا

تتباعد عنهم تباعد من يهاب البأس. حتى أقدم إليك حثيث المسير في إثرك إن شاء الله تعالى".

وكتب إلى زياد وشرُيح يأمرهما بطاعة الأشتر، فهو أمير طليعة الجيش الآن..

وهكذا خرج الإمام من الكوفة بعد أن أقام بها سبعة عشر شهرا تجري خلالها الكتب بينه وبين معاوية، وهو ينصح معاوية وأهل الشام، بأن يلزموا الجماعة، وأن يتقوا الله في مهج المسلمين فيحقنوا الدماء ويدخلوا في السلم كافة.. ولكن بلا جدوى..

فكان لا بد مما ليس منه بد!

***

وخلال إقامته في الكوفة منذ رجب سنة ست وثلاثين للهجرة، حتى تركها زاحفاً بجنده إلى الشام، تعود أن يفقه الناس في الدين، وأن يجلس إليهم بعد كل صلاة يعلم ويفتي، ويقول لهم" اسألوني". وما قالها أحد غيره..

كما تعود أن يذهب إلى سوق المدينة فيشتري حاجته وحاجة أهل بيته من طعام ونحوه، فيأمر أهل السوق بتقوى الله، وصدق الحديث والعدل في الميزان.

اشترى ذات يوم قميصين، فقال لغلامه: "اختر واحد منهما".

ولقد تحدث إليه بعض الذين لحقوا به من أتقياء أهل الشام وقرائهم عن بذخ معاوية، وعن إغداقه على من يصطنعهم..

فزعموا أن على مائدة معاوية عشرة أصناف من الحلوى وحدها، وأنه يرتدي كل يوم حلّتين، وقد اتخذ لسيفه مقبضا من ذهب، وما هو إلا أحد الولاة، فما بال أمير المؤمنين لا يملك غير إزار قصير، من غزل أهل بيته، لا يغطي إلا نصف ساقه ..؟! وما بال طعامه أخشن طعام، وما باله يحمل سيفه على حبل من ليف، وقد اتخذ من حصير المسد سرير ملكه ..؟!

ياله من إمام للمتقين وإمام للمساكين!

وضحك الإمام وقال لهم: "أما واالله ما أحب الفقر، ولو تمثل لي الفقر رجلاً لقتلته. ولكني واالله لا أرزأ من أموالكم شيئًا".

ولاحظ أحد الحاضرين أن أمير المؤمنين يرتعد من البرد، وليس عليه ما يكفي من الثياب فسأله: " يا أمير المؤمنين إن

الله قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال نصيبا، فلم تفعل بنفسك هذا ..؟!".

فتبسم قائلاً: "إن مس الحصير كان يوجع جنب رسول الله ، وما شبع هو وأهله من طعام قط وقد حيزت له الدنيا وما فيها، وأنا على سنته.. ولقد سمعت رسول الله يقول: لا يحل للخليفة من بعدي من مال الله إلا قصعة يأكلها هو وأهله وقصعة يتصدق بها وحلة للصيف وحلة للشتاء! على أني أعيش على ما يأتيني من ينبع، وأستغني به عن بيت المال".

وسكت قليلاً ثم تنهد وقال: "كم من جامع ما سوف يتركه، ولعله من باطل جمعه، ومن حق منعه، أصاب به حراما، واحتمل به آثاما فناء بوزره وقدم على ربه آسفاً لاهثاً" خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين" صدق الله العظيم.

ألا إنه لا شرف أعلى من الإسلام، ولا عز أعز من التقوى، ولا معقل أحسن من الورع، ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا كنز أغنى من القناعة، ولا مال أذهب للفاقة من الرضا فالقوت، والرغبة مفتاح النَّصب، ومطية التعب ، والحرص والكبر والحسد دواعٍ إلى التفحم في الذنوب... ألا فاعلموا أن

الله تعالى فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما متع به غني، والله تعالى سائلهم عن ذلك".

ولكم عجب الذين سمعوه وسمعوا معاوية. إن معاوية يقرب الناس إليه بما يغدق من منصب أو مال، وبما يبذل من وعود، أما علي فيصارح الناس بمنهجه ولا يطَمعهم في عطاء لا يستحقونه، أوفى منصب لا يستأهلونه.. فالمال مال الله وهو أمين عليه، فهو يستنفر في الرجل تقاه، ويزهده في دنياه، ليستغني عن الناس بالله!

إنه ليتصدق بكل ماله الخاص، ولا يبقى لنفسه أو لأهله إلا ما يكفيهم لما هو ضروري لاستمرار الحياة من الطعام والكساء.. وحين خوطب في هذا قال كرم الله وجهه ورضي الله عنه: "الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك، فإن لم تأته أتاك، فلا تحمل هم سنتك على هم يومك! فإن تكن السد [illegible]َنةُ من عمرك فما تصنع بالهـ[illegible]ـم [illegible] ..؟! فإن الله تعالى سيؤتيك في كل غدٍ جديد ما قسم لك، وإن لم تكن السنة من عمرك فما تصنع بالهم لما ليس لك ..؟! لن يسبقك إلى رزقك طالب، ولن يغلبك عليه غالب، لن يبطئ عنك ما قدر لك.. ألا وإن من البلاء الفاقة، وأشد من الفاقة مرض البدن، وأشد من

مرض البدن مرض القلب، ألا وإن من النعم سعة المال، وأفضل من سعة المال صحة البدن، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب.. ومن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجه منها، ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي رزقه منها".

وألح عليه بعض أصحابه أن يأكل ما طاب ليقوى على القتال فهو لا يأكل إلا رغيفين من خبز الشعير كل يوم، وأن يكون أحسن الناس مظهرا فهو أمير المؤمنين وإمامهم!

فقال: "إنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر.. ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولُباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة..!! ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا يجد القرص (الرغيف) ولا عهد له بالشبع! أو أبيت مبطانًا (ممتلئ البطن) وحولي بطون غرثى (خالية) وأكباد حرى! ..؟.. أقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في خشونة العيش ..؟! فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها.. وما خلقت لأترك سدى، أو أجر حبل

الضلالة، أو أعتسف طريق المتاهة..!! وكأني بقائلكم يقول: "إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان" ..!! ألا وإن الشجرة البرية أصلب عوداً، والروائع الخضرة أرقّ جلودا، والنباتات البدوية أقوى وقودا وأقل خمودا. وأنا من رسول الله كالصنو من الصنو، والذراع من العضد: وقد كان رسول الله يأكل أخشن مما آكل ويلبس أخشن مما ألبس، وأنا على سنته حتى ألحق به".

"ألا وإن لكل إمام مأموما يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطِمريه (إزار ورداء)، ومن طعامه بقرصيه (رغيفيه). ألا إنكم لا تقدرون على ذلك

ولا أطالبكم به، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد، فو الله ما كنزت من دنياكم تبرا، ولا ادخرت من غنائمها وفراً، ولا حزت من أرضها شبرا.. بلى كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلته السماء، فشحت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس قوم آخرين، ونعم الحكم الله! وما أصنع بفدكٍ وغير فدك ..؟! إليك عني يا دنيا فحبلك على غاربك، قد انسللتُ من مخالبك، وأفلتُّ من حبائلك.. اغربي عني، فو الله

لا أذل لك فتستذليني، ولا أسلس لـلك فتقـوديني، وأيـم الله لأرو ضنفسي رياضة بالملح مأدوما.. أيأكل على مـا زاده فيهجع. فلا قرتْ إذن عينه! إذن أصبح بعد غمضها، حتـى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها، وتوسدت كفها، فـي معشر أسهر عيونهم خوف معادهم، وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم، وهمهمت بذكر ربهم شفاههم، وتقشعت بطـول استغفارهم ذنوبهم، {أولئك حزب الله ألا إن حـزب الله هـم المفلحون}".

ثم مضى يعظهم: "فاتقوا الله عباد الله وبـادروا آجـالكم بأعمالكم، وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم.. وتـزودوا من الدنيا في الدنيا ما تحفظون به أنفسكم غدا، فيا لها حسرة على كل ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة وأن تؤديه أيامه إلى شقوة! نسأل الله سبحانه أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطـره نعمة، ولا تقصر به عن طاعة ربه غاية".

وبكى.. وبكى معه بعض أصحابه مما يسمعون، فنظـر إليهم الإمام، ومازالت في عينيه الدموع، فرأى مـن خـلال الدمع صاحبا له قد بنى دارا كبيرة فقال له: "لقد اتخذت دارا واسعة، فما تصنع بهذه الدار في الدنيا أما أنـت إليهـا فـي

الآخرة كنت أحوج". فأجابه صاحبه في حياء وندم: "بلى يا أمير المؤمنين". قال الإمام: "إن شئت بلغت بها الآخرة: تقرى بها الضيف، وتصل فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها".

وقد حسب بعض المستمعين أنه كرم الله وجهه، يدعوهم إلى الخروج عما أحل الله من متاع الدنيا، فترك أحدهم أهله وبنيه، ولبس مرقعة واعتكف للعبادة، فدعاه الإمام وقال له: "أما استحييت من أهلك ..؟! أما رحمت ولدك ! ..؟ أترى أن الله أحل الطيبات وهو يكره أخذك منها. لقد علمتكم أن للمؤمن ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يرم معاشه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل".

فدع التواضع في الثياب تخوفًا فالله يعلم ما تُجِن وتكتم

فرثاث ثوبك لا يزيدك زلفةً عند الإلهِ وأنت عبدٌ مجرمُ

وبهاءُ ثوبك لا يضرك بعد أن تخشَى الإله وتتقي ما يحرمُ

فاعلم رحمك الله أنه لا بأس بالغنى لمن اتقى، واعلم أن الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك، وألَّا يكون حديثك فضل (زيادة) على عملك، وأن

تتقي الله في حديث غيرك.... فلا تعتزل الناس، فلا رهبانية في الإسلام... وتدبر قول الرسول ❐: رهبانية أمتي الجهاد. وتعلَّم وعلِّم غيرك، فما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا. وكفاك أدبا لنفسك اجتناب ما تكرهه لغيرك. فخذ من الدنيا ما أتاك، وتول عما تولى عنك. أو ليس الله تعالى يقول: {والأرض وضعها للأنام، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام} ..؟ أو ليس الله يقول: {مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان}. إلى قوله تعالى: {يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ..؟}. وقد قال تعالى: {وأما بنعمة ربك فحدث}. " فظل الرجل صامتًا لا يرد على الإمام. فقال: "تكلم يا رجل ليعرف الناس من أنت، فإن المرء مخبوء تحت لسانه." فقال: الرجل: "يا أمير المؤمنين تنهاني عن العزوف عن زينة الحياة التي أحل الله لعباده والطيبات من الرزق، فعلام اقتصرت في مطعمك على الطعام الغليظ وفي ملبسك على الخشونة ..؟ وتركت قصر الإمارة ونزلت منزل أفقر أهل الكوفة ..؟!". ..؟

فضحك الإمام كرم الله وجهه، وقال: "إن الله الذي جعلني إماما لخلقه فرض علي التقدير في نفسي ومطعمي ومشربي

وملبسي ومسكني كضعفاء الناس، لأن الله أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ليقتدي بهم الغني، ولا يزري بالفقير فقره. فو الله ما ضرب الله عباده بسوط أوجع من الفقر، ولو تمثل لي الفقر رجلاً لقتلته، فالفقر هو الموت الأكبر، وإني لأعرف أن الفقر غربة في الوطن، والغني وطن في الغربة، ولكني سمعت رسول الله ❐ يقول: والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها. والله لقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها، ولقد قال لي قائل: "ألا تنبذها عنك ..؟" فقلت له: "اغرب عني. فعند الصباح يحمد القوم مصفدا، أحب إلى من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالما لبعض العباد أو غاضبا لشئ من الحطام. وإن لي في رسول الله ❐ لأسوة، إذ قبضت عنه أطراف الدنيا، وفطم عن رضاعها، وزوى عن زخارفها، وكان يلبس ويطعم أخشن مما ألبس وأطعم. وإن شئت قلت في عيسى ابن مريم عليه السلام، فلقد كان يتوسد الحجر، ويلبس الخشن، ويأكل الطعام الغليظ، وكان سراجه بالليل القمر... ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذله، دابته رجلاه، وخادمه يداه".

***

وجاءه بعض الموالي من أهل الكوفة يشكون الولاة وأعوانهم، فقال لهم: "وأين علماؤكم ..؟! لقد أخذ الله على العلماء ألا يقروا ظالما ولا يسكتوا عن مظلوم"... ثم

سألهم عن أعوان الولاة، فعلم أن الولاة لا يحاسبونهم فقال: "يجب على الوالي أن يتعهد أموره، ويتفقد أعوانه، حتى لا يخفى عليه إحسان محسن ولا إساءة مسيء، ثم لا يترك أحدهما بغير جزاء، فإنه إذا ترك أعوانه تهاون المحسن واجترأ المسيء، وفسد الأمر".

فقال أحد الموالي: "سأل الإسكندر حكماء بابل أيها أبلغ عندكم الشجاعة أم العدل ..؟" فقالوا: "إذا استعملنا العدل لم نحتج للشجاعة".

فقال الإمام: "يجب على السلطان أن يلزم العدل في ظاهر أفعاله لإقامة أمر سلطانه، وفي باطن ضميره لإقامة أمر دينه، فإذا فسدت السياسة ذهب السلطان، ومدار السياسة كلها على العدل والإنصاف، فلا يقوم سلطان لأهل الإيمان والكفر إلا بهما. والإمام العادل كالقلب بين الجوارح تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده".

فقال رجل آخر من الموالي: "قال سقراط: ينبوع فرح العالم الملك العادل، وينبوع حزنهم الملك الجائر".

فقال الإمام ضاحكًا: "حسبكم دلالة على فضيلة العدل أن الجور الذي هو ضده لا يقوم إلا به، وذلك أن اللصوص إذا أخذوا الأمور واقتسموها بينهم، احتاجوا إلى استعمال العدل في اقتسامهم، وإلا أضر ذلك بهم!".

فقال رجل ثالث من الموالي: "جاء في كتب الهند: رأس الحزم للملك معرفته بأصحابه، وإنزالهم منازلهم، واتهام بعضهم على بعض".

وقال رجل رابع من الموالي: قال أحد حكمائنا ينصح كسرى أنو شروان: "كلمة منك تسفك دما، وأخرى تحقن دما، وسيفك مسلول على من سخطت عليه، ورضاك بركة مستفادة على من رضيت. وما نقول لك إلا هذا يا أمير المؤمنين، فاختر لولايتك أحد رجلين إما أن يكون وضيعا فرفعته، أو صاحب شرف مهمل فاصطنعته".

وعجب بعض العرب من أصحاب الإمام فصاح: "ويلكم! أتعلمون أمير المؤمنين وهو باب مدينة العلم".

فنصح الإمام أصحابه بالحلم، وطلب منهم أن يجعلوا الحكمة ضالتهم، فقد علمهم الرسول أن الحكمة ضالة المؤمن وأن عليه أن ينشدها... وقال لمن أنكر على الموالي أن يشيروا على أمير المؤمنين: "لا يقذفن في روعك أنك إذا استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأي غيرك، فتنقطع بذلك عن المشورة، فإنك لا تريد الفخر، ولكن الانتفاع".

ثم التفت الإمام إلى أصحابه قائلاً: "ما هلك امرؤ عن مشورة، ونعم المؤازرة المشاورة، ومن استقبل وجوه الآراء عرف مواضع الخطأ. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ما ندم من استشار). فاعلموا أن الخطأ مع الاستشارة خير من الصواب مع الاستبداد. فتَعـ ﺫُوا من سكرات الاستبداد بصحوات الاستشارة، واعلموا أن الرأي يسد ثلم السيف، والسيف لا يسد ثلم الرأي. فلا يرفع أحدكم صوته بغير حجة على أحد من الموالي، واعلموا أن الظفر لمن احتج، لا لمن لج".

ثم التفت إلى أحد الذين صاحوا في وجه الموالي الأربعة وقال:" العقل حسام قاطع، والحلم غطاء ساتر، فقابل هواك

بعقلك، واستر خلل خلقك بحلمك. ولا يتعصب أحدكم لقبيلته أو لقومه من العرب، فقد نظرت فما وجدت أحدا من العالمين ولا يتعصب أحدكم لقبيلته أو لقومه من العرب، فقد نظرت فما وجدت أحدا من العالمين يتعصب لشيئ إلا عن علة تحتمل تمويه الجهلاء، أو حجة من عقول السفهاء".

***

وشرع الإمام يكتب إلى عماله الذين اشتكاهم الموالي، فكتب لأحدهم:

"اتق الله، ولا تبغ على أهل القبلة، ولا تظلم أهل الذمة، فإن الله لا يحب المتكبرين، واعلم أن من آذى إنجيليا فقد آذاني".

وكتب لوالٍ آخر: "أما بعد، فإن دهاقين بلدك شكوا منك غلظةً وقسوةً واحتقارا وجفوة... ولهم في ذمتنا عهد، فامزج لهم بين التقريب والإدناء، والإبعاد والإقصاء إن شاء الله".

وكتب لثالث: "بلغني أنك تعمر دنياك بآخرتك، وتصل عشيرتك بقطيعة دينك، لئن كان الذي بلغني عنك حقًا، لجمل أهلك وشعث نعلك خير منك، ومن كان بصفاتك فليس بأهل أن يسد به ثغر، أو ينفذ به أمر، أو يعلى له قدر، أو يشرك

في أمانة، أو يؤمن على جباية، فأقبل إلي حين يصل إليك كتابي هذا إن شاء الله".

وكتب لرابع: "بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك، وأغضبت إمامك، أنك تقسم في المسلمين الذي حازته رماحهم وخيولهم، وأريقت عليه دماؤهم، فيمن اعتامك (اختارك) من أعراب قومك... لئن كان ذلك حقًا، لتجدن بك علي هوانًا، ولتخفن عندي ميزانًا. فلا تستهن بحق ربك، ولا تصلح دنياك بمحق آخرتك، فتكون من الأخسرين أعمالاً".

وكتب لعامل غيره: "بلغني أنك جردت الأرض، فأخذت ما تحت قدميك، وأكلت ما تحت يديك، فارفع إلي حسابك".

وكتب لجميع عماله على أهل البلاد المفتوحة (أهل البلاد المفتوحة هم الموالي): "انظروا في حال تشتتهم وتفرقهم، ليالي كانت الملوك والأكاسرة والأباطرة أربابا لهم فتركوهم عالة مساكين!".

وكتب إلى أحد عماله: "أترجو أن يعطيك الله أجر المتواضعين وأنت من المتكبرين ..؟!، أتطمع وأنت متمرغ في النعيم، تستأثر فيه على الجار المسكين والضعيف الفقير والأرملة واليتيم، لأن يجب لك أجر الصالحين المتصدقين

..؟ فماذا لو أكلت طعامك مرة وأطعمت الفقير الجائع مرة ..؟! إنما المرء يجزى بما أسلف، والسلام".

وكتب لآخر: "انظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله، فاصرفه إلى من قبلك (عندك) من ذوي العيال والمجاعة، مصيبا به مواضع الفاقة والخلاّت (الحاجات) وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيمن قِبلنَا".

وكتب لغيره: "إن عملك ليس لك بطعمة، ولكنه في عنقك أمانة، وأنت مسترعى لمن فوقك، ليس لك أن تفتات في رعية، وفي يديك مال من مال الله عز وجل، وأنت من خزانة حتى تسلمه إلي ".

وقال لأصحابه: "اعلموا أن الولاة هم خزان الرعية، ووكلاء الأمة، وسفراء الأئمة" وقال: "إن الوفاء توأم الصدق، ولا أعلم جنة أوقى منه، وما يعذر من علم كيف المرجع! ولقد أصبحت في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيسا (عقلاً)، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة. ما لهم – قاتلهم الله – قد يرى الحو لُ القُلّب وجه الحيلة ودونه مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا ورع له!".

فقال الذين جاءوا من الشام أن معاوية قد اصطنع أهل الشام جميعا، وكلهم حديث عهد بالإسلام، وكلهم لا يعرف إلا معاوية، وما يغدقه معاوية، ثم إنه ليصطنع رؤساء القبائل العربية، فيجزل لهم في العطاء أضعافًا مضاعفة، من أجل ذلك نكث الولاة الذين خافوا الإمام على ما كسبوه بغير حق وفروا إلى معاوية!

فقال أصحاب الإمام له: "يا أمير المؤمنين أعطِ هذه الأموال، وفَضِل هؤلاء الأشراف من العرب ومن قريش على الموالي والعجم، واستَدِمْ من تخاف خلافه من الناس".

فقال لهم متعجبا منكرا: "أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه ..؟! لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله ..؟! ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا، ويضعه في الآخرة، ويكرمه في الناس، ويهينه عند الله، ولم يضع امرؤ ماله في غير حقه، ولا عند غير أهله إلا حرمه الله في الناس، ويهينه عند الله، ولم يضع امرؤ ماله في غير حقه، ولا عند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم وكان لغيره ودهم، فإن زلَّتْ به النعل يوما فاحتاج إلى خدمتهم فشر خدين

وألأم خليل!. إنه لا يسعنا أن نعطي أحدا أكثر من حقه... إن هذا المال ليس لي وليس لكم. ولكنه مال الله يقسم بين الناس بالسوية فلا فضل لأحد على أحد".

فقال أحدهم: "يا أمير المؤمنين أنت تنصف الوضيع من الشريف، فليس للشريف عندك فضل منزلة على الوضيع، فضجت طائفة ممن معك من الحق إذ عموا به، واغتموا من العدل إذ صاروا فيه، ورأوا صنائع معاوية من أهل الغنى فباعوا أنفسهم وأكثرهم يشتري الباطل. فإن تبذل المال يمل إليك أعناق الرجال ويستخلص ودهم".

فرد الإمام: "أما ما ذكرت من علمنا ومسيرتنا بالعدل فإن الله عز وجل يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾. وأنا من أن أكون مقصرا فيما ذكرت أخوف. وأما ما ذكرت أن الحق ثقل عليهم ففارقونا، فعلم الله أنهم لم يفارقونا عن جور، ولا لجأوا إذا فارقونا إلى عدل! وأما ما ذكرت من بذل الأموال واصطناع الرجال فإنه لا يسعنا أن نؤتي أحدا من المال فوق حقه".

***

وقدم عليه أخوه عقيل بن أبي طالب من المدينة فقال له: "ما أقدمك يا أخي ..؟" قال: "تأخر العطاء عنا، وغلاء السعر ببلدنا، وركبني دين عظيم، فجئت لتصلني".

فقال علي: "والله ما لي مما ترى شيئًا إلا عطائي، فإذا خرج فهو لك".

قال عقيل: "أشخوصي من الحجاز إليك من أجل عطائك ..؟! وماذا يبلغ مني عطاؤك! ..؟ وما يدفع من حاجتي ..؟".

فقال الإمام: "هل تعلم لي مالا غيره ..؟ أم تريد أن يحرقني الله في نار جهنم في صلتك بأموال المسلمين ..؟ وما بقى من نفقتنا في ينبع غير دراهم معدودة. والله يا أخي إني لأستحي من الله أن يكون ذنب أعظم من عفوي أو جهل أعظم من حلمي، أو عورة لا يواريها ستري، أو خلة لا يسدها جودي".

فلما ألح عقيل عليه، قال لرجل: "خذ بيد أخي عقيل وانطلق به إلى حوانيت أهل السوق، فقل له: دق هذه الأقفال، وخذ ما في هذه الحوانيت".

فقال عقيل: "أتريد أن تتخذني سارقًا! ..؟ ".

قال الإمام "وأنت تريد أن تتخذني سارقًا! ..؟ أن آخذ من أموال المسلمين، فأعطيكها دونهم".

فقال: "والله لأخرجن إلى رجل هو أوصل لي منك. لآتيـ[illegible]ـن معاوية".

فقال الإمام: "أنت وذاك. راشدا مهديا!".

فلما قدم على معاوية، رحب به وقال: "مرحبا وأهلاً بك يا عقيل بن أبي طالب. ما أقدمك على [illegible]! ..؟".

قال: "قدمت عليك لدين عظيم ركبني، فخرجت إلى أخي ليصلني فزعم أنه ليس له مما يلي إلا عطاؤه، فلم يقع ذلك مني موقـ[illegible]ـعه ولم يسد مني مسدا، فأخبرته أني سأخرج إلى رجل هو أوصل منه لي، فجئتك".

فازداد معاوية فيه رغبة، وقال للناس: "يا أهل الشام هذا سيد قريش وابن سيدها، عرف الذي فيه أخوه من الغواية والضلالة، فجاءني، ولكني أزعم أن جميع ما تحت يدي لي، فما أعطيت فقربة إلى الله، وما أمسكت فلا جناح لي عليه".

ثم قال لعقيل: "يا عقيل بن أبي طالب: هذه مائة ألف تقضي بها ديونك، ومائة ألف تصل بها رحمك، ومائة ألف توسع بها على نفسك".

فوقف عقيل فقال: "صدقت، لقد خرجت من عند أخي على هذا القول، وقد عرفت من في عسكره، لم أفقد واالله رجلاً من أهل بدر ولا المهاجرين والأنصار، ولا واالله ما رأيت في معسكر معاوية رجلاً من أصحاب النبي ❐ ".

فقال معاوية: "يا أهل الشام. أعظم الناس من قريش عليكم حقًا ابن عم رسول االله ❐ وسيد قريش، وها هو ذا تبرأ مما عمله أخوه!".

وضج أهل الشام استحسانًا لما يقوله معاوية!

وعجب عقيل، كيف يفقهون وكيف يسومهم معاوية! ..؟

إنهم ليلغون عقولهم وأسماعهم وأبصارهم، ولا يعون أو يفقهون أو يسمعون أو يبصرون إلا ما يريده معاوية!

فوقف عقيل يقول: "أيها الناس، إني أردت أخي عليا على دينه فاختار دينه، وإني أردت معاوية على دينه، فاختارني على دينه"...

وشعر معاوية أن بعض رؤساء العرب قد فهموا عن عقيل، وأنهم قد يشرحون لسواهم من غير العرب من أهل الشام، ففض الناس، وأمرهم أن يتجهزوا للزحف إلى العراق،

ليغنموا أرضه الشاسعة الخصبة وأمواله الطائلة ونساءه الحسان..!!

ووجد معاوية أحد رؤساء العرب يسخر من كل هذا، وينظر إلى معاوية وعمرو شزرا فسأله: "لم أحببت عليا علينا ..؟" فقال: "لثلاث خصال: حلمه إذا غضب، وصدقه إذا قال، وعدله إذا حكم".

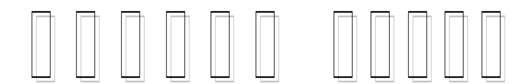
وكان عليه السلام قد تعود أن يأخذ الجزية والخراج (الضرائب) من أهل كل صنعة وعمل، حتى ليأخذ من أهل الإبر والمال والخيوط والحبال ثم يقسمه بين الناس. وكان لا يدع في بيت المال مالا يبيت فيه، بل يقسمه إلى أن يغلبه مشغل فيصبح إليه. وكان يكنس بيت المال بعد أن يفرغ من توزيع ما فيه، ويتخذه مسجدا يصلي فيه.

وقد كانت له بالكوفة امرأتان، فإذا كان يوم هذه اشترى لحما بنصف درهم، وإذا كان يوم هذه اشترى لحما بنصف درهم. وكان ينفق هذه النفقة من شئ يأتيه من الحجاز.

وكان يوصي كل عامل يوليه على الخراج: "لا تضربن رجلاً سوطا في جباية درهم، ولا تتبعن لهم رزقًا، ولا كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعملون عليها، ولا تقيمن رجلاً

قائما في طلب درهم" فقال له أحد عماله: " يا أمير المؤمنين إذن ارجع إليك كما ذهبت من عندك ..؟".

قال الإمام: "أمرنا نأخذ منهم الفضل (ما زاد عن الحاجة)".



مضى الإمام بجيشه في طريقه إلى الشام، حتى بلغوا مدينة بها آثار كسرى، فتمثل أحد أصحاب الإمام بقول الشاعر القديم:

جرتْ الرياح على مكانِ ديارهم فكأنَّما كانوا على ميعادِ

فقال له الإمام: "أفلا تمثلت بقول الله عز وجل: {كم تركوا من جنات وعيون* وزروع ومقام كريم* ونعمة كانوا فيها فاكهين* كذلك وأورثناها قوما آخرين* فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين}، إن هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا موروثين. إن هؤلاء لم يشكروا النعمة فسلبوا دنياهم بالمعصية. إياكم وكفر النعم لا تحل بكم النقم".

ثم أمر رجاله أن ينزلوا ليستريحوا على ربوة تكسوها الخضرة، وتظللها الأشجار الباسقة الوارفة.

وبعد أن استراحوا، استأنفوا السير حتـى مـروا بمدينـة الأنبار، فخف وجهاء المدينة وأعيانها إلى استقبال الإمـام، يسوقون دواب مطهمة حملوها أشهى الطعام هديـة للإمـام وجنوده.

فسألهم الإمام:" ما أردتم بهذا الذي صنعتم ..؟ " قالوا: "أما هذا الذي صنعنا فهو خلق منا نعظم به الأمـراء: فالمطايـا هدية لك، وقد صنعنا لك وللمسلمين طعاما، وهيأنا لـدوابكم علفاً كثيرا". قال: " أما هذا الذي زعمتم أنــه مـنكم خلـق تعظمون به المراء فو الله ما ينفع هذا الأمراء! وإنكم لتشقون به على أنفسكم وأبدانكم، فلا تعودوا له. وأما دوابكم هذه فإن أحببتم أن نأخذها منكم فنحسبها من خراجكم أخذناها مـنكم.وأما طعامكم الذي صنعتم لنا فإننا نكره أن نأكل من طعامكم شيئًا إلى بثمن". قالوا: "يا أمير المؤمنين نحن نقُومـه فنقبـل ثمنه". قال: "وإن غصبكم أحد فأعلمونا".

ثم مضى عنهم وهم يقسمون أنهم ما شعروا بالأمن قط في عهد ملوكهم الغابرين، كما يشعرون به الآن في ظل ظليـل من حكم الإسلام، وحكمة الإمام...

وسار الإمام بجيشه حتى جهدوا، فأمر بأن يستريحوا، ويعلفوا الخيل والدواب ويسقوها...

وأفضى الإمام إلى أهل الرأي بأنه يتمنى على الله أن يثوب أهل الشام إلى الحق، فتحقن الدماء!

فقال بعض أصحابه: "يا أمير المؤمنين اكتب إلى معاوية ومن معه من قومك كتابا تدعوهم فيه إليك، وتأمرهم بترك ما هم فيه من الخطأ، فإن الحجة لن تزداد عليهم بذلك إلا عظما".

فكتب إلى معاوية كتابا جاء فيه:" .... لا ينبغي لمن كان له عقل ألا يجهل قدره، ولا أن يعدو طوره، ولا أن يشقي نفسه بالتماس ما ليس له. ثم إن أولى الناس بأمر هذه الأمة قديما وحديثًا، أقربها من رسول الله ❐ وأعلمها بالكتاب وأفقهها في الدين، وأولها إسلاما وأفضلها جهادا، وأشدها بما تحمله الرعية من أمورها اضطلاعا، فاتقوا الله الذي إليه ترجعون، ولا تلبسوا الحق بالباطل وأنتم تعلمون. واعلموا أن خيار عباد الله هم الذين يعملون بما يعلمون، وأن شرارهم الجهال الذين ينازعون بالجهل أهل العلم، فإن للعالم بعلمه فضلا، وإن الجاهل لن يزداد بمنازعة العالم إلى جهلاً!".

"ألا وإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وحقن دماء هذه الأمة، فإن قبلتم أصبتم رشدكم، واهتديتم لحظكم، وإن أبيتم إلا الفرقة وشق عصا هذه الأمة فلن تزدادوا من الله إلى بعدا، ولن يزداد الرب عليكم إلا سخطًا".

فرد عليه معاوية كما رد من قبل متحديا: " أما بعد فإنه:

ليس بيني وبين قيسٍ عتاب   غير طعنِ الكلى وضربِ الهام

فقال الإمام: "﴿ **من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ صدق الله العظيم".

وأذن للصلاة، فأم الناس وصلى ركعتين. وأمرهم أن يقصروا في الصلاة فهم على سفر. فلما فرغ من الصلاة قال: "سبحان ذي الطول والنعم. سبحان ذي القدرة والأفضال، أسأله الرضا بقضائه والعمل بطاعته، والإنابة إلى أمره، فإنه سميع الدعاء".

واستوى على ظهر جواده، وقرأ الآية الكريمة التي تعود أن يقرأها كلما ركب: ﴿ **سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين** وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾.

*

ومضى بجنده في طريقه إلى الشام حتى إذا غابت الشمس، ودخل الليل، صلى بالناس المغرب والعشاء جمعا وقصرا.

وعندما انتهى من صلاته قال: "الحمد لله الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل. الحمد لله كلما وقب ليل وغسق".

ثم دعا الله تعالى بدعاء الرسول ❐ في السفر: "اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، والحيرة بعد اليقين، وسوء المنظر في الأهل والمال والولد. اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل".

وأضاف الإمام: "ولا يجمعها غيرك، لأن المستخلف لا يكون مستصحبا، والمستصحب لا يكون مستخلفاً". وقضى وجنده الليل حتى إذا تنفس الصبح صلى بهم.

وراعه جمال المنظر من حوله... الماء، والخضرة، وغابات النخيل... فقال: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾. صدق الله العظيم.

وتابع السير فاستقبله أهل قرية فضيفوه، فتأبى، فقال لــه يزيد بن قيس: "يا أمير المؤمنين. هؤلاء قومك. من طعامهم فاطعم، ومن شرابهم فاشرب".

وسأله رجل من أهل القرية عن وضـوء رسـول الله ❐ فطلب منهم إناء كالإبريق... وملأ نصـفه بالمـاء، فتوضـأ الإمام ثلاثا ثلاثا، ومسح برأسه واحدة وقال: "هكـذا رأيـت رسول الله يتوضأ".

***

وتوافى إليه جند كثير حتى بلغت عدة جيش الإمام نحـو تسعين ألفا، أغلبهم من أهل بـدر والمهـاجرين والأنصـار والتابعين بإحسان، والمساكين.

أما جيش معاوية فقد بلغ مائة وعشرين ألف مقاتل، سبق بهم عليا إلى صِفّين، نزلوا في أرض رحيبة واسـعة فيحـاء على شاطئ الفرات، فملكوا شريعة الماء حيث يستطيعون أن يشربوا ويسقوا الدواب.

وجاء على بجيشه فأنزلهم تجاه جيش معاوية...

فلما استراحوا قام فيهم خطيبا، فقال: "إنه سـيأتي علـيكم بعدي زمان ليس فيه شئ أخفى من الحق، ولا أظهـر مـن

الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله، وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، ولا أنفق (أروج) منه إذا حرف عن مواضعه، ولا شئ أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر، فقد نبذ الكتاب حملته، وتناساه حفظته. فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيان. فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم، ومعهم وليسا معهم، لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا، فاجتمع القوم على الفرقة، وافترقوا على الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب،والكتاب ليس إمامهم، فلم يبق عندهم منه إلا اسمه، ولا يعرفون إلى خطه، ومن قبل ما مثلوا بالصالحين كل مثلة، وسموا صدقهم على الله فرية، وجعلوا في الحسنة عقوبة السيئة... فلا تستعجلوا ما يجيء به الغد، فكم من مستعجل بما إن أدركه ود أنه لم يدركه وما أقرب اليوم من تباشير غدا!".

فقال له بعض أصحابه: "لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب". فضحك وقال: "ليس هو بعلم الغيب، وإنما هو علم من ذي علم. علم الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، وما سوى

ذلك فعلم علَّمه الله نبيه، فعلمنيه، ودعا لي بأن يعيه صدري، وتنضم عليه جوانحي".

كانت شريعة الماء التي ملكها معاوية هي المورد الوحيد على النهر للماء. ولقد جعل معاوية عليها حرسا كبيرا بقيادة أبي الأعور، وأمرهم أن يمنعوا الماء عليا وجنوده. وجاء جنود علي□ يشربون فصدهم جيش معاوية، وشرعوا في وجوههم الرماح والسيوف، ورشقوهم بالنبال..!!

فقال له عمرو بن العاص: "يا معاوية خلِّ بين القوم وبين الماء فإنهم لن يعطشوا وأنت ريان. ولكن بغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم".

فأبى معاوية...

فقال عمرو: "يا معاوية ما ظنك بالقوم إن منعوك الماء غدا كما منعتم اليوم ..؟". قال: "إن عليا لا يستحل منا ما نستحل منه".

ولما أحس جند الإمام حر□ العطش شكوا إليه، وطلبوا منه أن يأذن لهم بقتال جند معاوية على الماء.

فأرسل الإمام إلى معاوية من يقول له: "إنا سرنا مسيرنا هذا ونحن نكره قتالكم قبل الإعذار إليكم، فقدمت إلينا خيلك

ورجلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك، وبدأتنا بالقتال! ونحن من رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك. وهذه أخرى قد فعلتموها، منعتم الناس من الماء، والناس غير منتهين أو يشربوا، فابعث إلى أصحابك فليخلوا بين الناس والماء، وليكفوا لننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له. فإن أردت أن نترك ما جئنا له ونقتتل على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا".

فقام رجل من أهل الشام فقال: " أما والله لو سبقكم علي إلى الماء لسقاكم منه، أما تعلمون أن فيهم العبد والأمة والأجير والضعيف ومن لا ذنب له ..؟ فهذا أول الجور! يا معاوية لقد شجعت الجبان، وبصرت المرتاب، وحملت من لا يريد قتالك على كتفيك".

وكان الرجل صديقًا لعمرو فقال له معاوية: " يا عمرو اكفني صديقك!".

وأمر الإمام جنوده أن يحاربوا على الماء... فاندفع بهم الأشْتَر والإمام يدعو:

"اللهم إن أظهرتنا على عدونا فجنبنا البغي، وسددنا للحق، وإن أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة، واعصم بقية أصحابي من الفتنة".

وحمل جند الإمام حملة ضارية فانهزم جند الشام عند الماء، وصار الماء في أيدي جند الإمام، فقال رجال منهم: "واالله لا نسقيهم".

فلما بلغ ذلك الإمام أرسل إلى رجاله أمره: "خذوا حاجتكم من الماء وارجعوا إلى عسكركم، وخلُّوا بينهم وبين الماء، فإن االله قد نصركم ببغيهم وظلمهم".

وأرسل إلى معاوية: "إنا لا نجازيك بصنعك! هلم إلى الماء فنحن وأنتم فيه سواء".

وشعر معاوية بالخجل. وتغيظ عمرو على معاوية، فقال له معاوية: "يا عمرو. كان فلتة من رأيي أعقبتني بخطئها" ثم التفت إلى بطانته وقال: "الله در عمرو! ما عصيته في أمر قط إلى أخطأت فيه!".

وأخذ الإمام يعظ أصحابه فقال:

"إن هذه القلوب أوعية، وخيرها أوعاها، فاحفظوا عني ما أقول لكم: الناس ثلاثة: فعالِم رباني، ومتعلِّم على سبيل النجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق".

***

وبعث معاوية إلى الإمام رجالاً ثلاثة ممن عرفوا بسلاطة اللسان وانعدام الحياء، وأمرهم أن يغلظوا للإمام. قال قائلهم للإمام: "أما بعد فإن عثمان كان خليفة مهديا، يعمل بكتاب الله، وينيب إلى أمره، فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته، فعلوتم عليه فقتلتموه، فادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمت أنك لم تقتله. ثم اعتزل أمر الناس، فيكون أمرهم شورى بينهم يولونه من أجمعوا عليه".

وعجب الإمام من جسارة الرجل على الحق، وسفاهته..!!

وأدرك أن معاوية اصطفاه سفيرا عنه لخصال فيه يريدها معاوية في هذا الموطن..!!

لقد أحسن معاوية اختيار من يناسب المهمة حقًا...!

وتبسم الإمام ضاحكًا من قول الرجل، وقال له مستخفًا به: "ما أنت لا أُمّ لك، والولاية والعزل والدخول في هذا الأمر..؟! اسكت! لست هنالك ولا بأهل له".

فقال الرجل: "والله لترينّي بحيث تكره!" فقال الإمام ساخرا: "وما أنت لا أبقى الله عليك إن أبقيت علينا ..؟! اذهب فَصَوِّب وصَعِّد ما بدا لك".

فقال الرجل الثاني من وفد معاوية: "ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي فهل عندك جواب غير هذا ..؟".

قال الإمام: "نعم. عندي جواب غيره".

ثم حمد الله وأثنى عليه وقال: "أما بعد، فإن الله تعالى بعث محمدا بالحق، فأنقذ به من الضلالة والهلكة، وجمع به من الفرقة، ثم قبضه الله إليه، فاستخلف الناس أبا بكر، ثم استخلف أبو بكر عمر، فأحسنا السيرة وعدلا في الأمة... وولى الناس عثمان، فعمل بأشياء عابها الناس، فساروا إليه فقتلوه، ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمورهم، فقالوا لي: بايع، فأبيت، فقالوا: بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك، وإنا نخاف إن لم تفعل أن يتفرق الناس".

"فبايعتهم، فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني! وخلاف معاوية الذي لم يجعل الله عز وجل له سابقة في الدين، ولا سلف صدق في الإسلام..!!. فهو طليق ابن طليق. وحزب من الأحزاب، لم يزل حربا لله ولرسوله هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين، ولا عجب إلا انقيادكم له! أتتركون آل بيت نبيكم الذي لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خوفهم ..؟! ألا إني لأدعوكم إلى كتاب الله، وسنة نبيه، وإماتة الباطل، وإحياء

الحق، ومعالم الدين. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين".

فانصرفوا فشيعهم الإمام بنظرات مشفقة وهو يتلو الآية الكريمة: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

ثم قال لأصحابه: "لا يكن هؤلاء في الجد في ضلالهم أجد منكم في الجد في حقكم".

***

في جيش علي وجيش معاوية كثير من القراء أكثرهم من أهل التزمت والتطرف في أمور الدين...

وذات صباح خرج القراء من جيش علي، والقراء من معسكر معاوية فتنادوا... فالتقوا يتشاورون في أمر الحرب، فبلغ عددهم من المعسكرين نحو ثلاثين ألفًا.

وخلص رؤساء القراء نجيا، فرأوا أن يسعوا في الصلح بين علي ومعاوية ونصبوا عليهم أربعة رؤساء يتحدثون

عنـهم...

واغتم معاوية غما شديدا حين رأى قراء الشام يخرجون ليلتقوا بالقراء في جيش علي، وخشي أن يميلوا إلى علي، وما من أحد في جيش معاوية غيرهم يعتمد عليه في دعواه أنه بحكم القرآن ولي دم عثمان، فله سلطان بحكم الشرع..!!

وذهب رؤساء القراء إلى معاوية فقالوا له: " يا معاوية" فدهش معاوية وامتعض لأنهم لم ينادوه بلقب الخلافة: أمير المؤمنين. كما تعود معظم أهل الشام منذ حين.

قالوا في حسم: "يا معاوية ما الذي تطلب ..؟" قال: "أطلب بدم عثمان" قالوا، "ممن تطلب بدم عثمان ..؟" قال: "من علي" قالوا: "وعلي عليه السلام قتله ..؟" قال: "نعم قتله وآوى قاتليه".

فأتوا عليا فقالوا: "يا أمير المؤمنين إن معاوية يزعم أنك قتلت عثمان" قال: "كذب. لم أقتله" فعادوا إلى معاوية يقولون: " علي عليه السلام لم يقتله". فقال معاوية: "إن لم يكن قتله بيده فقد أمر ومالأ" فانصرفوا عنه إلى الإمام علي فقالوا: "إن معاوية يزعم أنك إن لم تكن قتلت فقد أمرت ومالأت على قتل عثمان" قال: "اللهم كذب" فذهبوا إلى معاوية يقولون: " إن عليا عليه السلام يزعم أنه لم يفعل" قال معاوية: "إن كان

صادقا فليمكنَّا من قتلة عثمان، فإنهم في عسكره وجنده، وأصحابه وعضده" فقالوا للإمام: "إن معاوية يقول لك إن كنت صادقا فادفع إلينا قتلة عثمان أو أمكِنَّا منهم" قال علي: "تأول القوم على عثمان القرآن ووقعت الفرقة وقتلوه في سلطانه فليس عليهم قوَد (قصاص)".

فانحاز القراء إلى رأي علي، وأخبروا معاوية بذلك، فقال لهم: "إن كان الأمر كما تزعمون فما باله ابتز الأمر دوننا على غير مشورة منا ولا ممن ها هنا معنا ..؟" وعادوا بكلامه للإمام فقال: "إن الناس تبع المهاجرين والأنصار، وهم شهود المسلمين في البلاد على ولا يتهم وأمر دينهم، فرضوا بي فبايعوني، ولست أستحل أن أدع شبه معاوية يحكم على الأمة ويركبهم ويشق عصاهم" فعادوا إلى معاوية برد الإمام، فقال معاوية: "ليس الأمر كما يقول. فما بال من هاهنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا في هذا الأمر فيؤامروه (يشاوروه)".

فلما حملوا رد معاوية إلى الإمام قال: "ويحكم. هذا للبدريين (أهل بدر الدين حاربوا المشركين في أول معركة قادها الرسول) وليس في الأرض بدري إلا وقد بايعني وهو

معي، أو قد أقام ورضى، فلا يغرُنكم معاوية من أنفسكم ودينكم".

فعادوا يعلنون نصرتهم لعلي! وأقاموا لهم معسكرا بين المعسكرين، فكلما حاولت جماعة من أحد المعسكرين أن تقاتل جماعة من المعسكر الآخر حجز القراء بين المقاتلين... وأصبح قراء الشام وقراء العراق جيشاً واحدا يرى أن طاعة معاوية ومن معه لأمير المؤمنين واجبة، وإلا كانوا بغاة!

فأراد معاوية أن يفرقهم، ويصرفهم عن علي... فكتب لهم كتابا رشقه بسهم وأطلقه على معسكرهم، فلما التقطوا السهم قرأ كبيرهم ما في الكتاب على الناس. وإذ فيه: "من عبد الله الناصح، فإني أخبركم أن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات".

فقالوا: "هذا أخ ناصح كتب يخبرنا بما يريد بنا معاوية".

ونظروا إلى شاطئ الفرات، فوجدوا نحو مائتي رجل من رجال معاوية يحفرون الشاطئ فاضطربوا وتنادوا بالفرار!

وعلم الإمام بما كان، فقال: "إن الذي يريده معاوية لا يستقيم له ولا يقوى عليه. إنها خدعة. اثبتوا. إنما يريد أن يزيلكم عن مواقعكم، فلا تهنوا ولا تضعفوا" فقالوا: "يا أمير

المؤمنين لا تدعهم واالله يحفرون الساعة" قال: "ويحكم لا تغلبوني على أمري" قالوا: "واالله لنرحل"

ورحلوا... واختاروا مكانا مرتفعا القوا فيه رحالهم، وشاع الذعر من الغرق في جيش الإمام، فصعدوا جميعا بلا إذنه! واضطر هو آخر الأمر إلى الصعود معهم ..!!

ودخل أبو الدرداء وأبو أمامة على معاوية، وكانا في جيشه، ولكنهما رأيا أن يسعيا في حقن الدماء قبل أن تستعر الحرب.

قالا لمعاوية: "علام تقاتل هذا الرجل ..؟ فو االله لهو أقدم منك إسلاما وأحق بهذا الأمر منك، وأقرب إلى النبي ﷺ، فعلام تقاتله ..؟". قال: "أقاتله على دم عثمان، وأنه أوى قتلته، فقولوا له فليُقِدنا (يمكننا من القصاص) فأنا أول من بايعه من أهل الشام".

فأتيا عليا فقالا: "يا أمير المؤمنين ادفع إلينا بقتلة عثمان نسلمهم معاوية يبايعك وتحقن الدماء كما تريد" فأشار علي إلى جيشه، ورد ساخرا: "هم الذين تريان" فإذا بآلاف مؤلفة من الدارعين، لا شئ يبين منهم غير العيون يصيحون في صوت واحد: "كلنا. فإن شاءوا فليروموا ذلك منا".

فانصرف عنهم أبو أمامة وأبو الدرداء، فاعتزلا القتال.

وأخذ الإمام يفكر في مكر معاوية وعمرو... ما زالا قادرين على أن يقنعا بعض الناس أن معاوية يطالب بثأر عثمان، وأن عليا يأوي قتلةَ عثمان!

وتذكر الإمام ما جرى لعمرو ومعاوية، ورؤساء أهل الشام، فضحك!

وروى الإمام لأصحابه ما كان سمعه: أراد عمرو أن يكايد معاوية ويغيظه، فطلب رؤساء أهل الشام، وزعم لهم أن معاوية يغضب ممن يخاطبه قائلاً: "يا أمير المؤمنين". وكان الناس منذ بايعوه لا ينادونه إلا بهذا اللقب! فلما دخل رؤساء أهل الشام على معاوية، وعنده عمرو، جعلوا يقولون لمعاوية: "السلام عليك يا رسول الله صلى الله عليك!".

ودهش معاوية ! فانفجر عمرو ضاحكًا وهو يقول: "لعنكم الله من حمير! نهيتكم أن تنادوه أمير المؤمنين فجعلتموه رسول الله..!!".

ودعا علي ثلاثة من أصحابه وقال لهم: "القوا معاوية فائتوه، واحتجوا عليه، وانظروا ما رأيه" فجاءه فقال أحدهم: "يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة، وإن

الله عز وجل محاسبك بعملك، وجازيك عما قدمت يداك، فلا تفرق جماعة هذه الأمة، ولا تسفك دماءها بينها".

فقاطعه معاوية قائلاً: "هلَّا أوصيت بذلك صاحبك".

فقال الرجل الثاني: "يا معاوية إن صاحبنا ليس مثلك! صاحبنا أحق البرية كلها بهذا المر في الفضل، والدين، والسابقة في الإسلام، والقرابة من رسول الله ❐ ".

قال معاوية: "فيقول ماذا ..؟".

قال الرجل الثالث: "يأمرك بتقوى الله عز وجل، وإجابته إلى ما يدعوك إليه من الحق، فإنه أسلم لك في دنياك، وخير لك في عاقبة أمرك".

قال معاوية: "ونترك دم عثمان! ..؟ لا، لا، والله لا أفعل ذلك أبدا ..؟" فقال: "يا معاوية، إني قد فهمت ردك، إنه والله لا يخفى علينا ما تطلب! إنك لم تجد شيئًا تستغوي به الناس، وتستميل به أهواءهم، وتستخلص به طاعتهم إلا قولك: (قتل إمامكم مظلوما فنحن نطلب بدمه) فاستجاب لقولك سفهاء طَغام. وقد علمنا أنك أبطأت عن عثمان بالنصر، وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب! ورب متمني أمرٍ وطالبه، الله عز وجل يحول دونه بقدرته، وربما أوتي

المتمني أمنيته وفوق أمنيته! وواالله مالك في واحد منهما خير. لئن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالاً، ولئن أصبت ما تتمنى لا تصيبه حتى تستحق من ربك صِليّ النار! فاتق االله يا معاوية، ودع ما أنت عليه، ولا تنازع الأمر

أهله". فغضب معاوية وقال: "قد كذبتَ ولؤمتَ أيها الأعرابي الجلف الجافي في كل ما ذكرت ووصفت. انصرفوا من عندي، فإنه ليس بيني وبينكم إلى السيف" فخرجوا وهم يقولون: "أفعلينا تهول بالسيف ..؟! أقسم باالله لنعلنها إليك".

فأخبروا الإمام بما كان وطالبوه أن يأمر بالقتال بين الجمعين، ولكن الإمام رأى أن يجنب المسلمين لقاء الجيشين الكبيرين حذر الاستئصال وهلاك الآلاف!

فكان يأمر جماعة صغيرة من أصحابه أن يخرجوا للقاء جماعة صغيرة من جيش معاوية. ولربما اقتتلوا في اليوم الواحد مرتين! وكان الأكثر خروجا الأشترَ وحجر بن عدي، وقيس بن سعد بن عبادة.

واستبطأ أصحابه إذنه للجيش كله بالقتال، وكانوا يريدون أن يلتقي جمع أهل العراق بجمع أهل الشام.

والإمام ينتظر، ويرسل إلى معاوية ورؤساء جيشه من يعظهم لعلهم يدخلون في الطاعة فتحقن الدماء، حتى ضاق بذلك أصحاب الإمام، فتقول نفر منهم عليه الأقاويل. وحسبوه لا يريد الحرب حذر الموت وخشية من أهل الشام!

فقال: "أما قولكم أكل ذلك كراهية الموت ..؟ فوالله ما أبالي: دخلت إلى الموت أو خرج الموت إلى . وأما قولكم شكا في أهل الشام! فوالله ما دفعت الحرب يوما إلى وأنا طامع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي، وتعشو إلى ضوئي. وذلك أحب إلى من أن أقتلها على ضلالها، وإن كانت تبوء بآثامها".

حتى إذا جاء المحرم عام سبع وثلاثين، تـ ادع الفريقان على ترك الحرب بينهما حتى ينقضي الشهر الحرام.

وبعث الإمام إلى معاوية وأهل الشام عدى بن حاتم الطائي على رأس وفد من ثلاثة رجال، داعين إلى حقن الدماء.

فقال عدي: "أما بعد. فقد جئناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وامتنا، ويحقن به الدماء، ويصلح به ذات البين، إن ابن عمك سيد المسلمين (يقصد الإمام)، وأحسنهم في الإسلام أثرا، وأفضلهم سابقة، وقد استجمع له الناس، ولم يبق أحد

غيرك وغير من معك، فاحذر يا معاوية لا يصيبك وأصحابك مثل يوم الجمل!".

فغضب معاوية وقال: "كأنك جئت مهددا، ولم تأت مصلحا له هيهات يا عدي! كلا. واالله إني لابن حرب (اسم جده) واالله إني ما يقعقع لي بالشِّنان (القربة البالية، تقعقع أي تحرك فتحدث صوتًا فتتحرك الإبل، وهذا هو أصل المثل)، وإنك واالله يا عدي لمن المخلبين على عثمان، وإنك من قتلته، وإني لأرجو أن تكون ممن يقتله االله به".

فقال له بقية النفر: "أتيناك فيما يصلحنا وإياك، فأقبلت تضرب لنا الأمثال! دع مالا ينفع وأجبنا فيما يعم نفعه. إنا لم نأت إلا لنبلغك ما أرسلنا به إليك، ونؤدي عنك ما سمعنا منك، وننصح لك، وأن نذكر ما تكون به الحجة عليك، ويرجع إلى الألفة والجماعة. إن صاحبنا من قد عرف المسلمون فضله، وهو لا يخفى عليك، فاتق االله يا معاوية ولا تخالفه، فو االله ما رأينا في الناس رجلاً قط أعمل بالتقوى، ولا أزهد في الدنيا، ولا أجمع لخصال الخير كلها منه".

ولكن معاوية لم يجبهم إلى دعوتهم، فانصرفوا عنه، وأخذ هو يغري نفرا من أصحاب الإمام بالمال ويعدهم بإمارة الولايات!

فرد كل منهم بجواب واحد: "إني على بينة من أمري. رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين". فقال معاوية لعمرو بن العاص: "لست تكلم رجلاً منهم فيجيب إلى خير، ما قلوبهم إلا كقلب واحد".

وهذا حق ... كانت قلوب أصحاب الإمام كقلب واحد تعمره التقوى وعزة الاستعلاء فوق أطماع الدنيا ولبانات الجاه، ولكن آراؤهم كانت شتى!

أما هؤلاء الذين انحازوا لمعاوية وأصبحوا هم جيش الشام، فقد وصفهم معاوية آنفًا لعمار بن ياسر وهو يهدده قبل مقتل عثمان: "يا عمار، إن بالشام مائة ألف فارس، كلٌ يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم لا يعرفون عليا ولا قرابته، ولا عمارا يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم لا يعرفون عليا ولا قرابته، ولا عمارا ولا سابقته، ولا الزبير ولا صحابته، ولا طلحة ولا هجرته، ولا يهابون ابن

عوف ولا ماله، ولا يتقون سعدا ولا دعوته، هم لا يعرفون الإسلام ولا أصحاب الفضل، ولا يعرفون إلى العطاء".

أما العرب الذين تركوا عليا ولحقوا بمعاوية، وهم قليل من الذين تولوا أمرا من أمور المسلمين، فهم الذين يخافون عدل علي وحسمه وتقواه على ما في أيديهم، والذين يرفضون التسوية في القسمة، والذين خانوا أماناتهم، فلما أراد الإمام أن يحاسبهم، فروا منه بما نهبوه، فأقرهم معاوية على ما نهبوه وأغدق عليهم المزيد... أما هؤلاء جميعا فقد قال عنهم الإمام: "إنما هم أهل دنيا مقبلون عليها، مهطعون إليها، وقد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعوه، وعلموا أن الناس عندنا أسوة، فهربوا إلى الأثرة، فبعدا لهم وسحقاً..!!".

وقال عن معاوية الذي اصطنعهم: "طبيب د وار ب بِ طِبه، قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمه (جمع ميسم: المكواة) يضع ذلك حيث الحاجة إليه: من قلوب عمي، وآذان صم، وألسنة بكم، يتبع بدوائه مواضع الغفلة، ومواطن الحيرة".

شعر الإمام بما اعتور نفوس بعض عماله وبعض رجاله وأصحابه، وهم يقارنون بين ما يأخذهم به من حرمان وشدة

في الحق، وبين ما يغرق به معاوية أتباعه، وما يصطنع بـه

الناس من إغداق الضياع والمال والمتاع بغير الحق، فقال: "إني أعرف ما يصلحكم لي، ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي".

وما كان الإمام في الحق داعية إلى الفقر، ولكنه كان هاديا إلى التقوى. قال يعظ ابنه محمد بن الحنفية: "يا بني إن أخاف عليك الفقر فاستعذ بالله منه، فإن الفقر منقصة للدين، مدهشة للعقل، داعية للمقت".

وكان من دعائه كرم الله وجهه: "اللهم صن وجهي باليسار، ولا تبذل جاهي بالإقتار، فأسترزق طالبي رزقك، وأستعطف شرار خلقك، وأبتلى بحمد من أعطاني، وأفتتن بذم من منعني، وأنت من وراء ذلك كله ولى الإعطاء والمنح، إنك على كل شئ قدير. اللهم إني أعوذ بك أن أفتقر في غناك، أو أضل في هداك، أو أضام في سلطانك، أو اضطهد لأمر لك".

وكان يعلم الناس أن يدعوا بدعاء علمه الرسول ﷺ لصفيته فاطمة الزهراء رضي الله عنها. قال لها: " يا فاطمة ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقولي: يا حي يا قيوم

برحمتك أستغيث، لا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله".

كما كان يعظهم أن يدعوا بدعاء لنبي الله عيسى عليه السلام: "اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبح الأمر بيدي غيري، وأصبحت مرتهنًا بعملي، فلا فقير أفقر مني. اللهم لا تشمت بي عدوى، ولا تسؤ بي صديقي، ولا تجعل مصيبتي في ديني، ولا تجعل الدنيا أكبر همي، ولا تسلط علي من لا يرحمني... يا حي يا قيوم".

وانقضى الشهر المحرم، ولم تفيء عصبة معاوية إلى أمر الله، ولم تقبل الصلح أو تلزم الجماعة، فأرسل إليهم الإمام مناديا، فنادى: "يا أهل الشام، يقول لكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه، فلم تنتهوا عن البغي والطغيان، ولم تجيبوا إلى الحق، وإني قد نبذت إليكم على سواء (أي أعلمهم بنبذ الموادعة أي أنذرهم بالحرب) إن الله لا يحب الخائنين. قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْخَائِنِينَ ﴾ صدق الله العظيم".

ووزع الإمام رايات القتال، وعين القواد، واتخذ كل مقاتل وقائد مكانه.

ثم قال: "لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم. وأنتم – بحمد الله- على حجة، وترككم قتالهم حتى يبدءوكم حجة أخرى، فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبرا، ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سترا، ولا تدخلوا دارا إلا بإذن، ولا تأخذوا شيئًا من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم من عدة الحرب
وأدواتها، ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم، وسببن أمراءكم وصلحاءكم".

ولكنه سمع بعض أصحابه يتحاورون فيما أمرهم به، كما حاوروه بعد معركة الجمل، فمازال بهم حتى اقتنعوا.

ثم قال يحرض على القتال: "عباد الله اتقوا الله، وغضوا الأبصار، واخفضوا الأصوات، وأقلوا الكلام، ووطنوا أنفسكم على المنازلة.. فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا إن الله مع الصابرين. اللهم ألهمهم الصبر، وأنزل عليهم النصر، وأعظم لهم الأجر".

وفي المعسكر الذي اجتمع فيه قراء الشام وقراء العراق، ارتفعت الأصوات في حدة، وهم يتجادلون في أوامر علـــي. فقال أحدهم: "علي مصيب فقد جاء في الحـديث الشـريف: علي مع القرآن والقرآن معه لا يفترقان".

فوقف علي خطيبا ليلة أول صفر سـنـة سـبـع وثلاثـين للهجرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال: "الحمد الله الذي لا يبـرم ما نقض، وما أبرم لم ينقضه الناقضون، ولو شـاء الله مـا اختلف اثنان من خلقه، ولا اختلفت الأمة في شئ، ولا جحـد المفضول ذا الفضل فضله. وقد ساقنا وهؤلاء القوم الأقـدار فنحن بمرأى من ربنا ومسمع، فلو شاء عجل النقمة، وكـان منه التغيير، حتى يكذب الظالم، ويعلم المحق أين مصـيره، ولكنه جعل الدنيا دار العمال وجعـل الآخـرة دار القـرار{ ليجزي الذين أساءوا بما عملـوا ويجـزي الـذين أحسـنوا بالحسنى}، ألا وإنكم لا قو القوم غدا فأطيلوا الليلـة القيـام، وأكثروا قراءة القرآن، واسألوا الله النصر والصبر، والقوهم بالجد والحزم وكونوا صادقين".

حتى إذا كان صباح الأربعاء غرة صفر، زحـف الإمـام بالناس، وخرج إليه معاوية في أهل الشام، وكان الإمام فـي

القلب على أهل المدينة وأكثر من معه من أهل بدر والمهاجرين والأنصار، بين أهل الكوفة وعليهم الأشْتَرَ، و أهل البصرة، وعليهم عبد الله ابن عباس.

ورفع معاوية قبة عظيمة، وبايعه بعض أهل الشام على الموت دفاعا عنه..

وسأل الإمام عن القبائل في جيش الشام، وأمر كل قبيلة في جيشه أن تكفيه أختها من أهل الشام.

واقتتل الناس يوم الأربعاء قتالاً شديدا، ثم انصرفوا عند المساء وليس منهم مغلوب ولا غالب!

فلما كان الخميس وقف عبد الله بن بديل يحرض على القتال فقال: " ألا إن معاوية ادعى ما ليس له، ونازع الحق أهله، وعاند من ليس مثله، وجادل بالباطل ليدحض به الحق، وصال عليك بالأعراب والأحزاب الذين زين لهم الضلالة، وزرع في قلوبهم حب الحق، وصال عليك بالأعراب والأحزاب الذين زين لهم الضلالة، وزرع في قلوبهم حب الفتنة، ولبس عليهم الأمر، وزادهم رجسا إلى رجسهم، وأنتم والله على الحق، على نور من ربكم وبرهان مبين. فقاتلوا الطغاة الجفاة ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ قاتلوا الفئة الباغية الذين نازعوا الأمر أهله، وقد قاتلوهم مع رسول الله ﷺ، فوالله ما هم في هذه بأزكى ولا أتقى ولا أبر".

وقام يزيد بن قيس فقال: "إن المسلم من سلم في دينه ورأيه، وإن هؤلاء القوم والله ما يقاتلوننا إلا على هذه الدنيا ليكونوا جبارين فيها وملوكًا فلو ظهروا عليكم – لا أراهم الله ظهورا – لرموكم بالسفهاء الضالين، وممن يأخذ حقكم ويقول: هذا لي ولا إثم عليّ كأنما أعطى تراثه عن أبيه وأمه، وإنما هو مال الله أفاءه علينا بأرماحنا وسيوفنا. فقاتلوا عباد الله القوم الظالمين، فإنهم إن يظهروا عليكم يفسدوا عليكم دينكم ودنياكم، وهم من قد عرفتم وخبرتم، والله ما ازدادوا إلى يومهم إلا شرا".

نَظّم الإمام على أمير المؤمنين صفوف جيشه وقال: "إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص. فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدموا الدارع، وأخروا الحاسر، وعضوا على الأضراس، فإنه أنبى للسيوف.. وغضوا الأبصار، فإنه أربط للجأش، وأسكن للقلوب. وأميتوا الأصوات، فإنه أطرد للفشل، وأولى بالوقار.

راياتكم فلا تميلوها ولا تزيلوها ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم. واستعينوا بالصدق والصبر، فإنه بعد الصبر ينزل النصر".

وبدأت المعركة، واستحر القتال.. وما يسمع غير وقع الحديد على الحديد.

وكان الحسن والحسين ومحمد بنو الإمام معه، والنبل يمر بين عاتقه ومنكبه، فلما دنا منه أهل الشام وأطلقوا عليه السهام والنبال يريدون قتله، قال له الحسن أكبر بنيه: "ما ضرك لو سعيت حتى تنتهي إلى هؤلاء القوم من صحبك فتلقوا بجمعكم أهل الشام ..؟" فقال: "يا بني إن لأبيك يوما لا يعدوه ولا يبطيء به عنه السعي، ولا يعجل به إليه المشي، إن أباك والله لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه!".

واقتتل الفريقان حتى العصر، وانهزم أصحاب أمير المؤمنين، وفر بعضهم، فقال للأشتر: "إيت هؤلاء القوم الفارين فقل لهم: أين فراركم من الموت الذي لن تعجزوه إلى الحياة التي لا تبقى لكم".

فقال الأشْدَتَر لهم ما قاله الإمام، وأضاف: "أنا الأشْدَتَر. إلى□
أنا الأشْدَتَر. إلى □ يا مذحج (وهي قبيلته)".

فلما خلصوا إليه قال: "ما أقبح ما قاتلتم منذ اليوم. ما أرضيتم ربكم، ولا نصحتم له في عدوكم، وكيف ذلك وأنتم أبناء الحرب، وأصحاب الغارات وفتيان الصيال، وفرسان الطراد، وحتوف الأقران ..؟! ما تفعلون هذا اليوم فإنه مأثور عنكم بعد اليوم. فاصدقوا عدوكم اللقاء، فإن الله مع الصادقين، والذي نفسي بيده، ما من أهل الشام رجل على مثل جناح بعوضة من دين الله" فقالوا: "خذ بنا حيث أحببت".

وزحف بهم الأ ْتَر، وثاب إليه الفارون، فقاتل بهم قتالاً شديدا، وقاتل غيرهم من أصحاب الإمام بقيادة عبد الله بن بديل، حتى أحاطوا بقبة معاوية. وانتهوا إلى الرجل القائم على رأس معاوية ومعه ترس مذهب يستر به معاوية من الشمس، فقتلوه، فدعا معاوية بفرسه فركبه، فهم بالفرار فنظر إليه عمرو وقال: "اليوم صبر، وغدا فخر" فقال معاوية:" صدقت" وأخذ يردد قول الشاعر الجاهلي:

أبتْ لي همتي وأبى بلائي وإقدامي على البطل المشيحِ

وإقدامي على المكروهِ نفسي وأخذى الحمد بالثمن الربيحِ

وقولي كلما جشأتْ لنفسي مكانك تحمدي أو تستريحي

وعاد إلى المعركة يستثير جنده أن يضربوا ويصبروا وسيغلبون.. فجند علي يفرون!

ووقفت أم الخير، وهي امرأة من الكوفة، على جملها تخطب الفارين: "يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم، إن الله قد أوضح لكم الحق، وأبان الدليل. فأين تريدون رحمكم الله ..؟ أفرارا عن أمير المؤمنين ..؟ أم فرارا من الزحف ..؟ أم رغبة عن الإسلام ..؟ أم ارتدادا عن الحق ..؟ أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول: {ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين}".

ثم رفعت رأسها ويديها إلى السماء، وقالت: "اللهم قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وبيدك يا رب أزِمة القلوب، فاجمع اللهم بها الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى، وأردد الحق إلى أهله.. هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل والوصي التقي، والصديق الأكبر. إنها إحن (ضغائن)،

والر

وأحقاد جاهلية وثب بها واثب حين الغفلة ليدرك ثارات عبـد

شمس.. صبرا يا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم.. الله الله أيها الناس، قبل أن تبطل الحقوق وتعطل الحدود ويظهر الظالمون. فإلى أين تريدون رحمكم الله – عن ابن رسول الله ﷺ وصهره وأبي سبطية ..؟ خلق من طينته، وتفرع من ذريته، وجعله باب

مدينته، أبان بغضه المنافقين. صلى والناس مشركون، وأطاع والناس كارهون، فلم يزل حتى قتل مبارزي بدر، وأفنى أهل أحد، وهزم الأحزاب، وقتل الله به أهل خيبر.. فيالها من وقائع زرعت في القلوب نفاقًا، وردة وشقاقًا، وزادت المؤمنين إيماناً.. قد اجتهدتُ في القول، وبالغت في النصيحة، وبالله التوفيق، والسلام عليكم ورحمة".

وشعر الرجال الفارون بالخزي والمهانة إذ يولون الأدبار، وامرأة تستنفر رجولتهم وشجاعتهم، وتزري على جبنهم، وتدعوهم للثبات، فعادوا مستثارين في حماسة عارمة، فحملوا على جند معاوية، يطردون من أعماقهم حب الدنيا والحرص عليها، بالرغبة الجليلة في الاستشهاد دفاعا عما يؤمنون، به، حتى في الجاهلية ما كان آباؤهم يفرون عند الروع، فما بال الذين استقووا بالإسلام والإيمان يفرون ..؟!

وها هو ذا صوت الأشْتَر الجهير يختلط بقراع الأسنة ووقع الحديد على الحديد، ويردد جند عليّ كلمات الأشْتَرَ: "الغمرات ثم ينجلين".

وتتعالى الصيحات من كل الأرجاء من صفوف عليّ كلٌّ يشد أزر صاحبه: "شدوا شدوا يا رهبان الليل وفرسان النهار!".

تدافعت صفوف الورعين والمساكين والقراء تنقض على جند معاوية بكل الطاقة الخارقة التي يمنحها حب العدل، والغنى عن الناس بالله، والأشواق النبيلة إلى المساواة، والكبرياء التي يفجرها شرف الجهاد في سبيل الله، والعزة التي تصب قوة لا تقهر في سواعد الذين يدافعون عن الحق، ويذودون عن الحقيقة باسم الله!

واندفع عبد الله بن بديل على رأس ثلثمائة من القراء قاصدين الترس الذهبي الذي يستظل به معاوية أمام قبته الفخيمة، وأمامه خمسة صفوف من جنده بايعوه على الموت دفاعا عنه.. وربط كل واحد منهم نفسه إلى أخيه بعمامته ليحاربوا جميعا فيظفروا أو يهلكوا جميعا، ولا يتمكن أحد من الفرار!

واستطاع عبد الله بن بديل بمن معه من القراء أن يهزم أول صف، ثم هزم الصف الذي يليه، وأزاح الصف الثالث والرابع، ولم يبق دون معاوية إلا صف واحد!

والمعركة تحتدم، والصفوف تضطرب وتتموج، فما يبقى من الجانبين أحد في مكانه.. وكل شئ يضطرم!

ونظر عبد الله بن بديل في الصفوف يبحث عن الإمام في موقعه من قلب الجيش، غير أن الإمام لم يكن في مكان..!!

ووجد عبد الله بن بديل مكان الإمام صاحبه الأشْتَرَ، فسأله: "ما فعل أمير المؤمنين ..؟" قال الأشْتَر:" حي صالح يقاتل في الميسرة". فقال وقال القراء معه: "الحمد الله. كنا ظننا أنه هلك وهلكتم معه".

وصاح عبد الله في رجاله: "استقدموا بنا" فقال له الأشْتَر: "لا تفعل واثبت مع الناس هنا فقاتل، فإنه خير وأبقى لك ولأصحابك"

ولكن عبد الله اندفع يقود أصحابه من القراء، وأوشك أن يهزم آخر صف فينكشف له معاوية، فصاح معاوية: "اقذفوه بالحجارة". فقذفوه، فسال دمه. وسقط على الأرض، فأجهزوا عليه، وحملوا على القراء.

ولكن الأشْتَر وجنده حملوا على جند الشام فأتاح للقراء أن ينسحبوا سالمين، ليحاربوا في موقع آخر من وادي صِفِّين.

وجاء معاوية ومعه صاحبه عبد الله بن عامر، فغطى ابن عامر بعمامته وجه صديقه عبد الله بن بديل، وكانت بينهما مودة قبل الحرب.. وقال: "رحمك الله يا عبد الله" واغرورقت عيناه بالدموع. فقال معاوية: "اكشفوا وجهه".

وأدرك ابن عامر أن معاوية يريد أن يمثل بجسد ابن بديل.. فقال ابن عامر ينذر معاوية: "والله لا تمثل به وفي روح". قال معاوية: "اكشفوا وجهه فقد وهبناه لك. هذا كبش القوم. اللهم أظفرني بالأشْتَر".

وعاد معاوية إلى قبته الفخيمة، وحامل الترس المذهب يتحرى أشعة الشمس ليحمي منها رأس معاوية.

وصاح أحد النُساك الزاهدين من أصحاب الإمام: "ألا إن مرعي الدنيا أصبح هشيما، وشجرها حصيدا (مقطوعا)، وإني لأتمنى الشهادة وأتعرض لها في كل جيش وغارة، فأبى الله إلا أن يبلغني هذا اليوم. وإني متعرض لها من ساعتي هذه، وقد طمعت ألا أحرمها، فما تنتظرون عبد الله بجهاد من عادى الله ..؟ أهو خوف من الموت القادم عليكم الذاهب

بأنفسكم لا محالة ..؟ استبدلوا الدنيا بالنظر في وجه الله، ومرافقة النبيين والصديقين والشهداء في دار القرار".

واندفع يقاتل وهو يقول لأخوة له ثلاثة كانوا معه: "يا أخوتي قد بعت هذه الدنيا بالتي وراءها".

وقاتل حتى قتلن فشد أخوته على جند معاوية قائلين لأخيهم الشهيد: "لا نطلب رزق الدنيا بعدك".

وقاتلوا حتى استشهدوا جميعا. وتبارز رجلان، فصرع أحدهما الآخر فسقطت خوذة المغلوب، فإذا هو شقيق الغالب، فتوقف حتى استأذن الإمام في أمره، فأمره الإمام أن يدع أخاه ويعفو عنه!

ورأى الإمام جميع الفارين من جنده قد عادوا يكرون فحياهم بقوله: "أنتم عمار الليل بتلاوة القرآن، وأهل دعوة الحق إذ ضل الخاطئون، فلولا إقبالكم بعد إدباركم، وكركم بعد فراركم، وجب عليكم ما وجب على الموالي يوم الزحف دبره، وكنتم من الهالكين. ولكن ه ان وجدي أني رأيتكم أزلتموهم عن مصافهم (صفوفهم) كما أزالوكم، تحسونهم بالسيوف، تركب أولاهم أخراهم كالإبل المطردة (الطريدة) الهِيم (العطاش) فالآن اصبروا، نزلت عليكم السكينة، وثبتكم

الله عز وجل باليقين، ليعلم المنهزم أنه مسخط ربه، وموبق (مهلك) نفسه، إن الفرار موجدة (غضب) الله عز وجل عليه، والذل اللازم والعار الباقي، وفساد العيش عليه. إن الفار لا يزيد في عمره، ولا يرضى ربه، فموت المرء محقًا قبل إتيان هذه الخصال خير من التلبس بها، والإقرار عليها".

وقتل رجل من جند علي يوم صفين فمر به صديق فقال له: "عز علي والله مصرعك. أما والله إن كنت لمن الذاكرين الله كثيرا، أوصني رحمك الله". فقال: "أوصيك بتقوى الله، وأن تناصح أمير المؤمنين، وتقاتل معه المحلين حتى يظهر أو تلحق بالله. وأبلغه عني السلام، وقل له: قاتل عن المعركة حتى تجعلها خلف ظهرك، فإنه من أصبح غدا والمعركة خلف ظهره كان العالي" ثم لفظ أنفاسه.

فلما حمل صديقه رسالته إلى الإمام قال: "رحمه الله! جاهد فينا عدونا في الحياة ونصح لنا في الوفاة".

***

وغابت الشمس فكفوا عن القتال، وعادوا إليه في اليوم التالي.. لقد لبثوا أياما يقتتلون ثم يكفون، ويتزاورون في ساعات الهدنة.

ولما رأى الإمام علي كثرة الضحايا من الجانبين، ووجد معاوية مصمما على القتال، خشي فناء العسكريين فنادى: "يا معاوية. علام يقتل الناس ويذهبون على ملك إن نلته كان لك دونهم وإن نلته أنا كان لي دونهم ..؟ أبرز إلي ودع الناس فيكون الأمر لمن غلب" قال عمرو بن العاص: "أنصف الرجل يا معاوية" فضحك معاوية وقال: "طمعت فيها يا عمرو" فقال عمرو: "والله ما أراه يجمل بك ألا تبارزه" فقال معاوية: "ما أراك إلا مازحا. نلقاه بجمعنا". قال عمرو: "والله ما أدري أشجاع أنت أم جبان ..؟ " قال معاوية:

شجاع إذا ما أمكنتني فرصة فإن لم تكن لي فرصةٌ فجبان

ورفض معاوية أن يبارز عليا .. وتوقفت الحرب عندما جاء الليل..

ومضى الإمام إلى معسكر القراء، فلما رأوه بلا خوذة ولا دروع قالوا مشفقين: "يا أمير المؤمنين أتقتل أهل الشام بالغداة وتخرج في العشي بإزار ورداء ..؟!" فقال: "أبا الموت تُخَوِّفُني ..؟ والله ما أبالي أسقط علي الموت أم سقطت عليه!".

فقال له القراء: "عظنا وانصحنا يا أمير المؤمنين" فقال: "يا حملة القرآن اعملوا به، فإن العالم من عمل بما علم، ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، تخالف سريرتهم علانيتهم، ويخالف عملهم علمهم، يجلسون حلقاً فيباهي بعضهم بعضا، حتى إن الرجل يغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله.. لا تدعوا القرآن رغبة منه إلى غيره.. أما والله لقد قصم ظهري عالم متهتك. وجاهل متنسك. هذا يفتي وينفر الناس بتهتكه، وهذا يضل بتنسكه.. كونوا بقبول العمل أشد اهتماما منكم بالعمل.. فإنه لن يقل عمل مع التقوى، وكيف يقل عمل متقبل ..؟! الفقيه منكم كل الفقيه من لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يرخص لهم في معاصي الله، لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا خير في علم لا فهم معه، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها، وما أبردها على كبدي إذا سئلت عما لا أعلم أن أقول: الله أعلم..

إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكر القدرة عليه".

وسأله أحد القراء: "أما نحن فيه قدر كتب علينا يا أمير المؤمنين ..؟" وسأل آخر: "ما القدر ..؟" فقال الإمام: "القدر

طريق مظلم لا تسلكه، وبحر عميق لا تلجه. سر الله قد خفي عليك فلا تفشه أيها السائل، إن الله خلقك كما شاء أو كما شئت ..؟" قال الرجل:" بل كما شاء" قال الإمام: "فليستعملك كما شاء".

فسأله أحد القراء:" ألست أفضل الناس بعد رسول الله ❐ ..؟". فدهم الإمام الحرج، وشعر بحياء شديد، وقال للرجل: "ما أنا إلا رجل من المسلمين". وهتف القراء إعجابا بحياء الإمام تواضعه.. هذا التواضع الذي يرفع صاحبه.

واستمر الإمام: "خير هذه الأمة بعد نبيها عليه الصلاة والسلام أبو بكر وعمر".

قال رجل: "الله درك يا أمير المؤمنين إذ تمجد أبا بكر وعمر!".

وقال آخر: "أمن أجل ذلك سميت أولادك أبا بكر وعمر وعثمان ..؟" فقال الإمام: "أما والله لا يفضلني أحد على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري".

وعندما انصرف الإمام قالوا: "أما والله ما أنزل الله: {يا أيها الذين آمنوا} إلا وعلي أميرها وشريفها".

قال رجل منهم: سمعت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول: قال رسول الله ﷺ " خير أخوتي على، وخير أعمامي حمزة".

وقالت رضي الله عنها: "كانت فاطمة أحب الناس إلى الرسول ﷺ وزوجها علي أحب الرجال".

وقال رجل آخر: "أما أنا فسمعت أن أم المؤمنين أم سلمة رضي عنها تقول: سمعت رسول الله يقول: من سب عليا فقد سبني". قال آخر: "وحدثونا أن رسول الله ﷺ قال: ذرية كل نبي في صلبه، وجعل الله ذريتي في صلب علي ".

وأنه قال: "الجنة تشتاق إلى ثلاثة، علي وعمار وسلمان".

وأنه قال لعلي: "إن فيك مثلاً من عيسى بن مريم، أبغضه اليهود حتى بهتوا أمه (اتهموها زورا وبهتانًا)، وأحبه النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذي ليس له".

فقال أحد القراء: "الله در أمير المؤمنين إذ يقول: خير هذه الأمة النمط الأوسط يرجع إليهم الغالي (المغالي)، ويلحق بهم التالي (المتأخر)".

فقال رجل: "إن الإمام لم يشف صدورنا حين حدثنا عن القدر.. سأسأله في خيمته".

وذهب نفر من القراء إلى الإمام فوجدوه في جماعة مع أصحابه يقول لهم عن فضل العشيرة: "عشيرة الرجل خير للرجل من الرجل للعشيرة، إن كفَّ عنهم يدا واحدة كفوا عنه أيديا كثيرة مع مودتهم وحفاظهم ونصرتهم، إن الرجل ليغضب للرجل لا يعرفه إلا بنسبه، وسأتلو عليكم في ذلك آيات من كتاب الله تعالى. قال عز وجل فيما حكاه عن لوط:{لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد} (يعني العشيرة) ولم يكن للوط عليه السلام عشيرة. فوالذي نفسي بيده ما بعث الله نبيا من بعده إلا في ثروة من قومه، ومنعة من عشيرته. ثم ذكر شعيبا إذ قال له قومه: (إنا لنراك فينا ضعيفًا ولولا رهطك لرجمناك)، وكان مكفوفًا، والله ما هابوا الله ولا هابوا إلا عشيرته".

وعندما انتهى الإمام من كلامه وجد أمامه جماعة القراء، الذين سألوه من قبل عن القدر، وخمن الإمام أنهم سيعاودون السؤال، وما لبث رجل منهم أن سأل: "يا أمير المؤمنين، ما تقول في القدر ..؟" وابتسم على، وقال: "ويحك! أخبرني عن رحمة الله، أكانت قبل طاعة العباد ..؟" قال: "نعم" قال: "أسلم صاحبكم وقد كان كافرا ..؟" فقال الرجل: "أليس بالمشيئة

الأولى التي أنشأني بها وقوم خلقي، أقوم واقعد، وأقبض وأبسط ..؟" قال على: "إنك بعد في المشيئة. أما إني أسألك عن ثلاث، فإن قلت في واحدة منهن: لا، كفرت، وإن قلت نعم، فأنت أنت. أخبرني عنك، أخلقك الله كما شئت أو كما شاء ..؟" قال الرجل: "بل كما شاء" قال: "فهل خلقك الله لما شئت أو لما شاء ..؟" قال: "بل لما شاء" قال الإمام: "فيوم القيامة تأتيه بما شئت أو بما شاء ..؟" قال: "بل بما شاء" قال الإمام: "قم فلا مشيئة لك".

فقال الناس: "ألا تزيدنا موعظة يا أمير المؤمنين ..؟ عظنا"..

قال: "من حلم ساد، ومن ساد استفاد، ومن استحيا حرم، ومن هاب خاب، ومن طلب الرئاسة صبر على السياسة، ومن أبصر نفسه عمى عن عيب غيره، ومن سل سيف البغي قتل به، ومن احتَفَرَ لأخيه بئرا وقع فيها، ومن نسي زلته استعظم زلة غيره، ومن هتك حجاب غيره انتهكت عورات بيته، ومن كابر في الأمور عطب، ومن اقتحم اللُجَج غرق، ومن أعجب برأيه ضل، ومن تعمق في العمل مل، ومن صاحب الأنذال حقُر، ومن جالس العلماء وقَر، ومن دخل

مداخل السوء اتُّهم، ومن حسن خلقه سهلت له طرقه، ومن حسن كلامه، كانت الهيبة أمامه، ومن خشي الله فاز، ومن استعار الجهل ترك طريق العدل، ومن عرف أجله قصر أمله".

fb1! 1g! çx,! d MBAZ

كان أبو الكلاع من أقوى أصحاب معاوية، وأشدهم تحرجا وأكثرهم سطوة وتأثيرا على أهل الشام.

كان يحب عليا، ولكنه خرج يقاتله، لأن معاوية أقنعه بأن عليا مسئول عن قتل عثمان، فقد حشد معاوية عددا ممن ينتسبون إلى العلم، فجعلهم أئمة على المساجد، وأجزل لهم العطاء وأغدق عليهم وأقطع لهم الإقطاعات. وملأ خزائنهم بالذهب والفضة، وربط مصيرهم بمصيره، وأقنعهم بأنه هو ولي دم عثمان، وقد قتل عثمان مظلوما، فلمعاوية سلطان، وله الحق في أن يطالب بدمه..!!

وإذا هذا النفر يقنعون الآخرين برأي معاوية، ويتأولون تفسير الآية الكريمة: ﴿ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا﴾.

هذا النفر من علماء الشام، كانوا كما قال الإمام علي عنهم أنهم علماء مرتشون باعوا علمهم ودينهم بزخرف الدنيا، فهم يعلمون أن ولي الأمر – وهو الإمام – هو وحده المسئول

عن القصاص، ومع ذلك فقد قالوا وعملوا بغير ما تعلموا وبغير ما علموا..

وكان أبو الكلاع في شك من أمرهم جميعا ..!!

لقد سمع أن عمار بن ياسر من أمراء جيش علي، وهو يعلم كما يعلم كل المسلمين أن الرسول (ص) قال لعمار بن ياسر: "تقتلك الفئة الباغية".. فهذا الحديث الشريف لا يجهله أحد، ولا ينكره أحد في كل بلاد المسلمين.. وفي كل بلاد المسلمين تتواتر أحاديث شريفة فيها ثناء على عمار بن ياسر.. وفيها أن عمار بن ياسر ما خيُر بين شيئين إلا اختار أرشدهما!

ومضى أبو الكلاع يسأل عمرو بن العاص عن عمار. وسكت عمرو.. فصاح أبو الكلاع: "ويحك! ما هذا يا عمرو ..؟ ألم يقل الرسول (❐): يلتقي أهل الشام وأهل العراق، وفي إحدى الكتيبتين الحق وإمام الهدى، ومعه عمار بن ياسر ..؟".

قال عمرو في ضيق: "عمار بن ياسر سيرجع إلينا!".

ومضى أبو الكلاع يحدث أهل الشام عن علي، ويقسم لهم أنه يعرف فضله وسابقته وحقه، ولكنه يحاربه ليسلّم معاوية

قتلة عثمان، كما أفتى بعض العلماء من حاشية معاوية لرؤساء أهل الشام.

وخشي عمرو أن يفت كلام أبي الكلاع في عضد جيش الشام، فحاول أن يقنعه بأن عمار بن ياسر هو أحد المسئولين عن قتل عثمان الخليفة المظلوم، ولكن أبا الكلاع أغلظ لعمرو ومضى يحدث أصحابه من أهل الشام عن مناقب عمار، فقال: "إنه كان أحد سبعة هم أول من أظهروا إسلامهم، منهم أمه سمية أول شهيدة في الإسلام، كما كان أبوه ياسر أول شهيد في الإسلام، عذبا حتى هلكا..".

ومضى أبو الكلاع إلى ابن خالد بن الوليد، وكان من أصحاب معاوية فسأله عما كان بين خالد وعمار أمام الرسول (ﷺ) فقال: "قال لي أبي: كان بيني وبين عمار كلام فأغلظت له في القول، فانطلق عمار يشكوني إلى رسول الله (ص)، فجئت وعمار يشكوني، فجعلت أغلظ له، ولا أزيده إلا غلظة، والنبي (ﷺ) ساكت لا يتكلم، فبكى عمار وقال: يا رسول الله، ألا تراه! ..؟ فرفع رسول الله (ﷺ) رأسه وقال: من عادى عمارا عاداه الله، من أبغض عمارا أبغضه الله.

فخرجت من عند الرسول فما كان شئ أحب إلى من رضا عمار، فأرضيته حتى رضي ".

ومضى أبو الكلاع يسأل العلماء الذين اصطنعهم معاوية، اسمعوا عن الحديث الشريف: "اهتدوا بهدى عمار" ..؟! فسكتوا.. خرجوا بالصمت عن لا ونعم!

وأبو الكلاع يبحث عن قراء الشام الذين انضموا إلى قراء العراق.. فإذا هم جميعا تحت إمرة عمار..

وإنه ليقودهم متجها إلى صفوف معاوية. والناس تقول ما يسلك عمار واديا من أودية ِّفيه إلا التف حوله أصحاب رسول الله(❒).

كان قراء الكوفة هم وآباؤهم يرون فيه رائدا عظيما.. ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرسل عمارا إلى الكوفة: بكتاب إلى أهلها: "أما بعد فإني أرسلت إليكم عمار بن ياسر أميرا، وعبد الله بن مسعود وزيرا ومعلما، وهما من نجباء أصحاب محمد ، فاقتدوا بهما".

واتصلت المودة بين أهل الكوفة وبين ابن مسعود وعمار كليهما رضي الله عنهما، فلما مات ابن مسعود لم يعد لأهل الكوفة شيخ إلا عمار..

وكان عمار حيثما مضى من أرض الإسلام أحبه النـاس، وتمثلوا بصلابته في الحق، وحسن بلائه في سبيل الله.. هكذا أحبه المصريون حين جاء إلى مصر، وأحبه أهل العراق.

سألوا عنه ابن عباس فقال: "كان رسول الله (ﷺ) في أول الدعوة يمر بعمار وأمه (سمية) وأبيه ياسر وهم يعذبون فـي رمضاء مكة فيقول: (صبرا آل ياسر، موعدكم الجنة!) وكان المشركون يبلغون من المسلمين في العذاب ما يعذرون بـه على ترك دينهم ! إن كانوا ليضـربون أحـدهم ويجيعونـه ويعطشونه حتى ما يقدر على أن يستوي جالسا، مـن شـدة الضر الذي به حتى أنه ليعطيهم ما سألوه من الفتنة، وحتـى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله! فيقول: نعم".

ولقد عذبوا سمية أم عمار على الإسلام، وهي تـأبى مـا يريدون، حتى قتلوها. فكانت أول من استشهد في الإسلام.

وأخذ المشركون عمارا فعذبوه، فلم يتركوه حتـى سـب النبي (ﷺ)، وذكر آلهتهم بخير. ثم تركوه. فـأتى الرسـول باكيا. فقال الرسول: "ما وراءك" قال: "شر يا رسول الله" ما تركوني حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير. قال الرسـول: "كيف تجد قلبك" قال: "مطمئنًا بالإيمان" قال: "فإن عادوا لك،

فعد لهم" فنزلت فيه الآية الكريمة من سورة النحل: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

وعمار الآن في نحو التسعين، ومازال قادرا على القتال والجهاد في سبيل الله.

أسمر، طويل القامة، أبيض اللحية، سريع الخطوات على الرغم من شيخوخته، نشط، جليل، مهيب.

وإنه لمطاع الكلمة عند الصحابة، يتبعه القراء فيما يقول.. ولقد يراهم يسرفون في العبادة، فيعلمهم القصد، ويحملهم على الاعتدال، وإنهم لفي طاعته لا يردون له أمرا.

عمار مثلهم من المساكين، يعاني ما يعانون، ولقد تعلم من الإمام على لوناً من الزهد جعله لا يرضى الدنية في دينه.. هذا اللون من الزهد الذي يملأ قلوب المؤمنين حبا للحقيقة، ويجعل المتقين أقوى من الإغراء، ويجعل المساكين فقراء إلى الله حقًا، أغنياء عن الناس!

وقد علّم عمار تلاميذه من القراء كل ما تعلمه من الرسول (❐) ، ومن علي كرم الله وجهه .. فلما وجدهم يغالون في الزهد، علمهم ما تعلمه من الرسول: "لا رهبانية في الإسلام، ورهبانية أمتي الجهاد".

الدفاع عن قيم الإسلام الفاضلة : عن الحق والعدل والإحسان .. الدفاع عن كل أولئك جهاد في سبيل الله .. هكذا علم عمار أتباعه القراء.

ومازال ثناء الرسول عليه في كل ما شهده مع الرسول من مواقع.. مازال هذا الثناء يمنحه القدرة على القتال.. وإنه اليوم ليجاهد تحت راية علي، هؤلاء الذين جاهدهم هم وآباءهم من قبل تحت الراية نفسها في زمن الرسول في مواقع كثيرة .. ما واحدة منها بأزكى من الأخرى ولا بأزكى من هذه كما قال .. وها هم أولاء أصحاب علي من حوله يحملون حملة صدق، فيزيلون جند معاوية عن مواقعهم، وتضطرب صفوفهم .. وها هو ذا معاوية في آخر صف يحميه فرسان الشام الدارعون .. ولكن خالد بن معمر أمير هذا الرهط من فرسان علي يزحف على فرسان معاوية وهم يتقهقرون فرقا. وها هو ذا يكاد يفضي إلى سرادق معاوية ويزيل قبته العالية فإذا بمعاوية يهرب منهزما ويختفي.. ليرسل إلى خالد يسأله ألا يتقدم بعد، وألا يغامر بحياته، فما عساه يكسب من علي ..؟!

إن معاوية ليعده بأن يوليه خراسان إن هو توقف عن الزحف ..!! وإن معاوية ليهدي خالدا من التبر مالا يستطيع أن يحصل على ذرة منه من أبي تراب..!!

ويتوقف خالد عن الزحف..!!

يالقدرة معاوية على أن يطيش أحلام الرجال بوعود الجاه والثراء والسلطان! وإن لديه من المال ما يمكنه من شراء من يلين: فله خراج الشام كله ملكاً خالصا لا يؤدي منه لبيت المال درهما واحدا..!!

أما الإمام علي فما عساه يملك ...؟!!

إنه لا يملك غير العدل في القسمة بين الناس..!!

ما يملك إلا التقوى، وما عساها تجدي مع الرجال الذين يصطنعهم معاوية، من الذين قال عنهم هو نفسه: "إنهم لا يعرفون غير المال".

ما عسى أن تجدي التقوى إذا أصبحت ضمائر بعض الرجال تشترى وتباع، وتستخدم، وتزيف باسم المقدسات..؟!

ولكن سقوط هذا الرجل أو ذاك، لم يكن ليزيد الآخرين إلا ارتفاعا على الدنايا..!!

في الحق أن سقوط رجل ما أو قبيلة ما تحت إغراء ما يعرضه معاوية من مال ومناصب وجاه كان يوجع قلب الإمام.. ولكن الإمام كان على الرغم من كل شئ يؤمن بأنه من الخير له أن يتخفف من الذين تعربد رؤوسهم الأطماع وأحلام الغنى والأباطيل ...!

إنه لمع الحق، وإن أوحشت طرقه، وقل نصيره، وكفى باالله نصيرا!.

وكان المتأمل في جند الإمام وجند معاوية يرى عجبا..!!

فأغلب جند الإمام صفر الوجوه من القيام، وعلى الجباه علامات من أثر السجود، ثيابهم خشنة، ولكن جوههم على الرغم من كل شئ تضيء بالثقة، يسعى نورهم بين أيديهم إلا قليلاً.

فإذا وقف الإمام ينظمهم في صفوف، ويأمرهم أن يصطفوا كالبنيان المرصوص، حاوروه حتى يقتنعوا، وحتى يفقهوا معنى ما يتلوه عليهم: "إن االله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص".

وحينئذ يغرسون أقدامهم في الأرض بثبات .....

أما جند معاوية، فكانت ملابسهم فاخرة، جاءوا إلى القتال في أحسن زينة، وما كان معاوية في حاجة إلى أن يكلمهم فالإشارة تغنيه عن العبارة..!

وقف عمرو بن العاص ينظر إلى جند معاوية وجند علي ويقارن بين الحالين.. وشعر معاوية بما في أعماق عمرو فقال مزهوا: "يا ابن العاص كيف ترى هؤلاء وما هم عليه ..؟". قال عمرو: "لقد رأيت من يسوس رعيته بالدين والدنيا، فما رأيت أحدا تأتي له من طاعة رعيته ما تأتي لك من هؤلاء". قال معاوية: "أفتدري متى يفسد هذا، وفي كم ينتقض..؟"" قال: "لا" قال: "في يوم واحد! أي والله أو في بعض يوم!" قال عمرو: "وكيف ذلك ..؟" قال معاوية: "متى كذبوا في الوعد والوعيد، وأعطوا على الهوى لا على الغناء!".

القبائل العربية موزعة بين جيش الإمام وجيش معاوية.. كل قبيلة تكفي أختها .. حتى قريش الشام تعرضت للقرشيين الذين جاءوا من العراق أو من الحجاز.

ومعاوية ما برح يغري رؤساء القبائل في جيش علي.. ولقد راسل الأشعث بن قيس رئيس اليمانية فلم يحفل به، ولم

يرد عليه، وراسل عبد الله بن عباس لعله يكفكف من

حماسته! ورد عليه ابن عباس أكثر من مرة ينصحه بأن يحقن الدماء، ويدخل في الجماعة، فيعود معاوية إلى مخاطبته
مصرا على أن يسلمه علي قتلة عثمان ليدخل في الطاعة ... ..!!

وقد حاول معاوية أن يخاطب من جيش على رؤساء ربيعة وهمدان، ولكنهم ردوا عليه ردا منكرا قبيحا، فكسروه!

وارتفع صوت الإمام يقول في جنده:" سيروا على بركة الله .. الله أكبر الله أكبر.. يا الله يا أحد يا صمد. يارب محمد ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين.. بسم الله الرحمن الرحيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم.مالك يوم الدين. إياك نعبد وإياك نستعين. اللهم اكفنا واكف عنا بأس الظالمين".

وبرز للإمام أربعة من أبطال الشام فصرعهم الواحد بعد الآخر.. واشتبك الجيشان، وتساقط الناس صرعى، وعز ذلك على الإمام. فنادى بأعلى صوته: "ويحك يا معاوية! ابرز

إلي ولا تفن العرب بيني وبينك ..!" فقال لــه عمـرو بــن

العاص:" اغتنمه وهو مجهد فإنه قد أُثخن بقتل هؤلاء الأربعة!".

فقال له معاوية: "والله لقد علمت أن عليا لم يُهزم قط. إنما أردت قتلي لتصيب الخلافة بعدي!".

اشتد القتال من جديد، والإمام يدعو الله: "اللهم إليك رفعت الأبصار وبسطت الأيدي، ونقلت الأقدام، ودعت الألسن، وأَفضت القلوب .. فاحكم بيننا وبينهم بالحق وأنت خير الفاتحين. اللهم إنا نشكو إليك غيبة نبينا وقلة عددنا، وكثرة عدونا، وتشتت أهوائنا، وشدة الزمان، وظهور الفتن، أعنَّا عليهم بفتحٍ تعجله، ونصرٍ تعز به سلطان الحق وتظهره".ثم

قال لأصحابه: "قال الله تعالى لقوم: قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذن لا تمتعون إلا قليلاً، وأيم الله لئن فررتم من سيف الدنيا لا تسلمون من سيف الأخرى".

وتضرجت السيوف والحراب من مهج المسلمين، وتطايرت الرءوس وسقط القتلى.. فصاح الإمام مرة أخرى: "يا معاوية" فقال معاوية: "اسألوه ما شأنه" قال الإمام: "يا معاوية ويحك! علام تقتيل الناس بيني وبينك ..؟ ابرز إلي

فأيّنا يقتل صاحبه فالأمر له" فالتفت معاوية إلى عمرو فقال: "ما ترى أبا عبد الله ..؟ أأبارزه ..؟" قال عمرو "اعلم أنه إن نكلت مرة أخرى لم تزل سبّة عليك وعلى عقبك ما بقي عربي" قال معاوية: " يا عمرو ابن العاص، ليس مثلي يخدع عن نفسه. واالله ما بارز ابن أبي طالب رجلاً قط إلا سقى الأرض من دمه. واالله إن تريد إلا أن أقتل فتصيب الخلافة بعدي".

ثم انصرف معاوية راجعا ومعه عمرو، فاختبأ في آخر الصفوف.

فضحك الإمام..

ووقف عبد الله بن عباس يخطب المقاتلين فكان مما قاله : "لقد قاتل علي بن أبي طالب مع رسول الله (ﷺ) وعلي يقول صدق الله ورسوله، ومعاوية وأبو سفيان يقولان: كذب الله ورسوله. فما معاوية في هذه بأبر ولا أتقى ولا أرشد ولا أصوب في قتالكم. فعليكم بتقوى الله والجد والحزم والصبر، وإنّكم لعلي الحق وإن القوم لعلي الباطل، فلا يكونن أولى بالجد في باطلهم منكم في حقكم .. اللهم ربنا أعنا ولا تخذلنا، وانصرنا على عدونا".

* * * *

ووقف عمار يخطب فقال: "اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أضع ظبة (طرف) سيفي في بطني ثم أنحنى عليها حتى تخرج من ظهري لفعلته! والله إني لا أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين.. من يبتـ

رضوان الله فلا يرجع إلى مالٍ ولا ولد! اقصد بنا هؤلاء القوم الذين يطلبون دم عثمان. والله ما أرادوا الطلب بدمه، ولكنهم ذاقوا الدنيا واستحبوها، وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه منها، ولم تكن لهم سابقة يستحقون بها طاعة الناس والولاية عليهم. فخدعوا أتباعهم أن قالوا: إمامنا قتل مظلومان ليكونوا بذلك ملوكًا جبابرة، فبلغوا ما ترون. ولولا هذه ما تبعهم من الناس رجلان، ولكن قول الباطن له حلاوة في أسماع الغافلين.. فسيروا إليهم سيرا جميلاً. اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت، فإن جعلت لهم الأمر فادخر لهم بما أحدثوا في عبادك العذاب الأليم .. اذكروا الله ذكرا كثيرا.. الجنة تحت ظلال السيوف، الشهادة في أطراف الأسنة، وقد فتحت أبواب السماء، وتزينت الحور العين. اليوم ألقى الأحبة، محمدا وصحبه".

وتقدم حتى دنا من عمرو بن العاص، فقال له: "يا عمرو بعت دينك بمصر. تبا لك! تبا لك!".

فقال عمرو: "لا .. ولكني أطلب دم عثمان" قال: "أشهد أنكلا تطلب بشئ من فعلك هذا وجه الله، وأنك إن لم تقتل اليوم تمت غدا. فانظر إذا أعطى الناس على نياتهم ما نيتك ..؟ لقد قاتلت صاحب هذه الراية ثلاثًا مع رسول الله (ﷺ). وهذه الرابعة ما هي بأبر ولا أتقى".

ثم قاتل عمار. وعطش فطلب أن يشرب، فجاءوه بلبن ممزوج بماء فهمهم : بشرني حبيبي رسول الله أن آخر زادي اللبن الممزوج بالماء .. واندفع يحارب وهو يدعو الله أن يرزقه النصر أو الشهادة.

وطعنه رجل من بني السكسك، ولهم ثروة عظيمة بالشام.

ظل الرجل الثري يتحرى عمار بن ياسر حتى طعنه بحربة، وأقبل ثرى آخر من أثرياء الشام فاحتز رأسه.

وجاء من يبشر عمرو بن العاص ومعاوية بقتل عمار، ومن ينعي إليهما ذا الكلاع.

قال عمرو لمعاوية: "ما أدري بقتل أيهما أنا أشد فرحا، بقتل عمار أو ذي الكلاع، واالله لو بقى ذو الكلاع بعد قتل عمار لمال بعامة أهل الشام إلى علي وأفسد علينا جندنا".

وجاء الرجلان الثريان إلى معاوية: الذي طعن عمارا والذي حز رأسه، كل منهما يدعي أنه صاحب الفضل في قتل عمار..!

فقال لهما عبد الله بن عمرو: "ليطب كل واحد منكما نفسا لصاحبه بقتل عمار، فني سمعت رسول الله ( ) يقول: قاتله وسالبه في النار، إنما تقتله الفئة الباغية".

فغضب معاوية وقال لعمرو محتدا: "ألا تنهى عنا مجنونك هذا..؟" ثم قال لعبد الله: "فلم تقاتل معنا ..؟" فقال عبد الله: "إن رسول الله أمرني بطاعة والدي ما كان حيا، وأنا معكم ولست أقاتل" فقال معاوية: "أو نحن نقتل عمارا، إنما قتل عمارا من جاء به".

وشاع في جند معاوية أن رسول الله () قال عن عمار: "إنما تقتله الفئة الباغية" فخرج معاوية إليهم فقال: "صدق رسول الله () إنما قتل عمارا من جاء به. قتله علي بن أبي

طالب".. وبارك العلماء المرتشون من صنائع معاوية هذا التخريج.

فأخذ جند معاوية يرددون دون أن يفكروا: "إنما قتل عمارا من جاء به..! قتله على بن أبي طالب!".

وحمل أهل العراق على أهل الشام. فتقهقروا ثم توقفوا، فوقف الأحنف ابن قيس يخطب أهل العراق. "يا أهل العراق، واالله لا تصيبون هذا الأمر أذل عنقًا منه اليوم، قد كشف القوم لكم قناع الحياء، وما يقاتلون على دين، وما يصبرون إلا حمية وحبا في الدنيا، فتقدموا" قالوا: "إنا إن تقدمنا اليوم فقد تقدمنا أمس، فما تقول يا أمير المؤمنين ..؟" قال الإمام علي لهم: "تقدموا في موضع التقدم، وتأخروا في موضع التأخر. تقدموا من قبل أن يتقدموا إليكم".

فانقض أهل الشام يقودهم عمرو بن العاص، وتقدم أهل العراق يقودهم أمير المؤمنين الإمام علي، وكان في الدروع والزرد لا تبين منه إلا عيناه، وكذلك كان عمرو، فلم يعرف عمرو أن الذي يقود أهل العراق هو علي الذي ما صارع أحدا إلا صرعه.. وتصدى لعمرو فلما تلقى عمرو أول ضربة في الصراع أدرك من ثقل الضربة أنها لعلي..!! ثم

ضربه على بحربته فأوقعه من على ظهر حصانه، فأدرك عمرو أنه هالك، فبادر فكشف عورته وهو يتخبط على الأرض، فنحى الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ وجهه عن عمرو وتركه يسرع هاربا فقال أصحاب علي: "أفلت الرجل يا أمير المؤمنين" قال: "فهل تدرون من هو..؟ إنه عمرو بن العاص، تلقاني بعورته فصرفت وجهي عنه".

وتقدم بسر بن أرطاة، وهو أقوى فرسان معاوية ليصارع عليا، فضربه فأسقطه، فلما أدرك بسر أنه يبارز عليا كشف عورته كما صنع عمرو، فصرف الإمام وجهه عنه، وتركه يفلت هاربا.. وروى عمرو ما كان من علي. فقال معاوية: "أحمد الله وعورتك، أما والله أن لو عرفته يا عمرو ما أقحمت نفسك عليه..!" ثم قال شعرا يزري فيه بعمرو، فقال عمرو: "ما أشد تعظيمك عليا في أمري هذا! وهل هو إلا رجل لقيه ابن عمه فصرعه ..؟ أفترى السماء قاطرة لذلك دما ..؟!" قال معاوية: "لا.. ولكنها معقبة لك خزيا".

وهدأ القتال، فقدر معاوية أن عليا سيقهره إن استمر القتال..

ورأى معاوية أن يحاول استمالة بعض أصحاب علي، ممن كانت له بهم مودة من قبل فأرسل أخاه عتبة إلى الأشعث بن قيس فنادى الأشعث فقال: "سلوا هذا المنادي من جيش معاوية من هو ..؟" قال عتبة: "أنا عتبة بن أبي سفيان" قال الأشعث: "غلام مترف ولا بد من لقائه".

فلما خرج إليه سأله: "ما عندك يا عتبة ..؟" قال عتبة: "أيها الرجل إن معاوية لو كان لاقيا رجلاً غير علي للقيك. إنك رأس أهل العراق، وسيد أهل اليمن، وقد سلف من عثمان إليك ما سلف من الصهر والعمل، ولست كأصحابك. أما الأشتَرَ فقتل عثمان، وأما عدي فحرض عليه، وأما شرُيح وابن قيس فلا يعرفان غير الهوى، وإنك حاميت عن أهل العراق تكرما، ثم حاربت أهل الشام حمية، وقد بلغنا والله منك ما بلغنا، وبلغت منا ما أردت، وإنا لا ندعوك إلى ترك علي ونصر معاوية ولكنا ندعوك إلى البقية (أنا تبقوا علينا ولا تستأصلونا)، التي فيها صلاحك وصلاحنا".

فقال الأشعث: "يا عتبة، أما قولك أن معاوية لا يلقى إلا عليا فإن لقيني والله ما عظم مني ولا صغرت عنه، فإن أحب أن أجمع بينه وبين علي فعلت. وأما قولك أنـي رأس أهل

العراق وسيد أهل اليمن، فإن الرأس المتبع والسيد المطـاع هو علي بن أبي طالب عليه السلام. وأما ما سلف من عثمان إلي فو الله ما زادني صهره شرفاً ولا عمله عزا، وما عيبك أصحابي فإن هذا لا يقربك مني ولا يباعدني عـنهم. وأمـا محاماتـي عن أهل العراق فمن نزل بيتـًا حماه. وأمـا البقيـة (الإبقاء على المقاتلين وعدم استئصالهم) فلستم بأحوج إليهـا منا".

فلما روى عتبة لأخيه معاوية ما قاله الأشعث قـال: "يــا عتبة لا تلقه بعدها فإن الرجل عظيم عند نفسه، وإن كان قـد جنح للسلم".

على أن معاوية رأى أن يحاول مع غير الأشعث.. مـع رجل له عند علي حظوة ومكان، وله على أصحابه سلطان، فلم يجد غير عبد الله بن عباس. فقـال معاويـة لمستشـاره عمرو بن العاص :" إن رأس الناس بعد علي هو عبد الله بن عباس. فلو ألقيت إليك كتابا ترفقه به، فإنه إن قال شـيئًا لـم يخرج علي منه، وقد أكلتنا الحرب".

فقال عمرو: "ابن عباس لا يخدع، ولو طمعت فيه لطمعت في علي". قال معاوية : "على ذلك، فاكتب إليه".

فكتب عمرو إلى عبد الله بن عباس: "أما بعد، وأنت رأس هذا الجمع بعد علي، فانظر فيما بقي ودع ما مضى، فـو الله ما أبقت هذه الحرب لنا ولكم حياة ولا صبرا. واعلمـوا أن الشام لا تملك إلا بهلاك العراق، وأن العـراق لا تملـك إلا بهلاك الشام، وما خيرنا بعد هلاك أعدادنا منكم، و خيـركم بعد هلاك أعدادكم منا ..؟! ولسنا نقول ليت الحرب غـارت (انتهت) ولكنا نقول ليتها لم تكن، وإن فينا من يكره القتـال، كما أن فيكم من يكرهه، وإنما هو أمير مطـاع أو مـأمور مطيع، أو مؤتمن مشاور، وهو أنت. وأما الأشْـتَرَ الغلـيظ الطبع، القاسي القلب، فليس بأهل أن يدعي في الشورى، ولا في خواص أهل النجوى".

طال البلاء وما يرجى له آس بعد الإله سوى رفق ابن عبا ِس
قولاً له قول من يرجو مودته لا تنس حظك إن الخاسر الناسي

فلما قرأ عبد الله بن عباس الكتاب، أطلع عليه الإمام، فقال ضاحكًا: "قاتل الله ابن العاص، ما أغراه بك يا ابن عباس ..؟ أجبه".

فأجابه ابن عباس: "أما بعد فإني لا أعلم رجلاً من العرب أقل حياء منك! إنه مال بك معاوية إلى الهوى، وبعته دينـك

بالثمن اليسير، ثم خبطت بالناس في عشوة طمعا في الـدنيا، فلما لم تر شيئًا أعظمت الدنيا إعظام أهل الدنيا، ثم تزعم أنك تتنزه عنها تنزه أهل الورع ..! فإن كنت ترضى الله بـذلك فدع مصر وارجع إلى بيتك. وهذه الحرب ليس فيها معاويـة كعلي، ابتدأها علي بالحق وانتهى فيها إلى العـذر، وبـدأها معاوية بالبغي وانتهى فيها إلى السرف. وليس أهل العـراق فيها كأهل الشام، بايع أهل العراق عليا وهو خير منهم، وبايع معاوية أهل الشام وهم خير منه، ولست أنت وأنا فيها بسواء، أردتُ الله وأردتَ أنت مصر، وقد عرفت الشئ الذي باعدك مني ولا أعرف الذي قربك من معاوية، فإن تُـرد شـرا لا نسبقك به، وإن ترُد خيرا لا تسبقنا إليه".

فجاء عمرو بكتاب ابن عباس إلى معاوية، وقال له فـي غضب: "أنت دعوتني إلى هذا، ما كان أغناني وإيـاك عـن بني عبد المطلب". فقال معاوية: "إن قلب ابن عباس وقلـب علي قلب واحد، كلاهما ولد عبد المطلـب، وإن كـان ابـن عباس قد خشن فقد لان، وإن كان قد تعظم أو عظم صـاحبه فلقد قارب وجنح إلى السلم. وإن ابن عباس رجل من قريش وأنا كاتب إليه أخوفه عواقب هذه الحرب لعله يكف عنا".

وأرسل معاوية إلى ابن عباس: "أما بعد، فإنكم يا معشر بني هاشم لستم إلى أحد أسرع بالمساءة منكم إلى أنصار عثمان بن عفان، فإن كان ذلك لسلطان بني أمية، فقد وليها عدي (قبيلة أبي بكر) وتيم (قبيلة عمر) فلم تنافسوهم، وأظهرتم لهم الطاعة. وقد وقع من الأمر ما قد ترى، وأكلت هذه الحروب بعضها من بعض حتى استوينا فيها. فما أطمعكم فينا أطمعنا فيكم وما يسيئكم منا يسيئنا منكم، وقد رجونا غير الذي كان، وخشينا دون ما وقع، وقد قنعنا بما كان في أيدينا من ملك الشام، فاقنعوا بما في أيديكم من ملك العراق، وابقوا على قريش، فإنما بقي من رجالها ستة: رجلان بالشام، ورجلان بالعراق، ورجلان بالحجاز. فأما اللذان بالشام فأنا وعمرو وأما اللذان بالعراق فأنت وعلي، وأما اللذان بالحجاز فسعد (ابن أبي وقاص) وابن عمر. وأنت رأس هذا الجمع اليوم، ولو بايع لك الناس بعد عثمان كنا إليك أسرع منا إلى علي".

فلما قرأ ابن عباس الكتاب غضب وقال: "حتى متى يخطب ابن هند إلى عقلي وحتى متى أجمجم علي ما في نفسي ..؟" وأسرع يرد عليه: "أما بعد، فقد أتاني كتابك

وقرأته، فأما ما ذكرت من سرعتنا إليك بالمساءة في أنصار ابن عفان، وكراهيتنا لسلطان بني أمية، فلعمري لقد أدركت في عثمان حاجتك حين استنصرك فلم تنصره، حتى صرت إلى ما صرت إليه، وبيني وبينك في ذلك ابن عمك وأخو عثمان الوليد بن عقبة (أخو عثمان لأمه)، وأما قولك أنه لم يبق من قريش غير ستة فما أكثر رجالها وأحسن بقيتها! وقد قاتلك من خيارها من قاتلك، ولم يخذلنا إلا من خذلك. وأما إغراؤك إيانا بعدي وتيِم فأبو بكر وعمر خير من عثمان، كما أن عثمان خير منك، وقد بقي لنا منك يوم ينسيك ما قبله، وعمر خير من عثمان، كما أن عثمان خير منك، وقد بقي لنا منك يوم ينسيك ما قبله، وتخاف ما بعده. وأما قولك: إنه لو بايع الناس لي لاستقمتم لي، فقد بايع الناس عليا وهو خير مني فلم تستقيموا له، وإنما الخلافة لمن كانت له المشورة. وما أنت يا معاوية والخلافة وأنت طليق وابن طليق ..؟ والخلافة للمهاجرين، وليست للطلقاء (الذين أسلموا يوم فتح مكة)".

فلما قرأ معاوية الكتاب، نظر إليه عمرو شامتًا وضحك، فقال معاوية: "هذا عملي بنفسي. والله لا أكتب إليه أبدا".

ثم قال: "والله لأستميلن بالأموال ثقات علي، ولأقسمن فيهم المال حتى تغلب دنياي آخرته".

وأغدق معاوية على بعض أهل العراق أموا ًلاطائلة ووعدهم بإقطاعات ومناصب كبرى، فمالوا إليه، وانتشر الخبر في الناس، فأحزن ذلك عليا، واستنفر آخرين آثروا دين علي على دنيا معاوية، فانقضوا على من انضموا إلى جيش الشام، وأعملوا فيهم القتل وفي أهل الشام، فجزع معاوية جزعا شديدا، وقال لأهل الشام: "هذا يوم تمحيص، وإن لهذا اليوم ما بعده، أصبروا وكونوا كراما".

* * * *

استشهد عمار بن ياسر رضي الله عنه، فجزع أتباعه القراء وزلزلوا زلزا ًلاشديدا، فقد كانوا لا يتخيلون أن يقتل عمار على هذا النحو البشع: يعمد إليه أحد أثرياء الشام فيقتله، وينقض ثري آخر فيفصل رأسه عن جسده، كأنه يريد أن يطمئن أنه لن يعود إلى الحياة مرة أخرى، فيطالب الأغنياء بأن يقوموا بأمر الفقراء، وينادي بأن للفقراء والمساكين وأهل الحاجة حقوقًا في أموال الأغنياء غير الزكاة..!!

وما حيلة عمار، وما ذنبه وهو قد تعلم هذا من الرسول (ص) وفقهه فيه علي بن أبي طالب.

وتساءل بعض القراء: كيف نصر الله الأغنياء بافترائهم وطغواهم، على المساكين بزهدهم وتقواهم ..؟! الحكمة ما أراد الله تعالى، وما أراد! لا راد لقضائه!

وتساءل آخرون منهم: لماذا يبتلى إمامهم علي بكل هذه المحن..؟!

وقال آخر: إن عليا من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وقد شرى علي نفسه ابتغاء مرضاة الله.

فقال أحد القراء: "رأيت في بعض الكتب أن رسول الله (ص) لما أراد الهجرة، خلف علي بن ابي طالب بمكة لقضاء ديونه ورد الودائع التي كانت عنده، وأمره ليلة خرج إلى الغار، وقد أحاط المشركون بالدار، أن ينام في فراشه، وقال له: (اتشح ببردي الحضرمي الأخضر، فإنه لا يخلص إليك منه مكروه إن شاء الله تعالى)، ففعل ذلك، فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام أني آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخرن فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة ..؟ فاختار كلاهما الحياة، فأوحى الله عز وجل

إليهما: أفلا كنتما مثل علي بن ابي طالب ..؟ آخيت بينه وبين نبيي محمد، فبات على فراشه، يفديه بنفسه، ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه. فنزلا، فكان جبريل عند رأس علي، وميكائيل عند رجليه، وجبريل ينادي: بخٍ بخٍ! من مِثْلك يا ابن ابي طالب يباهي الله عز وجل به الملائكة ..؟! فأنزل الله عز وجل على رسوله وهو يتوجه إلى المدينة- في شأن علي: (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله)[١]".

فقال أحد القراء: "سينصر الله إمامنا فقد علمنا من شيخنا ابن مسعود وعمار أن رسول الله (ص) قال: على مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان".

وأخذ القراء يبكون عمارا ويدعون الله، ويرتلون القرآن، ويطيلون الركوع والسجود، حتى رآهم الأشْتَرَ، فأشفق عليهم، وضمهم إلى رجاله وقادهم جميعا فشقوا طريقاً في صفوف جند معاوية. وتزايلت صفوف معاوية صفًا بعد صف.. فحرض معاوية أصحابه على أن يبارزوا الأشْتَرَ

---

[١] أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير.

ويقتلوه، فخافه أصحاب معاوية، ولم يتقدم أحد بعد إلى الأشتر، وحاول معاوية أن يغري مروان بن الحكم بذلك. فأبى مروان، وقال لمعاوية: "ادع للأشتر عمرو بن العاص فهو وزيرك!" قال معاوية: "وأنت نفسي!". فقال مروان: " لو كنت كذلك ألحقتني به في العطاء، وألحقته بي في الحرمان".

وسمع عمرو بذلك فقال لمعاوية: "قد َغلك القوم في مصر، فإن كان لا يرضيهم إلا أخذها، فخذها. إن ابن عمك مروان يباعدك منا ويباعدنا منك ويأبى الله إلا أن يقربنا إليك".

* * * *

عندما علم الإمام باستشهاد عمار، بكاه وصلَّى عليه، وأمر بدفنه حيث استشهد. ثم اتجه الإمام إلى ربيعة وهمدان فقال لهمك أنتم درعي ورمحي.. فقال لهم شيوخهم: "يا معشر ربيعة لا عذر لرجل في العرب إن وصل أحد بأذى إلى أمير المؤمنين وهو بينكم وفيكم رجل حي، إنه لعاركم آخر الدهر فإن منعتوه، مجد الحياة اكتسبتموه".

وتقدم الإمام يقود نحو اثني عشر الفًا من ربيعة وهمدان، منهم ألفان وثمانمائة من المهاجرين والأنصار، ومن بقي من

أهل بدر إلا ثلاثة نفر، وتسعمائة ممن شهدوا بيعة الرسول تحت الشجرة، ونزل فيهم قرآن كريم يبشرهم برضوان الله.

بايعته ربيعة وهمدان على الموت، وحملوا على جند الشام، فتقضوا صفوفهم ومعاوية يحرض جنده على قتل علي، ورجال علي يحرسونه، وهو يلاقي الفرسان واحدا بعد الآخر فما يبارز أحدا إلا قتله .. ويطلب منه رؤساء القبيلتين أن يأخذ حذره، وسيبارزون هم عنه، فيقول:

من أي يومي من الموت أفِر؟ أيوم لا قدر أم يوم قدر؟

وحرض معاوية عمرو بن العاص على مبارزة علي، فقال له عمرو: "بارزة أنت فتكون على إحدى الحسنيين، إما أن تقتله فتكون قد قتلت قاتل الأقران وتزداد شرفًا إلى شرفك، وإما أن يقتلك فتكون قد استعجلت مرافقة الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا". فقال معاوية: "يا عمرو! الثانية شر من الأولى".

وكان معاوية واقفًا على تلٍ يشاهد المعركة وعلي يفلق الهامات، وما من أحد يقوى عليه، والصفوف تنهزم أمامه هو

وفرسان ربيعة وهمدان، وجيش الشام ينهار، وصناديده يفرون يلتمسون النجاة من علي وأصحابه..!!

فقال معاوية وهو يتأمل كلَّ ذلك: "تبا لهؤلاء الرجال وقبحا! أما فيهم من يقتل عليا مبارزة أو غيلة ..؟" فقال له الوليد بن عقبة: "ابرز إليه أنت فإنك أولى الناس بمبارزته" فقال معاوية: "والله لقد دعاني إلى البراز حتى استحييت من قريش! إني والله لا أبرز إليه. وما العِجلَ كر بين يدى سد العـ الرئيس إلا وقاية له".

وجمع معاوية من معه من رجالات قريش وقال لهم: "العجب يا معشر قريش إنه ليس لأحد منكم في هذه الحرب فعل حسن يطول به لسانه ما عدا عمرو بن العاص! فما بالكم..؟ أين حمية قريش" فرد عليه الوليد بن عقبة في غضب: "وأي فعل تريد ..؟ والله ما نعرف في أكفائنا من قريش العراق من يغني غناءنا باللسان ولا باليد" فقال معاوية: "بل إن أولئك قد وقَوا عليا بأنفسهم" قال الوليد متحديا معرضا بمعاوية: "كلا. بل وقاهم علي بنفسه!" فقال معاوية: "أما منكم من يقوم لقرنه منهم مبارزة أو مفاخرة ..؟"

قال مروان: "أما البراز فإن عليا لا يأذن لحسن ولا لحسين ولا

لمحمد بنيه فيه ولا لابن عباس وإخوته، ويصلى علي بالحرب دونهم. فلأيهم نبارز..؟ أما المفاخرة فبماذا نفاخرهم..؟ أبالإسلام أم بالجاهلية ..؟ فإن كان بالإسلام فالفخر لهم بالنبوة..".

وقاطعه معاوية فسفهه!

وتنابزوا جميعا، فأغلظ الوليد لمعاوية.

وقال مروان: "أما واالله لولا ما كان مني يوم الدار مع عثمان، ومشهدي بالبصرة، لكان مني في علي رأي يكفي امرءا ذا حسب ودين!" ثم انصرفوا جميعا عن معاوية غاضبين، ولكنه لم يدعهم يبيتون في غيظهم ..!! فصالحهم (وأرضاهم من نفسه، ووصلهم بأموال جليلة).

وإذ رأى معاوية أن الدائرة توشك أن تدور عليه، وأن عليا يوشك أن يكسب الحرب، قال لعمرو: "قد رأيت أن أكتب لعلي كتابا أسأله الشام – وهو الشئ الأول الذي ردني عنه والقى في نفسه الشك والريبة". فضحك عمرو قائلاً: "أين أنت يا معاوية من خدعة علي ..؟". فقال:"ألسنا بني عبد مناف" قال عمرو: "بلى، ولكن لهم النبوة دونك! وإن شئت أن تكتب فاكتب".

فكتب معاوية لعلي□ : "أما بعد، فإني أظنك أن لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا، لم يجنها بعضنا على بعض. وإنا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها ما نندم به على ما مضى، ونصلح به ما بقي، وقد كنت سألتك الشام على ألا يلزمني لك طاعة ولا بيعة، فأبيت ذلك علي□ فأعطاني الله ما منعت، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، فإني لا أرجو من البقاء إلا ما ترجو، ولا أخاف من الموت إلا ما تخافن، وقد واالله رقت الأجناد، وذهبت الرجال، ونحن بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل إلا فضل لايستذل به عزيز، ولا يسترق به د□ر□ والسلام".

فلما قرأ الإمام كتاب معاوية قال:"العجب لمعاوية وكتابه!".

ثم كتب إلى معاوية: "أما، بعد فقد جاءني كتابك تذكر أنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض. فإنا وإياك منها في غاية لم نبلغها. وإني لو قتلت في ذات الله وحييت، ثم قتلت ثم حييت سبعين مرة، لم أرجع عن الشدة في ذات الله، والجهاد لأعداء الله. وأما قولك أنه قد بقي من عقولنا ما نندم به على الشدة في ذات

الله، والجهاد لأعداء الله. واما قولك أنه قد بقي من عقولنا ما نندم به على الشدة في ذات الله، والجهاد لأعداء الله. وأما قولك أنه قد بقي من عقولنا ما نندم به على ما مضى، فإني ما نقضت عقلي، ولا ندمت على فعلي. فأما طلبك الشام، فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس، وأما استواؤنا في الخوف والرجاء، فإنك لست أمضى على الشك مني على اليقين، وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة. وأما قولك إنا بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل، فلعمري إنا بنو أب واحد، ولكن ليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا المهاجر كالطليق ولا المحق كالمبطل، وفي أيدينا بعد فضل النبوة التي أذللنا بها العزيز، وأعززنا بها الذليل".

فلما قرأ معاوية كتاب الإمام، أخفاه.

ثم إن عمرو بن العاص ألح على معاوية حتى أطلعه على كتاب الإمام، فأثنى عمرو عليه، وأغضب ذلك معاوية.. فقال لعمرو عاتبا: "أردت تسفيه رأيي وإعظام علي..! وقد فضحك " وكان عمرو يعظم عليا لأنه بعد أن صرعه لم يجهز عليه بل أشاح عنه بوجهه وتركه ينجو. فقال عمرو:

"أما إعظامي عليا فإنك بعظمته أشد معرفة مني، ولكنك تطوي ما تعرفه وأنا أنشره، وأما أنه فضحني يوم صارعته، فلم يفتضح امرؤ لقي أبا الحسن".

خرج علي، ومعاوية، كل واحد منهما على رأس جنده، وبرز من جند معاوية عبيد الله بن عمر بن الخطاب يقود أربعة آلاف بعمائم خضراء يطالبون بدم عثمان، فنادى الإمام: "ويحك يا ابن عمر، علام تقاتلني، واالله لو كان أبوك حيا ما قاتلني" قال عبيد الله: "أطالب بدم عثمان" فقال الإمام: "أنت تطالب بدم عثمان واالله يطالبك بدم الهرمزان ..!".

وأمر الإمام صاحبه الأشْتَر وفرسانه أن يتصدوا لعبيد الله بن عمر وفرسانه .. وكان عبيد الله بن عمر قد تعود حين يخرج إلى القتال أن يأمر نساءه فيشددن عليه السلاح، ويأخذ إحداهن على راحلتها من خلفه لترى بلاءه في القتال. فلما خرج ذلك اليوم طلب من امرأته بنت هانيء أن تخرج خلفه وقال لها: "إني عبأت اليوم لقومك وإني لأرجو أن أربط في كل وتد من أوتاد خيمتي سيدا منهم!" وكان قومها في جند الإمام. فقالت: "ما أبغض إلا أن تقاتلهم" قال: "ولم ..؟" قالت: "لأنه لم يتوجه إليهم صنديد في جاهلية ولا إسلام وفي رأسه

صعر (غرور) إلا أبادوه، وأخاف أن يقتلوك! وكأني بك قتيلاً وقد أتيتهم أسألهم أن يهبوا لي جيفتك" فرماها بقوس فشج رأسها وقال: "ستعلمين بمن آتيك من زعماء قومك".

وخرج إلى القتال، وخلفه امرأتان له على راحلتين أخرجهما معه لتشهدا بطولته.

ولكنه لم يلبث أن بارز الأشتر، فصرعه الأشتر، فلما وجدته امرأتاه مجندلاً أكثرتا العويل عليه.

ثم إن نساءه ذهبن إلى معاوية ليرسل في طلب جيفته، فأرسل يعرض فيها عشرة آلاف على قوم أم عبيد الله، وسألوا الإمام علياً، فقال لهم: "لا يحل بيعها".

وجاءتهم امرأته بنت هانيء فقالت : "أنا بنت هانيء وهذا زوجي القاطع الظالم، وقد حذرته ما صار إليه فهبوا لي جيفته" فدفعوا إليها جيفته. وكانت مربوطة في وتد خيمة..!!

ورأى معاوية تفوق أهل العراق على أهل الشام، فأنب أصحاب رايات الشام، وأغلظ لهم.. وهددهم وتوعدهم وقال لأكبرهم: "لقد هممت أن أولّي قومك من هو خير منك مقدما وأنصح منك دنيا" فقال له الرجل مغضبا: "والله لقد نصحتك على نفسي، وآثرت ملكك على ديني، وتركت لهواك الرشد

وأنا أعرفه، وحدت عن الحق وأنا أبصر، وما وفقت لرشد حين أقاتل على ملكك ابن عم رسول الله (ﷺ) وأول مؤمن به! ولو أعطيناه ما أعطيناك لكان أرأف بالرعية، ولكن قد بذلنا لك الأمر، ولا بد من إتمامه غيًا كان أو رشدا، وحاشا أن يكون رشدا. وسنقاتل عن تين الغوطة (موضع بالشام) وزيتونها، إذ حُرِمنا ثمار الجنة وأنهارها".

واندفع الرجل براية قومه يقاتل جيش علي.. وأخذته الحمية، فأحسن البلاء وحمي وطيس المعركة من جديد..

وخلال المعركة رأى الإمام ولديه الحسن والحسين يخوضان غمراتها، فدعا الله أن يحفظهما.. وقال لأحد أصحابه: "إني أضن بهذين على الموت، لئلا ينقطع بعدهما نسل رسول الله (ﷺ).

ولاحظ الإمام أن معاوية يقف على التل تحت الترس الذهبي، يتفقد طريق مؤخرته إلى الشام، لينسحب إذا ما لم يجد حيلة إلا الإنسحاب..

وشاهد الإمام تدفق الإمدادات والميرة من الشام إلى مؤخرة جيش معاوية، فنظر الإمام في الأمر، فوجد أن معاوية كلما حوصر ونفدت منه الميرة جاءه مدد ضخم من

الشام، فالطريق إليها مفتوح.. وإذن فلا سبيل إلى الانتصار الحاسم على جيش الشام ومعاوية ما بقي طريق الميرة والإمداد مفتوحا ومؤمنا.

وأصدر الإمام علي أمره إلى أحد أصحابه: "سر في بعض هذه الخيل فاقطع الميرة عن معاوية، ولا تقتل إلا من يحل لك قتله، وضع السيف موضعه".

وبلغ ذلك معاوية، فدعا أقوى أمراء جيشه وأمره أن يخرج بفرسانه لتأمين الطريق، ولكنه عاد منهزما بعد حين، وقطع الإمام الميرة عن جيش الشام.

فجمع معاوية رؤوس جند الشام وأصحابه وقال لهم: "أتاني خبر من ناحية من نواحي فيه أمر شديد" فقالوا جميعا: "يا أمير المؤمنين ليس لنا رأي في شئ مما أتاك، إنما علينا السمع والطاعة".

وأراد الإمام علي أن يعرف رأي أصحابه من أهل العراق، فقال: "أيها الناس، إنه أتاني خبر من ناحية من نواحي" فقال بعضهم: "الرأي لك" وقال آخرون: "يا أمير المؤمنين، إن لنا في كل أمر رأيا، فما أتاك فأطلعنا عليه حتى نشير عليك" فقال علي : "ظفر والله ابن هند باجتماع أهل

الشام له واختلافكم علي، واالله ليغلبن باطله حقكم. إنما أتاني أن بعض خيلنا قطعت الميرة عن معاوية، وظفرت بفرسانه، وأتى معاوية نبأ هزيمة أصحابه فقال: "يا أهل الشام، إني أتاني أمر شديد" فقلدوه أمرهم، واختلفتم علي !".

فقام قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري فقال: "أما واالله يا أمير المؤمنين لنحن كنا أولى بالتسليم لك من أهل الشام لمعاوية..".

* * * *

وشعر معاوية أنه سيحاط به وبجند الشام بعد أن قطع الإمام طريق الميرة فبعث أبا هريرة، والنعمان بن بشير الأنصاري إلى علي فقالا له: "يا أبا الحسن إن االله قد جعل لك في الإسلام فضلاً وشرفاً، وقد بعثنا معاوية يسألك أمرا تسكن به هذه الحرب، ويصلح له به ذات البين: أن تدفع إليه قتلة عثمان، فيقتلهم به، ويجمع االله تعالى أمرك وأمره، ويصلح بينكم، وتسلم هذه الأمة من الفتنة والفرقة".

فعجب الإمام لهذا الكلام!

أما يزال معاوية يطالب بقتلة عثمان، ويرى نفسه ولي الدم وله الحق في القصاص دون الإمام ولي أمر الأمة ..؟!

وعجب أن يحمل إليه أبو هريرة والنعمان بن بشير الأنصاري مثل هذا الكلام ..!!

ثم اتجه إلى النعمان قائلاً: "حدثني عنك يا نعمان. هل أنت أهدى قومك سبيلاً..؟" قال: "لا". قال الإمام: "فكل قومك الأنصار قد اتبعني إلا شذاذًا منهم ثلاثة أو أربعة، أتكون أنت من الشذاذ ..؟!" قال النعمان: " إنما جئت لأكون معك وألزمك. وكان معاوية قد سألني أن أؤدي هذا الكلام، ورجوت أن يكون لي موقف أجتمع فيه معك، وطمعت أن يجري الله تعالى بينكما صلحا، فإذا كان رأيك غير ذلك فأنا ملازمك وكائن معك".

وكان بعض الناس في صِفِّين يسعى بين المعسكرين، وكانت الحرب إذا هدأت عشاءً يتسامر أهل المعسكرين معا، فيتعاتبون، ولقد يرق الواحد منهم للآخر، حتى إذا أصبحوا واستعر القتال بينهم كره بعضهم بعضا..

وكان ممن يترددون بين المعسكرين في صِفِّين، نفر اعتزلوا القتال، وسعوا في الصلح، فكانوا إذا نودي للصلاة يصلون خلف علي، فإذا جاء وقت الطعام أو النوم، ذهبوا إلى معاوية حيث الطعام ألذ والفراش ألين، وكانوا إذا سئلوا في

ذلك قالوا: "الصلاة وراء علي كرم الله وجهه أتقى وأزكى، ولكن طعام معاوية أشهى".

ولقد أقام النعمان عند علي، ولكنه سئم المقام إذ لم يطق تقشف الإمام، ولا خشونة العيش مع أتباعه المساكين، ففر إلى معاوية!

وسمع عبد الرحمن بن عثمان وهو معتزل في حمص، أن معاوية أرسل إلى علي رجلين آخرين، فقال لرسولي معاوية لما لقيهما: "العجب منكما! أتأتيان عليا وتطلبان منه قتلة عثمان ..؟! وأعجب من ذلك قولكما لعلي أجعلها شورى واخلعها من عنقك..!! وإنكما لتعلمان أن من رضي بعلي خير ممن كرهه، وأن من بايعه خير ممن لم يبايعه، ثم صرتما رسولي رجل من الطلقاء، لا تحل له الخلافة!".فلما

علم معاوية بما قاله عبد الرحمن بن عثمان، أوشك أن يرسل إليه من يقتله، ولكنه خاف غضب قومه!

وسمع فتى من همدان عمرو بن العاص يحرض على الإمام، فقال: "يا عمرو إن أشياخنا سمعوا رسول الله (ص) يقول: "من كنت مولاه فعلي مولاه. فحق ذلك أم باطل ..؟" فقال عمرو: "حق، وأنا أزيدك أنه ليس أحد من صحابة

رسول الله□ له مناقب مثل علي، ولكنه أفسدها بـأمره فـي عثمان" قال الفتى منكرا: "هل أمر بالقتل أو قتـل ..؟" قـال عمرو: "لا .. ولكنه نوى ومنع" قال الفتى: "فهل بايعه الناس ..؟" قال عمرو: "نعم" قال:"فما أخرجك عـن بيعتـه" قـال: "اتهامي إياه في عثمان" قال الفتى: "فأنت أيضا قد اتهمـت!" قال: "صدقت. إني خرجت إلى فلسطين".

فعاد الفتى إلى قومه همدان، يقول: "إنا أتينا أقواما أخـذنا الحجة عليهم من أفواههم".

* * * *

وزحف علي□ بجيشه، واشتجرت القنا، واشتبكت الرمـاح، وتقارعت السيوف والحراب، فما أحد يسمع شـيئًا إلا وقـع الحديد على الحديد، وما ترى إلا أشعة الشمس تسطع علـى الأسِنَّة، ودماء المسلمين تختلط بالنقع المثار..

ورأى علي□ ابنه الحسن في حومة الوغى فقـال: "ابعـدوا عني هذا الغلام لا يهدني".

كان الإمام قد نهى بنيه، وبني عمه عـن الـدعوة إلـى المبارزة، فكان إذا دعي أحد منهم بارز الإمام عنه.. هكـذا بارز عن ابن عمه عبد الله بن عبـاس وصـرع متحديـه،

وعرض أن يبارز عن ابنه محمد ابن الحنفية، ولكن متحديه

ولَّى.. إنه كرم الله وجهه يحمي العشيرة ولا يدع العشيرة

تحميه.. كما ضن بعدد من كبار الصحابة من غير المقاتلين من أهل الزهادة والنسك فمنعهم من القتال، وقاتل هو عنهم، واكتفى بصحبتهم يعظمون المقاتلين، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويمجدون الجهاد في سبيل الله.

* * * *

ومعاوية بن أبي سفيان يرقب المعركة من التل، والترس المذهب يحميه من الشمس..

معاوية لا يخوض الحرب بنفسه بعد أن انهزم المرة بعد المرة أمام عبد الله بن بديل، ثم أمام الأشتر، واكتفى بأن يوجه المقاتلين، وترك عمرو بن العاص يقود المعارك.

ولكن رجال معاوية ضاقوا بالأمر، وطالبوه أن يقودهم. وأن يحارب بنفسه كعلي ..

ورأى معاوية بطش جيش العراق بجيش الشام فقال لرجاله: " لا مرد لأمر الله. إنما لقيتم كباش أهل العراق،

وقتلتم وقتل منكم! وما لكم علي من حجة فقد عبأت نفسي لقتال سعيد بن قيس".

وخرج معاوية يقود رجاله ليلقى سعيد بن قيس في همدان، ففر الرجال عن معاوية، وهزمهم سعيد بن قيس، وفر معاوية..

نادى الرجال الفارين، وفيهم عمرو، فوبخهم.. وقال لعمرو: "إنك لجبان"، فقال له عمرو: "فهلا برزت إلى علي إذ دعاك إن كنت شجاعا كما تزعم ..؟!".

ولكنهما كانا لا يصبران على خصومة، وإلا نقضا غزلهما أنكاثًا..

فسرعان ما تصالحا، فطلب معاوية من عمرو أن يقدم أقوى قبائل الشام واسمها (عك) لتقابل همدان، فخاطبهم عمرو: "يا معشر عك. إن عليا قد عرف أنكم خير أهل الشام فعبأ لكم خير أهل العراق همدان، فاصبروا وهبوا لي جماحكم ساعة من نهار، وقد بلغ الحق مقطعه" فقال زعيم عك:" أمهلوني حتى آتي معاوية" فأتي الـ عكي معاوية فقال له: "اجعل لنا فريضة ألفي رجل في ألفين، ومن هلك فابن عمه مكانه" قال معاوية: "ذلك لك".

فتقاتلوا حتى انصرفت عك. فانصرفت همدان، فقال عمرو لمعاوية: "لقد لقيت أسد أسدا، ولم أر كاليوم قط، لو أن معك حيا كعك، أو مع علي حيا كهمدان، لكان الفناء!".

وشاع في القبائل أن قبيلة عك لم تحارب بهذه البسالة إلا بعد أن نالت ما اشترطته على معاوية من العطاء الوفير..

وعجب معاوية وهو يتابع شجاعة رجال علي ! ما الذي يثير فيهم هذه الشجاعة كلها، وعطاؤهم قليل ..؟!

كيف استطاع هؤلاء المساكين من أتباع علي بأثوابهم الخشنة ووجوههم الذابلة أن يقهروا أثرياء الشام في جاههم وترفهم ..؟!

ورأى معاوية أنهما من سبيل على جيش العراق إلا بإغراء مساكينهم بالمال.. إلى أي مدى يستطيع هؤلاء المساكين القتال تحت راية علي متحملين شظف العيش.. ألا يغبطون جند الشام على طلاوة منظرهم، وطراوة حياتهم، وترفهم ..؟! كم منهم يستطيع أن يتحمل آلام الزهد والنسك، وكم من الأيام يحتملون ..؟!

وذاع في جند العراق أن معاوية يعد من ينضم إليه منهم بالغنى والجاه..

وجاء إلى علي فارس من همدان فقال له: "يا أمير المؤمنين إن أقواما طلبوا من معاوية العطاء فأغدق عليهم، فباعوا الدين بالدنيا.. وإنا رضينا بالآخرة من الدنيا، وبالعراق من الشام، وبك من معاوية. يا أمير المؤمنين.. والله لآخرتنا خير من دنياهم، ولعراقنا خير من شامهم، ولإمامنا أهدي من إمامهم، فاستفتحنا بالحرب، وثق منا بالنصر، واحملنا على الموت".

وساء عليا ما بلغه عن معاوية وأهل العراق، ولكنه أثنى أطيب الثناء على فارس همدان.. فلما بلغ معاوية ذلك، عاد يقول: "والله لأستميلن بالأموال ثقات علي ، ولأُقَسمن فيهم المال حتى تغلب دنياي آخرته".

وبالله ما كان أمر الصراع بين دنيا معاوية وآخرة

علي..!! اشرأبت أطماع الذين مع معاوية إلى ما يغنمون، وشرعوا يحاربون دفاعا عن أحلامهم بالثراء، وكل ما يمكن أن يمنحه

المال من سطوة وهيبة وتشبث بمتاع الحياة الدنيا!

وانتفض المتقون والورعون والمساكين من أصحاب علي وأتباعه،بأشواقهم الجليلة إلى العدل، وحرصهم النبيل على أن تنتصر الحقيقة!

اندفعوا جميعا بالطاقة الخارقة التي يمنحها صدق الإيمان، وهم يرون على الأفق الجنة التي وعدها الله عباده المتقين الذين يقاتلون في سبيله ويستشهدون، وإذ هم ليسوا أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون!

انقضوا بكل ما يصبه عشق الحقيقة في أجلاد أهل الورع من بأس، وما يثيره في عروقهم من جسارة واستهانة بالموت.

وحملوا على الحريصين على الحياة من رجال معاوية.. واستعر القتال، واستحر القتل في أهل الشام، فتقهقروا حتى ألحقتهم همدان بقبة معاوية!

جزع معاوية جزعا شديدا وقال: "ما لقيت من همدان!".

وقال علي : "يا معشر همدان أنتم درعي ورمحين يا همدان ما أجبتم إلا الله ولا أجبتم غيره" فقال زعيمهم سعيد بن قيس: "أجبنا الله وأجبناك ونصرنا نبي الله (ﷺ) في قبره، وقاتلنا من ليس مثلك، فارم بنا حيث أحببت".

فقال الإمام يثني على همدان:

ولو كنت بوابًا على باب جنة لقلت لهمدان ادخلي بسلامِ

***

اضطربت صفوف أهل الشام فإذا الأنصار قد فعلوا بهم الأفاعيل فأرسل معاوية إلى النعمان بن بشير الأنصاري فقال له: "قد والله غمني ما لقيت من الأنصار، صاروا واضعي سيوفهم على عواتقهم يدعون إلى النزال حتى والله جبنوا أصحابي، الشجاع والجبان، وحتى والله ما أسأل عن فارس من أهل الشام إلا قالوا قتله الأنصار، أما والله لألقينهم بحدي وحديدي، ولأعبئن لكل فارس منهم فارسًا ينشب في حلقه، ثم لأرمينهم بأعدادهم من قريش! يقولون نحن الأنصار! ..؟ قد والله آووا ونصروا، ولكن أفسدوا حقهم بباطلهم".

وانتهى كلام معاوية إلى الأنصار، وكانوا جميعًا في جيش علي لم يشذ عنهم إلا النعمان وصاحبان له.. فوقف قائدهم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري يخطبهم: "لعمري لئن غظتم معاوية اليوم لقد غظتموه بالأمس، وإن وترتموه في الإسلام فقد وترتموه في الشرك، وما لكم إليه من ذنب أعظم من نصر هذا الدين الذي أنتم عليه.. فجدوا اليوم جدًا تنسونه

به ما كان أمس، وجدوا غدا جدا تنسونه به ما كـان اليـوم، وأنتم اليوم مع اللواء الذي كان يقاتل عن يمينه جبريل وعن يساره ميكائيل، والقوم مع لواء أبي جهل والأحزاب".

ثم حمل قيس بن سعد بفرسانه على جماعة من أهل الشام، رأى عليهم رجلاً يشبه معاوية، فعمد إليـه سـعد فصـرعه بسيفه، فإذا هو رجل غير معاوية!

ورأى ابن الصباح وهو من رؤساء أهل الشـام فداحـة الخسائر في الرجال، فوقف يخطب أصحابه: "والله إنـي يـا أهل الشام لأظن أن الله قد آذن بفنائكم، ويحكم! خلـوا بـين علي ومعاوية فليقتتلا، فأيهما قتل صاحبه ملْنا معه".

فلما علم علي بذلك قال: "والله ما سـمعت بخطبـة منـذ وردت الشام أنا بها أشد سرورا من هذه ".

أما معاوية فإنه لما سمع ابن الصباح، أندلس فـي آخـر الصفوف، واختبأ، وقال لمن حوله: إني لأظن ابن الصباح قد أصيب في عقله!" فقالوا له: "والله إنه لأفضلنا دينـًا ورأيـا وبأ ولكنك تكره مبارزة علي".

* * * *

حتى إذا كان اليوم العاشر من صفر سنة سبع وثلاثين، أعلن الإمام أنه زاحف اليوم بجميع من معه على معاوية وجميع من معه..

وكان اليوم حارا يتلظّى وهجه.. وسطعت الشمس على الخوذ والدروع تخطف بالأبصار، وتقارعت الأسنة، وغاصت الحراب في مهج المسلمين.

... وخرج رجل من أهل الشام ينادي بين الـ ين: "يا أبا

الحسن. يا علي، ابرز إلي " فبرز إليه علي فقال: "يا علي! إن لك قدما في الإسلام والهجرة. فهل لك في أمر أعرضه عليك يكون فيه حقن هذه الدماء ..؟" قال له علي: "وما ذاك ..؟ " قال: "ترجع إلى عراقك فنخلي بينك وبين العراق، ونرجع نحن على شامنا فتخلِّي بيننا وبين الأمر وأسهرني، وضربت أنفه وعينيه، فلم أجد إلا القتال أو الكفر بما أنزل الله على محمد () . إن الله تبارك وتعالى لم يرض من أوليائه أن يعصى في الأرض وهم سكوت مذعنون، لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فوجدت القتال أهون على نفسي من معالجة الأغلال في جهنم".

فرجع الشامي إلى الصف وهو يقول: "إنا الله وإنا إليه راجعون".

***

وأسر معاوية بعض أصحاب الإمام، فقال عمرو لمعاوية: "اقتلهم"، فقال له أحد الأسرى، وهو من قبيلة أود: "لا تقتلني فإنك خالي". قال معاوية : "من أين أنا خالك ولم يكن بيننا وبين أود مصاهرة ..؟" قال الأودي: "إن أخبرتك فهو أماني عندك"..؟ قال معاوية: "نعم" قال: "أليست أختك أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي ..؟" قال: "بلى" قال: "أليست هي أم المؤمنين ..؟ فأنا ابنها، وأنت أخوها، فأنت خالي" فأعجب معاوية بدهاء الأودي، وسر بحسن حيلته، وصفق طرباً، وقال: "ماله الله أبوه! ..؟ أما كان في هؤلاء الأسرى من يفطن لها غيره ..؟" وأطلقه.

فأشار عمرو عليه أن يقتل الأسرى الآخرين.

وإن معاوية ليوشك أن يقتل الأسرى من أصحاب علي ، إذْ بأصحاب معاوية الذين كان قد أسرهم علي يعودون، فيشيدون بحسن المعاملة التي لقوها، ويحملون إلى معاوية

ومن معه فتوى الإمام : "إن أسير أهل القبلة لا يفـادي، ولا يقتل".

فأطلق معاوية الأسرى من أصحاب علي، وهو يقول لعمرو مؤنبا: "يا عمرو، لو أطعناك فـي هـؤلاء الأسـرى لوقعنا في قبيح من الأمر".

* * * * *

وخلال احتدام المعركة حمل هشام بن عتبة في عدد مـن القراء على أهل الشام، ولكنهم صبروا واستبسلوا استبسـال من يحرص على الموت لتوهب له الحياة، لا من يقاتل عـن زخرف الدنيا وزينتها!

ورأى هشام القراء قد فتنوا بصمود أهل الشام، فقال لهم: "لا يهولنكم ما ترون من صبر هذا الحي من الشام، فوالله ما هي إلا حِمية العرب وصبرها تحت راياتهـا. وهـو صـبر عرفته العرب في جاهليتها..! والله إنهم لعلى الضلال وإنكـم لعلى الحق".

ثم اندفع بمن معه من القراء، وهم في دروعهم لا يبـين منهم غير العيون، فأثخنوا أهل الشام، وتقهقروا، إلا فتى منهم وقف مغيظاً يشتم ويلعن عليا وأصحاب علي، فقال له هشام:

"يا هذا اتق الله فإنه سائلك عن هذا الموقف وما أردت به" فقال الشاب وهو يرتعد من الحنق: "فإني قاتلكم لأن صاحبكم لا يصلي وأنتم لا تصلون، وصاحبكم قتل خليفتنا!" فقال هشام في تؤدة حانية على الفتى: "يا بني! ما أنت وعثمان ..؟ إن الذين اختلفوا معه كانوا من الصحابة وأبنائهم وقراء الناس، وهم أهل العلم والدين، فدع هذا فما أهمل هذا الدين طرفة عين، وأما قولك أن صاحبنا لا يصلي، فإنه أول من صلى، وأفقه خلق الله في دين الله وأولى بالرسول (□) ، وأما كل من ترى معي فكلهم قاريء كتاب الله لا ينام الليل تهجدا، فلا يغرنك هؤلاء الأشقياء ولا يضلوك ..!".

وسكت الفتى برهة يتفكر في كلام هشام، وهزته نبرته الأبوية الحانية الصادقة التي تنبعث من قلبه كأنها نداء هداية!

أهكذا هم أصحاب علي ..؟! وأخذ الفتى يلوم نفسه: كيف صدق ما أفرغوه في روعه: أعلي يقتل عثمان ..؟! أعلي لا يصلي ..؟! فمن يصل إذن..!!

وأغمد الفتى سيفه، وتقدم إلى هشام كابنٍ ضالٍ يريد أن يعود إلى أحضان أهله، وقال ودموع الندم تبلل صوته: "فهل

لي من توبة ..؟!" قال: "نعم.. تُب إلى الله يتب عليك، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات".

فلما عاد الفتى يجادل إخوانه ويدعوهم إلى علي، قال شيخ منهم: (خدعك العراقي). ولكن الفتى انضم إلى علي وضم إليه بعض إخوانه.

وحمى وطيس المعركة، وكاد الناس يفنى بعضهم بعضا.

قال أحد الذين شهدوا ذلك اليوم: "زحف الناس بعضهم إلى بعض، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسرت واندقت، ثم مشى الناس بعضهم إلى بعض بالسيف وعمد الحديد، فلم يسمع السامع إلا وقع الحديد بعضه على بعض، لهو أشد هولاً في صدور الرجال من الصواعق، ومن جبال تهامة يدك بعضها بعض وثار القتام، وضلت الألوية والرايات، فارتموا بالنبل والحجارة حتى فنيت، والأشْتَر يسير فيها بين الميمنة والميسرة فيأمر كل قبيلة أو كتيبة من القراء بالإقدام على التي تليها. فاجتلدوا بالسيوف وعمد الحديد من صلاة الغداة إلى نصف الليل لم يصلوا الله صلاة إلا إيماء، فلم يزل الأشْتَر يفعل ذلك بالناس حتى أصبح والمعركة خلف ظهره، وافترقوا عن سبعين ألف قتيل في ذلك اليوم وتلك الليلة،

وهي ليلة (الهرير). وكان الأشْتَر في ميمنة النـاس، وابـن عباس في الميسرة، وأمير المؤمنين في المقدمة على القلب".

ثم استمر القتال من نصف الليـل الثـاني إلـى ارتفـاع الضحى، والأشْتَر يقول لأصحابه وهو يزحف بهم نحو أهـل الشام: "ازحفوا قيد رمحي هذا" فإذا فعلوا قال: "ازحفوا قـاب هذا القوس". فإذا فعلوا سألهم الإقدام مثـل ذلـك، فتقـدموا وتقدموا حتى مل الناس الإقدام.. فقال: "أعيذكم بالله"..

ثم خرج يسير في الكتائب ويقول: "ألا من يشري نفسـه الله، ويقاتل مع الأشْتَر حتى يظهر أو يلحق بالله ..؟" فلا يزال الرجل من الناس يخرج إليه ويقاتل معه..

ثم إنه صاح في أصحابه: "شدوا شدة ترضون بها الهـل وتعزون بها الدين" وشد معه أصحابه يضربون أهل الشـام حتى انتهى بهم إلى عسكرهم. ثم إنهم قاتلوا عند العسكر قتالاً شديدا فقتل صاحب راية الأشْتَر.

وأخذ علي – لما رأى الظفر قد جاء من قبـل الأشْـتَر – يمده بالرجال..

* * * *

هدأ القتال قبيل منتصف الليل المترع بالدم، ولا صوت في الليل إلا حشرجة الموتى، وأنات الجرحى!

ووقف الإمام خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : "أيها الناس قد بلغ بكم الأمر وبعدوكم ما قد رأيتم، ولم يبق منه إلا آخر نفس. وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم ما بلغنا، وأنا غادٍ إليهم بالغداة أحاكمهم إلى الله عز وجل بسيفي هذا".

وأصاب أهل الشام فزع شديد من وعيد الإمام.

أما معاوية فقد روعه انتصار علي، وخشي الهلاك، وهم بالفرار فلاذ بعمرو يستشيره، ويستنفر مكره ودهاءه، ويستغيث حيلته، فنصحه عمرو بالصبر، وكان معاوية يضع رجله في ركاب فرسه ليفر وينجو بنفسه.. فنزل وقال: "يا عمرو. إنما هي الليلة حتى يغدو علينا بالفيصل! فما ترى..؟"قال

عمرو وقد برحت به الهزيمة : "إن رجالك لا يقومون لرجاله. ولست مثله..! هو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره. أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافونك إن ظفرت بهم، وأهل الشام لا يخافون عليا إن ظفر بهم".

فقال معاوية وجسده البدين المترهل يرتعد في هلع: "فمـا ترى ..؟ فما ترى ..؟ فما ترى يا عمرو ..؟".

قال عمرو في أناة، وقد استمسك بدنه النحيـل القصـير، والتمعت عيناه:" ألق إلى علي وأصـحابه أمـرا إن قبلـوه اختلفوا، وإن ردوه اختلفوا!".

فنزل معاوية من على ظهر فرسه وقال، وقد فرغ صبره: "أي أمر ..؟ عجِّلْ" قال عمرو في هدوء وثبات وهو يبتسم، إذ معاوية يتزايل في أغوار نفسه: "يا معاوية، هون عليـك! ادعهم إلى كتاب الله حكما فيما بينك وبينهم، فإنك بـالغ بــه حاجتك في القوم. عليك! ادعهم إلى كتاب الله حكما فيما بينك وبينهم، فإنك بالغ به حاجتك في القوم. فإني لـم أزل أؤخـر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه. فإن وجدت فيهم من يقبل حكـم القرآن، وجدت فيهم من لا يقبل، فيكون خلاف بينهم فيفشلوا وتذهب ريحهم، فإن قبلوا جميعا منعنا عناء هذه الحرب إلى حين".

فأمر معاوية المنادين أن يدعوا على الاحتكام لكتاب الله.

وارتفعت من أهل الشام صرخات شقت الليل الدامي حزينة فاجعة مروعة تنادي: "ياأبا الحسن، من لذرارينا من الروم إن فنينا. الله الله ..؟ البقيا ..! كتاب الله بيننا وبينكم".

حتى إذا أصبح الصباح كانت المصاحف قد عقدت إلى الرماح، ورفعت على السيوف، ووديان ِفّين تدوي بالنداء:

"ياأهل العراق كتاب الله بيننا وبينكم. يا أبا الحسن لا ترد كتاب الله، فإنك أولى به منا، وأحق من أخذ به".

وتقدم رجال من أهل الشام تحت الرماح التي ربطت إليها المصاحف فقال خطيبهم: " يا أهل العراق. يا معشر العرب.. الله الله في نسائكم وبناتكم، فمن للروم والأتراك وأهل فارس غدًا إن فنيتم ..؟! الله الله في دينكم، هذا كتاب الله بيننا وبينكم".

فصاح الإمام في رجاله: "اللهم إنك تعلم أنهم ما كتاب الله يريدون فاحكم بيننا وبينهم إنك أنت الحكم الحق المبين".

فقام أحد القراء المتزمتين المتطرفين من أصحاب علي، فقال: "يا أمير المؤمنين. إنهم يدعونك إلى كتاب الله وأنت أولى به منهم!".

غير أن أصواتًا ارتفعت من معسكر على تطالب بالاستمرار في الحرب حتى يتمم الله لهم النصر على أهل الشام.

فوقف الأشعث بن قيس من أصحاب علي، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "قد رأيتم يا معشر المسلمين ما كان في يومكم هذا الماضي، وما قد فنى فيه من العرب، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ فما رأيت مثل هذا اليوم قط. ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا إن نحن تواقفنا غدًا إنه لفناء العرب وضيعة الحرمات. أما والله ما أقول هذه المقالة جزعا من الحتف. ولكني رجل مسن أخاف على النساء والذراري غدًا إذا فنين".

فقام رجال من أصحاب علي يطالبون الإمام بالاستمرار في القتال وقالوا: "يا أمير المؤمنين إنا والله ما أجبناك ولا نصرناك عصبية على الباطل، ولا أجبنا إلا الله عز وجل، ولا طلبنا إلا الحق، ولو دعانا غيرك إلى ما دعوتنا إليه لاستشرى فيه اللجاج، وطالت فيه النجوى، وقد بلغ الحق مقطعه، وليس لنا معك رأي".

كانوا قد ذاقوا حلاوة النصر، فتحا وظد على الاستمرار في القتال حتى يتم الله عليهم نعمة النصر.

فوقف الأشعث مغضبا فقال: "يا أمير المؤمنين إنا لك اليوم على ما كنا عليه أمس، وليس آخر أمرنا كأوله، وما من القوم أحد أحنى على أهل العراق ولا أوتر لأهل الشام مني، فأجب القوم لكتاب الله، فإنك أحق به منهم، وقد أحب القوم البقاء، وكرهوا القتال".

فقال علي: "إن هذا أمر فينظر فيه".

واشتجر الخلاف بين أصحاب الإمام، فتقدم واحد منهم فقال: "أيها الناس، إن قتلانا لشهداء وإن أحياءنا لأبرار. وإن عليا لعلى بينة من ربه. ما أحدث إلا الإنصاف وكل محق منصف، فمن سلم له نجا، ومن خالفه هلك".

وقام آخر من أصحاب الإمام فقال: "أيها الناس. إنا كنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله فإن رددناه عليهم حل لهم منا ما حل لنا منهم. ولسنا نخاف أن يحيف الله علينا ولا رسوله. وأن عليا ليس بالراجع الناكص، ولا الشاك الواقف، وهو اليوم على ما كان عليه أمس، وقد أكلتنا هذه الحرب. ولا نرى البقاء إلا في الموادعة".

وارتفع صوت من معسكر الشام: "بيننا وبينكم كتاب الله". قال تعالى: "ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون". فصاح القراء من أصحاب علي: "لا نعرض عن كتاب الله".

فقام علي كرم الله وجهه، فقال: "عباد الله. إني أحق من أجاب إلى كتاب الله، ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي سرح وغيرهم ليسوا بأصحاب قرآن، وأنا أعرف بهم منكم. صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً فكانوا شر أطفال وشر رجال، إنها كلمة حق يراد بها باطل. إنهم والله ما رفعوا المصاحف لأنهم يعرفونها ويعملون بها! ولكنها الخديعة والدهاء والمكيدة! أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا".

ولكن أصحابه عادوا للجدال، وأغلظ بعضهم لبعض، وإنه لفي آلامه يعتصره الحزن على هذا الشقاق، ويعذبه انخداع بعض رجاله بمكيدة معاوية وعمرو، وإنه يبحث بعينيه عن شيوخ القراء من رجاله، عسى شيوخهم أن يردوا من سئم

الجهاد من أصحابه إلى الهدى، إذ بعدة آلاف من شباب القراء قد أقبلوا: السيوف على العواتق، والدروع على الصدور، جباههم المسودة فيها النتوء من كثرة السجود ومس الحصير، فنادوا الإمام باسمه، ولم ينادوه: " يا أمير المؤمنين"..قالوا

في جفاء وغلظة ونبرة متحدية متمردة: "يا علي أجب القوم إلى كتاب الله" فقال لهم: "ويحكم! أنا أول من دعا إلى كتاب الله، وأول من أجاب إليه، وليس يحل لي ولا يسعني في ديني أن أدعي إلى كتاب الله فلا أقبله، إني إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم القرآن، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم، ونقضوا عهده، ونبذوا كتابه، ولكني قد أعلمتكم أنهم قد كادوكم، وأنهم ليسوا العمل بالقرآن يريدون".

فتنحت عصابة من رؤساء القراء عنه، وأخذوا يتحسسون رؤوسهم الحليقة وجباههم السوداء، والإمام علي يتأمل وجوههم المتوترة المتجهمة. ما بالهم! ..؟ وأين رؤساؤهم الذين كان نورهم يضيء في وجوههم ويسعى بين أيديهم ..؟!

واأسفا عليهم..!! استشهدوا جميعا.. ولم يعد إلا هؤلاء بنظراتهم الزائغة الكابية..!!

عاد رؤساء القراء فقالوا للإمام: "يا علي أجبه إلى كتاب الله عز وجل إذا دعيت إليه، وإلا ندفعك برمتك إلى القوم (أي سلمناك لمعاوية وأهل الشام)، أو نفعل بك كما صنع بابن عفان، إنه علينا أن نعمل بما في كتاب الله عز وجل إذا دعينا إليه، والله لتفعلنها أو لنفعلنها".

وجاشت نفس الإمام، لقد تناهت الأمور، وجرت إلى أقصى المدى!

إنه اليوم ليقود المساكين والمتقين ليجاهد بهم أهل الدنيا الحريصين عليها، ويجاهد معهم هؤلاء الغلاة المتطرقين الذين أغلقوا عقولهم عن الحق فهم لا يهتدون!

لقد خولوا لأنفسهم حق فهم القرآن كما يشاءون، وما يملكون أدوات الفهم الحق، وما يتقنون غير العكوف على ظاهر النصوص..!!

ذهب علمهم بموت أشياخهم، وما عاد لهم إلا الشطط، وما يغرهم به الجهل عن أنفسهم، حتى ليبيحوا لأنفسهم أن يحكموا بالكفر على أئمة الهدى..

أيكون هؤلاء هم الذين أنبأ الرسول(ﷺ) بهم، وحذر منهم.. قال عليه الصلاة والسلام: "لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان دعواهما واحدة، فبيناهم كذلك تمرق منهم مارقة، تقتلهم أولى الفئتين بالحق!".. أيكون هؤلاء القراء المتبجحون هم أولئك المارقون..!!

أهم الذين قال (ﷺ) فيهم: (يخرج منكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وأعمالكم مع أعمالهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية).. وقال: يخرجون على حين فرقة من الناس يقتلهم أولى الطائفتين بالله!

أيكون هؤلاء المتمردون المارقون هم الخوارج الذين تنبأ بهم النبي (ﷺ) ووصفهم بأنهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم. وآيتهم أن رؤوسهم محلقة!

وروع أصحاب الإمام إذْ رأوا المتشددين قد أحاطوا بالإمام، يعربدون عليه، وحاولوا أن يكفوهم عنه، ولكنهم عادوا في توتر وتحدٍ يلحون على الإمام ـ مهددين ـ أن يجيب دعوة معاوية إلى كتاب الله..!!

قال الإمام: "فاحفظوا عني نهيي إياكم، واحفظوا مقالتكم لي، فإن تطيعوني فقاتلوا وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم".

فقام رجل من القراء فصاح: "يا أمير المؤمنين اتق الله، فإنك قد أعطيت العهد، وأخذته منا لنفنين أنفسنا أو لنفنين عدونا، أو يفيء إلى أمر الله، وإنا نراك قد ركنت إلى أمر فيه الفرقة والمعصية الله، والذل في الدنيا، فانهض إلى عدونا، فلنحاكمه إلى الله بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين، لا حكومة للناس".

ها هم أولاء القراء يختلون: غلاتهم يهددون عليا إن لم يستجب لما يطلبه معاوية من تحكيم كتاب الله، وآخرون منهم يأبون إلا الحرب، وكلهم يستطيل على الإمام ويصول..!!

أما أصحاب الإمام الآخرون، قد اختلفوا على التحكيم أيقبلون أم يرفضون..!!

وس□ر معاوية بما حدث بين أصحاب علي، وأثنى على عمرو...

ولكن أغلب أصحاب الإمام مالوا إلى الموادعة..

وسأله أحد أصحابه: "ما رأي أمير المؤمنين" قال: "لم يزل أمري معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب. قد

والله أخذت منكم وتركت، وأخذت من عدوكم فلم تترك. وإنها فيكم أنكى وأنهك. ألا إني كنت أمس أميرا للمؤمنين، فأصبحت اليوم مأمورا، وكنت ناهيا فأصبحت منهيا. وقد أحببتم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون".

وسكت وأخذ يتأمل هؤلاء القراء ذوي الجباه السوداء..

ويحهم ما بالهم لا يهتمون إلا بظواهر الأمور..؟ ظاهر النص في القرآن، وظاهر أبدانهم.. ما هذه الثياب الرثة ..؟! ما هذه المرقعات ..؟ أحسبوا أن هذه المظاهر هي النسك والزهادة .. لكم علمت أشياخهم وخيارهم أن الزهد ينبع من القلب، وليس هو ما يعبر عنه الثوب!. لقد علمتم أن الدين متين وأن المساكين والفقراء ليسوا هم الذين يلبسون المرقعات، أو يهملون نظافة أبدانهم، بل هم من تطهرت قلوبهم وأبدانهم، وأحسوا أنهم فقراء إلى الله أغنياء عما عداه..!! هم الذين جعلوا مكارم الأخلاق قوام الحياة، وطريقهم الوضيء إلى محبة الله ...!

وقطعوا تأملات الإمام ونادوه : "يا علي ابعث إلى الأشْتَر ليأتيك".

وكان مصعب بن الزبير مع الإمام حينئذ فروى ..؟

"كنت عنده حين بعث إلى الأشْتَر أن يأتيه، وقد كان الأشْتَر أشرف على معسكر معاوية ليدخله، فأرسل إليه على يزيد بن هانيء أن ائتني، فأتاه فبلغه فقال الأشْتَر: "ائت أمير المؤمنين فقل له: ليس هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي. إني قد رجوت الله أن يفتح لي فلا تعجلني" فرجع يزيد بن هانيء إلى علي فأخبره. فما هو أن انتهى إلينا حتى ارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر، وظهرت دلائل الفتح والنصر لأهل العراق، ودلائل الخذلان والإدبار على أهل الشام. فقال له القوم: واالله ما نراك إلا أمرته بقتال القوم. قال: "أرأيتموني ساررت رسولي إليه ..؟! أليس إنما كلمته على رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون ..؟" قالوا: "فابعث إليه فليأتك، وإلا فواالله اعتزلناك". قال: "ويحك يا يزيد بن هانيء. قل للأشتر أقبِلْ إليَّ فإن الفتنة قد وقعت". فأتاه فأخبره، فقال الأشْتَر: ألرفع هذه المصاحف ..؟! قال: نعم. قال: أما واالله لقد ظننت أنها حين رفعت ستوقع أختلافًا وفرقة! إنها مشورة ابن النابغة – يعني ابن العاص – ثم قال ليزيد: ويحك! ألا ترى إلى ما يلقون ..؟ ألا ترى إلى الذي يصنع الله لنا ..؟ أينبغي أن ندع هذا وننصرف عنه ..؟!

فقال له يزيد: أتحب أنك ظفرت ها هنا وأن أمير المـؤمنين بمكانه الذي هو به يسلم إلى عدوه ..؟. قال: سـبحان الله! لا والله ما أحب ذلك. قال : فإنهم قالوا: لترسلن إلــى الأشْـتَرَ فليأتينك أو لنقتلنك بأسيافنا كعثمان، أو لنسلمك إلى عـدوك. فأقبل الأشْتَر حتى انتهى إليهم فصاح فقال: يـا أهـل الـذي والوهن، أحين علوتم على القوم فظنوا أنكم لهـم قـاهرون، ورفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها ..؟! قد والله تركـوا ما أمر الله به فيها وتركوا سنة من أنزلت عليه، فلا تجيبوهم أمهلونـي ُفواقاً (ما بين الحلبتين للناقة) فـإني قـد أحسسـت بالفتح. قالوا: لا. قال : فأمهلونـي عدوة الفـرس فـإنـي قـد طمعت في النصر. قالوا : لا، إذن ندخل معك في خطيئتك. قال: "فحدثوني عنكم – وقد قتل أماثلكم وبقي أراذلكم – متى كنتم محقين..؟ أحين كنتم تقتلون أهل الشـام ..؟ فـأنتم الآن حين أمسكتم عن القتال مبطلون ..؟ أم أنتم الآن في إمساككم عن القتال محقون..؟ فقتلاكم إذن الذين لا تنكرون فضـلهم وكانوا خيرا منكم، في النار! قالوا : دعنا منـك يـا أشـتر. قاتلناهم في الله وندع قتالهم في الله. إنا لسنا نطيعك فاجتنبنا. قال: خدعتم والله فانخدعتم، ودعيتم إلـى وضـع الحـرب

فأجبتم. يا أصحاب الجباه السود، كنا نظن أن صلاتكم زهادة في الدنيا وشوق إلى لقاء الله، فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت، ألا فقبحًا لكم، ما أنتم برائين بعدها عزًا أبدا، فابعدوا كما بعُد القوم الظالمون. فسبّوه وسبّهم، وضربوا بسياطهم وجه دابته، وضرب بسوطه وجوه دوابهم، فصاح بهم علي فكفوا. وقال الأشْتَر: يا أمير المؤمنين احمل الصف على الصف يصرع القوم. فتصايحوا : إن عليا أمير المؤمنين قد قبل الحكومة وقد رضي بحكم القرآن، ولم يسعه إلا ذلك. قال الأشْتَر: إن كان أمير المؤمنين قد قبل ورضي، فقد رضيت بما رضي أمير المؤمنين. فأقبل الناس يقولون قد رضي أمير المؤمنين، قد قبل أمير المؤمنين، وأمير المؤمنين ساكن لا يبض (لا ينبس) بكلم، مطرق إلى الأرض".

فقطع الأشعث الصمت بقوله: "يا أمير المؤمنين إن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد". قال الإمام في انكسار وسأم: "ذلك إليك، فافعل إن شئت".

فلما جاء الأشْتَر إلى معاوية رحب به! رب يوم أراد فيه أن يصطنعه وأرسل إليه أخاه عتبة بن أبي سفيان، فتعالى عليه، واستطال..!! وها هو ذا الآن عندك يا معاوية! قال

معاوية: "نرجع نحن وأنتم إلى كتاب الله وإلى ما أمر به في كتابه، تبعثون رجلاً منكم ترضونه وتختارونه، ونبعث برجل ونأخذ عليهما العهد أن يعملا بما في كتاب الله، وننقاد جميعا لما اتفقا عليه من حكم الله".

* * * *

واستبقى معاوية ضيفه الأشعث، وأدخله إلى سرادقه، وأكرمه ولم يدعه ينصرف إلى علي، حتى كان قد استماله، وقد عادت نفسه تهجس بأنه سيجذب ثقات علي إليه، وسيغلب بدنياه دين علي..!!

ثم أرسل معاوية إلى علي كتابا قال فيه: كل واحد منا يرى أنه على الحق فيما يطلب من صاحبه، وقد قتل بيننا خلق كثير، ولن يعطي أحد منا طاعة للآخر، وإني أتخوف أن يكون ما بقي أشد مما مضى، فهل لك في أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وبراءة: أن يحكم بيننا حكمان رضيان، أحدهما من أصحابي والآخر من أصحابك، فيحكمان بما في كتاب الله بيننا. فإنه خير لي ولك واقطع□ لهذه الفتن، وارض□ بحكم القرآن إن كنت من أهله".

فكتب إليه الإمام: "من عبد الله أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد فإن أفضل ما شغل به المرء نفسه اتباع ما يحسن به فعله، ويستوجب فضله، ويسلم من عيبه، وإن البغي والزور يزريان بالمرء في دينه ودنياه.. فاحذر الدنيا! لا فرح في شئ وصلت إليه منها، وقد علمت أنك غير مدرك ما قضى فواته. وقد رام قوم أمرا بغير الحق فتأولوا على الله تعالى، فأكذبهم، ومتعهم قليلاً ثم اضطرهم إلى عذاب غليظ، فاحذر يوما يغتبط فيه من أحمد عاقبة عمله، ويندم فيه من أمكن الشيطان من قياده ولم يحاده، فغرته الدنيا واطمأن إليها. ثم إنك دعوتني إلى حكم القرآن، ولقد علمت أنك لست من أهل القرآن، ولست حكمه تريد، والله المستعان. وقد أجبنا القرآن إلى حكمه ولسنا إياك أجبنا. ومن لم يرض بحكم القرآن فقد ضل ضلالاً بعيدا". فلما

عاد الأشعث بكلام معاوية إلى الإمام، قال أكثر أصحابه: "رضينا وقبلنا وسمعنا وأطعنا".

وأشار الأشعث على الإمام بأن يبعث عنه أبا موسى الأشعري.

فقال الإمام: "قد عصيتموني في أول هذا الأمر فلا تعصوني الآن، إني لا أرى أن أوِّلي أبا موسى الأشعري".فقال الأشعث ومن خرج على الإمام من القراء المتطرفين: لا نرضى إلا بأبي موسى ..!

قال الإمام: "ويحكم ! هو ليس لي بثقة! لقد فارقني وخذل الناس عني، ثم إنه هرب شهورا إلى مكة حتى أمنته، لكن هذا عبد الله بن عباس أوليه ذلك".

قال الأشعث والخوارج على الإمام: "والله لا يحكم فيها مضرِيان" فابن العاص وابن عباس من قريش فهما مضريان، أما الأشعث وأغلب الخوارج فمن قحطان، وبين مضر وقحطان عداء قديم وتنافس منذ الجاهلية..!!

وعجب الإمام أن يعود ما كان في الجاهلية مرة أخرى ليحكم في مصائر الناس بعد الإسلام..!!

فقال: "إن أبيتم ابن عباس، فالأشْتَرَ" (وهو قحطاني مثلهم).

قالوا: "وهل سعر الأرض، وهاج هذا الأمر، وأشعل ما نحن فيه إلا الأشْتَرَ ..؟ لا نرضى بغير أبي موسى الأشعري.. فإنه حذرنا ما وقعنا فيه". قال علي: "إن معاوية

لم يكن ليضع لهذا الأمر أحدا هو أوثق برأيه في نظره من عمرو بن العاص، وإنه لا يصح للقرشي إلا مثله. فعليكم بعبد الله بن عباس فارموا به، فإن عمرو بن العاص لا يعقد عقدة إلا حلها عبد الله، ولا يحل عقدة إلا عقدها" فقال الأشعث: "اجعله رجلاً من أهل اليمن إذْ جعلوا رجلاً من مضر" قال الإمام ساخرا: "أخاف أن يخدع يمنيكم فإن عمرو بن العاص ليس من الله في شئ إذا كان له في أمر هوى" قال الأشعث: "والله لأن يحكما ببعض ما نكره وأحدهما من أهل اليمن، أحب إلينا من أن يكون بعض ما نحب في حكمهما وهما مضريان".

فقال الأحنف بن قيس: "يا أمير المؤمنين، إنك قد رميت بحجر الأرض (الداهية من الرجال)، ومن حارب الله ورسوله في أول الإسلام وإني عجمت أبا موسى وحلبت أشطره، فوجدته كليل الشفرة وأنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يكون في أكفهم، ويتباعد عنهم حتى يكون بمنزلة النجم منهم".

فقال الناس: "لا يكون إلا أبا موسى.

وتذكر الإمام علي ما كان من أبـي موسـى الأشـعري، عندما أرسل إليه ليخرج معه إلى معركة الجمل، وكان أبـو موسى إذْ ذاك أميرا على الكوفة فأبى ومنـع النـاس مـن الانضمام لعلي، وقال للناس أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقـول: "إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب"، فقال لهم عمار بن ياسر مغاضبا: "أيها الناس إنما قال الرسول (ﷺ) له وحـده: أنـت فيها قاعدا خير منك قائما".

فظل أبو موسى ينصح الناس إلَّا يخرجوا مع الإمام، حتى جاءه الأشترَ أميرا على الكوفة فاحتل قصر الإمارة وطرده، فهرب أبو موسى إلى الحجاز، وخرج النـاس مـع عمـار الكوفة فاحتل قصر الإمارة وطرده، فهرب أبو موسى إلـى الحجاز، وخرج الناس مع عمار والأشْتَر والحسن بن علـي فوافوا الإمام قبل معركة الجمل ..!

لم يمر من الأعوام ما يكفي للنسيان..!! ما مر إلا عامان فحسب. وها هو ذا الإمام يضطر إلى أن ينيب عنه أبا موسى الأشعري.

أمض الإمام أنهم أسرفوا عليه في العصيان والتمرد واشتطوا، فأرمضه هذا كله، وأخذ يعض يديه ويقول:

"أعصى ويطاع معاوية..!!"

وارحمتا لك يا ولي الله..!!

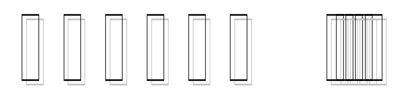
أيشعر القوم بما تعانيه منهم ..؟! هيهات فقد كلت البصائر، ومرضت الأهواء وسقمت الضمائر، وفسدت

السرائر..!! إن الإمام ليشعر بفداحة ما هم مقبلون عليه، ويستوبل عاقبة الأمر، فلن يعقب هذا كله إلا ندما، وما ينتج إلا
شرا..!!

وحاول أن يبصرهم بما هم صائرون إليه، ولكن هيهات..!!

قال: "اصنعوا الآن ما أردتم، وافعلوا ما بدا لكم أن تفعلوه!".

فأرسلوا إلى أبي موسى الأشعري في مكة، فقالوا له: "إن الناس قد اصطلحوا". فقال: "الحمد الله" قالوا له: "وقد جعلوك حكما" قال: "إنا الله وإنا إليه راجعون".



!.. ,aifא f1±ĩ א

أي امتحان هذا الذي كتبه الله عليك يا ابن أبي طالب ..؟!

ولكنه بلاء في الله شديد، فالحمد الله على كل حال!

لقد نهضت بمن أطاعك تجاهد من عصاك، وهو جهاد في سبيل الله، لم ترد به إلا حماية الأمة من الفرقة، والذود عن حوض الشريعة، والمحاماة عن العدل في الناس، والمساواة بين الناس، وإرساء قيم الدين الحنيف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد خاطبت في الرجال والنساء ما أضاءت به الجوانح من ورع، واستنفر سواك من أعماقهم نوازع الطمع!

وفي صراع الورع والطمع، أصبح للباطل صولة، وغلب حب الدنيا بعض الناس، فحرك سواعدهم للبطش بمن يدعون إلى التنزه عن الدنايا.

ولكن المتقين الذين قدتهم لتنقذوا العالم من الفوضى، وتستخلصوا الإسلام من الغاشية، استطاعوا بإذن الله أن يهزموا أهل الأهواء!

تمكن الورع والتقوى وصدق الإيمان من صد طوفان الأهواء الذي أوشك في اندفاعه العارم أن يجتاح العفة، لتتحكم الشهوة، فيتحول الإنسان إلى فريسة وصياد، ويصبح الرجل شركًا للرجل، بدلاً من أن يكون الإنسان أخًا للإنسان، كما أمر الإسلام ..!

كاد أهل الورع الذين تقودهم يا ابن أبي طالب أن ينقذوا الأمة من التفرق، والقلب من التمزق. وإذ بالقراء الذين كانوا أحرص الناس على طاعة الله ورسوله وطاعتك، وأشدهمنفانيا في الدفاع عن عقيدتك، إذْ بهم ينقلبون عصاة بغاة

متمردين..!! ها هم أولاء الورعون من أهل التقوى ينتصرون على الطامعين ممن يحركهم الهوى.. فما بال هؤلاء الورعين
يرفضون هذا النصر الذي ساقه الله إليهم بما جاهدوا في الله حق جهاده ..؟!

ويحهم هؤلاء القراء..!!

ما بالهم ينخدعون بمكر المنهزمين، الذين رفضوا أن يأخذوا ما آتاهم الرسول في كتاب الله، حتى إذا أيقنوا بالهزيمة، وتجرعوا غصة الفشل، رفعوا كتاب الله على أسنة الرماح، ودعوا إلى الاحتكام إليه، كيدا من عند أنفسهم، ومكرا بالمنتصرين عليهم، وفرار ا من الهزيمة.. يا للمكيدة!

إنها لمصيدة، لا دعوة حق وصدق إلى كتاب الله ..!

فلو أن الذين رفعوا المصاحف كانوا يؤمنون بما فيها، لما قاتلوكم أصلا، ولما فرقوا جماعة المسلمين، ولما سفكوا الدماء، ليصعدوا على الأشلاء إلى العروش المشتهاة!

ولكن جندك يا إمام المتقين، خذلوك وأنت تقدم لهم النصر..!

لقد وقفت دونهم، تبارز عنهم، وتحمي صلحاءهم، وتضن بهم على الموت وتقتحم أنت إليه الصفوف، متخذًا الأسوة من أستاذك العظيم (□) الذي كان إذا حمى الوطيس واحمر البأس، قدم أهل بيته، فوقي بهم أصحابه حر الأسنة والسيوف! وإنك لتستقدم لتقي أصحابك بنفسك يا ابن أبي طالب، وعلى الجانب الآخر، يقف معاوية تحت ترس مذهب

ليقيه حر الشمس، وأمامه كل أصحابه يقاتلون عنه ليكفوه القتال، ويقوه وقع النصال..!!ما

كان الظن أن يقدر الطمع من الرجال على ما يعجز عنه الورع..!!

من أين اكتسب جند معاوية كل هذه القدرة على القتال، وهم لا يملكون من الإيمان بعض ما يملكه جندك يا ابن أبي طالب ..؟!!

كيف ظفر معاوية بهذه الطاعة، ورجاله، كما وصفهم هو نفسه، لا يؤمنون بشئ ولا يعرفون غير العطاء ..؟!

وكيف ابتليت أنت يا ابن أبي طالب برجال يعرفون الله حقًا، ويجاهدون في سبيل الله جهاد صدق، ويستشهدون دفاعا عما يؤمنون به، وهم على الرغم من ذلك لا يطيعونك بقدر ما يجادلونك..؟!

لقد غرست تعاليمك في قلوبهم.. وعلمتهم ألا يخروا صما وعميانًا إذا تليت عليهم آيات ربهم، بل عليهم أن يتدبروا فيها، ليفقهوا، ليعبدوا الله عن فهم. وعودتهم أن يتفكروا فإذا هم يتفكرون في كل أمر تصدره، حتى في اللحظات الحاسمة

من الحرب، عندما يجب على الجند أن يسمعوا، ويطيعوا ما يؤمرون..!!

عود معاوية رجاله الطاعة فأطاعوه في كل أموره.. وعودت رجالك يا ابن أبي طالب التفكير، فخالفوك فيما لا يحق لهم خلافه من أوامرك..!

وجندك مع ذلك يحبونك، ومنهم من يفرط في حبك وتمجيدك حتى ليجاوز الحدود!

وهاأنتذا آخر الأمر تواجه النقيضين معا: فتواجه المتطرفين في العبادة من جنودك، وهم القراء العازفون عن الدنيا، الذين اسودت جباههم من كثرة السجود، واصفرت وجوههم من كثرة القيام وطول الصيام والحرص على الزهادة.. وأنت في الوقت نفسه تواجه من الذين أُتخموا من المتاع، وملكهم حب الدنيا، واسودت قلوبهم بما سكن فيها من أطماع ..!!

أنت تواجه الذين ذبلت أجسامهم من الزهد وشدة التعبد، والذين ذبلت ضمائرهم من الحرص، وحدة التطلع..

وها هم أولاء المتطرفون من جندك الذين غالوا في التشبه بك حتى نحلوا وذبلوا، يغالون في التنكر لك والتمرد عليك حتى ليوشكوا أن يضلوا..!

وإنهم ليحملونك الآن على أن تقبل خديعة معاوية وتسقط بهم في المصيدة، وإلا أعملوا السيف فيك، وفيمن ينتصر لك، واضطروك إلى أن تشهر عليهم السيف..!!

* * * *

هكذا أخذ الإمام يفكر ويتململ، منذ أغلظ له القراء، وحملوه حملاً على أن يقبل التحكيم، وأيدهم في ذلك وجرأهم عليه الأشعث قائد اليمانية الذين يشكلون جانبا ضخما من جيش الإمام..

ولقد مضوا في قهرهم الإمام إلى آخر مدى، فاختاروا أبا موسى الأشعري، وحملوا الإمام على أن يقبله، على الرغم من أنه لا يثق به، ويعرف أن عمرو بن العاص يستطيع أن يمكر به كما يشاء..!

ووارحمتا لإمام تأتيه الخلافة بعد فوات الوقت، وقد نضجت الظروف لظهور ملك لا إمام..!!

ووارحمتا لقائد جسور يتجاسر أتباعه على عصيانه، ويقهرونه على ما فيه خسرانه وخسرانهم..!!

ووارحمتا لخلافة كانت تنتظر فارسا في شجاعة علي، وتلتمس حكيما ورعا له مثل بصره بشئون الدين والدنيا، وله مثل حكمته وقدرته، ومثل حرصه على العدل والمساواة.. حتى إذا وجدت الخلافة من تشتاق إليه، نضجت في الأمة ظروف تجعل الحاجة إلى ملك يتعامل مع الدنيا، أنسب من خليفة يتمسك بالدين..!

وما كان علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه يصلح لأن يكون ملكًا يرسم له الدهاء أسلوب عمله.. فقد كانت تقواه تعصمه، فما يصلح هو إلا للخلافة الراشدة، والإمامة الورعة.. على هذا الخلق صاغه مربيه العظيم عليه الصلاة والسلام.

وفي الحق أن الإمام عليا كابد ما لم يكابده أحد من أئمة الدين أو حكام الدنيا..

فحين انتظر الخلافة انصرفت عنه، وحين انصرف عنها سعت إليه، فقبلها مرغما كارها مغلوبا على أمره.. غلبه على أمره إشفاقه على مصير الأمة .. ذلك أنه اكتوى بلهب الفتنة

آخر عهد عثمان بالخلافة، ولقد حاول الإمام جاهدا أن يجنب الأمة شر الفتنة، ولكن الشر كان قد استطار، وكأنما توافقت جميع الأطراف على أن تترك الفتنة تنفجر، كلما وفر أحد الأطراف سببا، تحداه طرف آخر، ثم أتبع سببا..

ولعله من العجيب حقًا أن معاوية بن أبي سفيان، زار ابن عمه عثمان رضي الله عنه، عند بدء الفتنة، فاقترح عليه أن يمده ببعض جند الشام، ولكن الخليفة أبي لأنه لم يشأ أن يردع أهل مدينة رسول الله بجند الشام، ولم يشأ أن ينفق عليهم من بيت المال، فلم يحاول معاوية أن يتحمل نفقتهم من خراج الشام .. على الرغم من أن عثمان رضي الله عنه قد ترك لمعاوية أمر الشام كله، بما يدر من أموال طائلة، وكان معاوية يصطنع بهذا المال أنصارا له.

ومن الغريب حقًا، أن معاوية انصرف من عند ابن عمه عثمان راجعا إلى ملكه بالشام، وما اهتم إلا بأن يطلب من عثمان أن يجعل حق طلب القصاص من قتلته – بعد أن يقتل – لمعاوية..!!

لماذا لم يقم معاوية مع ابن عمه ليقيه من القتل ..؟! لماذا لم يرسل إليه جندا يتحمل هو من بيت مال الشام نفقته..؟!

ثم لماذا لم يبادر إلى نجدة عثمان عندما استصرخه المرة بعد المرة ــ لما حاصره الثوار ــ ومنعوا عنه الماء والطعام، فلم يمده أحد بالماء والطعام إلا على، الذي أرسل ولديه الحسن والحسين ليقوما مع بعض أبناء الصحابة على حراسة عثمان ..؟! لماذا تربص معاوية بعثمان الدوائر، وانتظر حتى يقتل ليطالب بدمه بدلاً من أن يخف إلى نصرته وهو قادر عليها ..؟!

ثم لماذا ضم معاوية إليه عمرو بن العاص، ليستفيد بدهائه وشجاعته، في مواجهة ورع علي، وهو يعلم أن عمرو بن العاص كان من أشد المحرضين على عثمان، وقد اعترف هو بذلك لكل الناس..؟!

إذا كان معاوية يريد القصاص لعثمان حقًا، أما كان يجب عليه أن يقتص من عمرو الذي اعترف بأنه حرص على قتل عثمان، منذ عزله عن مصر، ورفض أن يعيده إليها...؟!

ولكن معاوية انتزع لنفسه حقًا ليس له، وهو يعلم أنه ليس له، واستصدر بذلك فتوى من بعض المنتسبين إلى الدين، أغرقهم بالمال، فأفتوه بما يريد..!!

وهؤلاء هم آفة الدين في كل زمان ومكان.. ولقد كان الرجل منهم يستمتع بما يغدقه عليه معاوية، فيصدر الفتوى كما يشاء معاوية، بلا وازع من دين، ولا خجل من الناس.. بل إن الواحد منهم ليزهو بغناه ويتباهى بما يملك وينفق، ويستمتع بالطيبات، ويصم أذنيه عن أنين المساكين، ويطمئن ضميره الديني إلى هذا الترف كله، وفي الأمة جياع..

وما كان الواحد من هؤلاء المرتشين بصاحب دين، ما كان لأحد منهم سابقة في الإسلام، فكل أهل السابقة والمهاجرين والأنصار أجمعوا على لوم معاوية، ووصفوه بالبغي على الإمام الشرعي، ووصموه بأنه يمزق الأمة، ويحدث خرقا في الإسلام، واعتزل الأمر منهم أربعة نفر!

أما صنائعه المرتشون، فما كانوا يستطيعون أن يخالفوا آراء المهاجرين والأنصار، ولكنهم ما كانوا يستطيعون أن يسكتوا عن اتهام سيدهم وولي نعمتهم بالبغي .. فلما رأوا إجماع الصحابة المهاجرين والأنصار على نبذ معاوية، وعلى اتهامه بأنه وجنده الذين حاربوا عليا في صفين، هم الفئة الباغية، لما رأى صنائع معاوية المرتشون هذا الإجماع من المهاجرين والأنصار صحابة الرسول (ﷺ) على اتهام

معاوية بالبغي، وعلى وصمه هو وعصبته بأنهم الفئة الباغية، لجأ المرتشون إلى حيلة يضللون بها الجهلاء والطغام..فزعموا أن معاوية في حربه لعلي، مجتهد أخطأ فله أجر من الله ..! فالمجتهد مأجور: إن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد..!!

رأوا أن معاوية مأجور من الله لأنه خالف الله، إذ بغي على الإمام الشرعي، ومزق الأمة، وخرج على الجماعة.

رأوا أن معاوية مأجور من الله لأنه بالخروج على الإمام طالبا الملك لنفسه، وبقتاله عليا قد أهدر الدماء الزكية، وتسبب في قتل عدد من الضحايا على رأسهم عمار بن ياسر، وتسبب في قتل سبعين ألفًا من خيرة المقاتلين

المسلمين..!! ولكن الذي رأى منهم أن معاوية مأجور من الله، هو ما

سخا به معاوية أجرا للفتيا، وأجرا للضمير! هي المصالح للرجال..!!

***

وفي الحق أن عليا كرم الله وجهه، كان قد وجد نفسه بعد

استشهاد عثمان رضي الله عنه، في موقف صعب شائك: فقد

اتجه إليه الناس يبايعونه، وفي طليعتهم الثوار الذين حاصروا عثمان .. ولكنه ردهم، فهددوه، فأفهمهم أنه لا يريد الخلافة، وأنه مهما يكن الأمر لا يقبل بيعتهم فليس لهم حق البيعة. إنما البيعة للمهاجرين والأنصار.. فلما ألح عليه المهاجرون والأنصار قبل البيعة لأنه إن رفضها دفع بالأمة إلى الفوضى، إذ سيتركها بلا إمام، وسيترك الثوار يحكمون ويتحكمون، ويبطشون، وسيترك الذين استفادوا من الجريمة يظلمون وينكلون وينهبون، وسيترك الأمة الإسلامية نهبا للمتربصين والطامعين والأعداء المحيطين بها من كل أقطارها، ومن يدري فربما وثبوا عليها..

قال الإمام كرم الله وجهه مشيرا إلى اتهام معاوية وعصبته : "إن شاءوا أن أحلف لهم عند مقام إبراهيم بالله ما قتلت عثمان، ولا أمرت بقتله، ولقد نهيتهم فعصوني! اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان! لقد طاش عقلي يوم قتل عثمان، وأنكرت نفسي، وجاءوني للبيعة فقلت: "والله إني لأستحيي من الله أن أبايع قوما قتلوا رجلاً قال فيه رسول الله (ص): إني لأستحي ممن تستحي منه الملائكة. وإني لأستحي من الله من أن أبايع وعثمان قتيل في الأرض لم يدفن بعد،

فانصرفوا. فلما دفن بعد ثلاثة أيام رجع الناس يسألونني البيعة. فقلت: اللهم إني أشفق مما أقدم عليه.. ثم جاءت عزمة فبايعت، فلما قالوا لي: (أمير المؤمنين) كان صدع قلبي!

وإني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ إن عثمان ﴿ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا ﴾ وهو أحد الذين نزلت فيهم هذه الآية الكريمة. وكان عثمان رضي الله عنه خيرنا، وأوصلنا للرحم، وأشدنا حياء، وأحسننا طهورا، واتقاء للرب عز وجل".

فقد كان الإمام دائما يفضل على نفسه من سبقه من الخلفاء الراشدين!

وكانت أول خطوة للإمام بعد البيعة خطواته إلى دار عثمان، فسأل امرأته نائلة عمن قتله، فلم تتعرف على أحد ممن دخلوا عليه وقتلوه غير أنها رأت محمد بن أبي بكر دخل عليه.. وكان علي زوج أمه، وهو الذي ربى محمدا،

فناداه، فسأل عما قالته امرأة عثمان فقال: "صدقت، قد والله

دخلت عليه فذكر لي أبي، فقمت عنه وأنا تائب إلى الله تعالى. والله ما قتلته، ولا أمسكته" قالت: "صدق".

وأقسم علي: "وأيم الله لو أمرني بالقتال لقاتلت دونه، أو أموت بين يديه! ولقد رددت الناس عنه مرارا، وأرسلت إليها الحسن والحسين بسيفيهما لينصراه ويموتا دونه، فنهاهما عن القتال، ونهى أهل الدار".

على أن عليا لم يكد يبدأ ممارسة الحكم حتى استهل حكمه بعزل الولاة الغاشمين.

ثم طالب الذين ثارت حولهم الشبهات أن يرفعوا إليه حسابهم، وردت إلى بيت المال كل ما أخذ من أموال بغير حق، ونزع الإقطاعات من الذين لا يستحقونها..

لقد شن حربا ضارية على أصحاب الأهواء، وعلى الذين أثروا بغير حق، وعلى الذين ظلموا الرعية، فألفوا حلفًا عليه.. ثم أقسم أنه سيرد إلى بيت المال كل مال دفع بغير حق، ولو كانوا قد تزوجوا به النساء، واشتروا الإماء!

فأما الولاة الذين عزلهم أو طلب منهم أن يرفعوا إليه حسابهم، فقد نهبوا ما في بيت المال، وفروا عنه بما سرقوه، وانتهى بهم المطاف إلى معاوية، فأقرهم على ما سرقوه،

وأفتى صنائعه من المنتمين إلى الدين بأن هذا المال المسروق حلال لسارقه..!! وأغدق معاوية على مقترفي الحرام من الولاة المعزولين والهاربين إليه، وعلى الذين حللوا الحرام، ممن ارتضوا بعد ذلك أن يكونوا – وهم حملة القرآن – كلاب صيد لمعاوية يسلطها لتنبح أو تنهض عليا وبنيه وآل البيت...!!

كان هؤلاء هم أخطر أصحاب معاوية شأنًا، وانضم إليهم كل الذين خشوا الإمام كرم الله وجهه على ما في أيديهم، والذين خافوه على أطماعهم..!

وهكذا استنفر الإمام ضده كل الأثرياء، وكل الحالمين بالثراء، ولكنه استنفر إليه كل الذين يحبون الله ورسوله، وكل الذين يدافعون عن العدل ويأتمرون بالإحسان، وكل الذين يرضون بالمساواة ويناضلون في سبيلها، وكل المتقين والمساكين.

رفض معاوية البيعة لعلي، ورفض الامتثال للأمر بعزله، وجمع حوله كل الذين وصفهم من قبل بأنهم لا يعرفون الإسلام، ولا يعرفون إلا العطاء، وجعل راياتهم للولاة الظالمين السارقين الذي عزلهم علي، وللذين نهبوا خزائن

الدولة، وللذين انتهكوا الرعية، وعدوا مصلحيها وهم أجراؤها، وسجنوا وعذبوا معارضيهم، وللذين حللوا له الحرام!.

وهاشم جد علي وأمية جد معاوية أخوان!

ومن عجب أن هاشم وأمية من بني عبد مناف، قد اختار كل منهما طريقه منذ الجاهلية فما حاد عنه، وسار عليه بنوه بعد الإسلام..

فقد اختلف الأخوان هاشم وأمية في الجاهلية فقضى لهاشم، وقضى على أمية أن يترك مكة عشر سنين، فأقام في الشام؛ وهناك أُثري ثراء واسعا، وكون له أسرة كبيرة فأصبح بنو أمية ملوك التجارة في مكة والشام، وكانوا أكثر قريش مالاً ونفرا..

أما هاشم فقد اهتم بأمور بيت الله الحرام وسقاية الحاج أكثر من الاهتمام بالتجارة.. واهتم بنو هاشم من بعده بأمور الدين بقدر ما اهتم بنو أمية بأمور الدنيا..

حتى إذا جاء الإسلام واختار الله تعالى من بني هاشم رسوله ليرسله بالهدى ودين الحق، وليظهره على الدين كله، اضطرم بنو أمية حسدا على بني هاشم، وفزعوا من الدين

الجديد، وخافوا على تجارتهم، ورأوا محمدا يبشر المعذبين والمستضعفين بأن الناس سواسية كأسنان المشط، ويواجههم بما أوحى إليه الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾.

فعربد عليه بنو أمية مع كبار المشركين من أهل مكة، ممن يهدد الدين الجديد مصالحهم، وسؤددهم ومكاسبهم ومكانتهم.. وإذ بهم يعذبون محمدا وأتباعه عذابا أيسره يذهل المرء عن نفسه.. وإذْ بأئمة الكفر من بني أمية وحلفائهم يضطرون بني هاشم إلى جبلٍ وعرٍ، ويمنعونهم الطعام والماء، ويحرمون على أهل مكة التعامل معهم، أو مصاهرتهم أو إطعامهم إلا أن يُسلّموا محمدا، فإن لم يُسلّموه فلا أمن لهم، ولا حق لهم في الطعام أو الماء، فليظلوا منبوذين بالعراء!

وكتبوا بهذه المقاطعة صحيفة علقوها على الكعبة، حتى إذا أكلتها الأرضة إلا كلمة "باسمك اللهم" وتراخت قبضة الحصار عن بني هاشم، عاد رءوس الكفر من بني أمية وحلفائهم يؤذون محمدا والمسلمين، حتى اضطروهم إلى الهجرة إلى يثرب.

وبعد حين، "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير".

فقتل حمزة بن عبد المطلب وابن أخيه علي بن أبي طالب من رءوس الكفر مقتلة عظيمة، وكان معظم صرعاهم يوم بدر من بني أمية .. فتأججت في صدورهم نيران البغضاء..!

وما زال أبو سفيان يحرض على محمد ويجمع الأحزاب ويستنفر الكفار من الأرض ليقتلوا النبي، ويجتاحوا بني هاشم، ويستأصلوا المسلمين.. وكان أبو سفيان هو رئيس الأحزاب، ولكن الله لم يخذل نبيه، فقد نصر عبده، وأيد جنده، وهزم الأحزاب وحده، فارتدت الأحزاب عن المدينة خائبين..

وكانت راية المسلمين في معظم غزوات الرسول لعلي بن أبي طالب.. حتى جاءت البشارة: ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾. فقاد الرسول (ﷺ) جيش الفتح إلى مكة..

ويوم الفتح دخل الناس في دين الله أفواجًا؛ وأسلم أبو سفيان ومعاوية وسائر بني أمية، وخافوا أن ينتقم منهم الرسول بما سلف من جرائمهم، ولكنه صفح عنهم، وقال لهم: "اذهبوا فأنتم الطلقاء" فسمّوا "الطلقاء".

وقد علم كل مسلم أن الطليق لا حق له في الخلافة؛ وأن الخلافة لا تحق إلا للسابقين من صحابة رسول الله (ﷺ)؛ واتفقوا على أنها للمهاجرين دون الأنصار، لأن رسول الله أوصى المهاجرين بالأنصار خيرا، فكأنه استخلف المهاجرين..

كم من الأعوام قد مرت على هذه الأحداث ..؟! ولكن بني أمية لا ينسون..!!

ما كمن في نفوسهم من بني هاشم ظل كامنًا.. وما حملوا من موجدة واضطغان على علي بن أبي طالب ظل كما هو، منذ قتل يوم بدر أئمة الكفر منهم، لم تطفيء نار العداء ما شربته هند أم معاوية من دم حمزة، ولا كبده التي مضغتها..!! ومنذ لاكت أم معاوية كبد حمزة سيد الشهداء غلب عليها اسم آكلة الأكباد!

ولقد جهد الإمام أن ينزع من النفوس هذه الضغائن الجاهلية، فالإسلام يجب ما قبله؛ ويجب أن يعمر الجميع قلوبهم بما جاء به الدين الحنيف من قيم فاضلة، فيحب الواحد منهم لأخيه ما يحب لنفسه، ويعبد الله كأنه يراه، ويستقيموا

كما أمروا، ويذكروا نعمة الله عليهم إذ كانوا أعداء فألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله إخوانا .. ولكن هيهات..!!

لم يكد المسلمون يبايعون لعثمان حتى أتاه أبو سفيان كبير بني أمية فقال: "إنه الملك فاحرص عليه؛ فما أعرف غيره، ما أعرف ما الجنة ولا النار".

فزجره عثمان رضي الله عنه..

لكنه لم يزجر، بل مضى بنو أمية جميعا؛ يعاملون الناس كما لو كانوا رعاياهم ..!

وعثمان كما وصفه علي "أوصلنا للرحم". من أجل ذلك فقد استغل ذوو قرباه من بني أمية هذه الفضيلة فيه.. استغلوا عطفه عليهم، وبره بذوي القربى، كما أمر الله عباده، فإذا بهم يستثيرون الناس عليه، ويزداد الخليفة الورع برا بذوي قرباه، ويزداد أولو قرباه استغلالاً لهذا البر، واستفزازا للرعية، حتى اشتعلت الثورة على عثمان، وتركه معاوية لقتلته يقتلونه، ليستفيد هو من الموقف الجديد، وليكون له سبيل على بني هاشم، وليستطيع أن يتعلل أمام المسلمين، حين يرفض البيعة، ويعلن العصيان ويبقى على إمامه! تعلل بأنه يطالب بدم عثمان، وهو في الحق يطالب بالملك..!!

وقد واجه ابن عباس معاوية بهذا فأرسل إليه: "أما أنت يا معاوية، فزينت له (لعثمان) ما صنع، حتى إذا حوصر طلب نصرك، فأبطأت عنه وتثاقلت وأحببت قتله وتربصت لتنال ما نلت!".

واعتزل الفتنة ثلاثة أو أربعة نفر من المهاجرين والأنصار، أما بقية الصحابة، فقد عملوا بقوله تعالى: ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ فانضموا جميعا للإمام..

أما المهاجرون والأنصار الذين اعتزلوا الفتنة، فقد صفع كل منهم معاوية بهذه الحقيقة نفسها، عندما استنصرهم معاوية ضد علي، وقالوا له جميعا أنه بغى على الإمام، وأنه خذل عثمان حين استنجد به، ليستفيد من قتله.. وقالوا له جميعا أنه طليق لا حق له في أن يطمع في الخلافة، وأن يوما واحدا من علي بمعاوية حيا وميتا.. وكلهم أزرى على

معاوية ونصحه ألا يفرق جماعة المسلمين وألا يبغي علـى
إمام الأمة، وأن يتقى الله في الدماء الزكية..

هكذا أرسل إليه سعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة وعبد الله بن عمر..

ولقد أعلن عبد الله بن عمر قبل موته ندمه الشديد على اعتزاله، فقد قاده اجتهاده إلى أنه كان يجب ألا يخذل ولي الأمر، وألا يعتزل القتال الذي أمر الله تعالى به حين شرع للمسلمين ما يعملون إن فئتان من المسلمين اقتتلوا..

وقد بكى ابن عمر في آخر عهده بالدنيا وقال: ما أندم على شئ في دنياي إلا لأني لم أقاتل الفئة الباغية التي قاتلها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

ولقد دخل أبو الطفيل على معاوية فقال له معاوية: "يا أبا الطفيل. أنت من قتلة عثمان" قال: "لا، ولكني ممن لم ينصره" قال: "وما منعك من نصره ..؟" قال: "منعني أن المهاجرين والأنصار لم ينصروه، ولا رأيت أحدا نصره" قال معاوية: "يا أبا الطفيل. أما طلبي بدمه نصرة له ..؟" فقال أبو الطفيل ضاحكًا: "يا معاوية، أنت وعثمان كما قال الشاعر:

لألفينك بعد الموت تندبني وفي حياتك ما زودتني زادي

***

إن الإمام ليتأمل كل الذي مر به ويعجب من تناوح الأيام والليالي على الأمة بكل هذه الغرائب! وإنه ليبتسم من كل ذلك .. فهكذا قدر له .. ولقد عرف الظلم منذ كان صغيرا.. وقال وهو يسخر من عبث الأيام: كنا ونحن صغار يخطيء أخي جعفر، فيضربني أخي عقيل على خطأ جعفر ..!

وها هو ذا قد قدر له أن يعيش ليجد معاوية بن أبي سفيان ينازعه، ويثير الناس عليه، ويسفح بينهما بحرا من دماء

المسلمين..!! أشرف علي وجيشه على النصر، فاستشرف معاوية

وعمرو إلى فتنة أصحاب علي!

ونجحت حيلة رفع المصاحف في تمزيق شملهم، وفض اجتماعهم، وحملوا عليا على ما يكره.

ثم جد معاوية في أن يجذب إليه ثقات علي، والذين اعتزلوا القتال من رؤساء الناس.. لن يكتب مرة أخرى لأولئك الثلاثة من كبار الصحابة: سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة الأنصاري، فقد أرسل إليهم من قبل، فعيروه بأنه من الطلقاء، وأنكروا دعوته، وازدروا

به، ووصموه بأنه خرج على الجماعة، واختفى وراء قميص عثمان طمعا في الخلافة، وهي لا تحق لأحد الطلقاء!

ها هو ذا استمال الأشعث، ولكن لا بد لـه مـن رجـال آخرين.. واستشار عمرو ابن العاص فقال له: "إن بأرضـك رجلاً له شرف واسم، واالله إن قام معك استهويت به قلـوب الرجال، وهو ع بادة بن الصامت".

فبعث إليه معاوية يثني على ع بادة، ويعده بأن يغدق عليه الأموال والقطائع والجواري الحسان.. ثم حدثه عن عثمـان المظلوم، وحض أبا عبادة على أن يكون معه في الطلب بقتلة عثمان، ثم أمن سرب عبادة، فهو لا يريد منه أن يحارب عليا معه، فقد انتهت الحرب إلى التحكيم، ولكنه يريد تأييده.

ولوح له معاوية بأنه حين ينتصر سيوليه على ما شاء من الأمصار، ويضاعف عطاءه، ويغدق عليه الأموال والقطائع!

وابتسم عبادة ساخرا.. إن معاوية لا يتغير، وهو منذ جعله عمر أميرا على دمشق يحسب أنه يستطيع أن يرشـو مـن يشاء..!!

ولكنني أنا ع بادة بن الصامت يا معاوية..!! أحد خمسـة من الأنصار جمعوا القرآن في زمن الرسول (). أنا عبادة

الذي حذره الرسول من الرشوة حين جعله أميرا على الصدقات في بعض الأمصار .. قال لي (ﷺ) : "اتق الله لا تأتي يوم القيامة ببعير تحمله له رغاء، أو ببقرة لها خوار، أو شاة لها ثؤاج (صوت الشاة)".

صدق رسول الله.. إذا كان المرتشي ببقرة أو بعير أو شاة سيحمل ما ارتشى به على رأسه يوم القيامة، فكيف بمن يرتشَى بضيعة أو أكداس الذهب والفضة ..؟! لك الله يا معاوية..!! وأنت أيضا يا عمرو..!!

أتراودان مثلي على دينه! ..؟ أما تعلمان أني من أوائل الذين بايعوا الرسول (ﷺ) ..؟! والله لقد بايعته على ألا أخاف في الله لومة لائم!

رب يوم تخاصمنا فيه يا معاوية لما أرسلني عمر أعلِّم أهلَ الشام القرآن وأنكرت عليك أمورا، فلما أغلظت لي قلت

لك: "لا أساكنك في أرض أبدا".

وعدت إلى المدينة، فلما سألني أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "ما أقدمك ..؟" حكيت له عما كان منك، فقال عمر على ملأ من المهاجرين، وقومي الأنصار:"

ارجع إلى مكانك فقبح الله أرضا لست فيها أنت ولا أمثالك"...

أتذكر يا معاوية ..؟! أتذكر يا عمرو..؟! كنت واليا على مصر حينئذ، وكان عمر قد استقدمك لأن ابنك ضرب ابن أحد الأقباط، فأعطى المضروب سوطًا وقاله له: "اضرب ابن الأكرمين! " أتذكر يا عمرو..؟! ثم قال لك عمر: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ..؟! " كان عمر يهدد من يظلم الرعية من عماله، بأنه سيلقيه على الأرض، ويضع قدم المظلوم على خده ..!! وباالله كم كان عماله يخشونه ..!! هكذا شاع العدل. ألم يكتب لك عمر يا معاوية يؤنبك على غلظتك معي، ويرسم حدود العلاقة بيننا: "لا إمرةَ لك عليه" ..؟! مازلت أذكر يوم وقفت أخطب الناس وأنت حاضر يا أمير الشام.. أتذكر كلماتي..؟! كلمات مؤمن بايع الرسول على ألا يخاف في الله لومة لائم .. وكنت أنا مروعا من أشكال في البيع ظاهرها البيع وباطنها الربا، فقلت "أيها الناس إنكم قد أحدثتم بيوعا لا أدري ما هي ..! ألا إن الفضة بالفضة وزنًا بوزن، والذهب بالذهب. ألا ولا بأس ببيع الذهب بالفضة يدا بيد والفضة أكثرهما، ولا يصلح نسيئة.

ولا بأس ببيع الحنطة بالشعير والشعير أكثرهما يدا بيـد، ولا يصلح نسيئة، ولا بأس ببيع الحنطة بالحنطة مدا بمد (مكيال أهل الشام)، والملح بالملح مدا بمد، فمـن زاد أو أزداد فقـد أربى (اقترف الربا).

أتذكر فزع المرابين من أثرياء الشام إليك لتنهـاني ..؟! ولكنك صرفتهم عنك، حتى إذا قتل عمـر وتـولى عثمـان رضي الله عنهما وانفجرت الفتنـة، اعتزلت أمـر النـاس .. أتجيء اليوم وتدعوني أنت وعمرو، وتلوحان لي بالرشـوة، لأغمس نفسي في الفتنة بعد أن سالت دماء المسلمين! ..؟ يا للرجلين معاوية وعمرو حين يلتقيان..!!

لم يا معاوية خرجت على الإمام ورفضت البيعة ..؟!لقد تسترت خلف قميص عثمان، لتطلب الملك، فأحـدثت في الأمة أمرا لا يلتئم صدعه، ولا تسد ثلمته..!!

وأنت يا عمرو بن العاص لم تتردى في الجهالة، وتتسكع في باطل معاوية ..؟!

ما من أحد يجهل أن معاوية أرسل إليك حين أمر علـــي أمير المؤمنين بإعادة الإقطاعات التي أقطعها عثمان الخليفـة المقتول، ورد ما منحه من أموال طائلة إلـى بيـت المـال

فاستنفرك معاوية من أرض فلسطين إليه في دمشق، لتقاوم معه عليا قبل أن يأخذ منك أموالك وضياعك..!! ليتكما اجتمعتما على حق..!! .. ولكن رحم الله رسول الله (❐)، فما علمنا إلا صدقًا، وما كان قوله إلا حقًا..!!

وانتظر معاوية وعمرو أن يجيب عبادة بن الصامت.. ولكنه ظل صامتًا، يتأمل أمره مع معاوية منذ عرف معاوية.. ولاحظ معاوية وعمرو شروده واستبطأ رده.. فألحا عليه أن يقول.

فقال: "قد سمعت ما قلتما ..! أتدريان لم جلست بينكما في مكانكما ..؟" قالا: "نعم، لفضلك وسابقتك وشرفك" قال: "لا والله، ما جلست بينكما لذلك، وما كنت لأجلس بينكما في مكانكما، ولكن بينما نحن نسير مع رسول الله (❐) في غزوة تبوك إذ نظر إليكما تسيران، وأنتما تتحدثان، فالتفت إلينا فقال: "إذا رأيتموهما اجتمعا ففرقوا بينهما، فإنهما لا يجتمعان على خير أبدا!".

ثم صاح عبادة فيهما: "تفرقا"!

فوجم معاوية ونظر إلى عمرو بن العاص يؤنبه على اقتراحه دعوة عبادة وإذ هما يتبادلان النظرات، انصرف عبادة.

ثم أرسل معاوية إلى أيمن بن خريم ليضمه إليه. وأيمن سيد قومه، راجع العقل، عابد مجتهد، يأنس الناس إلى حكمته، وكان معاوية قد أرسل له من قبل يغريه بالانضمام إليه، ويعده بأن يوليه فلسطين إن قاتلَ معه عليًا، فأرسل أيمن إلى معاوية يعنفه ويتهمه بأنه يحارب أهل القبلة، طمعا في الملك. قال:

ولست بقاتل رجلاً يصلي ... على سلطان آخر من قريشَ
له سلطانه وعلى إثمي ... معاذ الله من سفهٍ وطيشِ
أأقتل مسلمًا في غير جرمٍ ... فليس بنافعي ما عشتُ عيشي

ولكن معاوية لا يدعو أيمن اليوم ليقاتل معه، فقد انتهى القتال، ولكن ليدفيء به ظهره!

ولم يتلق معاوية ردا من أيمن. فقد اعتزل الأمر كله..

* * * *

ورأى الإمام أن يكتب إلى عمرو بن العاص، يناشده أن
يتقي الله، فكتب إليه: "أما بعد، فإن الدنيا مشغلة عن غيرها،
ولم يصب صاحبها منها شيئًا إلا فتحت له حرصا يزيده
فيها رغبة، ولن يستغنى صاحبها بما نال عما لم يبلغه، ومن
وراء ذلك فراق ما جمع، والسعيد من وعظ بغيره، فلا
تحبط أبا
عبد الله أجرك، ولا تجار معاوية في باطله".

فأجابه عمرو: "أما بعد، فإن ما فيه صلاحنا وألفتنا الإنابة
إلى الحق، وقد جعلنا القرآن حكما بيننا فليصبر الرجل منا
نفسه على ما حكم عليه القرآن، والسلام".

فكتب إليه الإمام: "أما بعد، فإن الذي أعجبك من الدنيا مما
نازعتك إليه نفسك ووثقت به منها لمنقلب عنك، ومفارق لك،
فلا تطمئن إلى الدنيا فإنها غرارة. ولو اعتبرت بها مضى
لحفظت ما بقي، وانتفعت بما وعظت به. والسلام".

فرد عليه عمرو: "أما بعد، فقد أنصف من جعل القرآن
إمامًا، ودعا الناس إلى أحكامه، فاصبر أبا الحسن، وأنا غير
منيلك إلا ما أنالك القرآن".

جاء عمرو إلى معاوية في وفد من أصحاب معاوية لكتابة
وثيقة التحكيم وكان الإمام يجلس مع بعض أصحابه، فأملى

الإمام: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين.." فقال عمرو للكاتب: "بل اكتب اسمه واسم أبيه، هو أميركم وليس أميرنا" فقال الأحنف للإمام: "لا تمح اسم أمير المؤمنين فإني أتخوف إن محوتها ألا ترجع إليك أبدا"، فقال الإمام: "الله أكبر! سنة بسنة! والله إني لكاتب رسول الله (❐) يوم الحديبية، فكتبت: محمد رسول الله. فقال سهيل بن عمرو مبعوث كفار قريش على رسول الله (❐): لو كنت رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فأمرني رسول الله عليه الصلاة والسلام بمحوه، فقلت: لا أستطيع! فقال: يا علي إني لرسول الله، وإني لمحمد بن عبد الله، ولن يمحو عني الرسالة كتابي إليهم من محمد بن عبد الله. وإنك ستُدعى إلى مثلها فتجيب! فقلت لسهيل بن عمرو مبعوث كفار قريش: إنه لرسول الله وإن رغم أنفك. فقال رسول الله (❐): يا علي اكتب محمد بن عبد الله. إن لك مثلها ستعطيها وأنت مضطهد!".

وسكت علي ثم أضاف: "فاليوم أكتبها إلى أبنائهم كما كتبها رسول الله (❐) إلى آبائهم سنة ومثلاً" فقال عمرو: "سبحان الله، تشبهنا بالكفار ونحن مؤمنون ..؟!".

وما كان الإمام منشرح الصدر للحديث مع عمرو أو غيره، وما كان يتهم معاوية ومن معه بالكفر، وقد سمع القراء يتهمون معاوية وأصحابه بالكفر فقال: "إنما نقاتلهم على البغي ولا نقاتلهم على الكفر".

إنهم في رأيه لبغاة.

ولقد أجمع أهل السنة على أن معاوية مخطيء، وأنه ومن معه هم الفئة الباغية!

ولقد وضع الإمام أصول التعامل مع الفئة الباغية: فلا يقتل منهم أسير ولا يُفادَى، ولا يغنم منهم إلا ما يستعمل في الحرب، ولا يطارد من فرَّ منهم فعسى أن يعود إلى الصواب.

نظر الإمام إلى عمرو، ولم يجبه ثم أمر بأن تكتب صحيفة التحكيم.. فكتبوا: "هذا ما تقاضى عليه على بن أبي طالب عن أهل العراق وشيعته ومن كان معه من المؤمنين والمسلمين، ومعاوية بن أبي سفيان عن أهل الشام وشيعته ومن كان معه من المؤمنين والمسلمين، أن ننزل عند حكم الله وكتابه، وألا يجمع بيننا غيره، وأن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيا ونميت ما أمات، والحكمان

هما أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص، فما وجد الحكمان في كتاب الله عملاً به، وما لم يجدا في كتاب الله تعالى فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة. وأخذ الحكمان من علي رضي الله عنه ومن معاوية ومن الجند من العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما وأموالهما، عنه ومن معاوية ومن الجند من العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما وأموالهما، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه، وعليهما عهد اللهو ميثاقه أن يحكما بني هذه الأمة ولا يرداها في حرب ولا فرقة، وألا اجتها[illegible]د ولا يتع[illegible]ما جورا، ولا ي[illegible]خلا في شبهة، ولا حكم الكتاب والسنة، فإن يفعلا برئت الأمة من حكمهما يألُو [illegible]ا لهما ولا ذمة، وأج[illegible]لا القضاء إلى رمضان، ومكان يعدوا ولا عهد

قضيتهما مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام.

وشهد جماعة من الطائفتين.

ودعى الشهود ليوقعوا على الصحيفة: من كل جانب عشرة، فلما دعوا الأشْتَر قال: لا صحبتني يميني ولا نفعتني بعدها الشمال إن كتب لي في هذه الصحيفة اسم على صلحأو موادعة. أو لست على بينة من ربي، ويقيني من ضلالة

عدوى ..؟ أو لستم قد رأيتم الظفر إن لم تجمعوا عل الخور..؟!

فوثب الأشعث بن قيس، فقال محتدا: "إنك واالله ما رأيت ظفرا ولا خوارا، هلم فاشهد على نفسك، وأقرر بما كتب في هذه الصحيفة، فإنه لا رغبة بك عن الناس".

قال الأشْتَر: "بلى واالله إن لي لرغبة عنك في الدنيا للدنيا وفي الآخرة للآخرة. ولقد سفك االله بسيفي هذا دماء رجال ما أنت بخير منهم عندي، ولا أحرم دما" فقال الأشعث: "ولكن قد رضيت بما صنع على أمير المؤمنين، ودخلت فيما دخل فيه، وخرجت مما خرج منه، فإنه لا يدخل إلا في هدى وصواب".

والأشْتَر فارس اشتهر بأنه عظيم الصولة، صارم القلب، شديد الإقدام وهو خواض غمرات.

فآثر الأشعث ألا يجادله أو يخاصمه، وذهب ومعه عصابة من القراء إلى علي، فقال الأشعث: "يا أمير المؤمنين، الأشْتَر لا يقر بما في الصحيفة، ولا يرى إلا القتال".

وحاولوا أن يصوروا الأشترَ مخالفاً للإمام كارهاً لما رضيه القوم، فقال الإمام: "وأنا والله ما رضيت ولا أحببت أن ترضوا، فإذ أبيتم إلا أن ترضوا فقد رضيت، وإذ رضيت فلا يصلح الرجوع بعد الرضا ولا التبديل بعد الإقرار، إلا أن يعصى الله ويتعدى كتابه، فتقابلوا من ترك أمر الله. وأما الذي ذكرتم من تركه أمري وما أنا عليه فليس من أولئك ولست أخافه على ذلك. يا ليت فيكم مثله اثنين! يا ليت فيكم مثله واحدا يرى في عدوي ما أرى! إذن لخفّت عليّ مؤنتكم، ورجوت أن يستقيم لي بعض أودكم (الأود: العوج). وقد نهيتكم فعصيتموني، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن (دريد بن الصمة الشاعر الجاهلي):

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

والله لقد فعلتم فعلة ضعضعت قوة، وأسقطت منّة (قوة)، وأورثت وهناً وذلةً، ولما كنتم الأعلين، وخاف عدوكم الاجتياح، واستحرّ بهم القتل، ووجدوا ألم الجراح، رفعوا المصاحف فدعوكم إلى ما فيها ليفتنوكم عنهم، ويقطعوا الحرب، ويتربصوا بكم ريب المنون، خديعة ومكيدة،

فأعطيتموهم ما سألوا وأبيتم إلا أن تهنوا وتغيروا، وأيـم الله ما أظنكم بعدها توفقون لرشد، ولا تصيبون باب حزم ".

وخرج الأشعث بن قيس منتشيا بكتابة الصحيفة، فقرأهـا على جند الشام فأقر□وها فرحين، ثم قرأها على جند العـراق، فأقرها أقوام، حتى إذا قرأها على جند من قبيلة عنزة هـب منها شابان شقيقان من القراء فشهرا سيفيهما قائلين: "لا حكم إلا الله" ثم قاتلا جند الشام، واخترقا الصفوف المنهكة حتـى بلغا سرادق معاوية، وهناك قتلهما حرسه على باب سرادقه.

ثم مر الأشعث على رايات بني راسب فقال قـراؤهم: "لا حكم إلا الله، لا نرضى ولا نحكم الرجال في دين الله".

ووقف الأشعث عند بني تميم وقرأ الصحيفة فاندفع أحـد قرائهم يصيح في وجهه: "أتحكمون الرجال في أمـر الله، لا حكم إلا الله. فأين قتلانا يا أشعث ..؟" ثم حمل بسـيفه علـى الأشعث، غير أنه كان قد انطلق بحصانه فوقعت الضـربة خفيفة فمست مؤخرة الحصان. وثارت اليمانيـة لمـا وقـع لرئيسهم الأشعث، فأسرع إليه الأحنف بن قيس في جماعـة من رؤساء جند علي ومعهم شيوخ تميم، فاعتـذروا جميعــا

للأشعث، قبل أن يتحرك اليمانية للفتك بتميم ومن ينصرهم من أصحاب الإمام.

وأسرع الأشعث فقال للإمام: "يا أمير المؤمنين. مررت بالصحيفة على أهل العراق فقالوا جميعا: قد رضينا، حتى مررت برايات بني راسب وبني تميم ونبذ (جماعة قليلة) من الناس سواهم فقالوا: لا نرضى، لا حكم إلا الله. فلنحمل بأهل العراق وأهل الشام عليهم فنقتلهم" فقال علي: "هل هي غير راية أو رايتين ونبذ من الناس ..؟" قال: "بلى" قال: "دعهم".

كان الإمام يحسب أن الذين رفضوا التحكيم جماعات قليلة من جنده لا خطر لهم.

وإنه ليفكر أن يخرج إليهم ليكلمهم، إذ بنداءات الناس" لا حكم إلا الله" ترج الآفاق، وإذ هم يتدفقون عليه من كل ناحية!

وعرف فيهم القراء الذين أرغموه منذ حين على قبول التحكيم، وقهروه على قبول أبي موسى الأشعري نائبا عنه. ما بالهم اليوم يرفضون ما فرضوه عليه بالأمس..؟!

وخرج إليهم وعقله يكذب ما تسمعه أذناه، وقلبه ينكر ما تراه عيناه .. إنهم لهم القراء الذين هددوه بالقتل آنفًا إن لم يقبل التحكيم، فما بالهم يتصايحون عليه: "الحكم الله يا علي لا

لك! لا نرضى بأن يحكم الرجال في دين الله. إن الله قد أمضى حكمه في معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا في حكمنا عليهم"..!!

ونظر علي إليهم مؤنبا متعجبا.. ما خطبهم ما غيرهم من أقصى هذا الطرف إلى أقصى ذلك الطرف.. وفهموا ما يريد أن يقوله وهو يقلب يديه، ويدير عينيه ممتعضا منكرا ما يسمع ويرى. فقالوا له: "قد كانت زلة منا حين رضينا بالحكمين، فرجعنا وثبنا، فارجع أنت يا علي كما رجعنا، وتب إلى الله كما تبنا وإلا برئنا منك". فقال الإمام: "ويحكم! أبعد الرضا والميثاق والعهد نرجع ..؟ أو ليس الله تعالى قال: ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ ..؟ وقال: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾..؟! فقالوا: إذن نبرأ منك.

وانصرفوا عنه وبرئوا منه فبريء منهم، فجاءه سعيد بن قيس شيخ همدان في جماعة من رؤساء قومه، فقال سعيد: "هأنذا وقومي يا أمير المؤمنين لا نرد أمرك، فمرنا بما

شئت".

فقال لهم: "أما لو كان هذا قبل سطر الصحيفة لأزلتهم عن عسكرهم. ولكن انصرفوا راشدين، فلعمري ما كنت لأعرض قبيلة واحدة لهم".

* * * *

لقد كتبوا وثيقة التحكيم في صفر، وكان موعد التقاء الحكمين بعد ثمانية أشهر في رمضان في دومة الجندل.

فعاد معاوية بجيشه إلى دمشق. وكان كل واحد في جيشه له تابع يخدمه، وفيهم من كان له نحو عشرة غير النساء والإماء..!!

وعاد علي إلى الكوفة، فسلك طريقًا غير الطريق الذي قدم منه وقال: "آئبون عائدون، لربنا عابدون، اللهم إن أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في المال والأهل".

وظل رجال من جيشه على طوال الطريق يتسابقون: فئة تؤيد التحكيم وأخرى ترفضه، وتلعنه!

حتى إذا لاحت له بيوت الكوفة، لقي شيخًا شاحب الوجه فأقبل عليه الإمام حانيا وقال: "ما لي أرى وجهك منكفئًا (متغيرا) أمن مرض ..؟" قال: "نعم" قال: "فلعلك

كرهتــه"

قال: "ما أحب أنه بغيري" قال: "أليس احتسابا للخير فيما أصابك منه" قال: "بلى" قال: "أبشر برحمة ربك وغفران ذنبك! من أنت يا عبد الله ..؟" قال: "أنا صالح بن سليم" قال: "ممن أنت ..؟" قال: "أما الأصل فمن سلامان بن طيء، وأما الجوار والدعوة (النسب) فمن بني سليم بن منصور" قال الإمام:" سبحان الله، ما أحسن اسمك واسم أبيك واسم أدعيائك (يعني حلفائك) واسم من اعتزيت إليه. هل شهدت معنا غزاتنا هذه ..؟" قال: "والله ما شهدتها، ولقد أردتها، ولكن ما ترى بي من لحب الحمى (إضعافها الجسم) عذلني عنها" قال علي: "قال الله عز وجل: (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم) أخبرني ما يقول الناس فيما كان بيننا وبين أهل الشام ..؟" قال: "منهم المسرور فيما كان بينك وبينهم، وأولئك أغشاء الناس، ومنهم المكبوث الآسف لما كان من ذلك، فأولئك نصحاء الناس لك" قال علي: "صدقت. جعل الله ما كان من شكواك حطًا لسيئاتك، فإن المرض لا أجر فيه، ولكن لا يدع للمرء ذنبا إلا حطَّه. إنما الأجر في القول

باللسان، والعمل باليد والرجل، وإن الله عز وجل يدخل بصدق النية والسريرة الصالحة.. عالما جمـا مـن عبـاده الجنة".

والتفت علي يتأمل جنده فوجدهم أقل بكثير من عدتهم يوم خرج بهم، فقد استشهد الكثير، وخرج عليه اثنا عشر ألفًا لأنه قبل التحكيم بعد أن اضطروه إلى قبوله.. فاعتزلوا بـ"حروراء" غير بعيد من الكوفة.. وما انفك بعض القراء ينسحبون، وينضمون إلى أولئك الخوارج عليه ..! وإنه ليهز رأسه أسفا على موقف هؤلاء القراء منه إذ برجال من أصحابه يخفون إليه قائلين: "يا أمير المؤمنين، في أعناقنا بيعة ثانية، نحن أولياء من واليت، وأعداء من عاديت".

فوثب بعض القراء قائلين: "استبقتم أنتم وأهل الشام إلى الكفر كفرسي رهان ..! بايع أهل الشام معاوية على ما أحبوا وكرهوا، وبايعتم أنتم عليا على أنكم أولياء من والاه وأعداء من عاديت".

فاعترضهم نفر من أصحاب الإمام ينكرون عليهم أنهم يكفرون من خالفوهم! هذا التكفير منكر لا يقبله العقل، ويغضب الله عز وجل .. إنهم ليتهمون عليا نفسه بالكفر،

وهل عرف منهم أحد كيف يقرأ القرآن إلا بفضل علي ..؟! ولكنهم يتلون القرآن لا يجاوز حناجرهم، وما يتدبرون ولا يعقلون!

فتشاتم الفريقان.. وأوشكوا أن يتشابكوا.. واختلطت أصواتهم، جماعة تقول: "يا أعداء الله، أرهتُّم في أمر الله عز وجل وحكمتم". فترد الأخرى.. "فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا".

فقال زياد بن النضر: والله ما بسط على يده فبايعناه قط إلا على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه (). ولكنكم لما خالفتموه جاءته شيعته فقالوا: "نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت"، ونحن كذلك. وهو على الحق والهدى، ومن خالفه ضالٌ مضل".

فلم يجيبوه، وتسللوا إلى "حروراء" فلحقوا بالخوارج!

ومضى الإمام بمن معه ، فقابله في بعض الطريق على مشارف الكوفة أحد الذين ولاهم بعض الأمر من الأنصار، فسأله الإمام على: "ما سمعت الناس يقولون في أمرنا ..؟" قال: "منهم المعجب به، ومنهم الكاره له، كما قال عز وجل: (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك)" قال: "فما قول ذوي

الرأي ..؟" قال: "يقولون إن عليا كان له جمع عظيم ففرقه وكان له حصن حصين فهدمه، فحتى متى يبني ما هدم، وحتى متى يجمع ما فرق..؟! فلو أنه كان مضى بمن أطاعه – إذ عصاه من عصاه – فقاتل حتى يظفر أو يهلك إذن كان ذلك هو الحزم" فقال الإمام: "أنا هدمت أم هم هدموا ..؟! أنا فرقت أم هم فرقوا ..؟! أما قولهم إنه لو كان مضى بمن أطاعه – إذ عصاه – فقاتل حتى يظفر أو يهلك، إذن كان من الحزم، فوالله ما خفي عني ذلك، وإن كنت لسخيا بنفسي عن الدنيا، طيب النفس بالموت، ولقد هممت بالإقدام على القوم، فنظرت إلى هذين (الحسن والحسين)، قد ابتدراني (أي سارعا إلى السلاح قبلي) فعلمت أن هذين إن هلكا انقطع نسل محمد (ﷺ) من هذه الأمة، فكرهت ذلك، وأشفقت على هذين أن يهلكا. ونظرت إلى هذين قد استقدماني (ابنه محمد المعروف بابن الحنفية وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب) (أي تقدماني) وقد علمت أن لولا مكاني لم يستقدما. وأيم الله لئن لقيتهم بعد يومي هذا لألقينهم وليسوا معي في عسكر ولا دار".

ومضى في طريقه. وإنه ليقترب من باب الكوفة، إذ صكت أذنيه صرخات منتحبة، وأنات فاجعة فوقف وسأل أحد كبراء الكوفة: "ما هذا!" قال: "هذا البكاء على قتلى صِفّين" قال: "أيغلبكم نساؤكم ..؟! ألا تنهون عن هذا الرنين ..؟!" قال الرجل: "يا أمير المؤمنين لو كانت دارا أو دارين أو ثلاثة قدرنا على ذلك، ولكن قتل من هذا الحي ثمانون ومائة قتيل. فليس دار إلا وفيها بكاء، فأما نحن معشر الرجال فإنّا لا نبكي، ولكن نفرح لهم، ألا نفرح بالشهادة ..؟!" قال الإمام: "رحم الله قتلاكم وموتاكم".

ومشى الرجال إلى جوار الإمام والإمام يحث دابته، فتوقف الإمام وقال لذلك الكبير من رجال الكوفة: " ارجع . فإن مشي مثلك مع مثلي فتنة للوالي، ومذلة للمؤمن".

وحانت التفاتة من علي فبصر بقبول لم تكن حين غادر الكوفة منذ أربعة أشهر. فسأل: "ما هذه القبور ..؟" قال له رجل من أهل الكوفة: "إن خباب بن الأرت توفي بعد مخرجك، فأوصى بأن يدفن هنا ، وكان الناس إنما يدفنون في دورهم وأفنيتهم. فدفن هنا رحمه الله، ودفن الناس إلى جنبه".

وشعر الإمام بالأسى لوفاة خبّاب بن الأرت رضي الله عنه.. وكما تلخص القوقعة الصغيرة هدير البحر العريض الزاخر المتلاطم ورائحته، مرت في خاطر الإمام صورة خاطفة استجمع فيها حياة خباب كلها: منذ أعتقته إحدى ثريات قريش، فتحول إلى صناعة السيوف، حتى أسلم، فاستولى أئمة الكفر في قريش على الحديد الذي يصنع منه السيوف، وعذبوه فيه، كنت صبيا ما تزال يا علي تجلس إلى جوار رسول الله (□) وهو متوسد ببرد له في الكعبة، فجاء خباب يطلب من الرسول أن يسأل الله أن ينصره هو وسائر المعذبين مثله، فجلس الرسول (□) وقد احمر وجهه وقال: "قد كان من قبلكم يؤخذ منهم الرجل، فيحفر له في الأرض، ثم يُجاء بمنشار فيجعل فوق رأسه، ما يصرفه ذلك عن دينه. ويمشط بأمشاط الحديد ما يصرفه ذلك عن دينه. وليُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله عز وجل، والذئب على غنمه، ولكنكم تعجلون!".

وانصرف خبّاب متأسيا يواجه التعذيب بصمود غريب.. وأقبلت عليه القرشية الثرية التي أعتقته من قبل، فاشتركت

في تعذيبه، وجعلت تكوي رأسه وظهره بالحديد المحمي حتى تهرأ جلده، فمر به الرسول وهي تعذبه فقال: "اللهم انصر خبابا".. فأصابها

لها لقد شاهدت يا علي تلك المرأة وقد عضها كلب السعار بعد أيام، فكانت تنبح كالكلاب وتعوي، ولم يجدوا طبا إلا كيَّ رأسها بالنار..!!

وارحمتا لك يا خباب ..!! لكم تحملت، ولكنك صبرت، وعكفت على القرآن تُعلم المسلمين الجدد ما نزل من آياته.. وإنك لتتذكر يا علي يوم قدم على الرسول (ﷺ) بعض المسلمين الجدد من سادة قريش وأثريائها، فسألوا أن يخصص لهم يوما يلقاهم فيه وحدهم، غير اليوم الذي يلقى فيه المستضعفين والفقراء.. أمثال خباب وعمار وبلال وصهيب.. فأنزل الله على رسوله: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ

مِنَ الظَّالِمِين ٥٢ فَتَنَّا بَ هُم بِبَ لِّيَقُولُوا أَهَـ
وَكَذَٰلِكَ ضَهُم بِبَعْضٍ ؤُلَاءِ

مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم من بينِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ٥٣ وَإِذَا *

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.

فما كان الرسول بعد ذلك يلقى خبابا حتى يرحب به ويقول: "أهلاً بمن أوصاني به ربي".

وهاجر خباب، وحضر المشاهد كلها مع رسول الله مجاهدا في سبيل الله. ولما فاء الله على المسلمين الأموال الطائلة في عهد عمر بعد الفتوحات الكبرى، كان خباب أحد الذين ميزهم عمر لأنه من السابقين إلى الإسلام ومن أهل بدر، فاشترى خباب دارا في الكوفة من عطائه، ووضع أمواله في مكان بارز بالدار، دلَّ عليه أصحابه ليأخذ منه أهل الحاجة إن لم يكن خباب في الدار..!!

وارحمتا لك يا خباب..!! لقد تركته يا علي قبل أن تخرج إلى الكوفة – منذ نحو أربعة أشهر – وهو يشعر بدنو أجله، وعندما زرته قبل الخروج إلى صِفِّين بكى وأشار على المكان الذي يضع فيه أمواله وقال: "والله يا أمير المؤمنين ما شددت عليها من خيط ولا منعتها من سائل..!"

فدعا له أمير المؤمنين، وخرج بالجند إلى صِفِّين، ثم عاد، وفي عزمه أن يكون أول من يلقى داخل الكوفة خبابٍ بن الأرت، فإذا به يلقى أول ما يلقى قبر خباب خارج الكوفة..!!

واستعبر أمير المؤمنين وقال: "رحم الله خبابا، فقد أسلم راغبا، وهاجر طائعا، وعاش مجاهدا، وابتُلِيَ في جسمه. إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً".

ثم اتجه إلى سائر القبور المجاورة لخباب وقال: "السلام عليكم يا أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، من المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، أنتم لنا سلف فارط، ونحن لكم تبع، بكم عما قليل لاحقون، اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم. الحمد الله الذي جعل منها خلقكم، وفيها معادكم، منها يبعثكم، وعليها يحشركم، طوبى لمن ذكر المعاد، وعمل للحساب، وقنع بالكفاف، ورضي عنه الله عز وجل".

* * * *

ولم يكد علي يستقر في داره بالكوفة، حتى جاءه كريم قوم ذلك، فقال: "يا أمير المؤمنين، بي إليك حاجة فرفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله وشكرتك،

وإن أنت لم تقضها حمدت الله وعذرتك" قال علـــي: "اكتـب حاجتك فإني أكره أن أرى ذُلَّ السؤال فـي وجهك" فكتـب الرجل: "إني محتاج" فأمر الإمام صاحب بيت المال بإحضار حـلة، فأخذها الرجل ولبسها. ثم أمر له بمائة دينار. فقال أحد الذين في مجلس الإمام: "يا أمير المؤمنين حـلة ومائة دينـار ..؟" قال: "نعم سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: أنزلوا النـاس منازلهم، وهذه منزلة هذا الرجل عندي".

ثم جاء عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص والمغيـرة بن شعبة، يطلبون عطاءهم، وكانوا جميعا قد اعتزلوا، فلـم يشهدوا الجمل ولا صِفِّين، وإن كانوا قد أغلظوا لمعاوية حين طلب منهم أن ينصروه على علي، ووضحوا له فضل علـــي عليهم، وعليه!

وكان علي قد تركهم وشأنهم منذ اعتزلوا ولـم يبـايعوه، ولكن عطاءهم كان يصلهم في منازلهم.

سألهم معاتبا: "ما أخَّركم عنِّي ..؟ ألستم تعلمـون أن الله عز وجل قد أمركم أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر. فقال ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾

فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾..؟

فقال سعد بن أبي وقاص: "إنا عارفون بفضلك يا أمير المؤمنين ولكن اعطني سيفاً يعرف الكافر من المؤمن..! أخاف أن أقتل مؤمنًا فأدخل النار".

قال الإمام: "إن عثمان كان إماما بايعتموه على السمع والطاعة، فعلام خذلتموه إن كان محسنًا، وكيف لم تقاتلوه إن كان مسيئا ..؟! فإن كان عثمان أصاب بما صنع فقد ظلمتم إذ لم تعينوا من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وقد ظلمتم إذ لم تقوموا بيننا وبين عدونا بما أمركم الله، فإنه قال: ﴿ قَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾".

فلم يرد أحد منهم.. وطال الصمت.. ثم انصرف الثلاثة راشدين.

وأقبل رجلان من شيوخ القبائل يهنئان أمير المؤمنين بالعودة وبالنصر، فأراد أن يكرمهما، فألقى إليهما بوسادتين فقعد أحد الرجلين على الوسادة، ولم يقعد الآخر، بل قعد على الحصير كما يقعد أمير المؤمنين، فقال له الإمام مداعبا: "أقعد

على الوسادة يا رجل، فـلا يـأبى الكرامـة إلا حمـار !"
وضحكوا جميعا، وقعد الرجل، وذهبت مثلاً..!!!

***

!..   ²,aĩfא .. Q .. M<!z%א

اقترب رمضان، سنة سبع وثلاثين للهجرة، الموعد المضروب لالتقاء الحكمين، فأرسل علي كرم الله وجهه وفدا من أربعمائة رجل على رأسهم عبد الله بن عباس وشرُيح ابن هانئ، ومعهم أبو موسى الأشعري. وأرسل معاوية وفدا من أربعمائة رجل ومعهم عمرو بن العاص.

والتقوا جميعا في (دومة الجندل) بين العراق والشام.

وكانت الرسائل تتردد بين معاوية في دمشق وعمرو في دومة الجندل، فلا يعرف أحد من وفد الشام ما بعث به معاوية ولا ما رد به عمرو، ولا يحاول أحد أن يسأل، فقد ألفوا أن يتركوا الأمر جميعا لمعاوية منذ بايعوه على السمع والطاعة..

أما وفد العراق فكانوا إذا علموا أن كتابا وصل من علي وثبوا على ابن عباس يسألونه: "ما الذي كتب به إليك أمير المؤمنين..؟ "فإذا كتم عنهم شغبوا عليه وصاحوا غاضبين: "لماذا كتمتنا ما كتب به أمير المؤمنين..؟ أتراه كتب في كذا

أو في كذا ..؟" وضاق ابن عباس بإلحاحهم وأخذ يؤنبهم: "أما تعقلون ..؟! إذا جاء رسول أمير المؤمنين قلتم بأي شئ جاء ..؟ فإذا كتمتكم قلتم لِمَ تكتمنا. أجاء بكذا وكذا..؟ وما تزالون تظنون حتى تصيبوا، فليس لكم سر..! ألا ترون رسول معاوية يجيء ويرجع لا يعلم أحد بما جاء ورجع، ولا يسمع لهم صياح ولا لغط، وأنتم عندي كل يوم تظنون ..!؟ أما تعقلون..؟".

وكان رؤساء وفد العراق من أصحاب الإمام يشفقون من لقاء عمرو بأبي موسى، فلم يألوه نصحا ورجاء أن يتحسب من مكر عمرو..

أخذ شُريح بيده وقال له: "يا أبا موسى إنك قد نصبت لأمر عظيم لا يجبر صدعه، ومهما تقل شيئًا لك أو عليك يثبت حقه، وإن كان باطلاً، وإنه لا بقاء لأهل العراق إن ملكها معاوية، ولا بأس على أهل الشام إن ملكها علي. وقد كانت منك تثبيطة أيام قدمت الكوفة، فإن تشفعها بمثلها يكن الظن بك يقيناً، والرجاء منك يأسا!".

فغضب أبو موسى من كلام شُريح وقال: "ما ينبغي لقوم اتهموني أن يرسلوني لأدفع عنهم باطلاً أو أجر إليهم حقًا!".

فقام شُيح في الناس فعظم أمر أبي موسى، واسترضاه حتى رضي.

وكان الأحنف بن قيس يتوقع ما عساه يحدث بين أبي موسى وعمرو. والأحنف من أعرف الرجال بالرجال. ولكم شكا إلى الله ما شكاه عمر بن الخطاب: ضعف بعض أهل التقوى، وقوة أهل الهوى..

وكان الأحنف قد خرج يودع أبا موسى قبل أن يرحل فظل يترفق به، وأمسك بيده وقال ناصحا في إشفاقٍ على مصير الإمام من عمرو: "يا أبا موسى، أعرف خطب هذا الأمر، واعلم أن له ما بعده، وإنك إن أضعت العراق فلا عراق! فاتق الله. وإذا لقيت عمرو بن العاص غدًا فلا تبدأ بالسلام، فإنها وإن كانت سنة إلا أنه ليس أهلها، ولا تعطه يدك فإنها أمانة، وإياك أن يقعدك على صدر الفراش فإنها خدعة، ولا تلقه وحده، واحذر أن يكلمك في بيت فيه مخدع تخبأ فيه الرجال والشهود. فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلي فخيره أن يختار أهل العراق من قريش والشام من شاءوا، فإنهم يولونا الخيار فنختار من نريد، وإن أبوا

اختار أهل الشام من قريش العراق من شاءوا، فإن فعلوا كان الأمر فينا".

ولم يحفل أبو موسى بما قاله الأحنف، ورد عليه بفتور: " قد سمعت ما قلت ".

وعاد الأحنف إلى علي فقال له: "يا أمير المؤمنين. لا أرانا إلا بعثنا رجلاً لا ينكر خلعك" قال الإمام ممتثلاً "يا أحنف، إن الله غالب على أمره" قال الأحنف: "فمن ذلك نجزع يا أمير المؤمنين".

وكان شرحبيل بن السمط قد سار مع عمرو بن العاص ووفد الشام في خيل عظيمة حتى استقر عمرو بدومة الجندل، فقال وهو يودعه: " يا عمرو إنك رجل قريش، وإن معاوية لم يبعثك إلا ثقة بك، وإنك لن تؤتي من عجز أو مكيدة، وقد عرفت أني وطأت هذا الأمر لك ولصاحبك، فكن عند ظننا بك".

فلما انصرف عنه عمرو، جاءه شرُيح فقال: " يا عمر، إن أمير المؤمنين عليا يقول لك: إن أفضل الخلق عند الله من كان العمل بالحق أحب إليه وإن نقصه، وإن أبعد الخلق من الله من كان العمل بالباطل أحب إليه وإن زاده. والله يا عمرو

إنك لتعلم أين موضع الحق، فلم تتجاهل ..؟ أبأن أوتيت طعما يسيرا فكنت الله وأوليائه عدوا ..؟! فكأن والله ما أوتيت قد زال عنك، فلا تكن للظالمين ظهيرا. أما إني لأعلم أن يومك الذي أنت فيه نادم هو يوم وفاتك، وسوف تتمنى أنك لم تظهر لمسلم عداوة، ولم تأخذ على حكم رشوة".

ولم يكد شُريح يفرغ من أداء رسالة علي حتى احتقن وجه عمرو، واضطرم غضبه وقال: "ومتى كنت أقبل مشورة علي أو أنيب إلى أمره وأعتد برأيه ..؟" قال شُريح محتدا: "وما يمنعك يا ابن النابغة أن تقبل من مولاك وسيد المسلمين بعد نبيهم (ﷺ) مشورته ..؟ لقد كان من هو خير منك، أبو بكر وعمر، يستشيرانه ويعملان برأيه" قال عمرو: "إن مثلي لا يكلم مثلك" قال شُريح: "بأي أبويك ترغب عن كلامي بأبيك الوشيظ (الدخيل والتابع) أم بأمك النابغة ..؟!".

فانصرفا متغاضبين..

وكان عمرو ربما عيّره الناس بأمه، فيأبى عليه حلمه ودهاؤه أن يغضب!

سأله رجل عن أمه فقال: "هي سلمى بنت حرملة، تلقب بالنابغة من بني عنزة، أصابتها رماح العرب، فبيعت بعكاظ،

فاشتراها الفاكه بن المغيرة، ثم اشتراها منــه عبـد الله بـن جدعان، ثم صارت إلى العاص بن وائل، فولدت له، فأنجبت، فإن كان جعل لك شئ فخذه". (أسد الغابة).

* * * *

كان أصحاب علي يخافون كيد عمرو على طيبـة أبـي موسى.. ذلك أن دهاء عمرو لا يعرف الحـرج ولا حـدودا يقف عندها، ولا يتورع عن شئ، وهو قادر علـى التأويـل والتعلل: فهو في حربٍ مع علي، وبما أن الحرب خدعة فقد تجيز عنده مالا يجوز لمسلم..!

أما أبو موسى فهو رجل ورع متحرج، وطيبتـه تضـع لأقواله وأعماله حدودا لا يتجاوزها، بل لا يقع فيها، لينـأى بنفسه عن الشبهات.

من أجل ذلك كان أصحاب علي يلحون في تحـذير أبـي موسى من مكر عمرو به، ويتمثلون ما عسى أن يبلغ دهـاء عمرو منه، فيقترحون عليه ما ينبغي له أن يرد بـه علـى عمرو!

وما كان أصحاب علي وحدهم هم الذين يشفقون من مكر عمرو ودهائه هذا الدهاء الذي لا تردعه التقوى..! ولقد كان علي يقول: "لولا التقوى لكنت أدهى العرب"..

ولكن معاوية نفسه كان أيضا يهاب دهاء عمرو ويتحسب له..

إنهم جميعا ليعلمون أن عمرو بن العاص ما تولى ما تولاه من أمور المسلمين في عهد الرسول والشيخين إلا لأنه الأصلح لا الأتقى.. فالسياسة الشرعية أسست قواعد الولاية على أنها للأصلح فالأصلح، لا للأتقى فالأتقى..

هكذا قاد خالد بن الوليد جيوشًا فيها من هم أتقى منه وأعلم بالدين، وهكذا تولى الإمرة عمرو! ونصح الرسول أبا ذر ألا يتولى إمرة المسلمين لأنه لا يصلح، وإن كان أصدقهم لسانًا وأكثرهم تقوى..!

وقد علم معاوية أن سبب انضمام عمرو إليه، هو الخوف على ضياعه أو أمواله، والنزوع إلى الملك..!!

ونزوعه إلى الإمرة جعله يجاوز كل حد، ولا يخجل من أي أحد! لا من أبي بكر ولا من عمر، ولا حتى الرسول نفسه (❐) ..!!

فقد تحدث الذين شهدوا غزوة ذات السلاسل: أن عمرو بن العاص حين بعثه الرسول (ﷺ) يدعو أخوال أبيه العاص إلى الإسلام، وقف على ماء يقال له السلاسل (ولهذا سميت الغزوة باسم ذات السلاسل)، فلما كان عليه خاف، فبعث إلى رسول الله (ﷺ) يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين، وفيهم أبو بكر وعمر، وقال لأبي عبيدة: "لا تختلفا". فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم عليه قال له عمرو: "إنما جئت مددا لي" فقال أبو عبيدة: "لا، ولكني أنا علي ماأنا عليه، وأنت على ما أنت عليه" – وكان أبو عبيدة رجلاً سهلاً لينًا هينًا عليه أمر الدنيا- فقال له عمرو: "بل أنت مدد لي" فقال أبو عبيدة: "يا عمرو إن رسول الله (ﷺ) قال لي: لا تختلفا، وإنك إن عصيتني أطعتك! " فقال له عمرو: "فإني أمير عليك" قال: "فدونك". فصلى عمرو بالناس. وجعل نفسه أميرا على أبي عبيدة وأبي بكر وعمر [٢].

---

[٢] انظر: سيرة ابن هشام .. وأسد الغابة لابن الأثير .. والطبقات الكبرى لابن سعد.

فإذا كان قد صنع هذا بأبي عبيدة وهو أمين الأمة، وأحد المبشرين بالجنة، وأحد الذين عرض عليهم أبو بكر البيعة قبله، فما باله إذن لا يصنع ما يشاء مع معاوية!

ولكم عذب هذا الخاطر معاوية..!! رأى أن يذهب إلى مكان قريب من الحكمين، ولكنه انتظر.

* * * *

وجاء عبد الله بن عباس إلى أبي موسى يحذره مكر عمرو قبل أن يجتمع به، قال: "يا أبا موسى أنت وافد أهل اليمن إلى رسول الله (ﷺ) وصاحب مغانم أبي بكر، وعامل عمر بن الخطاب. واعلم أن معاوية طليق الإسلام، وأن أباه رأس الأحزاب، وأنه ادعى الخلافة من غير مشورة وليس فيه خصلة تقربه من الخلافة، فإن صدقك فقد حل خلعه، وإن كذبك فقد حرم عليك كلامه، وإن ادعى أن عمر وعثمان واستعملاه، فلقد صدق، استعمله عمر وهو الوالي عليه بمنزلة الطبيب من المريض، يحميه مما يشتهي، ويوجب عليه ما يكره، ثم استعمله عثمان برأي عمر، وما أكثر من استعملا ممن لم يدّع الخلافة! واعلم أن لعمرو مع كل شيء يسرك خبرا يسوءك، وإن نسيت فلا تنس أن عليا بايعه الذين

بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وأنها بيعة هدى، وأنه لم يقاتل إلا عاصيا أو ناكثًا" فقال أبو موسى: "رحمك الله، أما والله مالي إمام غير علي، وإني لواقف عندما رأى، ولرضاء الله تعالى أحب إلى من رضا الناس، وما أنا وأنت إلا بالله تعالى".

وكان معاوية قد أوصى عمرو بن العاص، فقال له قبل أن يرحل عنه ليلتقي بأبي موسى: "يا عمرو، إن أهل العراق أكرهوا عليا على أبي موسى، وأنا وأهل الشام راضون بك، وأرجو في دفع هذه الحرب خصالاً: قوة لأهل الشام، وفرقة لأهل العراق، وإمدادا لأهل اليمن، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان، قصير الرأي، وله على ذلك دين وفضل، فدعه يقل، فإذا هو قال فاصمت، واعلم أن حسن الرأي زيادة في العقل. إن خوفك بالعراق فخوفه بالشام، وإن خوفك بمصر فخوفه باليمن، وإن خوفك عليا فخوفه بمعاوية، ولا تلقه برأيك كله، وإن أتاك بالجميل فأته بالجميل".

فقال عمرو بغيظ:" أقلل الاهتمام بما قبلي، وا الله تعالى فيما وجهتني له، إنك من أمرك على مثل حد السيف، لم تنقل في حربك ما رجوت، ولم تأمن ما خفت، ونحن

نرجو أن يصنع الله تعالى لك خيرا. وقد ذكرت لأبي موسى دينا، وإن الدين منصور. أرأيت إن ذكر عليا وجاءنا بالإسلام والهجرة واجتماع الناس عليه، ما أقول ..؟" قال معاوية مستسلما عاجزا منهزما أمام سؤال عمرو: "قل ما تريد وترى!"

وكان معاوية وعمرو منذ التقيا بعد قتل عثمان قد ألفا أن يغيظ أحدهما الآخر.. كل واحد منهما في حاجة إلى صاحبه: لا هو يستغني عنه، ولا هو يبدو مفتقرا إليه ..!

وعندما خرج عمرو وصحبه من عند معاوية قال لهم عمرو: "هل ترون ما أراد معاوية من تصغير أبي موسى ..؟" قالوا: "لا" قال: "تصغيري أنا، فقد عرف أني خادعه فغالبه!".

في أول لقاء ضم عمرا وأبا موسى، قال عمرو: "يا أخي، قبح الله أمرا فرق بيننا".

ثم أقعد أبا موسى على صدر الفراش، وتواضع له، وكان في أبي موسى حياء، فكلما أراد أن يتساوى في مجلسه مع عمرو قال له: "إنك قد سبقتني إلى الإسلام، وصحبت رسول الله (ص) قبلي، وأنت أكبر مني وأنت ضيف".

ثم يتناجيان وحدهما.

والأيام تمضي ثقيلة على الناس جميعا، وما اتفق الحكمان بعد.. حتى ضاق الناس بالانتظار.

فأقبل الأشعث بن قيس عليهما فقال: "يا هذان. إنا كرهنا هذه الحرب، فلا تردادها إلينا، فإنها مرة الرضاع والفطام، فكفَّاها بما شئتما".

ثم قال لهما سعيد بن قيس: "أيها الرجلان، إني أراكما قد أبطأتما بهذا الأمر، حتى أيس القوم منكما، فإن كنتما اجتمعتما على خير فأظهراه، نسمعه ونشهد عليه، وإن كنتما لم تجتمعا رجعنا إلى الحرب!".

ثم أتاهما عدي بن حاتم فقال: "أما والله يا عمرو إنك لغير مأمون الغناء، وإنك يا أبا موسى لغير مأمون الضعف، وما ننتظر بالقول منكما إلا أن تقولا: والله ما لكما مع كتاب الله إيراد ولا صدر!".

فقال أبو موسى مغضبا: "كفوا عنا، ولا تتعجلونا، فإننا إنما نقول فيما بقي ، ولسنا نقول فيما مضى".

وقال جماعة من قريش الشام لمعاوية: "إن عمرو بن العاص قد أبطأ بهذه الحكومة، وهو يريدها لنفسه!".

وما كان هذا الظن قد غاب عن ذهن معاوية، فلم يشأ أن ينتظر قرار الحكمين في قصره بدمشق، وسار في موكب عظيم، فعسكر على مقربة منهما: أدنى من أن يسمح لعمرو بخداعه، وأبعد من أن يتهمه أحد بأنه يحرج الحكمين أو يضغط عليهما!

فلما لم يفصل الحكمان، ضاق معاوية بهما، وألح عليه الشك في عمرو بن العاص.. فأرسل إلى جماعة من قريش يستميلهم إليه، وكتب إليهم: "إن الحرب قد وضعت أوزارها، والتقى هذان الرجلان بدومة الجندل، فأقدموا علي ".

فأتاه جماعة من قريش فيهم عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وجاءه المغيرة بن شعبة الذي كان قد اعتزل بالطائف. فقال: "يا مغيرة ما ترى ..؟" قال: "يا معاوية، لو وسعني أن أنصرك لنصرتك. ولكن علي أن آتيك بأمر الرجلين".

فذهب إلى دومة الجندل، فزار أبا موسى الأشعري وقال له: "يا أبا موسى ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره هذه الدماء ..؟" قال: "أولئك خيار الناس" ثم ذهب إلى عمرو بن العاص يزوره فقال له: "يا أبا عبد الله ما تقول فيمن اعتزل

هذا الأمر، وكره هذه الدماء ..؟" قال: "يا مغيرة أولئك شرار الناس، لم يعرفوا حقًا ولم ينكروا باطلاً، فهم خلف الأبـرار وأمام الفجار! ".

فعاد المغيرة إلى معاوية فقال: "قد ذقت الـرجلين : أمـا موسى فخالع صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد هـذا الأمـر، وهواه في زوج ابنته عبد الله بن عمر. وأمـا عمـرو فهـو صاحبك الذي تعرف. وإن ظن الناس أنه يرومها لنفسه، وأنه لا يرى أنك أحق بهذا الأمر منه!".

وانتظر معاوية مقدم سعد بن أبي وقاص.. لو أنـه قبـل دعوته..!! لم يبق على ظهر الأرض من العشرة المبشـرين بالجنة غير سعد بن أبي وقاص وعلي بن أبي طالب، ومـا بقى من أهل الشورى الستة الذين زكاهم عمر للخلافة مـن بعده غير سعد وعلي..!!

لو أن سعدا انحاز إليك يا معاوية، أو حتى قبل دعوتـك وقدم عليك، لعرفت كيف تفيد من وجوده معك، ولمال مقدمه ببعض أنصار علي إليك ..!!

ولكن سعد بن أبي وقاص لم يجب! فأتاه ابنه عمـر بـن سعد، فقال له: "يا أبي، التقى الناس بـ ِّفيدفكان بينهم ما قد ن

بلغك، حتى تفانوا، ثم حكَّموا الحكمين أبا موسى الأشعري عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص. وقد حضر ناس من قريش عندهما، وأنت من أصحاب رسول الله (ﷺ) ومن أهل الشورى. ولم تدخل في شئ تكرهه هذه الأمة، فاحضر دومة الجندل فإنك صاحبها غدا " قال سعد: " مهلاً يا عمر! إني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: يكون بعدي فتنة خير الناس فيها الخفي التقي. وهذا أمر لم أشهد أوله، فلا أشهد آخره. ولو كنت غامسا يدي في هذا الأمر لغمستها مع علي "فرجع عمر بن سعد خائبا ..!

* * * *

حين كان معاوية بالقرب من دومة الجندل يحكم خططه، كان علي بعيدا في الكوفة يعالج أمورا مضطربة.. وكان لديه من أمور الدولة ما يجب أن ينهض به. فقد انتهز أقوام فرصة الانشغال بالحرب التي أشعلها معاوية، وانقضوا على بعض أطراف الدولة..!! ثم إن هناك أمصارا في الدولة أهمها مصر بلا أمير، منذ تركها قيس بن سعد بن عبادة.

وهناك أيضا عصابة من أتباعه توشك أن تشعل الفتنة في العراق، وهم هؤلاء القراء المتعصبون المتطرفون الذين

يتحاورون مع الناس بتكفيرهم، فقد اضطروه آنفًا إلى القبول لما رفع معاوية وعمرو المصاحف حين تأكدت له الهزيمة، فلما حاول أن يقنعهم بأنها ليست الدعوة إلى حكم القرآن ما يريد معاوية وعمرو بل هي المكيدة والخديعة، هددوه بالقتل، وهو إمامهم وأستاذهم.. فلما أذعن لهم، وقبل التحكيم، اتهموه بالكفر..!! واعتزل منهم نحو اثني عشر ألف مقاتل، يضللون الناس.. وجاءه منهم فتيان فقالا : "لا حكم إلا الله يا علي". فقال علي: "لا حكم إلا الله" قال أحدهما واسمه حرقوص: "تب من خطيئتك، وارجع عن قضيتك، وارجع بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا" قال الإمام: "قد أردتكم على ذلك فعصيتموني، وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتابا، وشرطنا شروطًا وأعطينا عليها عهودا وقد قال الله تعالى:﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ** ﴾".

فقال الفتى الثاني واسمه زرعة بن برج: "ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه يا علي" قال: "ما هو ذنب ولكنه عجز من الرأي، وقد نهيتكم" قال الفتى لأمير المؤمنين كرم الله وجهه: "يا علي، لئن لم تدع تحكيم الرجال لأقاتلنك أطلب وجه الله"

قال الإمام: "بؤسد□ا لك! ما أشقاك! كأني بك قتيـ ًلاسفى عليـك الرياح!" قال الفتى: "وددت لو كان ذلك!".

وخرجا من عند الإمام يتهامنه بالكفر، ويكفران مـن لـم يخرج عليه..!!

وصعد على منبر مسجد الكوفة ليخطب الناس، فارتجـت جوانب المسجد بصيحات المتطرفين الخوارج عليه: "لا حكم إلا الله يا علي" قال الإمام: "االله أكبر! كلمة حـق يـراد بهـا باطل" فقال له أحد القراء: "نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فما ندري أي الأمرين نختار" وقال رجل آخر مـن القـراء: "جزعت من البلية، ورضيت بالقضية (بـالتحكيم)، وقبلـت الدنية".

فصفق الإمام إحدى يديه على الأخرى أسفا وندما وقـال: "هذا جزاء من ترك العقدة (التعاقد على حرب الذين رفضوا بيعته وهم معاوية وعمرو وأهل الشام). أما واالله لو أني حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل االله فيه خيرا، فإن استقمتم هديتكم، وإن أعوججتم قـومتكم، وإن أبيتم تداركتكم، لكانت الوثقى، ولكن بمن ..؟! وإلى من ..؟! أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي! ... أين القوم الذين دعوا إلى

الإسلام فقبلوه، وقرأوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى القتال فولهوا له، وسلبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفا وصفًا صفًا ..؟! بعض هلك وبعض نجا... حمر العيون من البكاء ذبل الشفاه من الدعاء (ذبل جمع ذابل)، خمص (ضوامر) البطون من الصيام، صفر الألوان من السهر... أولئك إخواني الذاهبون، فحق لنا أن نظمأ إليهم، ونعض الأيدي على فراقهم. إن الشيطان يسهل لكم طرقه، ويريد أن يحل دينكم عقدة عقدة، ويعطيكم بالجماعة الفرقة، فاصدفوا عن نزعاته ونفثاته، واقبلوا النصيحة ممن أهداها إليكم، وأعقلوها في أنفسكم".

فانصرفوا يتفكرون فيما قاله الإمام..

حتى إذا كان اليوم التالي، أراد الإمام أن يخطب فشغبوا عليه.. لقد اضطربت الأمور، وها هي ذي عصابة من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه تتحداه، وتكاد تمنعه من مخاطبة الرعية، وتسيء الأدب في محادثته، وتتهمه بالكفر ..!

دوت آفاق الكوفة بالهتافات "لا حكم إلا الله" قال الإمام مرة أخرى: "كلمة حق يراد بها باطل".

وغضب أصحاب الإمام، وطالبوه أن يأذن لهم فيؤدبوا هؤلاء الخوارج ويلزموهم الطريق الصواب، فرفض الإمام أن يبدأهم بقتال، وقال لأصحابه: "إن سكتوا غممناهم (سترناهم)، وإن تكلموا حججناهم (غلبناهم بالحجة)، وإن خرجوا علينا قتلناهم" فوثب فتى طويل اللحية مهترئ الجبهة، متجهم الوجه، متوتر القسمات، فصاح بصوت أجش منكر: "يا علي! أبالقتل تخوفنا ..؟، أما إني لأرجو أن نضربكم بها عما قليل، ثم لتعلم أينا أولى بها صليا. اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنية في ديننا، فإن إعطاء الدنية في الدين إرهات في أمر الله، وذل راجع بأهله إلى سخط الله"..

هكذا كان يخاطبه المتطرفون من تلاميذه، وقد علموا أنه باب مدينة العلم، وأنه إمام المتقين!

وفي يوم آخر حاول أن يخطب ويعظ الناس، فعادت أصوات فتيان القراء وأهل التطرف منهم تهدر: "لا حكم إلا الله!" فقال الإمام: "الله أكبر. كلمة حق أريد بها باطل! أما إن لكم عندي ثلاثا ما صحبتمونا: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدأونا، وإنما ننتظر فيكم أمر الله".

وتسلل عدد من هؤلاء إلى حروراء من ضواحي الكوفة، فانضموا إلى من سبقوهم، حتى بلغت عدتهم ستة عشر ألفًا ..!

فرأى الإمام أن يرسل إليهم عبد الله بن عباس، وكان ابن عباس أفقه أصحاب علي وتلاميذه، وما جلس إليه عالم قط إلا خضع له، وكانوا يسمونه البحر لسعة علمه، وكان على صغر سنه أعلم الناس بالتفسير والحديث وقضاء أبي بكر وعمر وعثمان، حتى لقد جلس إليه طاووس، وترك كبار الصحابة فقيل له: "لزمت هذا الغلام وتركت الأكابر من صحابة رسول الله (ﷺ) ..؟" فقال: "إني رأيت سبعين رجلاً من أصحاب رسول الله (ص) إذا تدارءوا (اختلفوا) في أمر صاروا إلى قول ابن عباس".

وقد حفظ ابن عباس وصية عن رسول الله (ﷺ) كان يعلمها للناس قال: "كنت خلف رسول الله في سفر فقال: يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشئ،

لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف".

وكان ابن عباس وسيمًا مهيبا طويل القامة ممتلئ الجسم صبيح الوجه.. قوى الحجة، ذلق اللسان، فكان من يجادله يحسب له ألف حساب.

قبل أن يمضي إليهم أوصاه الإمام: "لا تعجل إلى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك" فلما أقبل إليهم ابن عباس في حلة جميلة، أنكروا عليه أن يلبسها، ورأوها فتنة وكفرا. فلم يستطع أن يسكت عنهم فقال لهم: "يا حملة القرآن. تفكروا في قوله عز وجل. قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق" ثم سألهم: "ما نقمتم من الحكمين أما فقهتم قوله تعالى:﴿ إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ﴾..؟"

قال هذا في رجل وامرأة فكيف بأمة محمد ..؟ وقوله تعالى: ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ ..؟.

فقال رجل: "أعدل عندك عمرو بن العاص ..؟!" ثم قالوا: "إذا كان علي على حق، فما باله حيث ظفر لم يسب ..؟!" فقال لهم ابن عباس: "أفكنتم تسبون أمكم عائشة ..؟!"

فوضعوا أصابعهم في آذانهم وقالوا: "أمسك عنَّا يا ابن عباس حرب لسانك فإنه طلق ذلق غواص على مواضع الحجة".

وأقام ابن عباس معهم في حروراء ثلاثة أيام يجادلهم حتى اقتنع منهم أربعة آلاف، فعاد بهم إلى الإمام بالكوفة، فأرسل الإمام إلى من تبقى منهم بحروراء: "فقد كان من أمرنا وأمر الناس ما قد رأيتم، فقفوا حيث شئتم حتى تجتمع أمة محمد. وبيننا وبينكم ألا تسفكوا دما حراما أو تقطعوا سبيلاً أو تظلموا ذمة (أحد أهل الذمة) فإن فعلتم، فقد نبذنا إليكم الحرب على سواء (إن الله لا يحب الخائنين)".

وأذن مؤذن على ألا يدخل على أمير المؤمنين رجل إلا رجلاً حمل القرآن. فجاءه القراء الخوارج الذين عاد بهم ابن عباس، فلما امتلأ بهم الجامع والرحبة أمامه دعا أمير المؤمنين بمصحف ضخم، فلما وضعوه أمامه قال: "أيها المصحف حد ث الناس!". فقالوا له: "يا أمير المؤمنين! إنما هو مداد في ورق، ونحن نتكلم بما روينا منه فماذا تريد ..؟" قال: "أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا على ، بيني وبينهم كتاب الله. يقول الله تعالى في كتابه في امرأة ورجل: ﴿ ن ِقْ
و إ ُ ت

كَمَا هُ و ح أَهلِه مـن أَهلِها إِن

ِشقق َ   ابيِ نِ ه   ا فا بثوا حكمَا

﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾. فأمة محمد أعظم دماً

وحرمة من امرأة ورجل! ونقموا على أني كتبت في صحيفة التحكيم علي بن أبي طالب، بدلاً من أمير المؤمنين، وقالوا انسلخت من قميصٍ ألبسكه الله، واسمٍ سماك الله به، وقد جاءنا سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله في الحديبية حين صالح قريشًا فقال لي رسول الله: اكتب باسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا تكتب هذا بل اكتب باسمك اللهم، ثم قال لي رسول الله: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله. فقال سهيل: لا، لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك، بل اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله قريشًا. فأمرني رسول الله أن أمحو بسم الله الرحمن الرحيم وأكتب باسمك اللهم، وأن أمحو (محمد رسول الله) وأكتب محمد بن عبد الله. يقول الله في كتابه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾".

فانصرفوا راضين بما سمعوه من الإمام..

* * * *

ثم خرج الإمام إلى من بقي منهم بحروراء وكانوا نحو

اثنى عشر ألفًا.. وكان قد عرف أن من رؤسائهم يزيـد بـن

قيس، فأتاه في سرادقه، وصلى ركعتين ثم قال: "اللهم هذا مقام من يفلح فيه كان أولى بالفلج (الفوز)" . ثم سألهم: "من زعيمكم ..؟" قالوا: "ابن الكواء" قال: "ما أخرجكم علينا ..؟!" قالوا: "حكومتك يوم صفين" قال: "أنشدكم الله، أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف وقلتم: نجيبهم، قلت: لكم إنهم ليسوا بأصحاب دين ..؟".

وظل يذكرهم بما نصحهم به آنفًا، وهم يهددونه إن لم يقبل التحكيم أن يصنعوا به كما صنع بعثمان.. فوجموا!

فقال لهم الإمام: "قد اشترطت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن، فإن حكما بالقرآن فليس لنا أن نخالف، وإن أبيا فنحن من حكمهما براء".

قالوا: "أتراه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء ..؟".

قال: "إنا لسنا حكمنا الرجال إنما حكمنا القرآن، وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال" قالوا: "فخبرنا عن الأجل لم جعلته بينكم ..؟". قال: "ليعلم الجاهل ويثبت العالم، ولعل الله يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة. ادخلوا مصركم رحمكم الله".

وشعر أن بعضهم هدأت حدته، وأن الآخرين ما زالوا في توترهم. فسألهم: "أكلكم شهد معنا ِفّين ..؟" قالوا: "منا من شهد ومنا من لم يشهد" قال: "فامتازوا فرقتين، فليكن من شهد ِفّين فرقة، ومن لم يشهدها فرقة، حتى أكلم كلا بكلامه".

وحدث هرج، واختلطت أصوات، فنادى الإمام الناس: "أمسكوا عن الكلام، وأنصتوا لقولي، وأقبلوا بأفئدتكم إلـــى، فمن ناشدناه شهادة فليقل بعلمه فيها".

واتجه إلى الفرقة التي شهدت ِفّين فقال: "ألم تقولوا عن رفعهم المصاحف حيلة وغيلة ومكرا وخديعة: إنهم إخواننا وأهل دعوتنا، استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله سبحانه، فالرأي القبول منهم والتنفيس عنهم ..؟!" فقلت لكم: هذا أمر ظاهره إيمان وباطنه عدوان، وأوله رحمة وآخره ندامة، فأقيموا على شأنكم، والزموا طريقتكم، وعضوا على الجهاد بنواجذكم، ولا تلتفتوا إلى ناعق نعق، إن أجيب أضل، وإن ترك ذل .. وإن الكتاب لمعي، ما فارقته منذ صحبته. فلقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن القتل ليدور على الآباء والأبناء والإخوان والقرابات، فما نزداد على كل مصيبة وشدة إلا إيمانا، ومضيا على الحق، وتسليما للأمر،

وصبرا على مضض الجراح. ولكنا إنما أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل.. فإذا طمعنا في خصلة يلم الله به شعثنا ونتدانى إلى البقية فيما بيننا رغبنا فيها وأمسكنا عما سواها".

وسكتوا.. فقال لهم: "ادخلوا مصركم رحمكم الله" وركب .. فركبوا .. وعاد بهم إلى مصرهم: الكوفة، فدخلوا الكوفة آمنين.. وبايعوه على السمع والطاعة..

وعذب معاوية الشك في عمرو بن العاص! إن وراء هذا الإبطاء لأمرا، فهو يعرف عمرا ..!

وأرسل معاوية إليه شعرا جاء فيه:

وقال رجال إن عمرا يريدها ... فقلت لهم عمرو لي اليوم تابع
فإن تك قد أبطأت عني تبادرتْ ... إليكم بتحقيق الظنون الأصابع

ثم إنه أمر بسرادق فخيم فضرب له على مشارف (دومة الجندل) أقرب من أن يعتبر غائبا فينتهز عمرو غيابه، وأبعد من أن يكون شاهدا، يتهم بالتأثير على الحكمين ..!

* * * *

أما الإمام فقد آثر أن يظل بالكوفة بعيدا، لينظر فيما أفسدته الحرب من أمور الدولة: فها هم أقوام من أهل خراسان قد امتنعوا عن أداء الزكاة والخراج، وتناجوا فيما بينهم: "إذا كان المسلمون يقاتل بعضهم بعضا وفيهم من يعلنون العصيان على إمامهم ويحاربونه، وإذا كان أتباع محمد قد أذاقهم ربهم بأس بعضهم بعضا، فمن الخير أن نعود إلى ملتنا التي وجدنا عليها آباءنا" .. وهكذا خرجوا من الطاعة، ومن الإسلام جميعا..

وهذا هو بعض ما غرسته الفئة الباغية: خروج من خرج على الإسلام وارتدادهم إلى ما كانوا عليه، ثم خروج بعض أطراف الدولة على إمام المسلمين، ثم خروج القراء المتطرفين على معلمهم واتهامه بالكفر لأنه في رأيهم قبل التحكيم في أمر الله، وأجاب دعوة كفار..!!

والإمام يحاول بكل ما وهبه الله من صبر وشجاعة وحكمة وتقوى أن يؤمن ما اضطرب من سرب الأمة، ويجهد في رأب الصدع وجمع الشتات، عسى أن يعتدل الميل..

أما المتطرفون من القراء الذين أصبحوا خوارج عليه، فقد تجافى عن عصيانهم، وأقنعهم بالحكمة والموعظة الحسنة أن

يعودوا من حروراء – حيث كانوا قد اعتزلوا – إلى أهلهم بالكوفة، فعادوا، ودخلوا في الجماعة..

ثم إنه أرسل جندا إلى خراسان حيث ارتد أهل نيسابور وامتنعوا عن إيتاء الزكاة وأداء الخراج، فهزموا جند الإمام، فسيّر إليهم جندا كثيفاً على رأسهم خُليد بن قرّة وهو من أشجع قواده، فحاصر أهل نيسابور حتى اضطرهم إلى التسليم، وعادوا إلى الإسلام ودفع ما عليهم هم وكل من خرج من أهل خراسان، فدخلوا في الجماعة ولزموا

الطاعة.. ونظر في أمر سائر الأمصار، فوجد أن مصر وهي
أكبرها وأخطرها وأغناها وأهمها لخصومه، قد أصبحت بلا والٍ، منذ قتل محمد بن أبي حذيفة..

وكان محمد بن أبي حذيفة أثناء الثورة على عثمان، قد وثبت على حكم مصر، فلما قتل عثمان وبويع لعلي، خف معاوية إلى مصر ليستولي عليها، وبلغ عين شمس، ولكن محمد بن أبي حذيفة قام في وجهه ومعه المصريون وكانوا من أشياع علي، فاضطروا معاوية إلى الانسحاب..

واحتال معاوية على محمد بن أبي حذيفة ورؤساء مصر، استدرجهم إلى فلسطين .. حيث سجنوا .. ثم قتلوا، وعاد إلى دمشق ليغلبه على الاهتمام بمصر، أمر حرب صِفِّين..

فرأى الإمام أن يستعمل محمد بن أبي بكر على مصر، وكان الإمام من قبل قد ولى قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، ثم عزله، فلما لحق به قيس في صِفِّين فأكرمه، وقدمه، وكان من أشجع قواده.

وللأنصار عند الرسول وعلى وفاطمة مكانة خاصة: فقد أوصى بهم الرسول، وقالت فاطمة لهم: أنتم حضنة الإسلام وأعضاد الملة..

ولقي الوالي المعزول قيس بن سعد الأنصاري الوالي الجديد محمد بن أبي بكر فنصحه: "إنه لا يمنعني نصحي لك ولأمير المؤمنين عزله إياي، فقد عزلني من غير وهن ولا عجز. فاحفظ مما أوصيك به. فأنا من أمرك هذا على بصيرة: فدع معاوية بن حُديج ومسلمة بن مُخلَّد ومن انضم إليهما على ما هم عليه. وأنزل الناس على قدر منازلهم. وإن استطعت أن تعود المرضى وتشهد الجنائز فافعل، فإن هذا لا

ينقصك، وإذا لم تفعل فإنك لتظهر الخيلاء، وتحب الرياسة، وتسارع إلى ما هو ساقط عنك، والله موفقك".

وقد عزل قيس بن سعد لأنه وجد بمصر رجالاً أعلنوا أن هواهم مع قرية خربتا بالبحيرة ..! فآثر قيس أن يسالمهم ما سالموه، وأجرى عليهم ما يستحقونه من أرزاق"..

وثقل على معاوية وجود قيس بن سعد في مصر، وهومن هو شجاعة وإقداما وحسن رأي وعظم مكانة، ووجد نفسه محاصرا بين على في العراق وقيس في مصر، فحاول أن يستميل قيسًا بكل المغريات، ولكن قيسا رده ردا منكرا.. فلجأ معاوية إلى الخديعة ونجح!

فكان يفخر بذلك ويقول: "ما ابتدعت من مكايدة قط أعدب إلى من مكايدة كدت بها قيس بن سعد. قلت لأهل الشام: لا تسبوا قيسا ولا تدعوا إلى غزوه، فإن قيسا لنا شيعة، تأتينا كتبه ونصيحته! ألا ترون ماذا يفعل بأخوانكم النازلين عنده بخربتا ..؟ يجري عليهم أرزاقهم..! وطفقت أكتب بذلك إلى شيعتي بالعراق، فسمع بذلك جواسيس علي بالعراق، فأنهاه إليه محمد بن أبي بكر، فبعث علي إلى سعد يأمره بقتال أهل خربتا! فأبى قيس أن يقاتلهم، وكتب إلى على: "إنهم قد

رضوا مني بأن أؤمن سربهم، وأجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم، وقد علمت أن هواهم مع معاوية، فلست مكايدهم بأمر أهون من الذي أفعل بهم. فإن كنت تتهمني فاعزلني وابعث غيري".

ثم إن معاوية أذاع أن قيسا بايعه، فعزله علي.. ولكن قيسا سار إلى علي وكشف له كيد معاوية.. فكان من قواد صِفِّين..

وسار محمد بن أبي بكر إلى مصر فبلغها في منتصف رمضان سنة سبع وثلاثين، والحكمان مازالا يتداولان في دومة الجندل، لم يعلنا قرارهما بعد ...!

كان محمد بن أبي بكر في السادسة والعشرين من عمره، فلما قدم مصر قرأ على الناس كتاب أمير المؤمنين بتوليته: "هذا ما عهد عبد الله على أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر حين ولاه مصر، أمره بتقوى الله في السر والعلانية، وخوف الله تعالى في المغيب والمشهد، وبالإنصاف للمظلوم، وبالشدة على الظالم، وبالعفو عن الناس، وبالإحسان ما استطاع، والله يجزي المحسنين. وأمره أن يدعو من قبله إلى الطاعة والجماعة، فإن لهم في ذلك من العاقبة وعظم المثوبة

مالا يقدر قدره ولا يعرف كنهه، وأمره أن يجبي خراج الأرض على ما كانت تجبى عليه من قبل، ولا ينتقص ولا يبتدع، ثم يقسمه بين أهله كما كانوا يقسمونه من قبل، وإن تكن لهم حاجة، يواسي بينهم في مجلسه ووجهه، ليكون القريب والبعيد عنده على سواء. وأمره أن يحكم بين الناس بالحق، وأن يقوم بالقسط، ولا يتبع الهوى، ولا يخاف في الله لومة لائم، فإن الله مع من اتقاه وآثر طاعته على من سواه".

ثم قرأ محمد ما كتبه أمير المؤمنين إلى أهل مصر ومنه نصح له: "أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله في سر أمركم وعلانيته، وعلى أي حال كنتم عليها، وليعلم المرء منكم أن الدنيا دار بلاء وفناء، والآخرة دار جزاء وبقاء، فمن استطاع أن يؤثر ما يبقى على ما يفنى فليفعل، فإن الآخرة تبقى، والدنيا تفنى. رزقنا الله وإياكم بصرا لما بصرنا، وفهما لما فهمنا، حتى لا نقصر عما أمرنا، ولا نتعدى إلى ما نهانا. واعلم يا محمد أنك وإن كنت محتاجا إلى نصيبك من الدنيا إلا أنك إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فإن عرض لك أمران: أحدهما للآخرة والآخر للدنيا، فابدأ بأمر الآخرة، ولتعظم رغبتك في الخير، ولتحسن فيه نيتك، فإن الله عز

وجل يعطي العبد على قدر نيته، وإذا أحب الخير وأهلـه ،وإذا أحب الخير وأهله ولم يعمله، كـان إن شـاء الله كمـن عمله، فإن رسول الله (ﷺ) قال حين رجع مـن تبـوك: إن بالمدينة أقواما ما سرتم من مسير، ولا هبطـتم مـن واد إلا كانوا معكم، ما حبسهم إلا المرض – يقول كانت لهم نيـة –

ثم اعلم يا محمد أني قد وليتك أعظم أجنادي: أهـل مصـر، ووليتك من أمر الناس، فأنت محقوق أن تخاف فيـه علـى نفسك، وتحذر فيه على دينك، ولو كان ساعة من نهار. فـإن استطعت ألا تسخط ربك لرضا أحد من خلقه فافعل، فإن في الله خلفًا من غيره، وليس في شئ خلف منه، فاشـتد علـى الظالم، ولِن لأهل الخير، وقربهم إليك، واجعلهـم بطانتـك وإخوانك. والسلام".

* * * *

وبعد أن فرغ محمد من قراءة كتابي أمير المؤمنين قـال:

"الحمد لله الذي هدانا وإياكم لما اختلـف فيـه مـن الحـق، وبصرنا وإياكم كثيرا مما عمى عنه الجاهلون. ألا إن أميـر المؤمنين ولّاني أمركم وعهد إليّ ما سمعتم وأوصاني بكثير منه مشافهة، ولن آلوكم خيرا، وما توفيقي إلا بـالله، عليـه

توكلت وإليه أنيب، فإن يكن ما ترون من أعمالي طاعة الله وتقوى فاحمدوا الله على ما كان من ذلك. فإنه هو الهادي له، وإن رأيتم عملاً بغير الحق فارفعوه إلي واعتبوني فيه، فإني بذلك أسعد وأنتم جديرون. وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال".

ولكن محمدا لم ينتصح بنصيحة قيس بن سعد، فما كاد يستقر في مصر حتى أرسل إلى أهل خربتا الذين وادعهم سعد، فأنذرهم: "إما أن تدخلوا في طاعتنا وإما أن تخرجوا من بلادنا!" فردوا عليه: "إنا لا نفعل، فدعنا حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس".

كانت مصر غنية، ليس في الأمة الإسلامية من له مثل غناها: كانت جنة خضراء وارفة الظلال، تجري تحتها الأنهار، تؤتي أحسن الثمرات، حتى لقد كانت قبل الفتح الإسلامي تطعم وتغذي الإمبراطورية الرومانية بأسرها فأسموها سلة فاكهة العالم، ومخزن غلال أهل الأرض..!

وكانت متقدمة في صناعاتها وبصفة خاصة صناعة النسيج حتى لقد كانت كل بلاد الدنيا تحرص على استيراد الفاخر من منسوجات مصر، وخاصة تلك التي تسمى القباطي..

وكان أغلب أهل مصر لعلي شيعة ينصرونه، أما معاوية، فلم يكن له إلا الذين اعتزلوا في خربتا، وما شايعوا معاوية إلا لأن فيهم بعض ذوي قرباه، وإلا لأنهم انخدعوا بأن معاوية يحارب عليا مطالبا بقتلة عثمان حقاً..!

فلما أرسل إليهم محمد بن أبي بكر يطلب منهم البيعة أو الخروج من مصر ليلحقوا بمعاوية،آثروا أن يتريثوا ليروا ما يكون من أمر الحكمين، في دومة الجندل ..!

كانت الأمة الإسلامية كلها تنتظر الحكمين بدومة الجندل، ذلك المكان الهاديء من الدنيا الذي يتوسط الطريق بين الكوفة ودمشق.

فلما علم الإمام أن محمدا يشتد على أهل خربتا في طلب البيعة وهم يماطلونه، رأى أن يوجه كتابا إلى أهل مصر وأغلبهم شيعته، وإلى محمد وهو ربيبه الذي تربى في حجره. إذ تزوج أمه أسماء بعد أن مات عنها أبو بكر ومحمد طفل، فما عرف له أبا غير علي..

في تلك الأيام المضطربة التي تشرئب فيها الأطماع إلى دنيا معاوية، ويختلط فيها الفجور بالتقوى، وتميل الموازين، كتب الإمام إلى أهل مصر وأميرهم محمد بن أبي بكر يعظهم

ويعلمهم: "أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله والعمل بما أنتم عنه مسؤولون، فأنتم به رهن، وإليه صائرون، فإن الله عز وجل يقول: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ وقال: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾، وقال: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فاعلموا عباد الله أن الله سائلكم عن الصغير من أعمالكم والكبير، فإن يعذب فنحن الظالمون، وإن يغفر ويرحم فهو أرحم الراحمين، واعلموا أن أقرب ما يكون العبد إلى الرحمة والمغفرة حينما يعمل بطاعة الله ومناصحته في التوبة، فعليكم بتقوى الله عز وجل، فإنها تجمع من الخير مالا يجمع غيرها، ويدرك بها من الخير مالا يدرك بغيرها: خير الدنيا وخير الآخرة، يقول سبحانه: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾. واعلموا عباد الله أن المؤمنين المتقين قد ذهبوا بعاجل الخير وآجله، أشركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يقول الله عز وجل: ﴿ قُلْ

آخرتهم.   م أهل الدنيا في يشاركهم

قُلْ الرزقِ وا لـ لِعبادِهِ لِ أخرج اللهِ زينةَ   ها د و
من   ت طيبا   الذي أَ

هِي   لِلذين آمنوا في الحياة الدنيا   و ا قيا مة ﴾
يـ   خالصـة

سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم فأكلوا من أفضل ما يأكلون، وشربوا من أفضل ما يشربون، ويلبسون من أفضل ما يلبسون، ويسكنون من أفضل ما يسكنون، أصابوا لذة أهل الدنيا مع أهل الدنيا، مع أنهم غدا من جيران الله عز وجل، يتمنون عليه، لا يرد لهم دعوة، ولا ينقص لهم لذة. أما في هذه ما يشتاق إليه كل من له عقل ..؟!".

واعلموا عباد الله أنكم إذا اتقيتم ربكم، وحفظتم نبيكم في أهل بيته، فقد عبدتم الله بأفضل ما عبد، وذكرتموه بأفضل ما ذكر، وشكرتموه بأفضل ما شكر، وأخذتم بأفضل الصبر، وجاهدتم بأفضل الجهاد، وإن كان غيركم أطول صلاة منكم، وأكثر صيا لهه إذا كنتم أتقى الله وأنصح لأولياء الله من آل محمد صلى الله عليه وآله – وأخشع... أما أنـّا لو لم نخوف إلا ببعض ما خوفنا به لكنا محقوقين (حقيق بنا) أن يشتد خوفنا مما لا طاقة لنا به، ولا صبر لنا عليه، وأن يشتد شوقنا إلى مالا غنى لنا عنه ولابد لنا منه، فإن استطعتم عباد الله أن يشتد خوفكم من ربكم فافعلوا، فإن العبد إنما تكون

طاعته على قدر خوفه، وإن أحسن الناس الله طاعة، أشدهم خوفًا.

وانظر يا محمد صلاتك كيف كنت تصليها، فإنما أنت إمام ينبغي لك أن تتمها وأن تخففها وأن تصليها لوقتها، فإنه ليس من إمام يصلي بقوم فيكون في صلاته وصلاتهم نقص إلا كان إثم ذلك عليه، ولا ينقص من صلاتهم شيئًا.

واعلم أن كل شئ من عملك يتبع صلاتك، فمن ضيع الصلاة فهو لغيرها أشد تضييعا، ووضوءك من تمام الصلاة، فأت به على وجهك، فالوضوء نصف الإيمان. أسأل الله الذي يرى ولا يرى وهو بالمنظر الأعلى أن يجعلنا وإياك من المتقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

فإن استطعتم يا أهل مصر أن تصدق أقوالكم أفعالكم، وأن يتوافق سركم وعلانيتكم، ولا تخالف ألسنتكم قلوبكم فافعلوا، عصمنا الله وإياكم بالهدى، وسلك بنا وبكم المحجة الوسطى، وإياكم ودعوة الكذاب ابن هند! وتأملوا واعلموا أنه لا يستوي إمام الهدى وإمام الرأي، ووصي النبي وعدو النبي، جعلنا الله وإياكم ممن يحب ويرضى. ولقد سمعت رسول الله (❐) يقول: "إني لا أخاف على أمتي مؤمنًا ولا مشركًا، أما

المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأما المشرك فيجزيه الله بشركه، ولكني أخاف عليهم كل منافق اللسان، يقول ما تعرفون، ويفعل ما تنكرون".

واعلم يا محمد أن أفضل الفقه الورع في دين الله، والعقل بطاعته، فعليك بالتقوى في سر أمرك وعلانيته، أوصيك بسبع هن جوامع الإسلام: اخش الله ولا تخش الناس، وخير القول ما صدقه العقل، ولا تقض في أمر بقضاءين مختلفين فيتناقض أمرك وتزيغ عن الحق، وأحب لعامة الرعية ما تحبه لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك. وأصلح أحوال رعيتك، وخض الغمرات إلى الحق، ولا تخف في الله لومة لائم، وانصح لمن استشارك، واجعل نفسك أسوة لقريب المسلمين وبعيدهم. جعل الله خلتنا ودنا خلة المتقين، وود المخلصين، وجمع بيننا وبينكم في دار الرضوان، إخوانًا على سرر متقابلين. إن شاء الله".

وكان محمد قد تعود أن يتأدب بكل ما يعظه به على، فأخذ يقرأ هذا الخطاب لنفسه وعلى الناس..

واستبطأ محمد بن أبي بكر رد الذين في خربتا، فبعثوا إليه يسألونه مهلة أخرى، وسيردون عليه بعد أن يتشاوروا فيما يدعوهم إليه من البيعة لعلي أو الخروج إلى معاوية!.وفي الحق أنهم كانوا ينتظرون قضاء الحكمين، كما كانت الأمة كلها تنتظر..

* * * *

وجاء يوم إعلان رأي الحكمين بعد أن طال انتظار الناس.

اجتمع أبو موسى الأشعري، وعمرو بن العاص، فعظم عمرو أبا موسى وأثنى على سابقته في الإسلام، وحسن رأيه وورعه وتقواه – ثم قال: "يا أبا موسى، ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوما ..؟" قال: "بلى". قال: "فما يمنعك يا أبا موسى من معاوية ولى دم عثمان، وبيته في قريش ما قد علمت ..؟ فإن خشيت أن يقول الناس ولّى معاوية وليست له سابقة في الإسلام فإن لك بذلك حجة، تقول: إني وجدته ولّى عثمان الخليفة المظلوم، والطالب بدمه، الحسن السياسة، الحسن التدبير، وهو أخو أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين زوج رسول الله (ﷺ)، وقد صحبه وهو أحد الصحابة".

وسكت أبو موسى يفكر.

فاستمر عمرو يقول، وقد التمعت عيناه: "فإن ولى معاوية الأمر أكرمك كرامة لم يكرمك أحد قط مثلها يا أبا موسى".

فقال أبو موسى مغضبا: "اتق الله يا عمرو! أما ذكرك شرف معاوية فإن هذا الأمر ليس على الشرف يولاه أهله. إنما هو لأهل الدين والفضل. مع أني لو كنت أعطيه أفضل قريش شرفا أعطيته علي بن أبي طالب. وأما قولك أن معاوية ولى عثمان فولّه هذا الأمر فإني لم أكن أوليه معاوية وأدع المهاجرين الأولين. أما تعريضك بالسلطان فوالله لو خرج لي من سلطانه ما وليته. ولا كنت لأرتشي في الله، ولكن والله لو استطعت لأحيين اسم عمر بن الخطاب"..

وطرب عمرو، فها هو ذا أبو موسى، لا يتشبث بعلي بن أبي طالب.

وانقض عمرو على هدفه: "إذا كنت تعدل عن علي بن أبي طالب وتريد أن تبايع ابن عمر، فما يمنعك من ابني عبد الله وأنت تعرف فضله وصلاحه ..؟" قال أبو موسى: "إن ابنك رجل صدق، ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة، إن شئت ولينا الطيب ابن الطيب عبد الله بن عمر بن الخطاب".

فقال عمرو: "إن هذا أمر لا يصلح له إلا رجل له ضرس يأكل ويطعم وإن عبد الله ابن عمر ليس هناك" فافترقا.

وعلم خاصة الناس بما دار بين أبي موسى وعمرو، فذهب عبد الله بن الزبير – وكان قد حارب عليًا يوم الجمل – إلى ابن عمر. فقال: "اذهب إلى عمرو بن العاص فارشه" قال ابن عمر: "لا والله ما أرشو عليها أبدا..".

وكان عمر بن الخطاب في آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة قد أوصى المسلمين ألا يفكروا في بيعة ابنه عبد الله، وأوصى عبد الله ألا يفكر في الخلافة، فما فكر فيها قط!

ومضى ابن عمر إلى عمرو بن العاص يؤنبه: "ويلك يا ابن العاص! إن العرب قد أسندت إليك أمرها بعد ما تقارعت بالسيوف وتشاجرت بالرماح، فلا تردهم في فتنة واتق الله".

وفي ذلك اليوم صمم الحكمان على أن ينتهيا إلى اتفاق فقد سئم الناس أمرهما، وها هو ذا ابن عمر يتهم أحد الحكمين أنه يوشك أن يرد الناس إلى فتنة!

فأجلس عمرو أبا موسى في صدر المكان، وقال له: "يا أبا موسى ليس أهل العراق بأوثق بك من أهل الشام، لغضبك لعثمان وبغضك للفرقة، وقد عرفت حال معاوية في قريش

وشرفه في بني عبد مناف. فما ترى ..؟" قال أبو موسى: "أرى خيرا. أما غضبي لعثمان فلو شهدته لنصرته، وأما بغضى للفتن فقبح الله الفتن. وأما معاوية فليس بأشرف من علي في قريش أوفى بني عبد مناف" وأبو موسى يريد زوج ابنته عبد الله بن عمر، وعمرو قد أطعمه تخلى أبي موسى عن علي في أن يوليها ابنه عبد الله. ولكن أبا موسى يأبى إلا ابن عمر لا لأنه زوج ابنته فحسب، ولكن لمزايا فيه.

فلما التقيا مرة أخرى قال أبو موسى وقد عز عليه أنهما لم يتفقا: "يا عمرو هلم إلى أمر يجمع الله به الألفة، ويلم الشعث، ويصلح ذات البين". فقال عمرو: "جزاك الله خيرا يا أبا موسى، غير أن للكلام أولاً وآخرا، ومتى تنازعنا الكلام خطبا لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله، فاجعل ما كان بيننا من كلام في كتاب يصير إليه أمرنا" قال أبو موسى: "فاكتب". فأمر عمرو بصحيفة ودعا غلامه ليكتب. فقال عمرو: "اكتب يا غلام: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه فلان وفلان" فكتب الغلام: "هذا ما تقاضى عليه عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس" فزجر عمرو غلامه قائلاً: "لا أم لك! أتقدمني قبل أبي موسى كأنك جاهل

بحقه..؟!" وأملى فبدأ باسم أبي موسى ثم استمر يملي على غلامه: "تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن أبا بكر خليفة رسول الله (□) حتى قبضه الله إليه، قد أدى الحق الذي عليه، وكذلك خليفته عمر. وأن عثمان ولى هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله (□) ورضا منهم، وإنه كان مؤمنًا".

فقال أبو موسى: "ليس هذا مما قعدنا له" قال عمرو: "والله لا بد أن يكون مؤمناً أو كافرا" فقال أبو موسى: "كان مؤمناً" فقال عمرو: "فظالما قتل أم مظلوما ..؟" قال أبو موسى: "بل مظلوما" قال عمرو: "أفليس قد جعل الله لوليه سلطانًا يطلب دمه ..؟" قال أبو موسى: "بلى" قال عمرو: "فهل تعلم لعثمان وليا أولى من معاوية ..؟" قال: "لا" قال: "أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه..؟" قال أبو موسى مستسلما: "بلى".

فوثب عمرو قائلاً: "إذن قل أنت للكاتب فليكتب هذا، فإنَّا لا نقيم البينة على أن عليا قتل عثمان" قال أبو موسى: "إنما اجتمعنا لغير هذا"..

فأمر عمرو غلامه فكتب ما قاله أبو موسى، ثم أخذ عمرو الصحيفة بعد أن وقعا عليها وختماها ووضعها في جيبه. ثم قال: "يا أبا موسى، إنك شيخ أصحاب رسول الله (ﷺ) وذو فضلها وذو سابقتها، وقد ترى ما وقعت فيه هذه الأمة من الفتنة العمياء التي لا بقاء معها، فهل لك أن تكون ميمون هذه الأمة فيحقن الله بك دماءها، فإنه يقول في نفس واحدة: ﴿ **ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا** ﴾. فكيف

بمن أحيا أنفس هذا الخلق كله ..؟!".

قال له أبو موسى: "وكيف ذلك ..؟" قال: "تخلع أنت علي بن أبي طالب، وأخلع أنا معاوية، ونختار لهذه الأمة رجلاً لم يحضر في شئ من الفتنة، ولم يغمس يده فيها وهو عبد الله بن عمر الذي تريده".

وعجب أبو موسى لتحول عمرو إلى الموافقة علي عبدالله بن عمر، ولكن كل الذي كان يريده عمرو هو أن يعلن أبو موسى أنه يتخلى عن علي.

قال أبو موسى: "ولكن يا عمرو كيف لي بالوثيقة منك على أن تجعلها لعبد الله ابن عمر" قال: "ألا بذكر الله تطمئن

القلوب. خذ من العهود والمواثيق حتى ترضى" وأعطاه عمرو من المواثيق ما أذهله.

وخرجا إلى الناس الذين كانوا ينتظرون في قلق.. وقدم عمرو بن العاص أبا موسى، وعظمه، وتأخر هو، ثم قال له:
يا أبا موسى أعلم الناس أن رأينا قد اتفق" فقال أبو موسى: "أيها الناس إن رأينا قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة" فقال عمرو: "صدق وبر تقدم يا أبا موسى" وابتسم عمرو والتمعت عيناه! ولاحظه ابن عباس فوثب يحاول منع أبي موسى من الكلام، وكأنه استشعر الخديعة فقال: "يا أبا موسى. ويحك! والله إني لأظنه قد خدعك،إن كنتما قد اتفقتما على أمر فليتكلم به قبلك، فإنه رجل غادر، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضى بينكما، فإذا قمت في الناس خالفك".

فأسرع عمرو قبل أن يجيب أبو موسى فقال: "يا أبا موسى تقدم أنت، فأنت أسبق مني في الإسلام، وأنت شيخ أصحاب رسول الله (□) وأسن مني، فتكلم" فصاح ابن عباس مرة أخرى: "ويحك يا أبا موسى..!" فقال أبو موسى مغضبا: "إيها عنك يا ابن عباس، إنا قد اتفقنا".

ثم حمد الله وأثنى عليه وقال: "يا أيها الناس، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها، من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه: أن نخلع عليا ومعاوية، ونجعلها لعبد الله بن عمر".

ثم قعد، ووقف عمرو فقال: "إن هذا قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه عليا كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية في الخلافة. فإنه ولى عثمان والطالب بدمه، وأحق الناس بمقاومه".

وتصايح الناس واختلطت الأصوات: دهش أصحاب علي، وصفق أصحاب معاوية.

وانقض أبو موسى على عمرو فقال له: "مالك لا وفقك الله، قد غدرت وفجرت".. فضحك عمرو، وعيناه تلمعان بنظرات ظافرة..

فقال سعد بن عبادة: "ما أضعفك يا أبا موسى عن عمرو ومكايده!" فقال أبو موسى: "فما أصنع ..؟ وافقني على أمر ثم نزع عنه" قال ابن عباس منكسر القلب: "لا ذنب لك يا أبا موسى! الذنب ذنب من قدمك في هذا المقام!".. وقال لمن حوله: "لقد حذرته وهديته إلى الرأي فما عقل".

وصاح أبو موسى في ندم: "لقد حذرني ابن عباس غدرة الفاسق ولكني اطمأننت إليه، وظننت أنه لن يؤثر شيئًا على نصيحة الأمة".

وصاح عبد الله بن عمر يؤنب الحكمين.. فما الزج باسمه فيما لا شأن له به ..؟!

ووقف عمرو وسط وفد أهل الشام يضحكون ويتصايحون طربا، واهتز بدن عمرو من الضحكات، وهو ينظر إلى أصحاب علي يحتدمون غيظًا، فانقض منهم شرُيح ابن هانيء على عمرو فعلاه بالسوط، فقام لشرُيح ابن لعمرو فرفع سوطه غير أن الناس قاموا بينهما، فقال شريح: "ليتني علوته بالسيف!" وصاح سعيد بن قيس في الحكمين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص: "ما ضلالكما بلازمنا، وما رجعتما إلا بما بدأتما، وإنا اليوم لعلى ما كنا عليه بالأمس".

فقام يزيد بن أسد منأصحاب معاوية فقال: "يا أهل العراق، اتقوا الله، لقد شخصت الأبصار إلى الصلح، وأشرفت الأنفس على الفناء، وأصبح كل امريء يبكي على قتيل. ما لكم رضيتم بأول أمر صاحبكم وكرهتم آخره. إنه ليس لكم وحدكم الرضا".

ووقف ابن عمر يتململ وهو يتأمل أبا موسى يتغيظ على عمرو وعمرو يضحك مزهوا بنجاح الخديعة، فقال ابن عمر حزينا: "انظروا إلى ما صار إليه أمر هذه الأمة: إلى رجل لا يبالي ما صنع وآخر ضعيف".

وهرب أبو موسى إلى مكة حيث اعتزل يتعبد ندما.. أما عمرو وأهل الشام فانطلقوا إلى معاوية وهو ينتظر في سرادقه الفخيم غير بعيد، فسلموا عليه بالخلافة، وعاد أصحاب علي إليه كاسفي البال، يتمزقون من الغيظ ..!

أما المتطرفون الذين قبلوا التحكيم إذ الإمام يرفضه، وتمسكوا بأن يكون أبو موسى هو مندوب علي، واضطروه إلى قبوله، فقد عادوا يلومون الإمام لأنه قبل التحكيم، ثم لأنه قبل أبا موسى..!! لاموا الإمام لأنه لم يقهرهم على الصواب، وتركهم يقهرونه على الخطأ..! ونسوا أنهم إنما هددوه بالقتل إذا لم يذعن لما يفرضه تطرفهم وتوترهم..!!

وأقيمت الأفراح بدمشق، وبدأ عمرو يستنجز معاوية وعده: أن يعطيه مصر طعمة .. (أي هدية له، خراجها كله له) وكان معاوية قد أخذ يوزع الهدايا على رجاله.

وكتب معاوية إلى أبي موسى في مكة: "سلام عليك، أما بعد، فالحق لمن نصب له فأصابه، وليس لمن عرض له فأخطأ، وقد كان الحكمان إذ حكما على علي لم يكن له الخيار عليهما، وقد اختاره القوم عليك، فأكره منهم ما كرهوا منك، وأقبل إلى الشام، فنى خير لك من علي، ولا قوة إلا بالله".

فكتب إليه أبو موسى: "سلام عليك، فإني لم يكن مني في علي إلا ما كان من عمرو فيك، غير أني أردت ما صنعت ما عند الله، وأراد به عمرو ما عندك..! وقد كان بيني وبين عمرو شروط وشورى عن تراض، فلما رجع عمرو رجعت. أما قولك إن الحكمين إذا حكما على رجل لم يكن له الخيار عليهما، فإنما ذلك في الشاة والبعير والدينار والدرهم. فأما أمر هذه الأمة، فليس لأحد فيماي كره حكم، ولن يذهب الحق عجز عاجز ولا خدعة فاجر. وأما دعاؤك إياي إلى الشام فليس بي رغبة عن حرم إبراهيم".

فكتب الإمام إلى أبي موسى: "سلام عليك، أما بعد. فإنك امرؤ ظلمك الهوى واستدرجك الغرور – حقق بك حسن

الظن لزومك بيت الله الحرام غير حاج ولا قاطن، فاستقل الله يقلك، فإن الله يغفر ولا يغفل، وأجب عباده إليه التوابون".

فأجابه أبو موسى: "أما بعد، فإنه والله لولا أني خشيت أن يرفعك مني منع الجواب إلى أعظم مما في نفسك لم أجبك، لأنه ليس لي عندك عذر ينفعني ولا قوة تمنعني، وأما قولك: لزومي بيت الله الحرام غير حاج ولا قاطن، فإني اعتزلت أهل الشام، وانقطعت عن أهل العراق، وأصبت أقواما صغروا من ذنبي ما عظمتم، وعظموا من حقي ما صغرتم، إذ لم يكن لي منكم ولي ولا نصير".

* * * *

أما المتطرفون من أصحاب الإمام وتلاميذه القراء الذين كانوا قد عادوا من حروراء، فقد لقى بعضهم بعضا حين علموا بما كان من أمر الحكمين واجتمعوا في منزل عبد الله ابن وهب الراسبي فحضهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم دعاهم إلى الهجرة من الكوفة وقال لهم: "يا حملة القرآن، أخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى الجبال، منكرين لهذه البدع المضلة" فقال عرقوص: "إن المتاع بهذه الدنيا قليل، وإن الفراق لها وشيك، فلا تدعونّكم زينتها

وبهجتها إلى المقام بها، ولا تلفتنكم عن طلب الحق وإنكار الظلم، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون".

وكان لا بد لهم من أمير، فبايعوا عبد الله بن وهب أميرا عليهم، وكان يقال له: "ذو الثَّفِنَات"، والثفنة هي الركبة، وكان طول السجود قد ترك في ركبتيه آثارا واضحة.

فلما اختاروه أميرا قال: "والله لا آخذها رغبة في الدنيا، ولا أدعها فرقا من الموت.. فاشخصوا بنا إلى بلدة نجتمع فيها لإنفاذ حكم الله فانكم أهل الحق" فقال رجل منهم: "نخرج إلى المدائن، فننزلها، ونأخذ بأبوابها، ونخرج منها سكانها، ونبعث إلى إخواننا أهل البصرة فيقدمون علينا" فقال أحد زعمائهم: "إنكم إن خرجتم مجتمعين تبعوكم. ولكن أخرجوا وحدانا مستخفين. فأما المدائن فإن بها من يمنعكم، ولكن سيروا حتى تنزلوا النهروان وتكاتبوا إخوانكم من أهل البصرة" قالوا: "هذا هو الرأي". فكتبوا إلى أهل البصرة ليوافوهم بالنهروان.

* * * *

واجتمعوا ليلة قرروا الخروج في مكان فسيح خارج الكوفة، فتعبدوا طوال الليل، وخرجوا قبيل الفجر، وهم

يتلون: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

وحاول بعض الشباب أن يلحق بهم، فمنهم من رده أهله، ومنهم من أفلت وخرج معهم.. وكان ممن أفلت معهم طرفة بن عدي بن حاتم.

وشعر معاوية أن عمرو بن العاص يتطاول عليه بما حققه له، ويزهو بحضور ذهنه، ويكاد يعيره بأنه هو الذي جاء له بالخلافة.. وأنه يطلع الناس خفية على الصحيفة التي وقع عليها أبو موسى..

فأراد معاوية أن يصغر من شأن عمرو، وأن يضعه في مكان التابع في حدود لا يتجاوزها، وبالحجم الذي يريده له أميره! فلما دخل عمرو، ومع معاوية رؤساء الشام ووجوه بني أمية، التفت إلى عمرو، وصفق بيديه وأشار إليه وهو يضحك!

والتفت الجميع إلى عمرو فضحكوا..

وعجب عمرو.. فقال لمعاوية: "مم تضحك يا أمير

المؤمنين، أضحك الله سنك ..؟" قال: "أضحك من حضـور

ذهنك عند إبداء سوأتك يوم أبن أبي طالب، واالله لقد وجدته منَّاناً كريماً ولو شاء أن يقتلك لقتلك".

فقال عمرو: "يا أمير المؤمنين، أما واالله إني لعن يمينك حين دعاك لتبارزه فاحولّتْ عيناك، وانتفخ سحرك (رئتك)، وبدا منك ما أكره ذكره لك، فمن نفسك فاضحك أو فدع".

ولم يغضب معاوية وأبدى لعمرو وللناس أن حلمه يسع ما يقوله عمرو، واستمر يضحك، وترجرج جسده المترهل، وضحك الحاضرون، وارتجت بالضحكات جنبات القصر العظيم المتلألىء بالأنوار الساطعة.

وسرى شعاع سراج خافت في دار أمير المؤمنين بالكوفة، وهو جالس على الحصير، يفكر في قضاء االله بعد أن سمع أنباء الخديعة..

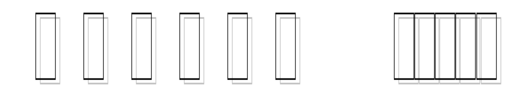
وقام ليله يتهجد ويتعبد، وذكر االله كثيرا.. وحمد االله الذي لا يحمد على مكروه سواه..

وخشى أن يكون قد نبت منه خلجة سخط، وكان في أعماقه يضطرم سخطًا على كل ما يمزق الأمة من الخديعة والتطكرف، فاتجه إلى االله يدعوه: "اللهم اغفر لي ما أنت

اعلم به مني، فإني عدت فعد على بالمغفرة، اللهم اغفر لي ما وأيت (وعدت) من نفسي، ولم تجد له وفاء عندي".

اللهم اغفر لي ما تقربت به إليك بلساني، ثم خالفه قلبي. اللهم اغفر رمزات الألحاظ (الإشارة بالعين)، وسقطات الألفاظ، وسهوات الجنان وهفوات اللسان".

* * * *



!.. N!żZ tQ N!żZ 1D

جلس علي بين أصحابه في مسجد الكوفة، وكلهم حـزين واجم ...!

وتصفح الإمام وجوه أصحابه، فقرأ فيها الندم ..!

ما من أحد منهم يستطيع أن ينظر في عيني صاحبه.

لقد أكرهوا الإمام على ما كان يرفضـه، وهـا هـي ذي العقبى..!!

وقطع الإمام الصمت المثقل بالندم بقوله: "إني كنت تقدمت إليكم في هذه الحكومة ونهيتكم عنها، فـأبيتم إلا عصـياني، فكيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبيتم على..؟! والله إني لأعرف من حملكم على خلافي والترك لأمري ولو أشاء أخذه لفعلت، ولكن الله من ورائه".

واتجهت الأنظار إلى الأشعث بن قيس، وهو يكاد يستغشى ثيابه ليختفى عن الأنظار، هربا من العار..!

عار عليك يا أشعث...!! أنت الذي دفعت أمير المؤمنين إلى ما هو فيه الآن: أصررت على التحكيم إصرارا، وألبت القراء المتطرفين أيها الرجل الحكيم، ثم استكبرت استكبارا، فأبيت أن تقبل حكما عن الإمام إلا أبا موسى الأشعري، لأنه يامى مثلك، وما ينبغي أن يكون الحكمان من مضر..!!

يا للعصبية الجاهلية..! كيف لم يطهر الإسلام منها قلبك..؟!

ولكن أهي العصبية الجاهلية فحسب، أم صبوت إلى دنيا معاوية بما فيها من ترف وجاه وسلطة، وهذه الأشياء التي تثير الكبرياء والعزة في النفس، ألم تعلم بأن الكبرياء والعزة لله جميعا..؟!

وقام رؤساء القبائل والعشائر، يذمون سوء مكر عمرو، ويتهمون أبا موسى الأشعري بالغفلة..!

والإمام صامت..!

فقال أحد رؤوس العشائر: "ما منع أمير المؤمنين أن يأمربعض أهل بيته فيتكلم. فإنه لم يبق أحد من رؤساء العرب إلا وقد تكلم ..؟!".

قال الإمام لأكبر أبنائه الحسن: "قم يا حسن فقل في هذين الرجلين: أبي موسى الأشعري عبد الله بن قيس، وعمرو بن

العاص". فقام الحسن فقال: "أيها الناس إنكم قد أكثرتم في هذين الرجلين، وإنما بعثًا ليحكما بالكتاب على الهوى، فحكما
بالهوى على الكتاب! ومن كان هكذا لم يسم حكمًا، ولكنه محكوم عليه. وقد أخطأ أبو موسى إذ جعلها لعبد الله بن عمر، فأخطأ في ثلاث خصال: واحدة أنه خالف أباه عمر بن الخطاب إذ لم يرضه لها، ولا جعله من أهل الشورى، وأخرى، أنه لم يستأمر ابن عمر في نفسه، وثالثة، أنه لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار الذين يعقدون الإمارة ويحكمون بها على الناس".

فلما جلس الحسن، قال علي لعبد الله بن عباس: "قم"، فوقف خطيبا فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "إن للحق أهلاً أصابوه بالتوفيق، فالناس بين راض له وراغب عنه، فإنه بعث أبا موسى بهدى إلى ضلالة، وبعث عمرو بن العاص بضلالة إلى هدى، فلما التقيا رجع أبو موسى عن هداه وثبت عمرو على ضلاله، لعمر الله لئن كانا حكما بما

سارا به، لقد سار أبو موسى وعلى إمامه، وسار عمرو ومعاوية إمامه، فما بعد هذا من عيب ينتظر..؟!".

وجلس، فأمر الإمام ابن أخيه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بأن يقول، فقام فقال: "أيها الناس، إن هذا الأمر كان النظر فيه إلى أمير المؤمنين، والرضا إلى غيره، فجئتم إلى أبي موسى فقلتم لا نرضى إلا به. وأيم الله ما استفدنا به علما، ولا انتظرنا منه غائبًا، وما نعرفه صاحبًا! وما أفسد الحكمان بما فعلا أهل العراق، وما أصلحا أهل الشام، ولا وضعا حق على، ولا رفعا باطل معاوية، ولا يذهب الحق رقية راق، ولا نفخة شيطان، ونحن اليوم على ما كنا عليه أمس" ثم جلس.

وأمر الإمام عماله الذين كانوا معه في صِّفين أن يعودوا إلى ولاياتهم، فعاد عبد الله ابن عباس إلى البصرة، وعاد الأمراء الآخرون إلى أمصارهم!

الله وحده أعلم بما يمكن أن يحدث في هذه الأمصار، بعد أن مزق معاوية شمل الأمة، وأقسم أن يجذب إليه أصحاب على، وأن يغلبهم على دينهم بدنياه ..!! إلى أين انتهت بالمسلمين الأمور إذن ..؟! ها هي ذي الأمة الإسلامية

تمزقت دولتين: دولة في الشام يحكمها معاوية وينادونه فيها: "أمير المؤمنين"، ويلقبونه "الملك"، وهو يقول في زهو أنه في الإسلام أول الملوك! ثم دولة أخرى يحكمها على بورع الإمامة، وتقوى الخلافة، وزهد العارفين بالله، وهو يخاف على كل من فيها صولة الباطل وفتنة المال والجاه ..!

أما زال في الأمة من يؤمن حقاً بأن معاوية يريد "قتلة عثمان ..؟" لو أن معاوية يطالب بقتلة عثمان عن خطأ في فهم الدين، ولو أن الذين اصطنعهم من أهل العلم لم يفهموا الآية الكريمة: ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا ﴾ ..! لو كان هو الخطأ فحسب لعذرتهم يا علي، ولكان معاوية حريًا أن ينيب إلى الصواب بعد ما أرسلت له مرارا وتكرارا تعظه وتوضح له معنى الآية الكريمة التي تجعل القصاص لولي الأمر!

ولكنه ليس الخطأ فيثوبوا إلى الصواب، بل هو الضلال، وأنت لا تهدي من أحببت ..! وما أشنع ما يصنعه الذين يزينون له ما يفعله!

أعلى وجه الأرض مسلم واحد يجهل أن معاوية ومن معه هم الفئة الباغية ..؟! ما عذر العلماء الذين معه وهم يعلمون..!!؟ لكم تزرى الأطماع بالرجال.. حتى العلماء!إن

معاوية ليخوض هذا الطوفان من الدماء على أشلاء آلاف الشهداء إلى هدف واحد: الملك ..!!؟

معاوية نفسه قال لوزيره المتسكع في ضلاله عمرو بن العاص ثم كرر ما قاله، إذ يحاول عمرو أن يشجعه على مبارزتك يا علي: "يا عمرو، إنك لتعرف أن أبن أبي طالب ما صارع أحدا إلا قتله، ولكنك طمعت في الخلافة، يا عمرو! ويكرر: "طمعت فيها بعدى".

معاوية نفسه طلب أن أقره على الشام، وولاية مصر، ثمنًا للطاعة والدخول في الجماعة ..!! ولاية مصر..؟ أيكافيء بها معاوية عمرو بن العاص كما تعاهدوا من قبل..؟! ومعاوية نفسه اكتفى بأن أقره على الشام لما استيقن أن الدائرة في الحرب ستدور عليه ......

وإذن فأين الطلب بدم عثمان..؟! كل المسلمين يعرفون أنه طلب الجاه والسلطة والملك..!!

لو أنك لم تعزله من على الشام أول ما توليت يا ابن أبي طالب، ولو لم تطالبه برد ما امتلكه بغير حق إلى بيت المال، لما رفع الرأس بالعصيان ولما خرج على الجماعة زاعماً أنه يخرج طلبا بدم عثمان ..!!

لقد نصحك الخلصاء بأن تترك معاوية ولا تعزله، ولا تسترد منه ما ملكه بغير حق، وسيبايع هو ومن معه من أهل الشام، وصنائعه من أهل الفتوى..!!

ولكن .. أكنت تتنازل عن دينك من أجل دنياك وسلطانك..؟! وإذن فكيف تأمر بعد ذلك بالمعروف وتنهي عن المنكر..؟! كيف تقيم العدل بين الناس ..؟! كيف كنت تستطيع أن تقسم الأموال بالسوية..؟!

لو أنك تركت معاوية لتكسب منه طاعته وطاعة من معه، لخسرت إذن دينك من أجل دنياك، ولأزريت بأهل التقوى، وسحقت آمالهم في العدل، ولأذعنت لأهل الدنيا، فنافقت أهواءهم وولعهم بالجاه والترف..!!

إنه لقدرك يا علي أن تكون مثلاً لأهل التقوى: فتشق بيدك طريق الهداية لا تبالي بما يثيره شق الطريق من غبار، وإن امتلأ به صدرك، وغص به حلقك، وأن تسلك طريق النور

وإن لوحتك الشمس، وأدم□تْ قدميك الأشواك والصخور، وسفت عليك رياح السموم بوهجها، لأنك آخر المر، تقود الركب إلى الظل الظليل .. إلى واحة الحقيقة، وراحة اليقين..!

وكلما وجدت بعض حملة القرآن يرتشون في القرآن، ويبيعون دينهم بدنيا الآخرين، أصبح من المعين عليك أنت ومن معك من المتقين والمساكين، أن تكابدو لتحاموا عن القرآن وتدافعوا عن الدين صولة الباغين، وزيف

المترفين..!! وانتهى إلى سمع الإمام صوت جليل يكاد يغيض في دموع الندم.. لكم هو صادق ورائع هذا الندم الذي يخفق به

الصوت! ولكم هي حرى تلك الدموع!: "لقد عصيناك يا إمام المتقين .. ألنا توبة فيغفر الله لنا ..؟! ما كان يجب علينا أن نقهرك على قبول أبي موسى الأشعري".

قال الإمام في رنين حزين: "عفا الله عنكم.. اختار القوم لأنفسهم أقرب الناس ممن يحبون وهو عمرو بن العاص، واخترتم لأنفسكم أقرب الناس ممن تكرهون وهو قيس ابن

عبد الله أبو موسى الأشعري!" وسكت وسكتوا .. لا شئ غير هفيف الزفرات..!!

وأخيرا قام الإمام خطيبا فقال: "الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطْب الفادح والحدثان الجليل، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. أما بعد.. فإن المعصية تورث الحسرة، وتعقب الندم، وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة أمرى، ونحلتكم (أعطيتكم) رأيي، لو كان لقصير أمر! (قصير رجل عربي كان له صديق يحب ملكه وأراد أن يتزوجها فنصحه قصير أن يبتعد عنها، ولكنه ذهب إليها فقتلته) ولكن أبيتم إلا ما أردتم، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن (دريد بن الصمة الشاعر الجاهلي):

أمرتمو أمري وهل أنا إلا من غزية **فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد!**
إن غوت بمنعرج اللوى **غويت وإن ترشد غزية أرشد ..؟!**

ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين، قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما، وأحييا ما أمات القرآن، واتبع كل واحد منهما هواه. بغير هدى من الله، فحكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية، واختلفا في حكمهما، وكلاهما لم يرشد، فبريء منهما الله ورسوله وصالح المؤمنين. فاستعدوا

وتأهبوا للسير إلى الشام، وأصبحوا في معسكركم إن شاء الله يوم الأثنين".

وارتفعت الرؤوس المنكسة، وسطع أمل جديد في الأعماق التي غشيتها ظلمات الخيبة واليأس والعار والندم، فتعانقت النداءات: "الله أكبر الله أكبر.. لبيك يا أمير المؤمنين".

وأرسل الإمام إلى الذين خرجوا عليه وساروا إلى النهروان: "من عبد الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى عبد الله بن وهب وزيد بن حصن ومن معهما من الناس، أما بعد، فإن الرجلين اللذين ارتضينا حكمين قد خالفا كتاب الله تعالى، واتبعا أهواءهما بغير هدى من الله، فلم يعملا بالسنة، ولم ينفذا للقرآن حكما، فبريء الله منهما ورسوله والمؤمنون. فإذا بلغكم كتابي هذا فأقبلوا إلينا، فإنا سائرون إلى عدونا وعدوكم، ونحن على الأمر الأول الذي كنا عليه".

فأجابوه: "أما بعد، فإنك لم تغضب لربك، وإنما غضبت لنفسك فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة، نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا نابذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين".

ها هم أولاء بعد ما اعتدلوا يصيبهم العوج، ويتطرفون مرة أخرى، ويتهمون من خالفهم بالكفر..!!

ألا في سبيل الله ما تلقى من الخادعين ومن الباغين الظالمين ومن الخارجين والمتطرفين على السواء ..!! ألا إنه بلاء شديد، ولكنه بلاء في سبيل الله يا إمام المساكين..!!

فلما قرأ الإمام كتاب الخوارج إليه رأى أن يتركهم إلى حين، لقد استبد بهم الهوس، وغرهم الجهل، وضلتم أمانيهم، وحفظوا القرآن، ولكنه لم يجاوز تراقيهم، وغالوا في التعبد، وهذا الغلو بالغ بهم هاوية الضلال من حيث أرادوا وديان الهدى ..!!

لقد هاجروا بأنفسهم عن مجتمع المسلمين، وفي هذه الهجرة كفَّروا كل من يخالفهم حتى الإمام الذي علمهم هم وأساتذتهم هذا الدين..!!

فليتركهم في بحرانهم، وليحشد الناس إلى قتال معاوية وجنده، عسى أن يستطيع إنقاذ الأمة بعد أن مزقها معاوية!

حتم عليه الآن أن يقاتل الفئة الباغية، وإنه لجهاد في سبيل الله.. ولينصرن الله من ينصره. ووقف يخطب الناس في المسجد الجامع بالكوفة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أما بعد،

فإن من ترك الجهاد في الله وداهن في أمره كان على شفا هلكة، إلا أن يتداركه الله بنعمته، فاتقوا الله تعالى، وقاتلوا من حاد الله، وحاول أن يطفيء نور الله، وقاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين (الظالمين)، الذين ليسوا بقراء القرآن ولا فقهاء في الدين، ولا علماء بالتأويل، ولا لهذا الأمر بأهل في سابقة الإسلام، والله لو تولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل! تيسروا (تجهزوا) للمسير إلى عدوكم من أهل المغرب (يعني الشام فهو مغرب العراق). وقد بعثنا إلى إخوانكم من أهل البصرة فإذا اجتمعتم شخصنا إن شاء الله تعالى. ولا حول ولا قوة إلا بالله".

* * * *

شرع أمير المؤمنين يجيش الجيوش لقتال معاوية، فأرسل إلى عبد الله بن عباس عامله على البصرة، يطلب منه أن يستنفر مقاتلي البصرة إلى القتال، وأن يرسلهم إلى معسكر أهل العراق بالنخيلة، ليسيروا معا إلى قتال أهل الشام.

فلما استنفر ابن عباس أهل البصرة، اثَّاقلوا إلى الأرض..!!

فظل بهم يحرضهم على القتال، فلم يجبه إلا ألف وخمسمائة على رأسهم الأحنف بن قيس. فقام ابن عباس خطيبا فقال: "يا أهل البصرة، أمرتكم بالنفير إلى أمير المؤمنين، فلم يشخص منكم إليه إلا ألف وخمسمائة. وأنتم ستون ألف مقاتل تأخذون العطاء (الراتب) سوى أبنائكم وعبيدكم. ألا انفروا إليه مع جارية بن قدامة السعدي، ولا يجعلن رجل على نفسه سبيلاً، فإني موقع بكل من وجدته متخلفا عن دعوته عاصيا لإمامه، فلا يلومن رجل إلا نفسه".

ونفر جارية، ونفر معه ألف وسبعمائة، فانضموا إلى من خرجوا من الأحنف بن قيس، فكانوا جميعا ثلاثة آلاف ومائتين، سيرهم ابن عباس إلى النخيلة..

فلما وافوا الإمام حزن لقلة عددهم..!!

واجتمع علي برؤساء أهل الكوفة ووجوه الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "يا أهل الكوفة، أنتم إخواني وأنصاري وأعواني على الحق وأصحابي إلى جهاد المحلين، بكم أضرب المدبر، وأرجو تمام طاعة المقبل، وقد استنفرت أهل البصرة، فأتاني منهم ثلاثة آلاف ومائتان..!! فليكتب لي

رئيس كل قبيلة ما في عشيرته من المقاتلة الذين أدركوا القتال وعبدان عشيرته ومواليهم، ويرفع ذلك إلينا".

فقام سعيد بن قيس فقال: "يا أمير المؤمنين سمعا وطاعة، أنا أول الناس أجاوب بما طلبت" وتكلم بمثل كلامه رؤوس العشائر جميعا وفيهم عدى بن حاتم الطائي، وحجر ابن عدي، وأشراف الناس والقبائل..

وقاموا فجمعوا له خمسة وستين ألفًا.

وكتب الإمام إلى عامله على المدائن يطلب منه أن يرسل من عنده من المقاتلين، فوافوه في النخيلة، فاجتمع له منهم جميعا جيش كثيف.

وتناجى بعض أصحابه: لو أن أمير المؤمنين رمى بنا هؤلاء الخوارج، فإذا انتهينا من أمرهم سار بنا إلى الفئة الباغية في الشام!

فلما بلغه ذلك وقف يحرص رجاله على الجهاد فقال: "إن غير هؤلاء أهم إلينا من الخوراج، فسيروا إلى قتلة المهاجرين والأنصار قدما، فإنه طالما سعوا إلى إطفاء نور الله، وحرضوا على قتال رسول الله (ﷺ) ومن معه. ألا إن رسول الله أمرني بقتال القاسطين، وهم هؤلاء الذين سرنا

إليهم، والناكثين، وهم هؤلاء الذين فرغنا منهم، والمـارقين، ولم نلقهم بعد! فسيروا إلى القاسطين فهم أهـم علينـا مـن الخوارج، سيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا ملوكًا جبارين يتخذهم الناس أربابا، ويتخذون عباد الله خولاً (أتباعا) ومـا لهم دولاً".

فتعالت الأصوات وتداخلت: "سر بنا يا أميـر المـؤمنين حيث أحببت".

وقام أحد أصحابه فقالك "يا أمير المؤمنين نحـن حزبـك وأنصارك، نعادي من عاداك ونشايع من أناب إلى طاعتـك، فسر بنا إلى عدوك من كانوا وأينما كانوا، فإنك إن شـاء الله لن تؤتي من قلة عدد ولا ضعف نية الأتباع".

وقال رجل آخر: "يا أمير المؤمنين، إن قلب شيعتك كقلب رجل واحد في الاجتماع على نصرتك، والجـد فـي جهـاد عدوك، فأبشر بالنصر وسر بنا إلى أي الفريقين أحببت، فإنا شيعتك الذين نرجو – في طاعتك وجهاد من خالفك – صالح الثواب، ونخاف – في خذلانك والتخلف عنك – شدة الوبال".

ورأى الإمام أن يرسل إلى الخوارج أحد أصحابه من أهل الشجاعة والحكمة فأرسل إليهم قيس بن سـعد بـن عبـادة

الأنصاري، وهو من أحكم العرب وأشجعهم، وهو الذي حمل راية الأنصار يوم فتح مكة، وكان رسول الله (□)* يحبه، وقد جعله منه كصاحب الشرطة. وهو صاحب مكيدة في الحرب، ورأى صائب .. وهو القائل: لولا أني سمعت رسول الله(□) يقول: المكر والخديعة في النار، لكنت من أمكر هذه الأمة. وكان عظيم الجود، حتى لقد كان يستدين ويطعم الناس!

فسألهم أن يدخلوا فيما خرجوا منه فلم يسمعوه، فذكرهم: ألم تعودوا من حروراء منذ أيام وتدخلوا في الجماعة وتصلوا معنا خلف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إمام الهدى وإمام هذه الأمة ..؟ فما غيركم بعد أن عرفتم خديعة عمرو لأبي موسى ..؟ ألا تذكر يا ابن الكواء إذ أنت إمام القوم في حروراء أن أمير المؤمنين قال لك: إنه من أذنب في هذا الدين ذنبا يكون في الإسلام حدثا استتبناه من ذلك الذنب بعينه، وإن توبتك أن تعرف هدى ما خرجت منه وضلال ما دخلت فيه ..؟ فقلت لأمير المؤمنين: "إنا لا ننكر أنا قد فتنا". ثم قال أحد زعمائكم: أدركنا والله هذه الآية: ﴿ **أَحسِب الَّناس أَن تْركُوا أَن يقُولُوا آمنَّا هم لاَ يفتنُون** ﴾ وثم ندمتم على

خروجكم، فقال لكم أمير المؤمنين: عـودوا إلــى مصـركم رحمكم الله. وركب فركبتم، ودخلتم وراءه الكوفة، وصـليتم معنا الظهر، كما قلت آنفًا ..؟ فما يغيركم من ساعة لسـاعة رحمكم الله ..؟ الحقوا بنا لنقاتل أعداءنا وأعداءكم، والزمـوا الجماعة خلف أمير المؤمنين".

فأخذوا يتجادلون في رجوعهم خلف علي من حروراء إلى الكوفة، ولام بعضهم بعضا.. وقالوا: "إنما فتنا حين رجعنـا إلى الكوفة وراء على وصلينا خلفه!".

وعجب لهم قيس بن سعد، ما لهم كيف يحكمون ..؟! ما لهم يندفعون من النقيض إلى النقيض في ساعات.. يتطرفون من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، ومن أقصى اليمـين إلى أقصى اليسار بلا حجة أو برهان أو سلطان مبـين ..؟! فسكتوا، ورفضوا أن يسترسلوا في الكلام، فعاد إلى النخيلـة حيث كان أمير المؤمنين يستعد للخروج لقتال القاسطين.

وقبل أن يتحرك الإمام بجنده، ارتفعت أصوات تلح عليـه أن يحاول مرة أخرى أن يرسل إلى الخوارج من يـراجعهم ليدخلوا فيما خرجوا منه. فأرسل إليهم أبا أيوب الأنصـاري فأتاهم فقال لهم: "عباد الله إنا وإياكم على الحال الأولى التــي

كنا عليها. فعلام تقاتلوننا ..؟ " فقالوا: "إنا لو تابعناكم اليوم حكمتم غدا!" قال: "نشدتكم الله أن تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتي في العام القادم".

وعاد إلى أمير المؤمنين يصفق عجبا مما ركب هؤلاء القراء، وكأنما أصابهم مس من الشيطان، فهم يقولون ما لا يعقلون، ويعجلون الفتنة.

ورأى الإمام أن يمضي بجنده إلى معاوية وجنده، حتى إذا فرغ منهم وألزمهم الجماعة، نظر في أمر هؤلاء القراء المتطرفين الذين خرجوا عليه.

ولكن نبأ عظيما روع الإمام! ذلك أن عبد الله بن خباب بن الأرت، كان يسوق حمارا ركبته امرأته الحامل الوشيكة الوضع، فمر بهؤلاء الخوارج الذين عسكروا بالنهروان.. فوثبوا إليه ففزع، وفزعت امرأته، فقالوا له: "من أنت ..؟" قال: "أنا عبد الله بن خباب" قالوا: "ابن خباب بن الأرت صاحب رسول الله (□) أأفزعناك وامرأتك..؟"

قال: "نعم " قالوا: "لا روع عليك، فليأمن سر بكما أنتما آمنان" فشكرهم.

قالوا: "حدثنا عن أبيك الصحابي الجليل رحمه الله ورضى الله عنه حديثيا سمعه من رسول الله (ﷺ) تنفعنا بــه" قـال: "حدثني أبي عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه، يمسى فيها مؤمنًا ويصبح كافرا، ويصبح فيها مؤمناً ويمسى كافرا".

قالوا: "لهذا الحديث سألناك ..! فما تقول في أبي بكر وعمر..؟" فأثنى عليهما.

ثم عرض لرجل منهم خنزير، فلما قتله أقبل أصحابه الخوارج فلاموه وقالوا: "هذا فساد في الأرض!".

فقال عبد الله بن خباب مبتسما لنفسه: "ما عليَّ منهم من بأس إذن فقد غضبوا لخنزير وأنا رجل مسلم! إنهم لحملة القرآن حقًا!".

فقالوا لعبد الله: "أنت آمن السرب معنا. ولكن قل لنا: ما تقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها ..؟" قال: "إنه كان محقا في أولها وآخرها" قالوا: "فما تقول في علي قبل التحكيم وبعده ..؟" قال: "أقول أنه أعلم بكتاب الله منكم ومني وأنفذ بصيرة وأشد توقيا على دينه" قالوا: "إنك لست تتبع

الهدى، بل تتبع الهوى، وتوالى الرجال على أسمائهم لا على أفعالهم.. والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحدا!..؟".

فأخذوه فكتفوه ثم أنزلوا امرأته من على الحمار وهي تصيح وتولول!

وعرض لهم رجل من أهل الذمة فسألهم عما يفعلون ولماذا هم هنا، فقال زعيمهم: "هاجرنا بديننا من أحكام هؤلاء الكفرة الجورة على ومعاوية وأصحابهم" ثم سألوا الذمى: "مع من أنت منهما ..؟" فلم يحبهم، وقال لهم: "اتبعوا أنتم من شئتم منهما أو اتركوهما جميعا ودعوني في حالي، فأنا من أهل الذمة".

واقترح رجل منهم أن يقتلوا الذمى، فصاح فيه زعيمهم: "أتريد منا أن نكفر ..؟ إن أهل الذمة في ذمة الله ورسوله. ولهم حرمة!".

فاستبشر عبد الله بن خباب خيرا وقال لهم: "أنا وامرأتي مسلمان وأنتم حملة القرآن فما علينا منكم من بأس!". ولكنهما لم يفُكَّا وثاق عبد الله، وأوثقا امرأته الحامل المتمة (في شهرها التاسع) بنخلة على شاطيء النهر فسقطت رطبة

فأكلها رجل منهم، فصاح فيه رجل آخر: "أخذتها بغير حلها وبغير ثمن ..! هذا فساد في الأرض".

ثم جاء صاحب الخنزير الذي قتلوه وهو رجل من أهل الذمة فعاتبهم فدفعوا له ثمن الخنزير مضاعفًا، وأرضوه، فقال لهم عبد الله بن خباب:

"إن كنتم صادقين فيما أرى منكم فما على منكم من بأس ..؟ إني مسلم ما أحدثت في الإسلام حدثًا. ولقد امنتموني فقلتم لا روع عليك".

ولكنهم ذبحوه، فسال دمه حتى اختلط بماء النهر. وجاءوا بامرأته فصرخت فيهم: "أنا امرأة وفي بطني نفس حية ألا تتقون الله وأنتم حملة القرآن".

فبقروا بطنها وقتلوا الجنين، ثم ذبحوها، وجاء ثلاث نسوة يغثنها، فقتلوهن جميعا. روع الإمام بهذه الأنباء عن فسادهم في الأرض، فبعث الإمام إليهم الحارث بن مرة العبدي وأوصاه بأن يتحسس من أمرهم، ويتحقق عما بلغ الإمام عنهم، فإن صح عنده ما بلغ الإمام، فليطلب منهم تسليمه قتلة عبد الله بن خباب وامرأته والنسوة الثلاث. ولكن الحارث لم يكد يسألهم ذلك حتى قتلوه!

فلما علم أصحاب على بذلك، وهو يتهيأ للمسير إلى معاوية وصحبه، فزعوا إلى الإمام، فقالوا: "يا أمير المؤمنين! علام ندع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في عيالنا وأموالنا ..؟! سر بنا إلى القوم الخوارج فإذا فرغنا منهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام".

فخرج إليهم علي بنفسه يقود عددا من أصحابه الدارعين الشجعان، فلما بلغهم أرسل إليهم: "ادفعوا إلينا القتلة منكم أقتلهم بمن قتلوه، ثم أنا تارككم وكافٍ عنكم حتى ألقى أهل المغرب (الشام) فلعل الله يقلب قلوبكم، ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم".

فأجابوه: "كلنا قتلهم، وكلنا مستحل لدمائكم ودمائهم".

فلما حاول أن يكلمهم ويعظهم وضعوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم واستكبروا استكبارا. ثم تنادوا بينهم: "لا تخاطبوهم ولا تكلموهم. وتهيئوا للقاء الله. الرواح الرواح إلى الجنة".

فلما حاول أن يخطب فيهم، شغبوا وعربدوا عليه قائلين: "جزعت من البلية، ورضيت بالقضية (التحكيم)، وقبلت الدنية" فقال: "حكم الله أنتظر فيكم" فقالوا مستشهدين بآية من

القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. فرد عليهم بالآية الكريمة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

* * * *

ورأى علي أن يرسل إليهم رجلاً يخجلون منه، فاختار أبا أيوب الأنصاري، وهو الذي نزل عليه الرسول (ص) لما قدم يثرب مهاجرا من مكة، وقد آخى الرسول بينه وبين مصعب بن عمير. وأبو أيوب من القلائل الذين بقوا من أهل بدر، والذين شهدوا المشاهد كلها مع الرسول.. وكان الرسول حين دخل المدينة اعترضه قوم من أشرافها فأمسكوا بزمام ناقته وقالوا: "يا رسول الله هلم إلى العدد والعدة والقوة" فقال لهم: خلوا سبيلها، فإنها مأمورة" فكلما مر بقوم قالوا مثل ذلك، ويكرر الرسول ما قاله، حتى مر بأخواله فبركت، ثم قامت حتى بركت أمام دار أبي أيوب فلم تقم حتى نزل النبي عليه الصلاة والسلام، فأدخله أبو أيوب بيته، وحمل عنه رحله،

وأمر الرسول ببناء المسجد والحجرات وظل مقيما عند أبـــي أيوب حتى انتهى بناء المسجد والحجرات فانتقل إليها.

وكان أبو أيوب يتلو قوله تعالى:﴿ **انفِروا خِفافًا وثِقالاً** ﴾ فيقول: "فلا أجدني إلا خفيفًا أو ثقيلاً" ثم ينفر إلى الجهاد.

وكانت لأبي أيوب الأنصاري عند هؤلاء الخوارج من القراء منزلة خاصة.

وأمره الإمام ألاّ يحاربهم بل يحاورهم. فسألهم لماذا خرجوا من حروراء وتبعوا أمير المؤمنين إلى الكوفة إن لم تكن هي التوبة النصوح ..؟!

فإن كانت هي التوبة النصوح فما أخرجهم إلى النهروان ..؟ وما قتلهم عبد الله ابن خباب وامرأته والنسوة الثلاث ..؟ أيقتلونهم بغير حق، وهم حملة القرآن ..؟ فهم يعلمون أن من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ..!! أيعفُّون عن أكل ثمرة بغير حق، ويندمون لقتل خنزير، ثم يقتلون أربعة أنفس مؤمنة ..؟! فليسلموا القتلة، وكفى الله المؤمنين القتال، أم أنهم يريدون أن يقاتلوا أمير المؤمنين، بدلاً من أن يقاتلوا ظالميهم وهم القاسطون من أهل الشام ..؟

فتناجوا فيما بينهم، فتنحت عصابة منهم فقالوا: "لا نقاتل عليا ولا نقاتل معه!" فرحب بهم أبو أيوب، وأمرهم أن يعودوا إلى أهلهم في الكوفة أو البصرة. وكانوا كلهم شبابا من أهل التطرف والحماسة. وقالت جماعة أخرى: "بل نحارب الكفرة!".

وعاد أبو أيوب الأنصاري إلى الإمام يخبره بما كان من أمر الخوارج، فأعطاه الإمام راية أمان، وأمره أن يطلق منادين ينادون في القوم: "من لم يقتل ولم يتعرض (أي يشترك)، وجاء إلى هذه الراية فهو آمن، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن أو إلى بلده وخرج من هذه الجماعة فهو آمن، لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سفك دمائكم".

فقال أحد زعماء الخوارج: "والله ما أدري على أي شئ نقاتل عليا ..؟! أرى أن أنصرف حتى تتضح لي بصيرتي في قتاله أو أتابعه".

فانصرف مئات من الفرسان إلى بلدة في طرف النهروان تاركين سائر الخوارج..

وعادت جماعة بعد جماعة إلى الكوفة أو إلى المدائن أو إلى البصرة، فلم يبق من الخوارج في النهروان إلا نحو ألفين يقودهم عبد الله بن وهب، كلهم في الدروع لا يبين منهم غير حدق العيون، وكل منهم متوتر قد اطمأن للحكم على الإمام ومن معه بأنهم كفرة، وأن قتلهم واجب شرعي وأن من قتل من الخوارج في معركة مع الإمام وأصحابه، فهو شهيد كمن قتل في سبيل الله ..!!

فأمر أمير المؤمنين أصحابه بالسير، وتقدمهم في القلب كعادته في كل معركة، فجعل على الميمنة حجر بن عدي، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري وعلى الميسرة شيث بن ربعي، وعلى أهل المدينة قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري.

وقال علي لرؤساء جيشه: "كفوا عنهم حتى يبدءوكم" فقد كان يدعو الله أن يعودوا إلى الجماعة، ويدخلوا فيما خرجوا عنه، ويتوبوا ويثوبوا.

وزحف الإمام، فاعترضه أحد العرافين المنجمين فقال: "لا يا أمير المؤمنين، لا تخرج في هذه الساعة، فإنها ساعة نحس لعدوك عليك، ولا تسر في هذا الطريق، فهو طريق نحس لك!".

فقال له الإمام: "إني توكلت على الله ربي وربكم وعصيت رأي كل متكهن، أنت تزعم أنك تعرف وقت الظفر من وقت الخذلان. إني توكلت على الله ربي وربكم، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم، فمن صدقك بعد هذا فقد كذب القرآن، المنجم كالساحر والساحر كالكافر، والكافر في النار.. سيروا على اسم الله".

وزحف حتى واجههم، وهم يهمون بالقتال.

فرأى أن يحاول حقن الدماء.

فليناظر أفقههم على مسمع من الجميع، عسى أن يحقن الدماء.

وسأل عن أبن الكواء أهو فيمن انصرف راشدًا، أم مازال في الخوارج، فلما علم أنه مازال في الخوارج ناداه، فبرز له، وأتباعه الخوارج قد اصطفوا بقيادة عبد الله ابن وهب، وتهيئوا للقتال، ورجل منهم يمشي بين الصفوف يحرضهم على القتال، وصوته كالفحيح، وريحه منتنة ..!!

قال الإمام: "يا ابن الكواء ما أخرجكم بعد رضاكم بالحكمين ومقامكم بالكوفة ..؟!!" فتقدم ابن الكواء وكان أحد المتطرفين القلائل الذين يحتفظون بقدر من الحياء من على،

وبعلم أن الحياء شعبة من الإيمان فقال. " قاتلتَ بنا عدوا لا نشك في جهاده، فزعمت أن قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار، فبينما نحن كذلك إذ أرسلت منافقًا، وحكمت كافرا". فقال الرجل الذي يطلق صوتًا كالفحيح: "بل قل له: يا علي إنك كفرت ونافقت".

فلم يحفل به ابن الكواء، واستمر يقول للإمام: "وكان مما شكك في أمر الله أن قلت للقوم حين دعوتهم: كتاب الله بيني وبينكم، فإن قضى علىّ بايعتكم وإن قضى عليكم بايعتموني، فلولا شكك لم تفعل هذا والحق في يدك".

فقال الإمام: "يا بن الكواء، إنما الجواب بعد الفراغ، أفرغت فأجيبك ..؟" قال: "نعم".

قال أمير المؤمنين: "أما قتالك معي عدوا لا نشك في جهاده، فصدقت ولو شككت فيهم لم أقاتلهم. وأما قتلانا وقتلاهم، فقد قال الله في ذلك ما يستغني به عن قولي، وأما إرسالي المنافق وتحكيمي كافرا فأنت أرسلت أبا موسى مبرنسا (أي في برنسه، والبرنس ثياب النسك)، ومعاوية حكَّم عمرو بن العاص، أي (ما هما بمنافق وكافر).أنت أتيت بأبي موسى مبرنسا فقلت: لا نرضى إلا أبا موسى، فهلاّ قام إليّ

رجلٌ منكم فقال: يا علـي، لا نعطـي هـذه الـدنيا فإنـهـا ضلالة..؟! وأما قولي لمعاوية إن جرنـي إليـك كتـاب الله تبعتك، وإن جرك إلى تبعتني، وزعمت إني أعطي ذلك مـن شك، فحدثني ويحك عن اليهـودي والنصـراني ومشـركي العرب، أهم أقرب إلى كتاب الله أم معاوية وأهل الشـام ..؟" قال: "بل معاوية وأهل الشام أقرب" قال الإمام: "أفرسول الله كان أوثق بما في يديه من كتاب الله أو أنا ..؟" قـال: "بـل رسول الله".

فسكت الإمام مبتسما، ثم قال:"مرحى يـا ابـن الكـواء، أفرأيت الله تبارك وتعالى حين يقول: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أما كـان رسول الله يعلم أنه لا يؤتى بكتاب هو أهدى مما فـي يديـه ..؟" قال: "بلى" قال الإمام: "فلم أعطى رسول الله القوم مـا أعطاهم ..؟!" قال: "إنصافًا وحجة" قال: "فإني أعطيت القوم ما أعطاه رسول الله".

قال ابن الكواء وقد زايله توتره وقد تفتح عقلـه وقلبـه:

"فإني أخطأت.هذه واحدة. زدني" قال أمير المؤمنين مبتسـما

راضيا: "فما أعظم ما نقمتم علي ..؟" قال: "تحكيم الحكمين، نظرنا في أمرهما فوجدنا تحكيمهما شكًا وتبذيرا".

قال الإمام: "فمتى سمى أبو موسى حكما: حين أرسل أو حين حكّم ..؟" قال ابن الكواء: "حين أرسل" قال: "أليس قد سار وهو مؤمن وأنت ترجو أن يحكم بما أنزل الله ..؟!" قال: "نعم" قال الإمام: "فلا أرى الضلال في إرساله".

فقال ابن الكواء وقد أحس أنه محاصر: "بل سمي حكما حين حكم" قال: "نعم، إذن فإرساله كان عدلاً. أرأيت يا ابن الكواء لو أن رسول الله بعث رجلاً إلى قوم مشركين يدعوهم إلى كتاب الله، فارتد على عقبه كافرا، كان يضر نبي الله شيئًا ..؟!" قال: "لا" قال: "فما ذنبي إن كان أبو موسى ضل ..؟ هل رضيت حكومته حين حكم أو قوله إذا قال..؟" قال: "لا".

وأدرك ابن الكواء أن الإمام سيبهته ويقيم عليه الحجة، وكان ما يزال في نفسه شئ من عناد في أمر الحكمين، فهو يرى أن أبا موسى منافق وأن ابن العاص كافر، وقد أوشك الإمام أن يقنعه بأن أبا موسى ذهب إلى التحكيم وهو مؤمن، ولكنه ضل في عمله فلا ذنب لمن أرسله، أما عمرو فهو

ليس بكافر ولكنه مخادع، وما يحمل وزر خديعته غير الذي أرسله.

أدرك ابن الكواء أن هذا ما يريد أن يصل إليه الإمام، فقال له كأنه يريد أن يفلت من حجة الإمام عليه: "ولكنك جعلت مسلما وكافرا يحكمان في كتاب الله!" قال: إنما رضي به صاحبه كما رضيت أنت بصاحبك، وقد يجتمع المسلم وغير المسلم يحكمان في أمر الله ..؟ أرأيت لو أن رجلاً مسلما تزوج يهودية أو نصرانية فخافا شقاق بينهما، ففزع الناس إلى كتاب الله، وفي كتاب الله: ﴿ **فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها** ﴾ فجاء رجل من اليهود أو رجل من النصارى ورجل من المسلمين الذين يجوز لهما أن يحكما في كتاب الله، فحكما".

ولم يجد ابن الكواء ردا، فتنهد وقال: "وهذه أيضا، أمهلنا حتى ننظر".

فجعل ابن الكواء يناجي أصحابه، والإمام ينتظر نهاية نجواهم، وإذ بجماعات يقودها عبد الله بن وهب وحرقوص بن زهير وغيرهما تصيح: "إنِ الحكم إلا الله!".

واختفى ابن الكواء، وتقدمت صفوفهم بالحراب المشرعة..

فقال لهم الإمام: "إنكم أنكرتم عليّ أمرا أنتم دعوتموني إليه، فنهيتكم عنه فلم تقبلوا، وهأنذا وأنتم فارجعوا إلى ما خرجتم منه، ولا تركبوا محارم الله، فإنكم قد سولت لكم أنفسكم أمرا تقتلون عليه المسلمين، والله لو قتلتم عليه دجاجة لكان عظيما عند الله، فكيف بدماء المسلمين ..؟ فيا أيتها العصابة التي أخرجها المراء واللجاجة، وصدها عن الحق الهوى، وطمع بها النزق، وأصبحت في الخطب العظيم! إني نذير لكم أن تصبحوا تلعنكم الأمة غدا صرعى بأثناء هذا الوادي بغير بينة من ربكم ولا برهان مبين. ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة، ونبأتكم أنها مكيدة، وأن القوم ليسوا بأصحاب دين، فعصيتموني ..؟ فلما قبلت شرطت واستوثقت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن، فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة، فنبذنا أمرهما ونحن على الأمر الأول. فمن أين أتيتم ..؟!" فقال الرجل ذو الرائحة المنتنة والصوت الذي يشبه الفحيح: "إنا حكمنا فلما حكمنا أثمنا، وكنا بذلك كافرين، وقد تبنا، فإن تبت فنحن معك

ومنك، وإن أبيت فإنا منابذوك على سواء (منذروك بالحرب)".

فقال الإمام: "أبعد إيماني برسول الله (ﷺ)، وهجرتي معه وجهادي في سبيل الله أشهد على نفسي بالكفر ..؟! لقد ضللت وما أنا من المهتدين! لقد أنبأتكم أن القوم إنما طلبوا الحكومة (التحكيم) مكيدة ووهنًا، فأبيتم على إباء المخالفين، وعندتم عناد النكداء العاصين، حتى صرفت رأيي إلى رأيكم، رأي معاشر والله أخفَّاء الهام (الرءوس) سفهاء الأحلام، فلم آت لا أبالكم هجر□ا! والله ما ختلتهم عن أموركم، ولا أخفيت شيئًا من هذا الأمر عنكم.. فبينوا لنا بماذا تستحلون قتالنا والخروج عن جماعتنا وتضعون أسيافكم على عواتقكم ثم تستعرضون الناس تضربون أعناقهم ..!؟ إن هذا لهو الخسران المبين!".

فقال رجل من الخوارج: "لا تكلموه" واندفع بهم إلى جسر النهر، فقال بعض أصحاب الإمام: "إنهم قد عبروا النهر وسيفلتون!".

فقال: "لن يعبروا. وإن مصارعهم لدون الجسر، ووالله لا يقتل منكم عشرة ولا يسلم منهم عشرة. لقد حدثني خليلي

رسول الله (❐) فوصف ناسا إني لأعرف صفتهم في هؤلاء: يقولون الحق بألسنتهم ولا يجاوز حناجرهم، من أبغض خلق الله منهم أسود مخداع (يده أقصر من الأخرى) يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية. فيا أيها الناس إني سمعت رسول الله (❐) يقول: سيخرج قوم من أمتى يقرءون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشئ، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشئ، ولا صيامكم إلى صيامهم بشئ، يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم.. وآية ذلك أن فيهم رجلاً له عضد وليس له ذراع، على رأس عضده مثل حلمة الثدي عليها شعرات. وإني لأرجو أن يكونوا هم هؤلاء القوم، فإنهم قد سفكوا الدم الحرام ..؟".

فسأله أصحابه: "أسمعت هذا من رسول الله حقًا ..؟".

قال الإمام: "إذا حدثتكم عن رسول الله (❐) فلأن أخر من السماء أحب إلى من أن أكذب عليه.. سمعت رسول الله(ص) يقول: "يخرج قوم من أمتي في آخر الزمان أحداث الأسنان (صغار السن) سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم – إيمانهم لا يجاوز حناجرهم – يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية،

فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا لمن قاتلهم عند الله يوم القيامة! ".

فأمن على قول الإمام صاحبه أبو سعيد الخدري فقال أنه سمع رسول الله يصف هؤلاء الخوارج بقوله: "يخرجون على فرقة من الناس يقتلهم أولى الطائفتين بالله".

وسكت الجميع. ثم استطرد أبو سعيد: وسمعت النبي عليه الصلاة والسلام يقول: "سيكون في أمتي اختلاف وفرقة، وقوم يحسنون القيل (القول) ويسيئون الفعل، ويقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية.. هم شر الخلق والخليقة، طوبى لمن قتلهم أو قتلوه، يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه في شئ، من قاتلهم كان أولى بالله منهم" فسئل: يا رسول الله ما سيماهم..؟ فقال: فيهم رجل ذو ثدية، محلقو رءوسهم.

وكان القراء الخوارج كلهم محلقي رءوسهم.

* * * *

وقاد علي جيشه فأدرك الخوارج قبل أن يعبروا الجسر، وكان بعض الناس قد شك فيما قاله علي عن عدم عبور

الخوارج الجسر، فلما وجدوا الخوارج دون الجسر، أحسوا بأن الله معهم وأن بشارة الإمام ستتحقق، فكبروا مستبشرين.

وخشى عبد الله بن وهب قائد الخوارج أن يجادلهم علي، فيعود بالقراء الخوارج إلى الكوفة ليصلوا خلفه كما صنع يوم حروراء .. وحذر جنده أن يكونوا كالحرورية ..!!

وصاح فيهم الرجل صاحب الريح الكريه والصوت القبيح الذي يشبه الفحيح: "الرواح الرواح إلى الجنة!".

وتنادوا جميعا: "أقبلوا إلى لقاء الله تعالى .. الرواح الرواح إلى الجنة".

وشهروا السيوف والرماح، ورموا بالنبال واقتحموا جيش الإمام، فاشتجرت الأسنة، وأمر الإمام جيشه أن يتوزع فرقتين وأن يتركوا الخوارج يتقدمون، وما أن تقدموا حتى أطبق عليهم الإمام من كل أقطارهم فطحنهم طحنًا، فلم ينج منهم غير ثمانية، وكأنما قيل لهم: موتوا، فماتوا، ولم يقتل من جيش الإمام إلا سبعة.

وتفقد الإمام أرض المعركة، فوجد بها أربعمائة جريح أمر بإسعافهم ثم إرسالهم إلى عشائرهم ليتموا علاجهم.. ووزع على رجاله ما غنموه من سلاح ودروع ودواب، وكل

ما استخدمه الخوارج في الحرب.. أما الأموال والإماء والعبيد والمتاع فقد رده إلى أهل الخوارج عندما رجع إلى الكوفة..

وطاف أصحاب علي□ بالقتلى، فوجد عدي بن حاتم ابنه طرفة فيهم فدفنه، وأمر علي□ أصحابه أن يبحثوا له عن المخدع، وبحثوا مليا فلم يجدوه فأصر على أن يعاودوا البحث لأنه يجب أن يكون بين هؤلاء القتلى!

وبحث معهم حتى وجدوه كما وصفه رسول الله (□)، فصفق الإمام وهتف: "الله، أكبر، صدق الله ورسوله، والله ما كذبت ولا كُذّبت".

وسجد طويلاً..

فإذا بالمخدع هو صاحب الريح القبيح والصوت الذي يشبه الفحيح. الذي كان يحرض الخوارج على القتال، حين أوشكوا أن يقتنعوا بكلام الإمام وهو يحاور ابن الكواء.

ولما تعرف أصحاب الإمام على الرجل المخدع ذي الثدية بعد أن انحسر وجهه، عجبوا له وقالوا: "إنه رجل فقير متدين شديد التدين كان يشهد طعام المساكين مع أمير المؤمنين، وكان كثير السجود، وكان يرافقنا ويناظرنا، وكان دائم

الجلوس في المسجد ليلاً ونهارا، وله ريح منتنة فهو يكـاد لا يستحم، وقد قحلت مواضع السجود من جسده لكثرة السـجود كغيره من متطرفي القراء الذين صاروا خوارج".

وقال جماعة من أصحاب الإمام: "الحمد الله الـذي قطـع دابرهم يا أمير المؤمنين".

فسكت الإمام، وسرحت نظراته والتمعت عينـاه، وكأنـه يستقريء.. إذ تظهر في كل زمانومكان طوائف من هـؤلاء المتدينين المتطرفين الذين يهاجرون بعقولهم وربما بأجسادهم من المجتمع،ويكفرون مخالفيهم، ويلتقون مع القاسطين وهـم ظالموهم، ليقاتلوا جميعـا حمـاة العـدل، ودعـاة الهـدى، والمدافعين عن المظلومين..!!

وبعد لحظات قال الإمام: "كلا، والهل إنهم لفي أصـلاب الرجال وأرحام النساء".

فسألوه: "أمشركون هم يا أمير المؤمنين" قال: "من الشرك فروا" قالوا: "أمنافقون ..؟" قال: "إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا!" قالوا: "فمن هم يا أمير المؤمنين" قـال: "إخواننـا بغوا علينا فقاتلناهم على بغيهم. فاذكروا عني إذا لقيتمـوهم

من بعدي أنهم طلبوا الحق فأخطئوه، أما القاسطون فقد طلبوا الباطل فأصابوه!".

* * * *

فلما انصرف الإمام برجاله من النهروان بعد انتصارهم الساحق الماحق على الخوارج، قام في الناس خطيبا فقال بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله وآله "أما بعد، فإن الله قد أعز نصركم فتوجهوا من فوركم إلى عدوكم من أهل الشام".

فوثب الأشعث بن قيس فقال: "يا أمير المؤمنين، نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنتنا، فانصرف بنا إلى مصرنا حتى نستعد بأحسن عدتنا، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من فارقنا".

ويحك يا أشعث! لكأنك موكل بي لتقود رجالي إلى الطريق الخطأ! أنت الذي ناديت بقبول التحكيم والناس منهكون من الحرب، فشجعتهم على الوقوع في الشراك، والإذعان للخديعة، وجرأت علينا القراء الذين أصبحوا خوارج!

ويلك! أنت الذي قادتك النعرة الجاهلية ففرضت أبا موسى الأشعري حكما لأنه من قومك اليمانية، وما اكان أبو موسى ليصلح، ولا هو بالذي يفطن لأحابيل عمرو، وهكذا دفعتنا الخديعة مرة أخرى، إلى أن نغمس سيوفنا في مهج المسلمين!

وها هو ذا ذو الفقار: السيف الذي دافع عن رسول الله ورسالته، وسفك دماء المشركين، يشهر مرة أخرى على هامات مسلمين، بعضهم من خلف ذلك السلف من أئمة الكفر! ولكنهم مسلمون ..!! مسلمون بغاة أهل شقاق، فما يسد الثلم الذي أحدثوه ، إلا بأشلائهم هم وسائر البغاة وأهل الشقاق ..!!

ولم يكد الأشعث بن قيس يفرغ من إلقاء كلمته، حتى تعالت الأصوات تطالب بمثل ما طالب به .. أن يعودوا إلى الكوفة، فيستريحوا ويستعدوا بالعدة والعدد!

وأدار الإمام عنان جواده متجها إلى الكوفة، وعلى مقربة منها حيث يقع المعسكر في النخيلة، نزل أمير المؤمنينونزل رجاله بالنخيلة، فأمرهم أن يلزموا معسكرهم ويوطنوا النفس على الجهاد، وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم.

وإن هي إلا أيام حتى تسللوا إلا قليلاً إلى بيوتهم في الكوفة، يتلذذون بنسائهم وأبنائهم. فدخل معسكرهم يتفقدهم فوجد المعسكر خاليا إلا من كبار قواده، والأعزاء من أصحابه، من المهاجرين والأنصار، فأمرهم أن يعودوا إلى بيوتهم، وعاد هو إلى الكوفة محزونًا، حتى إذا صلى بالناس قام يخطبهم بعد الصلاة، فقال: "أيها الناس، استعدوا للمسير إلى عدوكم ومن في جهاده القربة إلى الله، عز وجل، ودرك الوسيلة عنده، فهم حيارى من الحق، جفاة عن الكتاب (القرآن)، يعمهون في طغيانهم، فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، وتوكلوا على الله وكفى بالله وكيلاً وكفى بالله نصيرا".

ونظر إليهم، فوجد فيهم الأشعث بن قيس، منكس الرأس.. لعله وراء انسحاب الرجال من معسكرهم بالنخيلة ليبيتوا في دورهم بالكوفة مخالفين رأي الإمام .. كم من مرة حرض فيها الأشعث على مخالفة رأي الإمام فوجد من يتبعونه ..؟!

وعادت ذاكرة الإمام إلى ما طواه الزمان منذ نحو عامين: حين كان الأشعث واليا لعثمان على أذربيجان، فلما بويع علي، أرسل إليه كما أرسل لسائر عمال عثمان فأمرهم أن

يرفعوا إليه حسابهم عما تحت أيديهم منأموال، وجـاء فـي كتاب علي إليه: "أما بعد، فلولا هنات كن فيك كنت المقدم في هذا الأمر قبل الناس. فلعل أمرا يحمل بعضه بعضا إن اتقيت الله .. وإن عملك ليس لك بطعمة (هدية)، ولكنه أمانـة فـي عنقك، والمال مال اتقيت الله .. وإن عملك ليس لك بطعمـة (هدية)، ولكنه أمانة في عنقك، والمال مال الله، وأنـت مـن خزاني عليه حتى تسلمه إلي إن شاء الله، وعلـي ألاّ أكـون شرا ولاتك".

فلما تلقى الأشعث كتاب أمير المؤمنين، دعـا نصـحاءه وقال لهم: "إن كتاب علـي جـاءني، وهـو آخـذي بمـال أذربيجان، وأنا لاحق بمعاوية" فنصحه خلصـاؤه : "المـوت خير لك من ذلك، أتدع مصرك وجماعة قومك وتكون ذنبـا لأهل الشام ..؟!".

فردته العزة أن يكون تابعا لمعاوية وهو شيخ أهل الـيمن وسيدهم، فجمع الملأ من أهل أذربيجـان وقـادتهم العـرب وخطبهم: "أيها الناس إن عثمان رحمه الله ولاني أذربيجـان، وهلك وهي في يدي، وقد بايع الناس عليـا، وطاعتنـا لـه

لازمة، وقد كان من أمره وأمر عدوه ما قد بلغكم، وهو المأمون على ما غاب عنا وعنكم من ذلك".

أما يزال الأشعث يصبو إلى اللحاق بمعاوية ..؟! ربما..!! فمعاوية يحقق له من الجاه والنفوذ والسطوة ما يأبى عليك دينك وعدلك أن تصنعه يا علي وأنت تقود المتقين!

* * * *

وأقبل إلى الإمام رجل من مكة، فجاءه بنبأ كتاب أرسله عبد الله بن عمر يلوم فيه حماه أبا موسى الأشعري على موقفه في التحكيم، ونبأ رد أبي موسى.

فقد كتب عبد الله بن عمر لحميه: "أما بعد يا أبا موسى، فإنك تقربت إلي بأمر لم تعلم هواي فيه! أكنت تظن أني أبسط يدا إلى أمر نهاني عنه عمر..؟ أو كنت تراني أتقدم على علي وهو خير مني ..؟ لقد خبت إذن وخسرت وما أنا من المهتدين، فأغضبت علي بقولك وفعلك عليا ومعاوية. ثم أعظم من ذلك خديعة عمرو إياك، وأنت حامل القرآن، ووافد أهل اليمن إلى نبي الله، وصاحب مغانم أبي بكر وعمر، فقدمك عمرو للقول مخادعا، حتى خلعت عليا قبل أن

يخلع معاوية، ولعمري ما يجوز لك على علي ما جاز لعمرو على معاوية".

أتى كتاب ابن عمر أبا موسى وهو في مكة، معتزل متنسك بجوار الحرم، لا يخاطب أحدا ولا يرد على أحد، فكتب أبو موسى: "أما بعد فإني واالله ما أردت بتوليتي إياك وبيعتي لك القربة إليك، ما أردت بذلك إلا االله عز وجل، وما تقلدي أمر هذه الأمة غير مسكره، فإنهم كانوا على مثل حد السيف، فقلت: إن يصطلحوا فهو الذي أردت، وإلا لم يرجعوا الأعظم مما كانوا فيه، وأما إضابي عليك عليا ومعاوية، فقد غضبا عليك الشرط ما اجتمعنا عليه لا ما اختلفنا فيه، وأما نهيي إليك (إخبارك باختيارك خليفة)، فواالله لو تم الأمر لأكرهت عليه ..!".

وأخذ الإمام يصفق عجبا من أبي موسى، وما صنعه..!!

على أن عليا لم يكد يستقر في الكوفة، حتى وافته الأنباء من كل أقطار الدولة عن قوم خرجوا عاصين.. كان ذلك في ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين. خرج رجال حتى قدموا الأنبار، وآخرون قرعوا باب المدائن، وآخرون في أقصى

الدولة من الشرق، وهبت عصابات هنا وهناك تعيث في الأرض فسادا وتتهم عليا بالكفر، وتحرض الناس على ألا يؤدوا الخراج، فوجه الإمام إليهم الحملات، فهزمهم أصحاب علي، وقتلوا قواد الخوارج..

ثم خرج رجل يقال له السعدي، وقاد جماعة كبيرة من الموالي، استطاع أن يضللهم ويستنفرهم للحصول على حقوقهم التي زعم لهم أن عليا نهبها .. وما كان علي يعاني ما يعاني إلا ليرد الحقوق، ويقيم العدل .. ولكن السعدي استطاع أن يخدع هؤلاء الموالي فساق منهم جيشًا ليس فيه خمسة رجال من العرب وزحف إلى الكوفة، وكلما زحف ونادى بالثورة من أجل حقوق الفقراء والمساكين تبعه رجال مخدوعون، ليحارب بهم إمام المساكين.

لكم تعاني يا ابن أبي طالب ..!! لك الله يا ولي الله ..!! حتى الذين تسهر وتشقى وتتعذب من أجل إسعادهم، ثاروا عليك، وأصبحوا في الحق سندا لظالميهم وظالميك، لعدوكم جميعا ..!! وهل سخط عليك من سخط إلا لأنك سويت في القسمة بين العرب والموالي ..؟!

وتقدم السعدي برجال صب في عروقهم شجاعة خارقة، جعلتهم قادرين على أن يقتحموا الخطر والمجهول، لينتزعوا ما زعموا أنه قداستلب من حقوقهم. وأوشكوا أن يبلغوا ضواحي الكوفة، فأرسل إليهم أمير المؤمنين يعظهم وينصحهم، ويدعو قائدهم إلى البيعة والعودة إلى داره بالكوفة ولكنه قال لرسول أمير المؤمنين: "ليس بيننا غير الحرب".

فوجه إليهم الإمام حملة لتصدهم عن الكوفة، فهزموها، واضطروا قائدها شرُيح ابن هانيء إلى الالتقاء في قرية خارج الكوفة بعد أن تفرق عنه رجاله ..!!

فخرج إليهم الإمام بنفسه يقود جماعة من أصحابه، وبعث إليهم جارية السعدي يدعوهم إلى الطاعة، فأبوا، ودعاهم الإمام، فحملوا عليه يريدون قتله هو وأصحابه، فانقض عليهم الإمام وجيشه، فلم ينج منهم غير أربعين سقطوا جرحى، فأمر الإمام بحملهم إلى الكوفة لعلاجهم.

ولم يكد الإمام يعود من حربه تلك، حتى جاءه الخُريت بن راشد التميمي، وهو أحد أصحابه الذين شهدوا معه الجمل و صِفّين، وكان عزيزا عليه حبيبا إليه، فلم يدع الإمام: "يا

أمير المؤمنين" بل ناداه باسمه في غلظة ومن خلفه فرسان دارعون في عدة الحرب، الرماح في الأيدي، والأيدي الأخرى على سيوف ينعكس على مقابضها وهج الشمس، والخواذات تخفي الرءوس والوجوه فما يبين غير العيون..

ألقى الإمام نظرة عريضة تتصفح الفرسان الدارعين في ملابس القتال، فعاد الرجل يقول : "يا علي، والله لا أطيع لك أمرا، ولا أصلي خلفك، وإني غدا مفارق لك ..!".

وأجفل علي من الدهشة والمباغتة ثم قال: "ثكلتك أمك! إذن تعصي ربك، وتنكث عهدك، ولا تضر إلا نفسك ..! خبرني لم تفعل ذلك ..؟" قال: "إنك حكمت الرجال، وضعفت عن الحق، وركنت إلى القوم الذين ظلموا. فأنا عليك زار وعليهم ناقم، ولكم جميعا مباين" فقال علي: "هلم أدارسك الكتاب، وأناظرك في السنن، وأفاتحك أمورا أنا أعلم بها منك، فلعلك تعرف ما أنت له الآن منكر" قال: "فإني عائد إليك" فقال له الإمام ناصحا: "لا تستهوينك الشياطين، ولا يستخفنك الجهال! والله لئن استرشدتني وقبلت مني لهديتك سبل الرشاد".

ولكن الـ ُخيت، لم يعد كما وعد، بل خرج مـن الكوفـة ومعه نحو ثلثمائة فارس من أشجع فرسان علـي، فـأعلنوا العصيان، وخلعوا البيعة، وزعموا أن عليا كفر ..!

وحزن الإمام لخروجهم، ويا طالما دعـا الله أن يجنـب المسلمين سفك الدماء .. حتى معاوية كان يـدعو لـه الله أن ينقذه مما هو فيه من ضلال، فلا يطمع في الخلافـة وهـو الطليق، ويعود إلى الجماعة، ويستجيب إلى دعـوة الإمـام لحقن الدماء ورأب الصدع.

وشعر الإمام أن وراء خروج الـ ُخيت أصـابع معاويـة! وربما كانت مكايد معاوية هي التي حركت كل الذين خرجوا على الجماعة بعد معركة النهروان ..! فلو أنه كان التطرف وحده، لاجتمعوا معا في النهروان ولكن ما بال هؤلاء الـذين خرجوا عليه أخيرا، كانوا ينكرون على أصحاب حـروراء وعلى أصحاب النهروان خروجهم ..؟! إذن ..؟! ما غيـرهم إن لم يكن هو إغراء معاوية الذي أقسم أن يجذب إليه خاصة رجال علي، وأن يغلب بدنياه دين علي..؟!

وفي الحق أنه نجح مع بعض الرجال، ومازال آخـرون تضطرب في صدورهم الأهواء والنوازع، وتشـرئب فـي

أعماقهم الأطماع ..! ولكن الخريت من أهل التقوى، أتفتنه دنيا معاوية ..؟! بل إن أمرا بدا له ..؟!

وشعر أصحاب الإمام بما يعانيه بعد خروج الخريت بن راشد التميمي، وهو كما يراه الإمام رجل صاحب علم ودين وتقوى، جدير بأن يدارسه الإمام القرآن، حريّ بأن يناظره في السنن.

وأقبل زياد بن خصفة البكري، وهو من أشجع الفرسان وأحكم الرجال يهون على الإمام ما يلقى من البرحاء، فقال: "يا أمير المؤمنين إنهم لم يعظم علينا فقدهم فنأسى عليهم، إنهم قلما يزيدون في عددنا لو أقاموا، ولقلما ينقصون من عددنا بخروجهم عنا ..! ولكننا نخاف أن يفسدوا جماعة كثيرة من أهل طاعتك ممن يقدمون عليه (على الخرُيت). فأذن لي في أتباعهم حتى أردهم عليك".

فسأله أمير المؤمنين: "تدري أين توجهوا ..؟" قال: "لا، ولكني أسأل وأتبع الأثر" فقال: "أخرج يرحمك الله، وانزل دير أبي موسى، وأقم حتى يأتيك أمري".

فجمع زياد بن خصفة البكري رجاله، وخرج بهم يتبع أثر الخريت وعصبته، حتى علم أين نزلوا .. وبلغ أمير المؤمنين

أنهم قتلوا أحد الداهقين (وهم رؤساء الفرس) وكان الدهقان قد أسلم، وأن الخريت أغرى رجالاً آخرين فانضموا إليه، فأرسل أمير المؤمنين إلى زياد بن خصفة البكري مددا، وبعث مع قائد المدد بكتاب إلى زياد يخبره فيه أنهم قتلوا الدهقان الذي أسلم، ويأمره بأن يردهم إليه ليدخلوا في الجماعة، ويسلموا الإمام قاتل الدهقان، فإن لم يطيعوا زيادا قاتلهم . ...

وجهد زياد في تتبعهم حتى أدركهم، وقد تعب رجاله، وكلت خيله، فسأله الخريت : "أخبروني ما تريدون" فشحذ زياد البكري حكمته فأملت عليه قوله: "قد ترى ما بنا من التعب، والذي جئناك له لا يصلحه الكلام علانية. ولكن ننزل ثم نخلو جميعا فنتذاكر أمرنا، فإن رأيت ما جئناك به حظًا لنفسك قبلته، وإن رأينا فيما نسمع منك أمرا نرجو فيه العافية لم نرده عليك".

فوافق الخريت، فنزل زياد وفرسانه، فطعموا مما حملوه من زاد وميرة وشربوا من الماء الذي نزلوا عليه وسقوا الخيل، وعلفوها. فلما أسفر الصباح كان زياد ورجاله قد

استراحوا، فقال زياد لبعض أصحابه: "إن عدتنا كعدتهم وأرى أمرنا يصير إلى القتال، فلا تكونوا أعجز الفريقين".

وسمع زياد أصحاب الخِرّيت يتناجون فيما بينهم: "جاءنا القوم وهم كالون تعبون فتركناهم حتى استراحوا، هذا والله سوء الرأي".

وخلا زياد والخِرّيت ليتذاكرا أمرهما فقال زياد: "ما الذي نقمته على أمير المؤمنين وعلينا حتى فارقتنا ..؟" قال: "لم أرض صاحبكم إماما، ولا سيرتكم سيرة، فرأيت أن أعتزل وأكون مع من يدعو إلى الشورى" قال زياد: "وهل يجتمع الناس على رجل يداني صاحبك الذي فارقته علما بالله وكتابه وسنة نبيه، مع قرابته من رسول الله (ﷺ)، وسابقته في الإسلام ..؟".

وسكت الخِرّيت هنيهة ثم قال: "ذلك ما قال لك ..!" فسأله زياد: "ففيم قتلت هذا الرجل المسلم (يعني الدهقان) ..؟" فأجاب: "ما قتلته، إنما قتله طائفة من أصحابي " قال زياد: "فادفعهم إلينا" قال: " ما إلى ذلك سبيل".

وإنهما ليتحاوران إذ أقبل أصحاب كل واحد منهما، فاقتتلوا أعنف قتال حتى فصل بينهما الليل، وأصبحوا فإذا

الخريت قد مضى برجاله تحت جنح الليل، وإذا زياد بن خصفة البكري جريح، فحمله رجاله إلى البصرة أقرب المدن إليه ليعالج فيها.

وانفلت الخريت إلى الأهواز، فلحق به كل الذين أرادوا التحلل من الخراج، وتضخم جيشه بهم وبأوشاب من العرب واللصوص لحقوا به حتى أتوا فارس فأخرجوا عامل علي عليها: سهيل بن حنيف الأنصاري وهو بدري شهد المشاهد كلها مع رسول الله (ﷺ)، وثبت معه في أحد حين انهزم الناس وفروا، وبايعه على الموت، وأخذ يرمي النبل دفاعا عن رسول الله.

فقال ابن عباس لعلي: "أنا أكفيك فارس بزياد ابن أبيه" وكان زياد ابن أبيه جسورا، حاذقاً عنيفاً.

أقبل زياد بن أبيه في جند كثيف على فارس، ففر منها رجال الخريت وأدى أهلها الخراج الذي كسروه من قبل.

ومضى الخريت إلى مكان آخر يتلاحق به من يريدون التحلل من أداء الخراج، وبعض اللصوص والصعاليك، ووصل أمير المؤمنين كتاب من زياد بن خصفة البكري، أنبأه فيه أنه في البصرة يعالج هو وسائر الجرحى، وقص

عليه ما آل إليه أمر الخريت ومن تلاحقوا إليه من شر مستطير..! فوثب معقل بن قيس فقال: "يا أمير المؤمنين، كان ينبغي أن يكون مع من يطلب هؤلاء مكان كل واحد عشرة، فإذا لحقوهم استأصلوهم وقطعوا دابرهم".

فوجه إليهم أمير المؤمنين جيشًا كثيفًا بقيادة معقل بن قيس وأوصاه بقوله: "اتق الله ما استطعت، ولا تبغ على أهل القبلة، ولا تظلم أهل الذمة، ولا تتكبر فإن الله لا يحب المتكبرين".

وأمر الإمام عبد الله بن عباس عامله على البصرة أن يمد معقل بن قيس بألفي رجل على رأسهم رجل شجاع صالح، فإذا أتى معقلاً كان معقل هو أمير الجيش كله، ثم كتب إلى زياد بن خصفة، يحمد الله إليه، ويطلب منه العودة من البصرة.

* * * *

فلما بلغ معقل الأهواز انتظر خارجها مقاتلي البصرة حتى توافدوا عليه بعد يوم واحد في نحو ألفي رجل بقيادة خالد بن معدان الطائي، فساروا جميعا تحت إمرة معقل ابن قيس، فالتقوا بالخريت وأصحابه.. واصطفوا للقتال، ودعاهم معقل

إلى الدخول في الطاعة فرفض الخريت ورفضوا، وكان قد صف من معه من العرب من ناحية فجعلهم ميمنة جيشه، وجعل الأكراد وأهل البلد وغيرهم ميسرته.. والتحم الجيشان، وقتل معقل وأصحابه سبعين من العرب وثلثمائة ممن عداهم، وانهزم الخريت بمن بقى، وسار بهم إلى شاطيء البحر، وكلما سار دعا على العصيان ومنع الخراج، وأفتاهم بأن الهدى في حرب علي، فاتبعه خلق كثير، من الذين سرهم ألا يؤتوا الزكاة، والذين لا يحبون أن يدفعوا الجزية، فأقاموا بعيدا على ساحل البحر.

وأرسل معقل من معسكره بالأهواز إلى أمير المؤمنين بالكوفة ينبئه بهزيمة الخريت وفراره إلى ساحل البحر..

فقرأ علي الكتاب على أصحابه، واستشارهم كما عودهم في كل أموره فأجمعوا على رأي واحد.. قالوا: "يا أمير المؤمنين، نرى أن تأمر معقلاً أن يتبع آثار الفاسق حتى يقتله أو ينفيه فإنا لا نأمن أن يفسد عليك الناس".

فأرسل أمير المؤمنين إلى معقل شكره هو ومن معه على حسن بلائهم في قتالهما لخُريت، ويأمره أن يطارده حتى

يتوب وينيب إلى أمر الله ويدخل في الجماعة، ويؤدي من معه الزكاة والخراج، وكل ما امتنعوا عن أدائه..

فلما بلغ الخريت ما أمر به على جاء إلى طوائف جيشه، فخاطب كل طائفة بما يرضيها: أما الخوارج فقال لهم: "أنا معكم أن عليا قك كفر حين حكم الرجال، وقد خلعه الحكمان فلا إمرة له".

ثم دعا صنائع معاوية فقال لهم: "أنا والله على رأيكم.. وقد قتل عثمان مظلوما وقد جعل الله لوليه ــ وهو معاوية ــ سلطانًا ..!!".

ودعا الذين أسلموا ثم امتنعوا عن أداء الزكاة وتناجوا فيما بينهم قائلين: "والله لديننا الذين خرجنا منه خير من دين هؤلاء، فدينهم لا ينهاهم عن سفك الدماء ..!" فقال لهؤلاء الذين أرادوا أن يرتدوا عن الإسلام: "ويحكم..! لا ينجيكم من القتل إلا قتل هؤلاء والصبر، فإن حكمهم فيمن أسلم ثم ارتد أن يقتل ولا يقبلون منه توبة ولا عذرا".

فلما تراءى الجمعان، أمر معقل براية أمان فرفعت على مرتفع من الأرض وقال: "من أتاها من الناس فهو آمن" فأوى إلى الراية جمع كبير، ولم يبق مع الخريت إلا قومه من بنى

ناجية وجمع من غير المسلمين، ومن الذين أسلموا حديثًا ومنعوا الزكاة ..!

وأنذرهم معقل، ودعاهم إلى إلى التوبة وتسليمه قتلة الأبرياء، والدخول في الجماعة، فما كان من الـ ُخِريت إلا أن حمل برجاله على معقل وأصحابه، فاشتجرت القنا، وتقارعت السيوف، ولم يعد يسمع إلا صلصلة الحديد إذ يقع على الحديد، وسقط الـ ُخِريت قتيلاً، وقتل من أصحابه نحو مائة وسبعين رجلاً، وتفرق الآخرون هاربين، ولكن معقلاً حاصرهم فلم يتمكن الآخرون من الفرار، فاستأسر بعضهم، وأسر هو رجالاً آخرين، وسبى النساء والذراري.

فأما من كان مسلما فأطلقه، وأخذ بيعته، وترك نساءهم وأبناءهم، وأما من ارتد فعرض عليه الإسلام، فمن أسلموا أطلق سراحهم وجبى زكاة وخراج عامين: عامهم هذا، وما تأخر عليهم من زكاة وخراج عن العام الماضي .. عام صِفِّين..

وساق الأسرى الآخرين ومعهم السبايا والأولاد، وتعالى عويل النساء وصراخ الأطفال ونشيج الرجال، حتى مروا على أردشير، فاستصرخوا مصقلة بن هبيرة الشيباني عامل

على عليها، واستغاثوه: "يا أبا الفضل، يا حامي الرجال، وفكاك العناة (الأسرى). امنن علينا فاشترنا وأعتقنا" فقال مصقلة: "أقسم بالله لأتصدقن عليكم إن الله يحب المتصدقين".

فساوم عليهم معقل بن قيس، فطلب خمسمائة ألف، وكانوا خمسمائة من الرجال والنساء والأطفال، فقبل مصقلة. فقال له معقل: "عجل المال إلى أمير المؤمنين".

فلما بلغ معقل بن قيس الكوفة أخبر أمير المؤمنين بما كان بينه وبين مصقلة، فوافقه الإمام، واستحسن صنيعهما.

وكان مصقلة قد تحمل فدية الأسرى كلها من ماله، لم يسأله أحدا من الأسرى معونة ولا مساعدة، وخشي علي ألا يستطيع مصقلة الوفاء، فأرسل إليه، فلما أتاه مدح فعله، ثم سأله أن يؤدي ما عليه من مال الفدية ليودعه بيت المال، فأودع مصقلة مائتي ألف..

واستدعى مصقلة من ليلته صديقاً له يدعى بن ذُهل

الحارث فطعما معا ثم قال له مصقلة يستشيره: "إن أمير المؤمنين يسألني هذا المال ولا أقدر عليه ..!" فقال له صاحبه ينصحه: " والله لو شئت ما مضت جمعة حتى تحمله" قال: "والله ما كنت لأحملها قومي ..! أما والله لو كان ابن

هند يعني معاوية ما طالبني بها، ولو كان ابن عفان لوهبها لي" فقال له صاحبه: "إن أمير المؤمنين لا يرى ذلك الرأي، فهذا في رأيه حق لبيت المال".

وقبل أن ينقضي الليل، كان مصقلة في طريقه إلى الشام هاربا إلى معاوية!

فلما علم الإمام بذلك قال متعجبا ضاحكاً: "قبح الله مصقلة! فَعَلَ فِعْلَ السيد وفرَّ فرار العبد، وخان خيانة الفاجر..! والله لو علمنا عسره لأنظرناه فإن عجز عافيناه".

إن مصقلة لا ينسى كتاب الإمام على له بعد أن ولاه أردشير خرُه بأشهر فقد كتب إليه: "بلغني عنك أمرٌ إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك، وأغضبت إمامك: إنك تقسم في المسلمين الذين حازته رماحهم وخيولهم، وأريقت عليه دماؤهم، فيمن اعتامك (اختارك) من أعراب قومك، فو الذي خلق الحبة، وبرأ النسمة، لئن كان ذلك حقاً لتجدن بك عليَّ هوانا، ولتخفن عندي ميزانا، فلا تستهن بحق ربك، ولا تصلح دنياك بمحق دينك، فتكون من الأخسرين أعمالاً،

ألا وإن حق من قِبَلك وقِبَلنا (عندك وعندنا) من المسلمين في قسمة هذا الفيء سواء..".

إن عليا ليتشدد في المساواة بين المسلمين في قسمة الفيء، تشدداً يصرف عنه الذين يحبون أن يمتازوا.. أما معاوية فهو يعرف كيف يرضى هؤلاء..

ثم إن مصقلة ليشعر أنه غير آمن في عمله مع علي، فربما كتب إليه كما كتب إلى غيره: ارفع إلى حسابك .. أما معاوية فهو يغدق بلا حساب ..!!

وكان أخو مصقلة نعيم بن هبيرة من شيعة علي، فبعث إليه في دمشق كتابا يلومه على هربه إلى معاوية! ولكن مصقلة كتب إليه يغريه باللحاق به: "إن معاوية قد وعدك بالإمارة والكرامة، فأقبل ساعة يلقاك رسولي والسلام".

فاجتمع أخوه وملأ من رءوس العراق فأجمعوا أمرهم على أن يعتذروا لأمير المؤمنين عما صنعه مصقلة، فأتوه فقالوا: "يا أمير المؤمنين، إن نعيما أخا مصقلة يستحي منك لما صنع مصقلة، وقد أتانا اليقين أنه لا يمنع مصقلة من الرجوع إليك إلا الحياء ..! ولم يبسط منذ فارقنا لسانه ولا يده، فلو كتبنا إليه كتابا، وبعثنا من قبلنا رسولاً، فإنا نستحي

أن يكون فارقنا مثل مصقلة من أهل العراق إلى معاوية ..!".

فقال على: "اكتبوا".

فكتبوا إلى مصقلة: "أما بعد، فقد علمنا أنك لم تلحق بمعاوية رضا بدينه، ولا رغبة في دنياه، ولم يعطفك عن علي طعن فيه، ولا رغبة عنه، ولكن توسطت أمرا فقويت فيه الظن، وأضعفت فيه الرجاء، فكان أولاهما عندك أن قلت: أفوز بالمال، وألحق بمعاوية ..! ولعمرنا ما استبدلت الشام بالعراق، ولا السكاسك (أسرة بالشام ذات ثراء هائل، ومنهم الذي قتل عمار بن ياسر والذي قطع رأسه) بربيعة، ولا معاوية بعلي، ولا أصبت دنيا تهنأ بها، ولا حظًا تحسد عليه، وإن أقرب ما تكون مع الله، أبعد ما تكون مع معاوية، فارجع إلى مصرك، فقد اغتفر أمير المؤمنين الذنب، واحتمل الثقل، واعلم أن رجعتك اليوم خير منها غدا، وكانت أمس خيرا منها اليوم. وإن كان عليك حياء من أبي الحسن، فما أنت فيه أعظم ..! فقبح الله أمرا ليس فيه دنيا ولا آخره ..!".

فلما حمل رسول رؤساء العراق كتابهم إلى مصقلة بالشام، قال له: "يا مصقلة، انظر من جاورت، ومن زايلت، ثم اقض بعقلك دون هواك ..!" فقرأ مصقلة على معاوية كتاب رؤساء العراق، فقال له معاوية: "يا مصقلة إنك عندي غير ظنين، فإذا أتاك شئ فاستره عني ..!".

فقال مصقلة لرسول قومه: "يا أخا بكر، إنما هربت بنفسي من علي ولا والله ما يطول لساني بغيبته، ولا قلت فيه قط حرفا بسوء، اذهب بكتابي هذا إلى قومي".

وكان كتابه إلى قومه: "أما بعد، فقد جاءني كتابكم، وإني أخبركم أن من لم ينفعه القليل لم ينفعه الكثير، وقد علمتم الأمر الذي قطعني من علي وأضافني إلى معاوية، وقد علمت أني لو رجعت إلى علي وإليكم لكان ذنبي مغفورا، ولكني أذنبت إلى علي وصحبت معاوية، فلو رجعت إلى علي أحدثت عيبا، وأحييت عارا، وكنت بين أمرين: أولهما خيانة وآخرهما غدر! ولكني أقيم بالشام، فإن غلب معاوية فداري العراق، وإن غلب على فداري أرض الروم.. وكانت فرقتي عليا على بعض العذر أحب إلي من فرقتي معاوية ولا عذر لي".

ثم همس لرسول قومه وهو يسلمه الكتاب أن يسأل أهل الشام عن قوله في على، فقال الرسول: "قد سألت فقالوا خيرا" قال مصقلة: "فإني والله على هذا القول الحسن في علي حتى أموت".

فلما عاد الرسول إلى العراق قال لمن بعثوه: "كفوا عن صاحبكم، فليس براجع حتى يموت ..!" قالوا: "أما والله ما به إلا الحياء " ولكنهم أسفوا، لأنه حكيم، ذو نجدة، ولعشيرته في الكوفة شأن كبير..

* * * *

جلس الإمام بين أصحابه بعد الصلاة يحاورهم ويعظهم ويفقههم، كما تعود.

سأله رجل: "أكان سيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر..؟" قال الإمام: "ويحك ..! لعلك ظننت القضاء قضاء لازما، والقدر قدرا حاتما (من الحتم) ..؟! ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد. إن الله سبحانه أمر عباده تخييرا، ونهاهم تحذيرا، وكلف يسيرا، ولم يكلف عسيرا، وأعطى على القليل كثيرا، ولم يعص مغلوبا، ولم يطع مكرها، ولم يرسل الأنبياء لعبا، ولم ينزل الكتاب للعباد عبثا، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، ذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار..!".ثم

إنه نهى الناس عن التفكير في القضاء والقدر، فماذا يعود عليهم من مثل هذا الكلام ..؟! قال عن القدر: "طريق

مظلم فلا تسلكوه، وبحر عميق فلا تلجوه، وسر الله فلا تتكلفوه.. ولكن اعلموا أن من أصبح على الدنيا حزينًا فقد أصبح لقضاء الله ساخطًا، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به، فقد أصبح يشكو ربه ..! تذل الأمور للمقادير، حتى يكون الحتف في التدبير".

وقال كرم الله وجهه: "لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على الفتنة (أي الاختبار)، ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن، فإن الله سبحانه يقول: (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) ومعنى ذلك أنه يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبين الساخط لرزقه، والراضي بقسمته، وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم. ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب .. وإن الله جعل لكل شئ قدرا، ولكل قدر أجلاً، ولكل أجل كتابا.. أمره قضاء وحكمة، ورضاه أمان ورحمة، يقضي بعلم، ويعفو بحلم.. ولا ولجت عليه شبهة فيما قضى وقدر، بل قضاء متقن، وعلم محكم، وأمر مبرم".

ثم قال يعظهم: "إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخلقان من خلق الله عز وجل، فمن نصرهما نصره الله، ومن

خذلهما خذله الله .. فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر.. وأفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر".

ورأى الإمام أن بعض العلماء من الذين اصطنعهم معاوية، لم يكتفوا بتأويل القرآن على هوى معاوية، ليخدم دنياهم ودنياه، ولكنهم تجاسروا على رسول الله (❐) فوضعوا الأحاديث، ليمجدوا بها معاوية وقومه ..!

وكان أبو بكر وعمر لا يقبلان الحديث إلا إذا شهد عليه شاهدان، أما عثمان فعدل عن هذا الشرط، ولهذا أسرف في رواية الحديث رجال كان عمر يضربهم ويحبسهم إذا أسرفوا في رواية الحديث، فامتنعوا خوفًا، حتى إذا قبض عمر، وثارت الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية، أو بين بني هاشم وبني أمية، أكثر بعض الرواة في رواية الأحاديث، طمعا.. وكان علي كرم الله وجهه ينهي عن الإكثار في رواية الأحاديث الشريفة، ولا يقبل الحديث إلا بشهادة ويمين.

وإنه ليعظ ذات يوم في مسجد الكوفة إذ سأله رجل: "يا أمير المؤمنين أخبرنا عن أحاديث البدع" قال: "نعم . سمعت رسول الله (❐) يقول: إن الأحاديث ستظهر من بعدي حتى يقول قائلهم: قال رسول الله، وسمعت رسول الله (❐) ..! كل

ذلك افتراء علي ..! والذي بعثني بالحق لتفترقن أمتي على أصل دينها، فإن كان ذلك فعليكم بكتاب الله عز وجل، فإن فيه نبأ من كان قبلكم، ونبأ ما يأتي بعدكم، والحكم فيه بين، من خالفه من الجبابرة قصمه الله، ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله، فهو حبل الله المتين، ونوره المبين، وشفاؤه النافع، وعصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، ولا يعوج فيقام، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلقه كثرة الرد (لا تبليه كثرة تكرار التلاوة) هو الذي سمعته الجن فولوا إلى قومهم منذرين قالوا: (يا قومنا، إنا سمعنا قرآنا عجبا). من قال به صدق، ومن تمسك به هدِى إلى صراط مستقيم". وسأله سائل: "يا أمير المؤمنين، من هم أولياء الله ..؟" قال: "إن أولياء الله هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذ نظر الناس إلى ظاهرها، واشتغلوا بآجلها إذا اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموه أن سيتركهم.. لا يرون مرجوًا فوق ما يرجون، ولا مخوفًا فوق ما يخافون".

جاءه من يخبره بأن معاوية هو الذي حرض هؤلاء الذين خرجوا عليه في أطراف الدولة، وقد شجعهم على كسر الخراج.

وسمع الإمام أن معاوية يغرى عامله على فارس زيادا المعروف بابن أبيه .. وقد وعده معاوية بأنه سيصحح نسبه، ويعترف بأخوته، ويجعله زياد بن أبي سفيان.ولم يصدق الإمام أن معاوية يمكن أن يهدر مباديء الدين إلى هذا الحد .. فمعاوية يعرف أن الولد للفراش وللعاهر الحجر، وقد أبى الله أن ينسب مثل هذا لأب ...!

ولكن الإمام تدبر الأمر، ورأى أن معاوية يتجاسر على أي شئ ولا يبالي ..! فإذا كان قد تجاسر على القرآن وأساء تأويله، ووجد علماء يرتشون في الدين، ويقرونه على هذا التأويل، فرفع راية العصيان زاعما أنه ولى دم عثمان وصاحب الحق في الثأر له ..؟! وإذا كان معاوية قد تجاسر على الله، وأضرم الفتنة واشعل حربا سفكت فيها دماء آلاف المسلمين، ولم يحفل بشئ في طلبه الملك، وإذا كان معاوية قد خالف رسول الله وتحداه، حيث أمر (ﷺ) أمته بأن يقتلوا من دعاء إلى نفسه أو لغيره وعلى الأمة إمام ..؟! فما الذي

يردعه عن الحاق زياد بأبيه ..؟! الآن هذا يخالف مبادىء الإسلام ..؟! وأي عمل اقترفه معاوية منذ رفض البيعة وافق ما يدعو إليه الإسلام ..؟!

من أجل ذلك رأى الإمام أن من الحكمة أن يرسل إلى زياد يعظه، ويحذره، وكان زياد على قدر كبير من الشجاعة والحكمة والدهاء.. وهذه الخصال تجعل معاوية يسترخص أي شئ لضمه إليه..!

وقالوا للإمام أن العلماء الذين يرشوهم معاوية ليفتوه بما يشاء، سيحللون لمعاوية إلحاق زياد بأبيه ..! فتساءل ساخرا إن كان هؤلاء علماء حقًا ..؟! ثم مضى يصف للناس العالم الحق: "هو من اليقين على مثل ضوء الشمس، مصباح ظلمات، وكشّاف عشوات، مفتاح مبهمات، دفّاع معضلات، دليل فلوات، يقول فيفهم، ويسكت فيسلم: قد أخلص الله فاستخلصه، فهو من معادن دينه، وأوتاد أرضه. قد ألزم نفسه العدل، فكان أول عدله نفى الهوى عن نفسه، يصف الحق ويعمل به، لا يدع للخير غاية إلا أمها (قصدها)، ولا مظنة إلا قصدها، قد أمكن الكتاب (القرآن) من زمامه فهو قائده وإمامه"..

ثم وصف الإمام نوع العالم الذي يصطنعه معاوية فقال: "وآخر قد تسمى عالمًا وليس به، فاقتبس جهائل من جهال، وأضاليل من ضلال، ونصب للناس شركًا من حبائل غرور، وقول زور، قد حمل الكتاب على آرائه، وعطف الحق على أهوائه، يؤمّن من العظائم، ويهون كبير الجرائم يقول: أقف عند الشبهات، وفيها وقع، ويقول: وأعتزل البدع، وبينها اضطجع، فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان! لا يعرف باب الهدى فيتبعه، ولا باب العمى فيصدّ عنه، فذلك ميت الأحياء ..!".

ثم كتب إلى زياد ابن أبيه: " قد عرفت أن معاوية قد كتب إليك يستزلّك، ويستفل غربك (يثلم نشاطك) فاحذره، فإنما هو الشيطان: يأتي المؤمن من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ليقتحم غفلته، ويستلب غرته. وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر بن الخطاب فلتة من حديث النفس، ونزعة من نزعات الشيطان (وهي قوله إني أعلم من وضعه في رحم أمه، يريد نفسه) وهذه لا يثبت بها نسب، ولا يستحق بها إرث، والمتعلق بها كالواغل المدفع (الواغل الذي يقتحم المجلس على الجالسين، المدفع أي من يطرد ويدفع من

المجلس)، والنوط المذبذب (النوط ما يناط برجل الراكب من قدح أو ما أشبه ذلك فهو أبدا يتذبذب إذا استعجل سيره)".

وسأله رجل: "يا أمير المؤمنين، ما أفضل الإيمان" قال: "قال رسول الله (ص): فضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيث كنت" وسئل: "وما التقى". قال: "رئيس الأخلاق" وسئل: "ما تواضع الأغنياء وتيه الفقراء" قال: "ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلبا لما عند الله، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالاً على الله".

* * * *

وعلم أن معاوية يعد لغزو البصرة وغزو مصر.. فقد جاءه نبأ ذلك من عيونه بدمشق .. فأهاب بالناس أن يستعدوا للزحف على معاوية وجنده في الشام، ليلزموهم المحجة، ويردوهم إلى الجماعة، قبل أن يقتطع معاوية أطراف الدولة.. وكفى ما كان ..!

ولكنه وجد تثاقلاً وفتورا وتهاوناً.. فوجد موجدة عظيمة، ودعا رؤساء الكوفة فحذرهم من التمزق والتفرق، وحسبهم ما سمعوه عن الإسلام من حديثي العهد بالإسلام، على الرغم من أنهم يعرفون أن الإسلام دين يدعو إلى الوحدة والأخوة

واجتماع الشمل والمساواة والعدل ..! ولكنه معاوية بأطماعه في الملك، هو الذي يلطخ وجه الإسلام بالدماء ..!!

أي ملك يطمع فيه وهو طليق، ومن المؤلفة قلوبهم، الذين أعطاهم الرسول ثم أبو بكر ليتألف قلوبهم، حتى إذا جاء عمر فوجد الإسلام قويا، ولا حاجة به إلى تأليف قلوب الذين لم يرسخ إيمانهم بعد، حرمهم من العطاء ..؟!

رحم الله عمر بن الخطاب، فهو الذي قال حين رأى معاوية وهو والٍ على دمشق وحدها: هذا كسرى العرب ..!! ماذا تريد بعد وقد ولاك عثمان الشام كله ..؟! ولكنك أنت الذي تقول يا معاوية: مازلت أطمع في الخلافة منذ قال لي رسول الله: "إن وليت فأحسن".

ومن عجب أن في المسلمين من بايعك على الخلافة، وأعانك على تمزيق الوحدة ..!! لقد خالفوا فيك الله ورسوله ..! ولكنهم لم ينسوا قول عمر: هذا الأمر (الخلافة) في أهل بدر ما بقى منهم أحد، ثم في أهل أحد ما بقى منهم أحد، ثم في أهل كذا وكذا (غزوات الرسول) وليس فيها لطليق ولا لولد طليق ولا لمسلمة الفتح شئ (مسلمة الفتح الذين أسلموا يوم فتح مكة وعلى رأسهم أبو سفيان وابنه معاوية)".

فكيف استطاع معاوية أن يخدع المسلمين عن حقيقته..؟!
كان معاوية قد ركب البحر في زمن عثمان، وفتح بعض جزيرة قبرص التي كان يسكنها الروم ويهددون منها أطراف الدولة في الشام .. هذا فضل لا يجحد لمعاوية، ولكنه أغرقه في طوفان دماء المسلمين التي سفحها .. أخفى مآثره تلك في الثلم الذي صدع به اجتماع الأمة ..!!

إنه في سبيل الملك يفرق الأمة إلى دولتين، ويشهر سيف المسلم على أخيه المسلم.......

لابد من تدارك الأمر قبل أن يتفاقم يا علي، وأنت ولي كل مسلم بعد رسول الله، كما قال رسول الله () لك ...!

وعاد الإمام يأمر المقاتلين أن يتجهزوا للزحف على معاوية، ولكنه وجد فيهم تكاسلاً، فلا هم تجهزوا، ولا هم نفروا إلى معسكرهم بالنخيلة، وإنما أقاموا بين نسائهم وأولادهم، واستطابوا لين الحياة، والسمر مع الإخوان ..!

فجمع الإمام رؤساء الكوفة ووجوهها، وسألهم عن سبب تكاسلهم، فنشط منهم نفر وحشدوا رجالهم، أما أكثرهم فتعلل وتكاسل، أو نفر محرجا مرغما كارها.

فقام الإمام فيهم خطيبا، فقال: "عباد الله، ما بالكم إذا أمرتكم أن تنفروا اثاقلتم إلى الأرض ..؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة بدلاً، ورضيتم بالذل والهوان من العز خلفًا..؟ وكلما ناديتكم إلى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من الموت في سكرة ..! الله أنتم ..! ما أنتم إلا أُسد الشرى في
الدعة، وثعالب رواغة حين تدعون إلى البأس...! إنكم تُكادون ولا تكيدون، ولا ينام عنكم وأنتم في غفلة سادرون!".

وسكت قليلاً فوجدهم واجمين .. ثم قال: "أما بعد فإن لي عليكم حقًا وإن لكم علي حقًا. فأما حقكم علي فالنصيحة لكم ما صحبتكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كي لا تجهلوا، وتأديبكم كي تتعلموا، وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة، والنصح لي في المغيب والمشهد، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم، فإن يرد الله بكم خيرا تنزعوا عما أكره، وترجعوا إلى ما أحب فتنالوا ما تطلبون وتدركوا ما تأملون.

أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، ما عزّت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم، كلامكم يوهى الصم، وفعلكم يطمع فيكم عدوكم. إذا أمرتكم بالمسير قلتم

كيت وكيت، أعاليل بأضاليل، هيهات ألا يدرك الحق إلا بالحد والصبر! أي دار بعد داركم تمنعون ..؟ ومع أي إمام بعدي تقاتلون ..؟ المغرور واالله من غررتموه، ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب. أصبحت لا أطمع في نصرتكم، ولا أصدق قولكم، فرق االله بيني وبينكم، وأعقبني بكم من هو خير لي، وأعقبكم بعدي من هو شر لكم مني.

أما إنكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً، وسيفًا قاتلاً، وأثرة يتخذها الظالمون بعدي عليكم سنة، تفرق جماعتكم، وتبُكي عيونكم، وتُدخل الفقر بيوتكم تمنون واالله عندها أن رأيتموني ونصرتموني، وستعرفون ما أقول لكم عما قليل. استنفرتكم فلم تنفروا، ونصحت لكم فلم تقبلوا، وأسمعتكم فلم تعوا. فأنتم شهود كأغياب، و صم ذوو أسماع، أتلو عليكم الحكمة، وأعظكم بالموعظة النافعة، وأحثكم على جهاد المحلين الظلمة الباغين، فلا آتي على آخر قولي حتى أراكم متفرقين، إذا تركتكم عدتم إلى مجالسكم، تتناشدون الأشعار، وتضربون الأمثال، وقد نسيتم الحرب واستعدادها، وأصبحت قلوبكم فارغة عن ذكرها، وشغلتموها بالأباطيل والأضاليل!

ويحكم ..! اغزوا عدوكم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غُزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا، وأيم الله ما أظنكم تفعلون حتى يُفعل بكم ..! وأيم الله لوددت أني قد رأيتهم فلقيت الله على نيتي وبصيرتي، فاسترحت من مقاساتكم ومداراتكم، ويحكم ..! ما أنتم إلا كإبل جامحة ضل عنها رعاؤها (رعاتها)، فكلما ضمت من جانب انتشرت من جانب..! ووالله لأغزونهم ولو لم يبق أحد غيري لجاهدتهم".

فقام الأشعث بن قيس ..!! الأشعث أيضا ..؟! ماذا يريد ..؟ ألديك شئ جديد بعد إصرارك على قبول التحكيم ثم إصرارك على تعيين أبي موسى، ثم إصرارك على ألا يخرج الجند لقتال أهل الشام حتى يستريحوا ..؟! ألديك بعد جديد ..؟!

وقف الأشعث، وأمير المؤمنين يقتحمه بنظراته، كاتماً زفرات حرى مما يعانيه من مضض.. وقال الأشعث: "يا أمير المؤمنين، هلَّا فعلت كما فعل عثمان ..؟!" فقال: "ويلك! والله إن رجلاً أمكن عدوه من نفسه فنهش عظمه، وسفك دمه، لعظيم عجزه ..! ويلك ..! أنت يا ابن قيس فكن ذلك،أما أنا فوالله دون أن أعطي ذلك ضرب بالمشرفي (السيف)

واالله يا أهل العراق ما أظن هؤلاء القوم (أهل الشام) إلا ظاهرين عليكم ..!".

قالوا: "أبعلم تقول ذلك يا أمير المؤمنين ..؟" قال: "والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إني أرى أمورهم قد علت، وأرى أموركم قد خبت، وأراهم جادين في باطلهم، وأراكم وانين في حقكم، وأراهم مجتمعين، وأراكم متفرقين، وأراهم لصاحبهم معاوية مطيعين، وأراكم لي عاصين، أما واالله إن ظهروا عليكم بعدي لتجدنهم أهل سوء ..! كأنهم واالله عن قريب قد شاركوكم في بلادكم، وحملوا إلى بلا دهم منكم، وكأني أنظر إليهم يقتلون صلحاءكم، ويخيفون علماءكم، وكأني أنظر إليكم يحرمونكم ويحجبونكم، ويدنون الناس دونكم، فلو قد رأيتم الحرمان، ولقيتم الذل والهوان، ووقع السيف ونزل الخوف، لندمتم وتحسرتم على تفريطكم في جهاد عدوكم، وتذكرتم ما أنتم فيه من الخفض (الدعة) والعافية حين لا ينفعكم التذكار".

وعز على أصحابه الثقات ما هو فيه من كرب، وما استشعروه من كلماته من عذاب ..! لم تكن كلمات، ولكنها كانت خفقات قلب يتمزق، ونفثات صدر يحترق ..!!

فقام الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري وكان جسيما مهيبا، فقال: "يا أهل العراق إن أمير المؤمنين أكرمه الله قد أسمع من كانت له أذن واعية وقلب حفيظ ..! إن الله قد أكرمكم به كرامة ما قبلتموها حق قبولها، حيث نزل بين أظهركم ابن عم رسول الله (ص)، وخير المسلمين وأفضلهم بعده يفقهكم في الدين، ويدعوكم إلى جهاد المحلين، فو الله لكأنكم صم لا تسمعون، وكأن قلوبكم غلف مطبوع عليها فلا تستجيبون ..! عباد الله، أليس إنما عهدكم بالجور والعدوان أمس، وقد شمل العباد وشاع في الإسلام، فذو حق مهزوم، ومشتوم عرضه، ومضروب ظهره، وملطوم وجهه، وموطوء بطنه، ومم لقَى بالعراء ..؟! فلما جاء أمير المؤمنين صدع بالحق، ونشر العدل وعمل بالكتاب، فاشكروا نعمة الله عليكم، ولا تتولوا مجرمين، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وأطعنا وهم لا يسمعون. اشحذوا السيوف، وجددوا آلة الحرب، واستعدوا للجهاد، فإذا دعيتم فأجيبوا، وإذا أمرتم فأطيعوا تكونوا بذلك من الصادقين".

فقام الأشعث بن قيس مرة أخرى ..!!

ماذا يريد شيخ أهل اليمن ..؟! قال: "يا أمير المؤمنين اعط هذه الأموال، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب، ومن قريش، على الموالي (أهل البلاد المفتوحة)، ممن تخاف أن يختلف معك أو يفارقك".

وقام شيخ آخر لإحدى العشائر فقال: "وهذا هو الذي يصنعه معاوية بمن أتاه".

فقال شيخ لإحدى القبائل: "يا أمير المؤمنين، إنما عامة الناس همهم الدنيا، ولها يسعون، وفيها يكدحون، فاعط هؤلاء الأشراف".

وأضاف رابع: "فإذا استقام لك ما تريد عدت إلى أحسن ما كنت عليه من القسم ..!".

وعجب الإمام: أقسمة الفيء بالسوية بينكم بلا تمييز، وبلا محاباة للعرب على الموالي، هو ما ينفركم مني، ويشدكم إلى معاوية ..؟ ولكن هذا هو الدين ياأيها الذين آمنوا ..!!

قال لهم علي : "أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه ..؟! فوالله لا أفعل ذلك ما لاح في السماء نجم، والله لو كان لهم مال لسويت بينهم، فكيف وإنما هو مال الله..؟".

وإنه لينصرف حزينًا من المسجد، إذ جاءه كتاب من مصر.. إنه من عامله عليها محمد بن أبي بكر ينبئه أن معاوية وعمرا أرسلا إليه كتابي تحذير أن يتخلّى ويتنحى لهما عن مصر وإلا قتلاه.

كتب محمد: "أما بعد يا أمير المؤمنين، فإن العاصي بن العاص، قد نزل أداني مصر، واجتمع إليه من أهل البلد من كان يرى رأيهم، وقد رأيت ممن قبلي بعض الفشل، فإن كان لك في أرض مصر حاجة فأمدوني بالأموال والرجال، والسلام ".

وفي الحق أن معاوية بعد ِفّين لم يكن يخشى إلا مصر، كان يطمع فيها لعظم خراجها، ولكي يكسر أهلها، فأغلبهم شيعة علي، فكان معاوية يخافهم ....

وحاول أن يخيف محمد بن أبي بكر فأرسل إليه يتهمه بقتل عثمان، وبأنه إن ظفر به سيقتله بعثمان ..! ثم قال: "ومع ذلك فإني أكره قتلك، ولا أحب أن أتولى ذلك منك. ولن يسلمك الله من النقمة أين كنت أبدا، فتنح وانج بنفسك" كما كتب عمرو إلى محمد يروعه، ويحاول أن يحمله على الفرار: "أما بعد، فتنح عني بدمك يا ابن أبي بكر، فإني لا

أحب أن يصيبك مني ظفر، وإن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك، وندموا على اتباعك وهم مسلموك، واخرج منها فإني لك من الناصحين".

وما كان أحد قد خالف محمدا إلا الذين اعتزلوا في خربتا، فقد جاهروا بالعصيان، منذ عرفوا قرار الحكمين بدومة الجندل، ثم إن عددا آخر من رؤساء العشائر اشرأبت أطماعهم إلى ما يرشوهم به معاوية، من أموال وضياع ومناصب وسبايا حسان ...!

ولكن أهل مصر ظلوا على ولائهم لأمير المؤمنين، زارين على كل ما يحدث حولهم من خيانات، ورشوة، وعصيان، وتمزق لوحدة الأمة ..!

فلما فرغ أمير المؤمنين من دراسة ما أرسله إليه محمد بن أبي بكر كتب إليه: "أما بعد، فقد أتاني رسولك بكتابك، تذكر أن ابن العاص قد نزل في جيش جرار، وأن من كان على مثل رأيه قد خرج إليه. وخروج من كان يرى رأيه خير له من إقامته عندك. وذكرت أنك قد رأيت ممن قبلك فشلاً فلا تفشل وإن فشلوا، حصن قريتك، واضمم إليك شيعتك، واذك الحرس في عسكرك، واندب إلى القوم كنانة

بن بشر المعروف بالنصيحة والتجربة والبأس. وأنـا نـادب إليك الناس على الصعب والذلول، فاصبر لعـدوك وامـض على بصيرتك، وقاتلهم على نيتـك، وجاهـدهم محتسـبا الله سبحانه، وإن كانت فئتك أقل الفئتين، فإن الله يعـين القليـل ويخذل الكثير، وقد قرأت كتابي الفاجرين المتحـابين علـى المعصية، والمتلائمين علـى الضـلالة والمرتشـين علـى الحكومة (التحكيم)، والمتكبرين على أهـل الـدين، والـذين استمتعوا بخلافهم كما استمتع الذين من قبلهم بخلاقهم، فـلا يضرنك إرعادهما وإبراقهما. وأجبهما إن تكن لم تجبهما بما هما أهله والسلام".

ثم أمر بأن ينادي في الناس: "الصلاة جامعة" فلما اجتمـع الناس بالمسجد صعد المنبر فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وآله: "أما بعد فهذا صـريخ (اسـتغاثة) محمد بن أبي بكر وإخوانكم من أهل مصر، قد سار إليهم ابن النابغة عدو الله وعدو من والاه، وولي من عـادى الله، فـلا يكونن أهل الضلال إلى باطلهم والركون إلى سبيل الطاغوت أشد اجتماعا على باطلهم وضلالتهم منكم على حقكم. فكأنكم بهم وقد بدءوكم وإخوانكم بالغزو، فاعجلوا إليهم بالمواسـاة

والنصر عباد الله، إن مصر أعظم من الشام وخير أهلاً فلا تغلبوا على مصر، فإن بقاء مصر في أيديكم عز لكم، وكبت لعدوكم. أخرجوا إلى الجرعة (مكان بين الحيرة والكوفة) لنتوافى هناك كلنا غدًا إن شاء الله".

ولكن لم يواف عليا في الجرعة إلا مائة رجل، ومقاتلو الكوفة نحو ستين ألفًا يتقاضون عطاءهم، وعاد إلى الكوفة، فبعث إلى رؤسائها، فقال لهم والأسى يعتصره، من خيبة أمله في رجال الكوفة: "الحمد لله على ما قضى من أمر، وقدر من فعل، وابتلاني بكم أيتها الفرقة التي لا تطيع إذا أمرتها، ولا تجيب إذا دعوتها، لا أبا لغيركم ..! ماذا تنتظرون بنصركم، والجهاد على حقكم ..؟! الموت خير من الذل في هذه الدنيا.. والله إن جاءني الموت – وليأتيني – لتجدنني لصحبتكم جد قال! ألا دين يجمعكم ..؟! ألا حمية تغضبكم ..؟! ألا تسمعون بعدوكم ينتقص بلادكم ويشن الغارة عليكم ..! أو ليس عجبا أن معاوية يدعو الجفاة الطغام الظلمة، فيتبعونه، ويجيبونه في السنة المرة والمرتين والثلاث، إلى أي وجه شاء ..؟! ثم أنا أدعوكم – وأنتم أولو النهي وبقية الناس – فتختلفون وتفترقون عني، وتعصونني وتخالفون علي ..؟!".

فوثب مالك بن كعب الأرحبي فقال: "يا أمير المؤمنين إنا نسير إليهم، اندب الناس معي فإنه لا عطر بعد عروس ..! وأنتم أيها الناس: اتقوا الله وأجيبوا دعوة إمامكم، وانصروا دعوته، وقاتلوا عدوكم ..!".

أما محمد بن أبي بكر، فلم يكد يصله رد أمير المؤمنين حتى كتب إلى معاوية: "تأمرني بالتنحي عنك كأنك لي ناصح، وتخوفني بالحرب، كأنك على شفيق، وأنا أرجو أن تكون الدائرة عليكم، وأن يهلككم الله في الوقعة، وأن ينزل بكم الذل، وأن تولوا الأدبار، فإن يكن لكم الأمر في الدنيا فكم وكم لعمري من ظالم قد نصرتم ..! وكم من مؤمن قد قتلتم ومثلتم به ..! وإلى الله المصير وإليه ترد الأمور ..! وهو أرحم الراحمين، والله المستعان على ما تصفون".

وكتب لعمرو: "أما بعد، فقد فهمت كتابك، وعلمت ما ذكرت وزعمت أنك تكره أن يصيبني منك ظفر، فأشهد بالله إنك لمن المبطلين. وزعمت أنك ناصح لي، أقسم إنك عندي ظنين، وقد زعمت أن أهل البلد قد رفضوني، وندموا على اتباعي، فذلك حزبك وحزب الشيطان الرجيم. وحسبنا الله

رب العالمين ونعم الوكيل، وتوكلت على االله العزيز الرحيم، رب العرش العظيم".

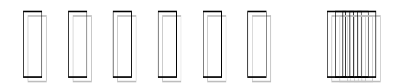
ونادى منادي أمير المؤمنين في الناس أن يخرجوا ليدركوا مصر قبل أن يستولي عليها معاوية، ويجعلها بخراجها الضخم طعمة لعمرو بن العاص ..! فلئن غلبهم معاوية على مصر، إنهم إذن لخاسرون ..!

فلم يخرج غير ألفين من نحو ستين ألف مقاتل ..!! فقال على في حزن عميق، وامتعاض، وسأم: "سيروا: الله ما أنتم ..؟! ما أخالكم تدركون القوم حتى ينقضي أمرهم ..!".

وشيعهم بنظرات يغشاها الأسى .. بمن مِن الرجال ينقذ مصر، وينقذ محمدا ..؟! أبهؤلاء الرجال ..؟!

يا للرجال..!!

* * * *



!..... yZf Ž ... ;aD

كان علي يدعو إلى الوحدة ورجاله يتفرقون من حوله!

ومعاوية يشق الجماعة ورجاله يتجمعون عليه ..!

ولم يكن ذلك لأن معاوية أفضل من علي أو أبصر منه بمعاملة الرجال، ولا لأن رجال معاوية خير من رجال علي..!

إنما حدث ذلك لأن معاوية كان يعرف ماذا يخاطب في الرجال ....

كان العصر عصر متاع، وإقبال على الحياة، وتفاخر بالأموال والبنين والخيل المطهمة، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ..!

وكان بعض الناس يملك الآلاف المؤلفة من الدنانير والدراهم، والضياع الواسعة، والقصور الشامخة، ومئات الإماء، وعلى المرابط آلاف الدواب من الحمير والبغال والخيل والأنعام والأغنام ..!!

وكانت بعض البطون لا تتحرج مما تمتليء به وتتكرش منه، فخاطب معاوية هذه البطون والنزعات والأهواء والشهوات فأشبعها، ووجد علماء تكرشوا وسمنوا بما أطعمهم، وامتلكوا الآلاف المؤلفة، فانسلخوا عن عملهم، وأو ُلوا القرآن كما يشاء معاوية، وأفتوا له بكل ما يريد، أفتوه فُتيا تحفظ عليهم الترف الذي أغرقهم فيه ..!! وإن بعضهم لينام قرير العين على الفراش الوثير، ويتمرغا على نضائد الحرير، راضيا عن نفسه، متخي ًلا لأنه أرضى الله لأنه أدى المفروض عليه من الزكاة ..! فإذا رأى في الأمة الشاسعة بعض أصحاب الحاجات والجياع، تّأول من آيات القرآن، ما يزيف به على نفسه أن هذا هو ما قسمه الله من الرزق ..!!

وما من أحد منهم سأل نفسه لماذا يحسب أن الله تعالى فضله على غيره في الرزق..!!

إن معاوية لملك، اصطنع حوله حاشية ملكية، ببهارجها وزينتها، ومفتيها..!

هو زعيم المحلين .. الذين يحلون لأنفسهم ما حرم الله .. والعلماء الذين انسلخوا من دينهم قد أصبحوا في بطانته بعض زينته، وقد تحولوا من علماء دين إلى رجال دين فهم

أصحاب سطوة وسلطة .. وهو ما لم يعرفه الإسلام من قبل..!!

لهم الله، فقد سنُّوا بهذا التزييف سنة سيئة فعليهم وزرها إلى يوم القيامة ..!! وكم عانت الأمة وتعاني من هذا الطراز الزائف المزيف من الجبابرة المرتزقة عبيد السلطان، جنود الشيطان، أعداء الرحمن، المنتسبين إلى الدين، وهم يخونون الديان ..!!

أما علي .. فوارحمتا لعلي ..!!

وارحمتا لإمام المتقين..!!

كان قد فهم روح العصر كما فهمها معاوية، وهو أفقه من معاوية بالحياة والناس، وأغزر منه علما، وأدق بصرا، وأحد منه ذكاء، وأشد دهاء لولا التقوى ..!!

فهِمَ عليٌّ روحَ العصر، وانكباب الناس على الشهوات، فلم ينافق غرائزهم أو يدغدغها أو يستثير أهواءهم كما صنع معاوية..!! ولكنه احترم إنسانيتهم، وخاطب فيهم ما هو روحي ورفيع ونبيل، ودعاهم إلى السمو الجدير بالإنسان خليفة الله في الأرض ..!

خاطب فيهم تقواهم، وحضهم على الزهادة، وأمرهم بـأن يستمتعوا بما أحل الله من زينة الحياة التي أخرجها لعبـاده والطيبات من الرزق، ولكن فليكونوا أرفع من البهائم التي لا هم لها إلا الطعام والشراب والمتاع ..!!

فليتذوقوا اللذات الروحية الرفيعة..!!

إنه ليعرف ما يصلحهم: "لا أصلحكم بإفساد ديني"..

هو يحاول أن يرسخ في أعماقهم أن الباقيات الصـالحات خير ثوابا وخير أملاً.. وأن ما عند الله خير وأبقـى، وأن العاقبة للتقوى......

ولكن هيهات ..!! فوراءهم ملك يسترضى الغرائز..!!

علي يقسم بين الناس بالعدل والسوية، لينال كل رجل من الآلاف المؤلفة من أبناء الأمة ما يستحقه بعمله.. وأمامه ملك يمنح الآلاف المؤلفة للنفر للقليل، ويـؤثرهم علـى غيـرهم ليكونوا أوتاد لملكه ..!!

وعلي كرم الله وجهه يتقي الله، ويتحرج أن يمـلأ بطنـه بالطعام وهو أمير المؤمنين، وفي الأمة جائع، ومعاوية يأكل ويطعم حتى يصاب بالتخمة، ويكسر عيون من يطعمهم ..!!

علي يخاطب الناس فيقول لهم: "أنتم الأتقياء، وأنتم حملة القرآن"، ويستنفر منهم عزمات الإيمان، وأمامه ملك يعد الناس بالغنى، ويرشو بلا حساب، ويستنفر في الإنسان شوارد الأطماع، وأوابد الشهوات ..!!

وعلي يشق على الناس، فيعلمهم أن في المال حقًا آخر غير الزكاة، إن كان في الأمة أصحاب حاجة .. ويدربهم على أن الصدقة عبادة .. ثم يتحرى العدل حتى ليفرض الزكاة على المال إن بلغ نصاب الزكاة، مهما يكن مالكه .. فيفرض الزكاة على أموال القُصَّر واليتامى، بما أنهم يملكون ما يستحق أن يؤدي عليه الزكاة.. ويقوده اجتهاده الباحث عن العدل والمساواة إلى أن الزكاة حق في المال يجب أن تؤدى حين يستوفي النصاب. أيًا ما يكن المسلم صاحب المال.

ثم يجد أصحاب الحرف يكسبون ويقتنون .. وإلى جوارهم أصحاب حاجات .. فيقوده اجتهاده في بحثه الدائب عن العدل والإحسان، إلى أن يفرض الخراج (الضرائب) على ما يكسبه أصحاب الحرف وأهل الصناعات ..!

ويظل شعار العصر: "الصلاة وراء علي أتقى، وأطهر وأزكى، ولكن الطعام مع معاوية أشهى، وأطيب وأوفى ..!".

وهو شعار أطلقه بعض الذين يخدعون أنفسهم، ويريدون أن يكسبوا معاوية لدنياهم، ويحتفظوا في الوقت نفسه بعلي لدينهم ..!!

وعندما عاد معاوية من صِفِّين بعد الخديعة الكبرى، وسلم عليه الناس بالخلافة، وأصبح ملكًا حقًا، بدأ رجال حاشيته من أهل الفُتيا يأمرون الناس باسم الإسلام في أرض الإسلام أن يبايعوا لمعاوية وينكثوا بيعة علي على الرغم من أنهم يعلمون أن رسول الله قد أمر بقتل من يصنع هذا بأمته..!!

كان هذا النفر من المزيفين من أهل الفتيا في بلاط معاوية، قد تحولوا بحق إلى رجال دين فاسدين، يرهبون الناس ..!!

كانوا قد ألفوا أن يتجاسروا على القرآن الكريم، وأن يفتروا على الله كذبا، فأوّلوا الآيات بما شاءت لهم مصالحهم، وبما أراده لهم سيدهم معاوية ليكون ملكًا على المسلمين كالشمس .. وما دروا أن الكل باطل .. باطل الأباطيل، وقبض الريح ..!!

وبلغ النفاق بهذا النفر من علماء المسلمين إلى وضع الأحاديث الشريفة في مدح بني أمية، وذم بني أبي طالب..!!

ولم لا..؟! لقد تجاسر هؤلاء المرتشون على الله تعالى، فما يمنعهم من الجرأة على رسول الله (❐) ..؟!

وهكذا كثرت الأحاديث الموضوعة، كما اشتط المزيفون في تأويل القرآن ..!

كما يحدث في عصرنا، إذ يلجأ بعض المنافقين والمزيفين من العلماء إلى خيانة علمهم حماية لما يكنزون – ويفخر الواحد منهم بالغنى، في غير ما حياء – والحياء شعبة من الإيمان – وهو يعلم أن غناه هذا معر□ة، لأن الأمة الإسلامية ملأى بالصالحين أصحاب الحاجات..!!

فهؤلاء الفاسدون يجرون على سنة أسلافهم الذين لم يعرفهم الإسلام إلا منذ عهد معاوية ..!!

لقد عرفت الجاهلية صاحبات الرايات الحمراء اللائي يبعن الأعراض واللذات، وعرفت الأمة في عهد معاوية أصحاب الأهواء الذين يبيعون ضمائرهم، ويغلون في الثمن، ويبذلون عرضهم العلمي، وشرفهم الديني مقابل الأموال والضياع والمناصب ..!!

وهم شر سلف لشر خلف..!!

وهؤلاء هم الذين حاول الإمام علي أن يعظهم، وأن يذكرهم بتعاليم الإسلام .. وأفتاهم عشرات المرات أنه لا بأس بالغنى لمن اتقى .. وأنه ما من أحد يحرم زينة الحياة التي أخرج الله لعباده والطيبات من الرزق، وإذن فلا حاجة بهم إلى بيع ضمائرهم وشرفهم لكي يثروا..!! فأموال الفيء قد أصبحت بحمد الله وفيرة، وقد فتح الله على المسلمين بلادا غنية كثيرة، يأتي خراجها إلى بيت المال، وهذا المال حين يوزع بالسوية يكفي الجميع ..!! ولكنهم كعاهرات الجاهلية، يريدون أن يمتازوا..!! عجبا..!! ولم يمتازون ..؟!

والإمام الورع يقود المتقين والمساكين ليقر عدل الله في الأرض، وليجعل المساواة دستور الحياة، وإذ بمعاوية يفتن الناس ويرمي شباك الإغراء بالمال والمناصب والمتاع على ثقات علي .. ويجعلها قضيته: فيقسم بالله أن يجذب من علي ثقات علي، وأن يغلبهم بدنياه على دينه ..!!

من أجل ذلك انطلق أهل الفتيا في بطانة معاوية يخفون أحاديث ويضعون أحاديث نفاقًا لمعاوية، ليزدادوا ثراء ..! وعلي يحاول أن يثقف ثقاته ليزدادوا إيمانًا.

زعم علماء معاوية – وفي الحق أنهم كانوا علماء معاوية لا علماء الإسلام – زعموا – نفاقًا لمعاوية – أن رسول الله (ﷺ) قال لمعاوية: "اللهم قِهِ العذاب والحساب وعلمه الكتاب".

وإمعانًا في نفاق معاوية زيفوا حديثًا آخر: "آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين" وذلك ردًا على الأحاديث الشريفة الصحاح التي سمعها ثقات الصحابة:"

علي مِنِّي وأنا مِن علي، أنا ولي من والاه وعدو من عاداه..

اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه"..

وغضب رواة الحديث من ثقات الصحابة لهذا الاختلاق والبهتان، فأغضى علماء معاوية عن الحديث الذي ينكر ولاية علي .. وسكتوا عن الأحاديث التي تمدحه .. وروجوا للحديث الذي وضعوه في مدح معاوية ..!!

ثم أذاعوا عن النبي أنه قال: "من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له" .. واستندوا إلى هذا الحديث ليطالبوا الناس بالبيعة لمعاوية أمير للمؤمنين، بما أن أهل الشام بايعوه ..!

وتحسر عبد الله بن عمر لأنه لم يجاهد مع علي الفئة الباغية وهي معاوية وحزبه ..!!

وقد أحسن معاوية اختيار من يشاكله في حربه عليا، وساقت إليه المشاركة في المصالح الدنيوية، أدهى العرب وأمكرهم، وهو عمرو بن العاص الذي اعتمد عليه معاوية في الكيد لعلي، فانضمت طاقتان خارقتان من الدهاء والكيد، تواجهان طاقة خارقة من التقوى والورع والصلاح، وهي طاقة تتحرج من الدهاء وتعفّ عن الكيد..!!

ولقد أدلى عمرو مع الدهاة بدلوهم، وأسام سرح الكيد حيث أساموا، وبلغ من الحياة ما بلغ أمرؤ بكيده، فإذا هو في آخر العمر يجد عصارة كل ذاك أثاما ..!! وإنه ليبكي بعد أن بلغ من الكبر عتيا، وأدرك أنه ملاقٍ ربه فسائله عما صنع!

وإنه ليناجي ربه فيعترف بذنوبه.. وكلها ذنوب اشترى بها دنيا معاوية إذ يحارب دين علي!

قال عمرو باكيا: "اللهم إنك أمرتني فلم أأتمر، وزجرتني فلم أنزجر".

ثم إنه ليضع يده في موضع الأغلال التي ستكون يوم القيامة في أعناق المذنبين، ويتحسس عنقه، ثم يقول أسفًا: "اللهم لا قوي فأنتصر، ولا بريء فأعتذر، لا إله إلا أنت".

فقد أدرك عمرو أن دهاءه الذي استخدمه ضد علي، جر الدواهي على أمة محمد، فخشي ألا يفلت – بما أحدث هو ومعاوية – من عقاب الله.. فظل يبكي..!!

كان يشعر بالندم المعذب، كلما مرض، وأحس أن الحياة فانية، وأنه ملاق ربه فسائله، وأن كل ما جمعه من مال وضِياع، وكل ما اجتمع له من سلطان وهيبة وجاه، إنما هو باطل.. باطل الأباطيل، وقبض الريح ..!! وأن كل ما كاد به، وفرق به الأمة هو ومعاوية، وكل ما أسالا من دماء المسلمين، ذنوب عظام سيسأله عنها من لا تأخذه سنة ولا نوم، وهو شديد العقاب ..!!

دخل عليه ابن عباس في مرضه فسلم عليه وقال: "كيف أصبحت يا أبا عبد الله ..؟" قال عمرو: "أصبحت وقد أصلحت من دنياي قليلاً وأفسدت من ديني كثيرا، فلو كان الذي أصلحت هو الذي أفسدت، والذي أفسدت هو الذي أصلحت لفزت، ولو كان ينفعني أن أطلب طلبت، ولو كان ينجيني أن أهرب هربت، فصرت كالمنجنيق بين السماء والأرض لا أرقى بيدين، ولا أهبط برجلين ..! فعظني بعظة

أنتفع بها يا ابن أخي" فقال له ابن عباس: "هيهات هيهات يا أبا عبد الله ..!".

ودخل عليه ابنه عبد الله بن عمرو فوجده يبكي. قال عبد الله: "لِمَ تبكي ..؟ أجزعًا من الموت ..؟" قال عمرو: "لا والله ولكن لما بعده" فقال عبد الله: "قد كنت على خير" وجعل يذكره صحبة رسول الله (ص) وفتوحه الشام، فقال له عمرو: " تركت أفضل من ذلك شهادة أن لا إله إلا الله ..! إني كنت على ثلاثة أطباق ليس منها طبق إلا عرفت نفسي فيه: كنت أول شئ كافرا، فكنت أشد الناس على رسول الله (ص)، فلو متُّ يومئذ وجبتْ لي النار. فلما بايعت رسول الله (ص) كنت أشد الناس حياء منه، فما ملأت عيني من رسول الله (ص) حياء منه، فلو متُّ يومئذ قال الناس: هنيئًا لعمرو، أسلم وكان علي خير ومات على خير أحواله فترُجى له الجنة. ثم بليت بعد ذلك بالسلطان وأشياء، فلا أدري أعليَّ أم لي، فإذا متُّ فلا تبكينَّ عليَّ باكية ..!".

إلى هذا المدى بلغ الندم المعذب بعمرو بن العاص. ولكنه ندم اعتراه في سن الرابعة والثمانين، وهو على فراش

الموت، عندما أيقن أنه هالك، في آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة.

أما في صراعه مع علي، فكان كما قال من خلال دموع الندم، قد ابتلي بالسلطان وأشياء من الجاه والترف فأفسد الكثير من دينه ليصلح القليل من دنياه كما قال .. هو نفسه.

* * * *

وفي الحق أن عليا ومعاوية كانا يختلفان في كل شئ .. وكان الخلاف لصالح معاوية الذي أحسن اختيار رجال يلائمون العصر، إذ عرف معاوية اتجاه تيار العصر فسبح عليه؛ أما علي فواجه التيار..!

وكان علي قد رفع الكلفة بينه وبين أصحابه، فكل واحد منهم يستطيع أن يخاطبه وفي أي شئ .. أما معاوية فقد كان ملكًا وضع للبطانة والحاشية حدودا .. ولم يسمح لأحد بأن يطَّلع على سره.. وكان يتجهم في وجوه أصحابه إذا حاول أحدج منهم أن يجاوز معه ما رسمه له من حدود ..!كان علي يشجع الناس على أن يسألوه، والآخر يصدهم ليتهيبوه ....

كان علي يذرع شوارع الكوفة ماشيا أو على حمار، يرشد الناس، ويحذرهم من الوقوع في الشبهات .. سألوه: "وما الشبهة" قال: "إنما سميت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحق، فأما أولياء الله فضياؤهم منها اليقين، ودليلهم سمت الهدى، وأما أعداء الله فدعاؤهم فيها الضلال، ودعاؤهم العمى، فما ينجو من الموت من خافه، ولا يعطي البقاء من أحبه".

وكان دون معاوية أستار كثاف، وحجاب غلاظ، أما علي فهو يمشي في سوق الكوفة، يحادث الناس، ويسألهم ويسألونه، وينصح التجار.. ويقول لهم: "بيعوا ولا تحلفوا، فإن اليمين تنفق السلعة وتمحق البركة".

روى نافع بن أبي مطر: "خرجت من مسجد الكوفة فإذا رجل ينادي من خلفي: ارفع إزارك فإنه أنقى لثوبك، وأتقى لك، وخذ من رأسك إن كنت مسلما.. فمشيت خلفه وهو مؤتزر بإزار ومرتد برداء ومعه الدرة (عصا صغيرة)، كأنه أعرابي بدوي فقلت: من هذا ..؟ فقال لي رجل: أراك غريبا بهذا البلد، فقلت: أجل أنا رجل من أهل البصرة. قال: هذا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين".

ثم أتى أمير المؤمنين أصحاب التمر، فإذا فتاة تبكي فقالت: باعني هذا الرجل تمرا بدرهم فرده مولاي فأبى أن يقبله. فقال له علي: خذ تمرك واعطها درهمها فإنها ليس لها أمر، فدفعه الرجل في غلظة، فقلت لصاحب التمر: أتدري من هذا الذي تدفعه..؟! قال: لا. فقلت هذا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ..! فأخذ الرجل التمر فصبه وأعطاها درهمها، ثم قال: أحب أن ترضى عني يا أمير المؤمنين. قال: ما أرضى عنك إلا إذا أوفيت الناس حقوقهم.

ثم مر مجتازا بأصحاب التمر فقال: يا أصحاب التمر أطعموا المساكين [illegible] ([illegible]) كسبكم. ثم مر مجتازا ومعه المسلمون (المساكين) حتى انتهى إلى أصحاب السمك فقال: لا يباع في سوقنا سمك فاسد..".

وروى أحد أصحابه: "كان علي [illegible] يمشي في الأسواق وحده وهو خليفة، يرشد الضال، ويعين الضعيف، ويمر بالتجار فيفتح القرآن ويقرأ: ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا ﴾. ثم يقول نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس".

وروت امرأة من أهل الكوفة: "رأيت عليا اشترى تمـرا بدرهم فحمله فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ألا نحمله عنك ..؟ فقال: أبو العيال أحق بحمله".

وكان كرم الله وجهه يركب حمارا، ومـن حولـه الـذين يركبون الخيل والبغال المطهمة، ويدلى رجليه من علي ظهر الحمار إلى موضع واحد ويقول: أنا الذي أهنت الدنيا ..!!

وقابله رجل في الطريق وهو يحمل التمـر إلـى أهلـه، فأفرط في الثناء عليه وكان علي يتهم هذا الرجل، فقال لـه: "أنا دون ما قلت وفوق ما في نفسك" ....

وما كان يمكن أن يطوف معاوية بأسواق دمشـق، ولا أن يظهر للناس إلا في أبهى ثيابه الفاخرة، وما كـان يمكـن أن يتحدث معاوية مع أحد أو يحادثه أحد بمثـل اليسـر الـذي يتحدث به أمير المؤمنين الإمام علي وأصحابه.

* * * *

وشرد الإمام في الذين معه، وخشى عليهم الفتنـة، فقـد أخذت دنيا معاوية تغلبهم على دين محمد ..!!

ولقد التفت الإمام حوله ذات يوم، فوجد نفسه وحيـدا إلا من بعض ثقاته ...!

فدعا الناس إليه، فلما أتوه، وقف يخطب فقال: "الحمد الله فاطر الخلق، وفالق الإصباح، وناشر الموتى، وباعث من في القبور، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وأوصيكم بتقوى الله فإن أفضل ما توسل به العبد الإيمان، والجهاد في سبيله وكلمة الإخلاص، فإنها الفطرة، وإقام الصلاة فإنها الملة، وإيتاء الزكاة فإنها من فريضته، وصوم شهر رمضان فإنه ّنةٌ من عذابه، وحج البيت فإنه منفاة للفقر م حضة ٌ للذنب، وصلة الرحم فإنها مثراة في المال، ومحبة في الأهل، وصدقة السر فإنها تكفر الخطيئة وتطفيء غضب الرب، وصنع المعروف فإنه يدفع ميتة السوء ويقي مصارع الهول.

أفيضوا في ذكر الله فإنه أحسن الذكر، وأرغبوا فيما وعد المتقين فإن وعد الله أصدق الموعد، واقتدوا بهدي نبيكم (□)، فإنه أفضل الهدى، واستسنوا بسنته فإنها أفضل السنن، وتعلموا كتاب الله فإنه أفضل الحديث، وتفقهوا في الدين فإنه ربيع القلوب، واستشفعوا بنوره فإنه شفاء لما في الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أحسن القصص، وإذا قريء عليكم فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون، وإذا هديتم لعلمه

فاعملوا بما علمتم به لعلكم تهتدون، فإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الجائر الذي لا يستقيم عن جهله، بل لقد رأيت أن الحجة أعظم والحسرة أدوم على هذا العالم المنسلخ من علمه، عن هذا الجاهل المتحير في جهله، وكلاهما مضلل مثبور (خاسر هالك).

لا ترتابوا فتشكوا، ولا تشكوا فتكفروا، ولا ترخصوا لأنفسكم (تبيحوا لها ما لا يباح) فتذهلوا (تغفلوا)، ولا تذهلوا في الحق فتخسروا ...!

ألا وإن الحزم أن تثقوا، ومن الثقة ألا تغتروا، وإن أنصحكم لنفسه أطوعكم لربه، وإن أغشكم لنفسه أعصاكم لربه.

من يطع الله يأمن ويستبشر، ومن يعص الله يخف ويندم.

ثم سلوا الله اليقين وارغبوا إليه في العافية، وخير ما دام في القلب اليقين.

ثم سلوا الله اليقين وارغبوا إليه في العافية، وخير ما دام في القلب اليقين.

إن عزائم (فرائض) الأمور أفضلها، وإن محدثاتها شرارها، وكل محدث بدعة، وكل محدث مبتدع، ومن ابتدع

فقد ضيع، وما أحدث محدث بدعة إلا ترك بها سنة. المغبون من غبن دينه، والمغبون من خسر نفسه، وإن الرياء من الشرك، وإن الإخلاص من العمل والإيمان".

وأدار الإمام بصره فيمن يسمعون، فلم يجد بينهم المقاتلين! فقد انصرفوا عنه إلى مجالس اللهو الحلال، منذ عاد من صِفّين، وكأنهم بعد أن أشرفوا على الموت في الحرب أرادوا أن يعتصروا الحياة إلى آخر قطرة ..!

فكلما دعاهم الإمام إلى الجهاد، تثاقلوا أو تعللوا، وقليل منهم من خرج لقتال الخوارج بعزيمة صدق، أما الآخرون فقد آثروا أن يجلسوا إلى نسائهم وأبنائهم، أو إلى أصحابهم يسمرون ويتناشدون الأشعار، أو يتلذذون بالغناء وفنون اللهو المباح . ...

وبعد أن صمت الإمام ليتأمل وجوههم، وليتعرف على أثر موعظته فيهم وجد الأنظار شاردة، وصفحات الوجوه لا تعبر! فقال: "إن الرياء من الشرك، وإن الإخلاص في العمل من الإيمان، ومجالس اللهو تنسى القرآن ويحضرها الشيطان، وتدعو إلى كل غي، ومجالسة النساء تزيغ القلوب وتطمح الأبصار، وهي مصائد الشيطان، فاصدقوا الله فإن الله

مع من صدق، وجانبوا الكذب فإن الكذب مجانب للإيمان، ألا إن الصدق منجاة الله مع من صدق، وجانبوا الكذب فإن الكذب مجانب للإيمان، ألا إن الصدق منجاة وكرامة، والكذب هلكة، ألا وقولوا الحق تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، وأدوا الأمانة إلى من ائتمنكم، وصلوا أرحام من قطعكم، وعودوا بالفضل على من حرمكم، وإذا عاهدتم فاوفوا، وإذا حكمتم فاعدلوا، ولا تفاخروا بالآباء، ولا تنابزوا بالألقاب"..ولا

يغتب بعضكم بعضا، وأعينوا الضعيف والمظلوم والغارمين (المدينين) وفي سبيل الله وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وارحموا الأرملة واليتيم.

وأفشوا السلام وردوا التحية على أهلها بمثلها أو بأحسن منها ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وأكرموا الضيف، وأحسنوا إلى الجار، وعودوا المرضى، وشيعوا الجنائز، وكونوا عباد الله إخوانًا ....

ألا وإن القبر حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض

الجنة، ألا وإنه يتكلم كل يوم ثلاث مرات فيقول: أنـا بيـت

الظلمة، أنا بيت الدود، أنا بيت الوحشة، ألا وإن وراء ذلك يوما يشيب فيه الصغير، ويسكر فيه الكبير ﴿**وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**﴾، ألا وإن وراء ذلك ما أشد منه، هو

نار حرها شديد، وقعرها بعيد، ومقامعها حديد، وماؤها صديد، وخزنها مالك ليس فيه رحمة".. ثم بكى، وبكى الناس..!

ولقد تعود أن يقول وهو يعظ ثقاته وبطانته: "المسلم البريء من الخيانة بين إحدى الحسنيين إذا ما دعا الله، فما عند الله خير له، إما أن يرزقه الله مالاً فإذا هو ذو أهل ومال ومعه حسبه ودينه، وإما أن يعطيه الله في الآخرة، فالآخرة خير وأبقى. الحرث حرثان فحرث الدنيا المال والتقوى، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات. وقد يجمعهما الله تعالى لأقوام".

شتان ما بين هذا، وبين ما أخذ به معاوية بطانته وحاشيته ..!!

كان علي يكره لعماله أن يحتجبوا، وكان هو نفسه يلقى

الرعية في المسجد والسوق والطرقات ......

وكان دون معاوية حجاب وأستار.. كما كـان لكسـرى وقيصر..!!

ولقد تعود الإمام أن يكتب لمن يوليه من عماله: "أما بعد، فلا تحتجب عن رعيتك، فإن احتجاب الولاة عـن الرعيـة شعبة الضيق، وقلة علم بالأمور، والحجاب يقطع عنهم علـم ما احتجبوا دونه، فيضعف عندهم الكبير. ويعظم الصـغير، ويقبح الحسن، ويحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل، وإنمـا الوالي بشر لا يعرف ما يواري عنه الناس به من الأمـور، وليس على القوم سمات يعرف بها ضـروب الصـدق مـن الكذب، فإنما أنت أحد الرجلين: إما امرؤ شحت نفسك بالبذل في الحق ففيم احتجابك من حق واجب عليك أن تعطيـه ..؟ وخلق كريم تُسد به ..؟ وإما مبتلَى بالمنع والشح فما أسـرع زوال نعمتك، وما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا يئسـوا من ذلك، مع أن أكثر حاجات الناس إليك ما لا مؤنـة فيـه عليك من شكاية مظلمة أو طلب إنصاف، فانتفع بما وصفت لك، واقتصر على حظك ورشدك إن شاء الله".

كان رقيبا على سير الولاة، حريصا على عدلهم بين الناس: فلا يحابوا أحدا لمودة أو قرابة أو مصلحة .. وهذا كله غير ما يفعله معاوية.

كتب كرم الله وجهه إلى أحد عماله يؤنبه: "رويدا فكأن قد بلغت المدى، وعرضت عليك أعمالك بالمحل الذي ينادي المغتر بالحسرة، ويتمنى المضيع التوبة، والظالم الرجعة".

ومن عجب أن معاوية كتب إليه بعد صفين وخديعة التحكيم: "يا أبا الحسن إن لي فضائل كثيرة، وكان أبي سيدا في الجاهلية، وصرت أنا ملكًا في الإسلام، وأنا صهر رسول الله (ﷺ) ، وأخو أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكاتب الوحي".

فعجب علي لجرأة معاوية ..!! وقال: "أبا لفضائل يسخر علي ابن آكلة الأكباد ..؟!" ثم قال: اكتب يا غلام:

محمد النبي أخي وصهري	**وحمزة سيد الشهداء عمي**
وجعفر الذي يمسى ويضحي	**يطير مع الملائكة ابن أمي**
وبنت محمد سكنى وعرسى	**مسوط لحمها بدمي ولحمي**
وسبطا أحمد ولداي منها	**فأيكمو له سهم كسهمي ..؟!**
سبقتكموا إلى الإسلام طرا	**صغيرا ما بلغت أوان حلمي**

مسوط: مختلط.

وأرسل هذا الشعر إلى معاوية.

فأخفى معاوية كتاب علي، وكان كثيرا ما يخفى عن أهل الشام كتبا لعلي حذرا أن يطلعوا عليها فيدخل ما فيها عقول بعضهم، فيكتشفوا أنهم مخطئون ..!! قال معاوية: "اخفوا كتاب علي لا يقرؤه أهل الشام فيميلوا إلى ابن أبي طالب".

كان علي حينما يحدثه الناس عن ترف معاوية وبطانته يقول ساخرا: "من هوان الدنيا على الله أنه سبحانه يجيع المؤمن مع نفاسته، ويشبع الكلب مع خساسته! والكافر يأكل ويشرب، ويلبس ويتمتع، والمؤمن يجوع ويعرى، وذلك لحكمة اقتضتها حكمة أحكم الحاكمين ...!".

كان علي يأمر أصحابه أن يبروا جيرانهم، وأن يتحابوا في الله، ويسمى معاوية وصحبه: المتحابين في عمل المعصية.

ولقد أوصى الإمام أصحابه بقوله: "الله الله في الفقراء والمساكين، فأشركوهم في معايشكم.. قولوا للناس حسنًا كما أمركم الله، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".

كان علي يحرص على أمانة عماله، ويأخذهم بالشدة فـي رعاية حقوق الأمة، فإذا خافوا لحقوا بمعاوية، فجزاهم أحسن الجزاء، وأجزل لهم العطاء ..!! هكذا فر عامله على الري، بعد أن عزله علي وحبسه وعين عليه حارسا اسـمه سـعد، فغافله وفر إلى معاوية بما نهبه من مال وقال:

وخادعت سعدا وارتمت بي ركائبي   إلى الشام واخترت الذي هو أفضل

وغادرت سعدا نائما في غيابة   وسعد غلام مستهام مضلل

فلما أجزل له معاوية العطاء، وأقره على ما نهبه من بيت مال الري، قال:

أحببت أهل الشام من بين الملا   وبكيت من أسف على عثمان

وعلم عليٌّ أن عاملاً آخر من عماله أحب امرأة جميلـة، فجعل لها صداقا مائة ألف درهم، فأرسل إليه علـي: "ارفـع إلي حسابك ..!" ففر الوالي العاشق إلى معاوية بما نهب من الناس، ومن بيت المال، وأقره معاوية على ما نهبه، وكافـأه بسخاء ..!

وهكذا.. فر عن الإمام كبار اللصوص الذين نهبوا أموال الأمة فلحقوا بمعاوية .. وكانوا كلهم ولاة وأمراء ..! ياله ويا

للمساكين والمتقين من هؤلاء الأثرياء، الذين لا يريـدون إلا الترف ..!! قال قائلهم حين استقر عند معاوية بما نهبه مـن بيت المال وحقوق المسلمين، وبما أغدقه عليه معاوية بغيـر حق:

ألا مـن مبلــغٌ عني عليــاً بأني قد أمنت فلا أخـاف ..؟

وقد جاء إلى الإمام أحد أصحابه يطلب مالاً، وكانت لــه دالة عليه، وهو عبد الله ابن رفعة وهو أيضا من ذوي قرباه .. وكان معسرا، فقال له: "إن هذا المال ليس لــي ولا لــك، وإنما هو فيء المسلمين وجلب أسيافهم، فإن شـاركتهم فـي حربهم كان لك مثل حظهم، وإلا فجناه (جنى أيديهم) لا تكون لغيرهم".

وكان علي يستقصي المظالم فيردها.

اقترب الموسم، وشكا الناس إلى الإمـام أن أهـل مكـة يغالون في أجرة بيوتهم .. وهاله ذلـك ..!! إن رسـول الله (ﷺ) أمر أهل مكة ألا يـؤجروا بيـوتهم لحجـاج بيـت الله الحرام، وقد أخذهم عمر بالشدة، وحتم على كل صاحب دار

أن يترك فناء داره للحجاج، وأن يضيف من استطاع منهم بلا مقابل.

وأرسل أمير المؤمنين كرم الله وجهه إلى عامله على مكة قثم بن العباس: "أما بعد، فأقم للناس الحج، وذكرهم بأيام الله (التي عاقب فيها الأمم الغابرة على سوء العمل)، وأجلس لهم العصرين (أي صباحا ومساء)، فأفت المستفتي، وعلم الجاهل، وذاكر العالم، ولا يكن لك إلى الناس سفير إلا لسانك، ولا حاجب إلا وجهك، ولا تحجبن ذا حاجة عن لقائك بها، فإنها إن ذيدت (منعت) عن أبوابك في أول وردها لم تحمد فيما بعد على قضائها. وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قبلك (أي عندك) من ذوي العيال والمجاعة مصيبا به مواضع الفاقة والخلات (الحاجات)، وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيما بيننا".

ومر أهل مكة لا يأخذوا من ساكن أجرا، فإن الله سبحانه يقول: ﴿ **سواء العاكف فيه والباد** ﴾ فالعاكف المقيم به، والبادي الذي يحج إليه من غير أهله، وفقنا الله وإياكم لمحابه والسلام".

وقال له همام بن شرُيح وهو أحد النساك من أتباعه : "يا أمير المؤمنين صف لي المتقين حتى كأني أراهم" فتثاقل عن جوابه، ثم قال: " يا همام اتق الله وأحسن فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون".

فأصر همام إصرارا على أن يجيبه الإمام، وأقسم عليه أن يفصل له القول في صفة المتقين.

قال الإمام: "فإن الله تعالى خلق الخلق حين خلقهم غنيا عن طاعتهم، آمنا من معصيتهم، لأنه لا تضره معصية من عصاه ولا تنفعه طاعة من أطاعه، فقسم بينهم معيشتهم ووضعهم عن الدنيا مواضعهم، فالمتقون فيها أهل الفضائل منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم. نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء (أي أنهم في البلاء لا يجزعون فكأنهم في رخاء، وفي الرخاء لا يبطرون ولا يتجبرون فكأنهم في بلاء)".

ولولا الأجل الذي كتب عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقًا إلى الثواب، وخوفًا من العقاب، عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم

والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم النار كمن قد رآها فهم معذبون. قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة. صبروا أياما قصيرة أعقبتهم راحة طويلة. تجارة مربحة يسرها لهم ربهم.

أرادتهم الدنيا فلم يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها، أما الليل فصافُّون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا يحزنون به أنفسهم ويستثيرون به دواء دائهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا، وتطلعت نفوسهم إليها شوقًا، وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم ......

وقد خالطهم أمر عظيم، لا يرضون من أعمالهم بالقليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون، ولأعمالهم مشفقون، إذا زُكِّيَ أحدهم (مدحه أحد) خاف مما يقال له، فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم بي من نفسي، اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون.

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين، وحزم□ا فـي لين، وإيمانا في يقين، وحرصا في علم، وعلما فـي حلـم، وقصدا في غنى (القصد أي الاقتصاد) وخشوعا في عبـادة، وتجملاً في فاقة (التجمل: التظاهر باليسر) وصبرا في شدة، وطلبا في حلال، ونشاطًا في هدى، وتحرجا عن طمع، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يمسـي وهمـه الشـكر، ويصبح وهمه الذكر، يبيت حذرا، ويصبح فرحا، حذرا مـن الغفلة، وفرحا بما أصاب من الفضل والرحمة. إن استصعبت (لم تطع) عليه نفسه فيما تكره، لم يعطها سؤالها فيما تحـب، قرة عينه فيما لا يزول، وزهادته فيما لا يبقى. يمزج العلـم بالحلم، والقول بالعمل، تراه قريبا أمله، قليلاً زلُلـــه، قانعـة نفسه، منزورا (قليلاً) أكله، سهلاً أمره، حريـزا (حصـينـًا) دينه، ميتة شهوته، مكظوما غيظه، الخير منه مأمول، والشر منه مأمون ....

يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعـه، بعيدا فحشه، ليـّنا قوله، غائبا منكره، حاضرا معروفه، مقــبلاً خيره، مدبرا شره، في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور...

لا يضيع ما استحفظ، ولا ينسى ما ذكره، ولا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق ....

نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه، بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة، ليس تباعده بكبر وعظمة، ولا دنوه بمكر وخديعة".

وعندما انتهى الإمام من كلامه غشي على همام فقال الإمام: "أما والله لقد كنت أخافها عليه" ثم قال: "هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها".

فلما أفاق همام، أخذ الإمام يتفكر فيما انتهى إليه أمر الناس، وفيما مر به وبالأمة من أحداث، وفيما يحاصره من شدائد..

وصلى ركعتين .. وحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال: "يأتي على الناس زمن عضوض (شديد) يعض الموسر فيه على ما في يديه ولم يؤمر بذلك. قال الله سبحانه: ﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾، تنهد (ترتفع) فيه الأشرار، وتستذل الأخيار، ويبايع المضطرون، وقد نهى رسول الله (ﷺ) عن بيع المضطر..!!".

وحدثوه عن بطانة معاوية من الذين انسلخوا عن عملهم، كيف تحولوا إلى طلاب مال فكلما أغدق عليهم معاوية طلبوا المزيد، فقال: "منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال".. ثم قال: "طالب علم وطالب دنيا".

وقال: "ما كان الله ليفتح على عبدٍ باب الشكر ويغلق عنه باب الزيادة ولا ليفتح على عبد باب الدعاء ويغلق عنه باب الإجابة، ولا ليفتح على عبد باب التوبة ويغلق عنه باب المغفرة".

وقال: "كفاك من عقلك ما أوضح لك سبل غيك من رشدك".

وجلس في بعض الناس بالسوق، فمرت امرأة رائعة الجمال، فتطلعت إليها أبصارهم وظلوا يتابعونها بنظراتهم، فقال: "إن أبصار هذه الفحول طوامح، فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه فليلامس أهله، فإنما هي امرأة كامرأة" فقال رجل من الخوارج كان في الناس: "قاتله الله كافرا ما أفقهه!" فوثب القوم ليقتلوه فقال كرم الله وجهه: "رويدا إنما هو سب بسب، أو عفو بذنب!" (أي إما أن نسبه نظير سبه أو أعفو عن ذنبه).

* * * *

وفي الحق أن الخوارج لم يكونوا قد انتهوا بعد معركة النهروان .. لقد ضرب الإمام جمعهم في النهروان، ولكن الذين لم يتوافوا منهم إلى النهروان نجوا وانتشروا في البلاد، وعدلوا عن الهجرة إلى الجبال والخلوات، واندسوا في المجتمع، وغيروا مظهرهم الذي غلب عليهم، فأطالوا شعورهم وشواربهم وقصروا لحاهم، وكانوا من قبل يحلقون الرءوس ويطيلون اللحى ويحفون الشوارب.

لم يمض غير أسابيع قليلة على يوم هزيمتهم الساحقة في النهروان، ولقد مشى الإمام بعد المعركة حينئذ محزونًا بين قتلاهم، وكان منهم عدد من القراء، أهلكهم التطرف .. ونظر الإمام إلى عبد الله بن وهب وحرقوص وغيرهما وهم مجندلون في العراء تسفى عليهم الرياح السافيات، فاسترجع وقال: "بؤسًا لكم..! لقد ضركم من غركم..!" فسأله بعض أصحابه: "ومن غرهم يا أمير المؤمنين ..؟" قال: "الشيطان، والنفس بالسوء أمارة. غرتهم بالأماني وزينت لهم المعاصي، ونبأتهم أنهم ظاهرون. وقد تأولوا قول الله تعالى: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ وكذا التي بعدها .. ﴿ ...سقون ﴾ كما تأولوا

﴿ فَأُولَئِكَ
هُمُ الظَّالِمُونَ
﴾ و ﴿ اقا

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾".

ثم نهض الإمام ونهض القوم، فقال لهم وهو يتمشى في السوق: (قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً *الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) .. أولئك هم الخوارج ..

ومشى في السوق، فمر ببائع يحلف فقال له: " لا تحلف. ويل للصانع وويل للتاجر من (لا والله) و(بلى والله) ! يا معشر التجار، ألا إن كل يمين فاجرة تذهب بالبركة فاتقوا (لا والله) و (بلى والله). فقد كنا نتحدث أن التاجر فاجر وفجوره أنه يحلى السلعة بما ليس فيها. قال رسول الله (ص): اليمين الكاذبة منفقة (مروجة) للسلعة، ممحقة للربح..! واعلموا أن التاجر فاجر إلا من أخذ الحق وأعطاه. وقد قال رسول الله (ص) : ألا إن التجار هم الفجار، إلا من اتقى وبر وصدق. وقال : يا معشر التجار تحشرون مع الفجار إلا من اتقى ربه وصدق. كما أنه عليه الصلاة والسلام قال: التاجر الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء".

ولم يكد ينصرف من السوق حتى وجد أحد الخوارج يقف على جماعة من الناس يعظهم بأن من اقترف الكبيرة فقد كفر، وأن الصلاة والصيام لهما شروط صحة غير التي يعرفها الناس..

وإذن فلم تكن وقعة النهروان هي نهاية الخوارج ..!

لقد صدمه أحدهم الساعة حين قال: "قاتله الله كافرا، ما أفقهه!".

وهذا هو متطرف آخر يفتي الناس في أمور الدين فيقول عجبا ..!

إنهم مازالوا يجوسون خلال الديار، ويصور لهم التطرف والتعصب والإفراط في التدين أفكارا غريبة عن الدين، حتى لقد خالفوا بها الدين نفسه ..!!

فأصبح من واجب الإمام على، وهو إمام الهدى وولى كل مؤمن الآن أن يدحض كلام الخوارج، كما كان من واجبهوهو أمير المؤمنين أن يخوض حروبا ضد الخوراج وضد معاوية جميعا، دفاعا عن وحدة الأمة، وذيادا عن حوض الشريعة، وعن القيم الفاضلة التي جاء بها الإسلام، وعن مكارم الأخلاق التي بعث الله رسوله محمدا متمما لها..

زعم الخوارج أن مرتكب الكبيرة كافر، فشرح الإمام للناس، أن من نطق بالشهادتين وآمن بأركان الإسلام الخمسة لا يمكن أن يكون كافرا ..؟ وليس من حق أحد أن يحكم عليه بالكفر ..!!

فمن ترك الصلاة إهمالاً، مذنب عاصٍ فاسقْ، ولكنه ليس كافرا، إلا إذا أنكر أن الصلاة أحد أركان الإسلام ...! كذلك من منع الزكاة عن بخل لا عن إنكار، وكذلك من أفطر في رمضان عامدا متعمدا بغير عذر، أو من لم يحج وهو يستطيع إلى الحج سبيلاً، كسلاً منه أو بخلاً غير منكر أنه فرض واجب..!. فالذي يقصر في الفريضة غير الذي ينكر الفريضة نفسها ...!

وقد وضع الله حدودا لمرتكب الكبيرة يجب على ولي الأمر أن يقيمها، فإن لم يجد الحكم في الكتاب أو السنة، فقد وجب على أهل الذكر أن يستنبطوه .. وتحتم عليهم أن يعملوا العقل ليجدوا الحكم مستهدين بما في الكتاب والسنة من حكم لواقعة مشابهة، عندما تتشابه العلة أو الحكمة أو السبب، وبما تقتضيه مصلحة الأمة والعباد.

وزعم الخوارج أن نواقض الوضوء ليست هي الحدث المادي وحده، بل إن الحدث الروحي أيضا ينقض الوضوء، كالنميمة والاغتياب والكذب فهي تنقض الوضوء فلا صلاة لمن يرتكبها، وتفسد الصيام، فلا يقبل صيام مقترفها ....

وشرح الإمام للناس، أن نواقض الوضوء وما يفطر الصائم أوضحها الرسول على سبيل الحصر، فلا مجال للاجتهاد فيها، وأن الأحداث المعنوية الأخرى جرائم قائمة بذاتها، يعاقب الله عليها من يقترفها .. ويجب أن يتطهر منها القلب واللسان، ولكنها لا تنقض وضوءا أو تبطل صياما .. فالله يتقبل من العبد صلاته إن صلاها بشروطها، ويقبل الصيام ما لم يبطله شئ من المفطرات المادية، ويعاقب في الوقت نفسه من أساء بإساءته .. وما كان ربك نسيا، وهو لا يرفض الحسنى لأنها اقترنت بإساءة، فلكل عمل من أعمال الإنسان حسابه .. ولكل وازرة وزرها، ولا تزر وازرة وزر أخرى ...

ثم إن هؤلاء المتطرفين الخوارج أنكروا من القرآن كل الآيات التي تروي قصصا .. رفضوا قصص القرآن جميعا، والله يقول لرسوله: ﴿ نَحْـ نـ عَلَيْكَ أَ الْقَصَصِ بِمَا
قص حن

أَوحينا إِليك هذا القرآن وإن كُنتَ مِن قَبلِهِ لمن الغافلين ﴾

وهكذا انتهى بهم الإفراط في التدين إلى الطعن في الدين نفسه والتشكيك في القرآن ..! فقالوا إن سورة يوسف تروى قصة عشق، ولا يعقل أن تكون في التنزيل فالله تعالى لا يوحى إلى نبيه بقصص عشق ..!!

وهكذا صنعوا لأنفسهم قرآنا خاصا تداولوه سرا، ورفعوا منه كل القصص..!

وأفتى الإمام بأن هذا الذي يتداوله القراء المتطرفون الذين غلب عليهم اسم الخوارج ليس هو القرآن، ولكنه تزييف على القرآن، وافتراء على الله وأخذ ببعض الكتاب وترك أبي بكر، وقد أتم عثمان هذا العمل المجيد، ومصحف عثمان الذي أحرق ما عداه، هو وحده الذي يضم بين دفتيه القرآن الكريم، وليس من حق المسلم أن يقبل منه أو يرفض كما شاء له الهوى أو النزق أو التطرف أو الشطط ..!

* * * *

وهكذا وجد على نفسه بين الذين أحدثوا صدعا في الإسلام بالكلمة كهؤلاء المتطرفين الخوارج، والذين أحدثوا ثلمـا في الإسلام بالحركة كمعاوية..!! كلاهما سن سنة سيئة سيتحمل

وزرها ووزر من ساروا عليها إلى يوم القيامة: استن معاوية سنة عصيان الإمام وشق عصا الطاعة والخروج على الجماعة ..!! فلو لم يفرق الشمل، لما عرفت الأمة الإسلامية التمزق والفرقة والخلاف، بعد معركة الجمل..! إذ ندم كل قوادها الذين حاربوا عليا، وتمنوا لو أنهم ماتوا قبلها ..!!

ثم ها هم أولاء المتطرفون يخرجون على الأمة، ويبتدعون كلاما في الدين، يفتح باب خلاف فكري عريض، ويشق الأمة باسم حرية الفكر..! باسم الفكر يدفعون بالمسلمين إلى عشوات داجية يتخبطون فيها ..! ويغلقون باب التوبة أمام من عصى الله، وقد علم الناس أن الله يعفو عن التوابين..

وهكذا كتب على الإمام أن يناجز الخوارج بوصفه إماما للمتقين، وإماما للهدى، وأن يحارب بوصفه أميرا للمؤمنين معاوية وأصحابه ومن حوله من العلماء المرتشين الضالين المضلين المنسلخين عن العلم...

ورفض زعماء الخوارج أن يجادلوا عليا، ولكن عليا نهى عن الخوض فيما يخوض فيه الخوارج من كلام سدا لذرائع الفتن والمروق من الدين وإشاعة القنوط من رحمة الله في

النفوس فيزداد العصاة عصيانًا .. نهى عن الكلام في القضاء والقدر .. ونهى عن الكلام في المتشابه من آيات القرآن الكريم، ونهى عن تحكيم عقل الإنسان في غير ما يتقنه، فليس للعقل أن يرفض ما جاء في القرآن، ولكنه مطالب بأن يحسن استنباط الأحكام من نصوص القرآن ..

ولكن من القراء الخوارج، من كان يحب أن يتفقه في الدين، ومن رفض أن يجعل للعقل سبي ًلاعلى القرآن فيأخذ بعضه ويدع بعضه، بدلا ً من أن يكون القرآن هاديا للعقل .. ومن هؤلاء نافع بن الأزرق.

وقد ذهب إلى عبد الله بن عباس يسأله في القرآن، لا منكرا لقصصه أو لبعض آياته، بل ليتفهم معانيه.

وعبد الله بن عباس هو أنبغ تلاميذ الإمام، وأفقههم بالقرآن والسنة والشعر وأيام العرب وسائر المعارف في عصره، وكان ينتجعه شداة العلم يسألونه عن القرآن ومعانيه..

سأله ابن الأزرق عن قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ** ﴾. قال ابن عباس: "وما جمع" قال : "أتعرف ذلك العرب..؟" قال ابن عباس: "أما سمعت قول الراجز:

(قلائص : جِمال صغيرة. حقائق : جمع حقة وهي من الإبل التي استحقت أن يحمل عليها. مستوسقات : مجتمعات يقال استوسق القوم إذا اجتمعوا)".

وسأله: "أرأيت نبي الله سليمان عليه السلام مع ما خوله الله وأعطاه كيف عني بالهدهد على قلته وضؤولته..؟!" قال له ابن عباس: "إنه احتاج إلى الماء والهدهد يرى باطن الأرض كظاهرها، فسأل عنه لذلك" قال ابن الأزرق: "كيف يبصر باطن الأرض والفخ يغطي له بمقدار أصبع من تراب فلا يبصره حتى يقع فيه ..؟" فقال ابن عباس: "ويحك يا ابن الأزرق ..! أما علمت أنه إذا جاء القدر عشى البصر ..؟".

هكذا انشغل الإمام بإقامة العدل وتوفير الراحة للرعية، وتنوير العقول بالعلم، وإعمار القلوب بالتقوى، ومقاومة الأطماع بذكر الله.

أما معاوية، فقد عاد من ن قِّيدإلى قصره الباذخ الضخم

في دمشق، والناس يسلمون عليه بالخلافة، ويبجلونه كما

تبجل الروم أباطرتها، وهو يقول مزهوا: "أنا أول ملك في الإسلام ..!".

وأمر الناس أن يسبوا عليا على المنابر، وأن يتهموه بالكذب، ولكن أحد العلماء الذين انسلخوا من علمهم ليكونوا من صنائع معاوية، نصحه ألا يفعل ذلك كي لا يستثير عداء الناس، فقد علم الناس أن رسول الله (ﷺ) قال: "علي منـي وأنا من علي وهو ولي كل مؤمن بعدي" فقال معاوية: "إنما نلعن أبا تراب، فإن قال الناس: من أبو تراب، فقولوا: هو رجل من بني عبد مناف ...!".

ولام سعد بن أبي وقاص معاوية لأنه يلعن عليا، وقال لمعاوية أمام بطانته: "إن يوما واحدا من علي أفضل من معاوية حيا وميتا ..!" فقال معاوية: "وما يمنعك أن تسب أبا تراب ..؟" فقال سعد: "ثلاث قالهن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من أن يكون لي حمر النعم، فلن أسبه، سمعت رسول الله (ﷺ) يقول وقد خلفه في بعض المغازي فقال له علي: يا رسول الله تخلفني مع النساء والصبيان ..؟ فقال له الرسول (ﷺ): أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي

بعدي..؟ وسمعته يقول يوم خيبر لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فتطاولنا إليها، فدعا عليا فدفع الراية إليه ففتح الله عليه. وأنزلت هذه الآية: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾ فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليا وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال : "اللهم هم أهلي".

ثم أضاف رجل من أنصار سعد: "قال رسول الله لعلي: لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق".

ثم إن معاوية دعا جماعة من ثقاته فيهم عمرو بن العاص السهمي، وبشر بن أرطأة العامري، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي، وحبيب بن مسلمة الفهري، وكلهم من قريش، ودعا ثلاثة من غير قريش فيهم. شرحبيل بن السمط الحميري. فقال لهم معاوية: "أتدرون لماذا دعوتكم ..؟" قالوا: "لا" قال: "فإني دعوتكم لأمر هو لي مهم، وأرجو أن يكون الله عز وجل قد أعان عليه" فقال رجل منهم: "إن الله لم يطلع على غيبه أحدا ولسنا ندري ما تريد ..!".

فوثب عمرو بن العاص بجسده النحيل فقال: وقد التمعت عيناه: "أرى واالله أمر هذه البلاد المصرية قد أهمك لكثرة

خراجها وعدد أهلها. فدعوتنا تسألنا عن رأينا في ذلك، فإن كنت لذلك دعوتنا، وله جمعتنا فاعزم واحزم ونعم الرأي ما رأيت ..! إن في افتتاحها عزك وعز أصحابك، وذل عدوك، وكبت أهل الخلاف عليك".

فقال معاوية: "أهمك ما أهمك يا ابن العاص، وما أهمك إلا مصر". والتفت معاوية لأصحابه وقال: "إن ابن العاص قد ظن وحقق ظنه. أما بعد فقد رأيتم كيف صنع الله لكم في حربكم هذه على عدوكم ..! ولقد جاءوكم وهم لا يشكون أنهم يستأصلونكم ويحوزون بلادكم، وما كانوا يرون إلا أنكم في أيديهم، فردهم الله بغيهم لما ينالوا خيرا، وكفى الله المؤمنين القتال، وكفاكم مؤنتهم، وحاكمتموهم على الله فحكم لكم عليهم، ثم جمع كلمتنا، وأصلح ذات بيننا، وجعلهم أعداء متفرقين، يشهد بعضهم على بعض بالكفر ويسفك بعضهم دماء بعض، والله إني لأرجو أن يتم الله لنا هذا الأمر، وقد رأيت أن أحاول حرب مصر فما ترون ..؟".

فوافقوه جميعا، وقال عمرو: "إني مشير عليك بما تصنع: أرى أن تبعث جيشًا كثيفًا، عليه رجل صارم، تأمنه وتثق به، فيأتي مصر فيدخلها فإنه سيأتينا من كان على مثل رأينا من

أهلها، فنظهره على من كان من عدونا، فإن اجتمع بها جندك ومن كان بها من شيعتك على من بها من أهل حربك، رجوت الله أن يعز نصرك".

ولكن معاوية رأى أن يتأنَّى، ويرسل إلى من بها من أنصاره يمنيهم بقدومه، ويدعوهم إلى الانتفاض على محمد بن أبي بكر، ويرسل إلى من كان بها من عدوه، يدعوهم إلى الصلح، ويرشوهم بالأموال الطائلة، ويخوفهم الحرب، ويمنيهم المناصب الكبرى، فإن استقام الأمر بلا قتال فخير، وإلا فهي الحرب ....

ولكن ابن العاص كان في عجلة من أمره لتكون مصر طعمة له كما تعاقد مع معاوية منذ تحالفا ضد علي.

فقال معاوية: "إنك يا عمرو لامرؤ بورك لك في العجلة، وبورك لي في التؤدة ..!" فقال عمرو: "فاعمل بما أراك الله، فوالله ما أرى أمرك وأمرهم يصير إلا إلى الحرب..!".

فأرسل معاوية بن أبي سفيان إلى معاوية بن حُديج الكندي ومسلمة بن مخلد الأنصاري، وهما قائدا أنصاره الذين لم يبايعوا عليا واعتزلوا بخربتا بإقليم البحيرة يأمرهما بالثورة، ويعدهما بإرسال جيش كثيف يساعدهما، ويمنيهما بجاه

كبير.. إذ يقول لهما : "إن الله قد ابتعثكما لأمر عظيم؛ لأعظم من أجركما، وأرفع درجتكما ومرتبتكما بين المسلمين".

ولم يكد الكتاب يصل إلى خربتا حتى ثار من كانوا بها من أنصار معاوية، فأرسل محمد إليهم حملة فقتلوا قائدها، وأتبعها بحملة أخرى فقتلوا قائدها، ونفروا في عشرة آلاف مقاتل يريدون الوثوب على محمد في الفسطاط عاصمة مصر..!

غير أن عمرو بن العاص، لم يكن سعيدا بهذه التؤدة في الحصول على مصر .. فقد كان دائما في عجلة من أمره في شأن مصر. إنه ليعرف مصر منذ كان تاجرا كبيرا في الجاهلية، ولقد زار الإسكندرية مرة في إحدى رحلاته التجارية، فصادف حضوره يوم الزينة. وفي هذا العيد كان أبناء الملوك يجتمعون ويلعبون بكرة يتقاذفونها فيما بينهم، وزعموا أن من تقع الكرة في حجره، يملك الإسكندرية. وجلس عمرو بين المشاهدين فإذا بالكرة تقع في حجره ..!! فعجب أبناء الملوك لأمر الكرة، وقالوا: "ما كذبتنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة، وأنى لهذا الأعرابي أن يملك الإسكندرية..؟ هذا والله لا يكون ..!".

ولكنه كان ..!

فقد أسلم عمرو بن العاص، حتى إذا فتح المسلمون بلاد الشام كان عمرو أحد قواد تلك الفتوحات العظمى، فلما استقر المسلمون في الشام، والشام حنيئذ هو سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، وأصبح عمرو والي فلسطين على حدود مصر، أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستأذنه في فتح مصر .. قال: "إني عالم بها وبطرقها، وهي أقل شئ منعة، وأكثر أموالاً" ولكن عمر عزف عن مواجهة الروم في مصر بعد أن كسرهم في كل بلاد الشام .. غير أن ابن العاص عاد يزين له الأمر، ويؤكد له أن أمر الروم في مصر أهون منه في بلاد الشام.

ثم إن ابن العاص أمر أصحابه أن يتسللوا من فلسطين إلى مصر.. فكتب إليه عمر ابن الخطاب كتابا تلقاه وهو يقرع باب العريش، فلم يفض الكتاب حتى دخل باب العريش، وأصبح في أرض مصر فإذا في الكتاب: "من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص. فأما بعد فإنه بلغني أنك سرت ومن معك إلى مصر، وبها جموع الروم، وأن من معك نفر يسير، ولعمري لو كانوا من ذوي رحمك ما تقدمت

ولما عرضتهم للهلاك ..! فإذا جاءك كتابي هذا، فإن لم تكن بلغت مصر فارجع" فقال عمرو: "الحمد الله" وأشهد الناس، فسألهم: "أي أرض هذه" قالوا: "مصر" فتقدم إلى الفرما (وكانت تقع شرقي بورسعيد الحالية) فلقي بها جموع الروم فهزمهم، وتقدم حتى بلغ قرية" أم دنين" (وكانت تقع شمالي حصن بابليون، ومكانها الآن حي الأزبكية في القاهرة) فاستعر القتال، ولم ينتصر أحد الجانبين فأرسل إلى عمر بن الخطاب يطلب منه مددا، فأرسل إليه الزبير بن العوام في اثنى عشر ألفًا..

ثم بلغ حصن بابليون (في مصر القديمة حاليا) وهو معقل منيع، فحاصر الحصن سبعة أشهر، حتى فتحه. وكان قد أقام فسطاطًا خارج الحصن أثناء الحصار، فلما سقط الحصن ورأى أن يزحف إلى الإسكندرية، أمر أن يقوضوا الفسطاط، ولكنه وجد يمامة اتخذت عشها في أعلى الفسطاط، فباضت، فقال: "لقد تحرمت بجوارنا. أقروا الفسطاط حتى تنقف فراخها وتطير (تنقف : تخرج من البيض). " فسمى المكان بالفسطاط، وفيه بنَى عمرو مساكن له ولجنده، وأنشأ أول مسجد في أفريقية، وجعل الفسطاط عاصمة لمصر.

ثم زحف عمرو إلى الإسكندرية فافتتحها، ثم إلى برقة وطرابلس .. وولى عمر ابن الخطاب على مصر وبرقة وطرابلس عمرو بن العاص، ولكنه ولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري على صعيد مصر. فلما قتل عمر وبويع عثمان، سأله عمرو أن يعزل ابن أبي سرح عن الصعيد ، لخلاف اشتجر بينهما، ولكن عثمان عزل عمرو بن العاص، وولى مكانه ابن أبي سرح على مصر كلها. فغزا أفريقية، وهزم الروم في أول معركة بحرية خاضها المسلمون، وهي غزوة ذات الصواري قرب الشواطيء الجنوبية لآسيا الصغرى، وكان الروم بقيادة قسطنطين بن هرقل في ألف مركب والمسلمون بقيادة ابن أبي سرح في مائتي مركب، فسميت ذات الصواري لكثرة ما فيها من صواري السفن.

ولم يفلح عمرو في إقناع عثمان بإعادته إلى مصر، فأقام في فلسطين، يحرض على عثمان، حتى إذا قتل عثمان، أرسل إليه معاوية يستنصره ويحذره من علي الذي سيجرده من أمواله وضياعه إن هو لم ينهض لمقاومته مع معاوية وأهل الشام ...

حتى إذا التقى معاوية وعمرو، اشترط عمرو أن تكون له مصر طعمة أي مأكلة يأكلها خالصة لـه، يسـتأثر وحـده بخراجها. فلما آلت الأمور إلى ما آلت إليـه، وسـقط مـن المسلمين من جيش معاوية نحو سبعين ألف قتيـل، وانتهـى الأمر إلى التحكيم، وخديعة عمرو أبا موسى الأشعري طاب لعمرو أن يستنجز معاوية وعده .. وما كان معاوية في حاجة إلى ما يذكره فقد كانت مصر أهم له من الشام لكثرة أهلهـا، ولحرصه على تأمين حدوده الجنوبية، ولأنه كان يعرف أنـه إن ملك مصر، فقد أنهى معركته مع علي بانتصـار كبيـر. فمن يملك مصر يملك العرب ..!

فلما وصل كتاب معاوية إلى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حُديج ردا عليه: "أما بعد، فإن هذا الأمر الذي قد نـدبنا لــه أنفسنا، وابتغينا الله به على عدونا، أمر نرجو به ثواب ربنا، والنصر على من خالفنا، وتعجيل النقمة على من سعى على إمامنا عثمان بن عفان .. وقد ذكرت مؤازرتك في سلطانك وذات يدك، وبالله إنه لا من أجل مال نهضنا، ولا إياه أردنا، فإن يجمع الله لنا ما نريد ونطلب، أو يرينا ما تمنينـا، فـإن الدنيا والآخرة لله رب العالمين، وقد يثوبهما الله جميعا عالما

من خلقه، كما قال في كتابه: ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾. عجل لنا بخيلك ورجلك فإن عدونا قد كان علينا جريئًا، وكنا فيهم قليلاً، وقد أصبحوا لنا هائبين، وأصبحنا لهم منابذين، فإن يأتنا مدد من قبلك يفتح الله عليك، ولا قوة إلا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل".

كان سلوك ابن مخلد وابن حُديج هو السلوك الشائع عند كل من رشاهم معاوية، فهم يفرحون للرشوة ولكنهم، يرددون الكلمات نفسها : أنهم إنما ينضمون إليه لينتقموا ويثأروا لعثمان، وأنهم ما من أجل مال أو جاه نهضوا، ولا أرادوا مالاً أوجاهاً ولكن إن جمع الله لهم المال والجاه، وأنالهم ما تمنوا فلا بأس، وهو ثواب من الله ..!! ثم يتأولون آية كريمة من القرآن كما تأولوا غيرها .. ويذهبون إلى أن الله قد يثيب أقواما في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ..!

هكذا كان رأي المرتشين في الرشوة : أنها ثواب الدنيا.. رأي كل المرتشين من أهل الحرب، وأهل العلم ..!! وما

أو ل لهم ما تأو لوه من القرآن الكريم، وما قدم لهم الفتيا التي

تجيز لهم الرشوة، إلا أهل العلم من صنائع معاويـة، وهـم الذين وصفهم الإمام بأنهم شر من الجهلاء، فالجاهل له عذره من جهله، أما هم فيعملون بغير ما يعلمون، ويجعلون الحـق مطية للباطل، ويتسكعون بآيات الهدى في وديان الضلال..!!

عندما بلغ معاوية رد شيخ أنصاره في مصر، اسـتدعى عمرو بن العاص فقال له : "تجهز يا أبـا عبـد الله" فعجـل عمرو بإعداد جيش من ستة آلاف مقاتل، مؤمنًا بأن الله قـد بارك له في العجلة كما زعم له معاوية ..!

فلما تقدم عمرو بجيشه، قام محمد بن أبي بكر في النـاس فقال بعد حمد الله والثناء عليه: "أما بعد، يا معشر المؤمنين، فإن القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمة، ويفشـون الضـلالة، ويستطيلون بجبروتهم، قد نصبوا لكم العداوة وساروا إلـيكم بالجنود، فمن أراد الجنة والمغفرة فليخرج إلى هؤلاء القـوم فليجاهدهم في الله. فخفوا إليهم رحمكم الله مع كنانة بن بشر".

وبعث محمد جيشًا من ألفي رجل هم طليعة جنده وعلـى رأسهم كنانة.

ومضى هو خلفهم في ألفين آخرين .. فهؤلاء هم كل مـا تيسر لمحمد بن أبي بكر جمعهم من جند مصر..!!

لقى عمرو بن العاص كنانة في مقاتليه الأشداء .. وآثر عمرو بن العاص وكان قائدا ماهرا محنكاً ألا يقابل كنانة، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله .. وهو يعرف أن من نفر إلى الحرب مع كنانة ومحمد، إنما نفروا حرصا على النصر أو الشهادة، ولن يفر أحد منهم حتى يظفر أو يستشهد، أما الذين زحف بهم عمرو من الشام، فقد جاءوا طمعا في العطاء المضاعف، وخيرات مصر، والاستمتاع بالدنيا ..!

وعمرو لا يجهل الفرق بين من يحارب للجنة، ومن يحارب لمتاع الحياة الدنيا .. وهو نفسه قد عرف هذا الشعور الذي يمنح المقاتل قوة لا تقهر، حين حارب تحت راية الإسلام .. جنود الروم من قبل ببعض بلاد الشام .. وعلى هذه الأرض الطيبة نفسها : أرض مصر.

وسرح عمرو الكتائب إلى كنانة فهزمها كنانة كتيبة بعد كتيبة..!

واستنجد عمرو بمعاوية بن ُهيج السكوتي ومسلمة بن مخلد الأنصاري، حيث كانا غير بعيدين من الفسطاط في عشرة آلاف جندي..

فأتيا كنانة وجنده من المؤخرة وزحف عمرو بجند الشام على مقدمة كنانة، فلما رأى كنانة أنه قد حوصر بين عشرة آلاف بقيادة ابن حُديج وستة آلاف بقيادة عمرو، نزل عن فرسه، وأمر أصحابه الألفين أن يترجلوا جميعا. وقرأ: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾.

فقاتل برجاله حتى أحدثوا في جند الشام مقتلة عظيمة.. ولم تتوقف الحرب حتى قتل كنانة نفسه، وتمزق رجاله، ما بين قتيل وجريح وأسير .. وإذا بجند محمد بن أبي بكر يفرون عنه ناجين بأنفسهم، ملتمسين جاه الحياة الدنيا عند عمرو ومعاوية..!

أما محمد فقد لجأ إلى خربة فاختفى فيها .. ولكن ابن حُديج ظل يبحث عنه، حتى عرف مكانه، وكان ذلك النهار شديدالحرارة. فذهب ابن حُديج مع ثلة من الجند، إلى الخربة فوجدوا محمدا يكاد يهلك عطشاً وإعياء فسألهم الماء، فأباه ابن حُديج عليه .. وجاءوا به إلى الفسطاط، فوثب أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو فقال في غضب عارم: "لا والله لا يقتل أخي صبرا ..!" فقال معاوية: "أقتلتم كنانة بن بِشر ابن عمي وأخلى عن محمد ..! هيهات ..! ﴿ أَكُفَّارُكُمْ

َخ هـ ُأَ لـ َأ ار ةٌ فِي الـ زبـرِ ﴾ صـدق الله
ِ أُكـ لكُم ..؟ب

العظيم".

وألح العطش على محمد فقال: "اسقوني قطرة ماء!" فقال له ابن ُهيج: "لا سقاني الله إن سقيتك قطرة أبـدا ..! إنكـم منعتم عثمان أن يشرب الماء، حتى قتلتموه صائما محرمـا، فسقاه الله من الرحيق المختوم، والله لأقتلنك يا ابن أبي بكـر وأنت ظمآن ويسقيك الله من الحميم ..!" فقال محمد: "يا ابـن اليهودية النساجة، ليس ذلك اليوم إليك..! إنما الله الذي يسقى أولياءه ويظمـيء أعداءه وهم أنت وقرنـاؤك ومـن تـولاك وتوليته، واالله لو كان سيفي في يدي ما بلغتم مني ما بلغـتم ..!" فقال ابن ُهيج: "أتدري ما أصنع بك ..؟ أدخلك جـوف حمار ميت ثم أحرقه عليك بالنار..!".

فقال محمد: "إن فعلتم ذلك بي فطالما فعلتم ذلك بأوليـاءالله،

وأيم الله إني لأرجو أن يجعل الله هذه النار التي تخوفني بها بردا وسلاما على، كما جعلها على إبراهيم خليلـه، وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك كما جعلها على نمرود وأوليائه، وإني لأرجو أن يحرقك الله وإمامك معاوية وهذا – وأشـار

إلى عمرو بن العاص – بنار تلظَّى، كلما خبت زادها الله سعيرا"..

فقام ابن ُهيج محنقاً فضرب عنق محمد بسيفه .. ثم أدخل جسمه في جوف حمار ميت بوحشية باردة عجيبة ..!! ثم أحرقه بالنار، ووقف يتلهى ويتلذذ، ويمنِّى نفسه بما وعده به سيده معاوية بن أبي سفيان من عطاء ضخم ومنصب كبير، ورفع عقيرته يسب الإمام عليا، سبا منكرا وينظر على من حوله عسى أن يبلغوا ابن أبي سفيان بإخلاص ابن ُهيج له ..!!

وأرسل ابن ُهيج رأس ابن أبي بكر إلى ابن أبي سفيان..!! لكأن الآباء يعودون : كل بفجوره أو تقواه..!! فلما جاءوا ابن أبي سفيان برأس محمد بن أبي بكر .. أمر أن يطاف به في دمشق. فكان أول رأس طيف به في

الإسلام..!! وحين علمت عائشة ما حدث لأخيها كظمت غيظها حتى

نزفت د ها ثم بكت أحر بكاء، وصرخت تلعن معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن خُديج ..! وضمت

إليها أولاد محمد، وحرمت على نفسها الشواء أبدا، فلم تأكله حتى توفيت.

وظلت كلما تعثر قدمها تقول: "تعسا لمعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن حُديج ..! وتعودت أن تدعو عليهم عقب كل صلاة".

***

وجاء عليا رجلان ينعيان إليه محمدا، أما أحدهما فقد جاء من مصر، يتحدث باكيا عما أصاب محمدا، وأما الآخر فقد جاء من الشام يروي عجبا مما رآه في الشام.

فقد صعد معاوية منبر المسجد الجامع في دمشق فأذن في فرح عظيم بقتل محمد بن أبي بكر.. وكأنها بشارة كبرى يبشر بها أهل الشام ..!! بقتل محمد..!! ثم قريء كتاب عمرو إلى معاوية، وفيه: "أما بعد، فإنا لقينا محمد بن أبي بكر وكنانة بن بِشر في جموع جمة من أهل مصر، فدعوناهم إلى الهدى والسنة وحكم الكتاب، فرفضوا الحق، فجاهدناهم، واستنصرنا الله عليهم، فضرب الله وجوههم وأدبارهم، ومنحونا أكتافهم، فقتل الله محمد بن أبي بكر

وكنانة بن بِشر وأماثل القوم. والحمد الله رب العالمين. والسلام".

وقال صاحب علي الذي جاء من الشام لعلي: "واالله يا أمير المؤمنين قلما رأيت قط قوما أسر، ولا سرورا قط أظهر من سرور رأيته بالشام حين أتاهم هلاك محمد بن أبي بكر" فقال علي : "أما أن حزننا عليه على قدر سرورهم به، لا بل يزيد أضعافًا ..!".

فأرسل علي إلى مالك بن كعب الذي كان قد أرسله لينجد محمدا في ألفي رجل، فرده قبل أن يبلغ مصر، ويهلك بجيشه .. فما يجدي ألفا رجل أمام نحو ستة عشر ألفًا أو يزيد..!!ثم

وقف علي يخطب الناس: "ألا وإن مصر قد افتتحها الفجرة أولياء الجور والظلم، الذين صدوا عن سبيل الله، وبغوا الإسلام عوجا. ألا وإن محمد بن أبي بكر قد استشهد رحمه الله، وعند الله نحتسبه، أما واالله لقد كان ما علمت ينتظر القضاء، ويعمل للجزاء، ويبغض شكل الفاجر، ويحب سمت المؤمن، إني واالله لا ألوم نفسي على تقصير ولا عجز، وإني بمقاساة الحرب لجد بصير، إني لأقدم على الحرب، وأعرف وجه الحزم، وأقوم بالرأي المصيب، فأستصرخكم

معلنًا، وأناديكم مستغيثًا، وجه الحزم، وأقوم بالرأي المصيب، فأستصرخكم معلنًا، وأناديكم مستغيثًا، فلا تسمعون لي قولاً، ولا تطيعون لي أمرا، حتى تصير الأمور إلى عواقب المساءة. دعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة .. فتثاقلتم على الأرض تثاقل من لا نية له في الجهاد، ولا رأى له في الاكتساب للأجر، ثم خرج إلى منكم جنيد (تصغير جند) متذائب (مضطرب) ضعيف، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ..! فأفٌّ لكم..!".

ثم عاد إلى داره محزوناً مهموما محسورا ..!!

لماذا يحدث كل هذا..؟! بأي سحر من متاع الحياة الدنيا أصبح رجال معاوية أطوع له من بنانه وهو يركض بهم في الباطل، إذ أنت تقود رجالك إلى الهدى يا علي ..؟ فبأي فزع من وطيس الحرب ينفضون عنك ..!!

لماذا يحدث هذا كله..؟!

ما كنت تريد الخلافة، ولكنهم تكاثروا عليك حتى قهروك..

وها هو ذا سيفك ذو الفقار الذي حطم هامات الشرك، لم يعد يرتفع بعد ليشق بوجهه ظلمات الجهل في بلاد كنت

ترجو أن يفتحها الله على المسلمين، وينقذ أهلها بالإسلام مما يعانونه من هوان ..!!

كم من الأبطال الصناديد استشهدوا في هذه الحروب بين أهل القبلة ..؟! ثلاثون ألفاً يوم الجمل، وسبعون ألفاً يوم صفين. ومئات يوم النهروان ..!! أكثر من مائة ألف قتيل لم يشرق بدمائهم فجر الهدى على بلاد تغشاها ظلمات الضلال .. ولكنها جميعا مهج مسلمين..!! لو

أن هذه الآلاف المؤلفة التي احتشدت يوم الجمل وفي وقعة صفين والنهروان، تحركت تحت راية واحدة هي راية الإسلام، وخلف إمام واحد هو الذي بايعه المهاجرون والأنصار، فزحفوا شرقاً وغربا، لأضاءوا بالإسلام دنيا الإنسان جميعا .. أما كان ذلك أفضل من هذا التمزق، وهذه الفتنة التي يسقط فيها خيرة حملة القرآن، والدعاة والشجعان والهداة والمتقون ..!!؟

لقد سننت هذا الشقاق يا معاوية ..! أميران للمؤمنين في زمن واحد ودولة واحدة ابتدعت هذا الخلاف بين الأمة الإسلامية، فلتتحمل أمام الله وزر هذه السنة، التي سيتبعها بعدك خلفٌ كثيرون، ويمزقون ويفرقون هذه الأمة العظيمة

إلى دويلات متناحرة أو متنافرة،وإذ هم يصبحون شتى مختلفين ويمسى بأسهم بينهم شديدا ..!!

لئن تمزقت هذه الأمة يا علي، فلن يجتمع شملها آخر الدهر!

ستظل متفرقة أبدا .. ولكنه قدرك يا إمام المتقين وإمام المساكين، أن تخوض الغمرات وتكابد الأهوال الشداد، لكي ترأب الصدع الذي أحدثه معاوية بطمعه الخادع المخدوع في الملك ..!! ولكن .. بمن من الرجال تنهض الآن ..!! أبهؤلاء ..؟! يا للرجال..!!

وشعر علي بأنه يريد أن يبث شكواه إلى قلب كبير عزيز عليه.. أين أنت يا رسول الله (ص) ..؟!! أين أنت يا أبا بكر..!! يا عمر..!! يا عمار..!! يا سلمان .. يا أبا ذر..!! أين أنت أيتها الصديقة الحبيبة فاطمة الزهراء..!! ما عاد لك أحد بعد يا علي تستطيع أن تلقي برأسك على كتفه وتبكي ..!! أواه يا ابن أبي طالب..!! آه من قلة الزاد وبعد السفر..!!

لم يعد من أحبائك إلا القليل..!! ومن تستطيع أن تبثه شكواك منهم أقل من القليل ..!!

وكتب الإمام إلى ابن عمه ووزيره وتلميذه وصديقه، عامله على البصرة عبد الله ابن عباس: "سلام عليك ورحمة الله وبركاته. أما بعد، فإن مصر قد افتتحت، وقد استشهد محمد بن أبي بكر، فعند الله عز وجل نحتسبه، وقد كنت كتبت إلى الناس، وتقدمت إليهم في بدء الأمر، وأمرتهم بإغاثته قبل الوقعة، ودعوتهم سرا وجهرا، وعودا وبدءا، فمنهم الآتي كارها، ومنهم المتعلل كاذبا، ومنهم القاعد خاذلاً، أسأل الله أن يجعل لي منهم فرجا، وأن يريحني منهم عاجلاً، فوالله لولا طمعي عند لقاء عدوي في الشهادة وتوطين نفسي عند ذلك، لأحببت ألا أبقى مع هؤلاء يوما واحدا. عزم الله لنا ولك على هداه وتقواه إنه على كل شئ قدير. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته".

أينصحك عبد الله بن عباس أن تمني الناس..بماذا تمنيهم ..؟!

ما تمنيهم إلا برضا الله والخير الآجل إن هم عملوا الصالحات وأحسنوا واتقوا ثم اتقوا وأحسنوا..!أما معاوية فيمنيهم بالمتاع العاجل، وزينة الحياة الدنيا وزخرفها ..!!

وظل الإمام أياما لا يرى إلا حزيناً كأنه مغلوب على أمره ..! فقال له بعض أصحابه: "لقد جزعت على محمد بن أبي بكر يا أمير المؤمنين" فقال: "وما يمنعني..! إنه كان لي ربيبا وكان لبنيّ (أبنائي) أخاً وكنت له والدا، أعده ولدا".

* * * *

ورأى الإمام أن يعظ الناس بدلاً من أن يتركهم، وأن يضع أقدامهم على طريق الهدى، عسى أن يستنقذ وحدة الأمة التي مزقها معاوية وعصبته ..!

ورأى أن يزهدهم في الدنيا التي يغلبهم بها معاوية على تقواهم ودينهم فأمر أن ينادي في الناس :" الصلاة جامعة".

فلما اجتمع الناس في المسجد صعد المنبر فقال: "أما بعد، ما أنتم إلا كالإبل ضلَّ رعاتُها، فكلما جمعت من جانب انتشرت من آخر..! فما تنتظرون ..؟ أما ترون أطرافكم قد انتقصت..؟ أما ترون مصر قد فتحت..؟ وإلى شيعتي بها قد قتلت ..؟ وإلى بلادكم تغزى، وأنتم ذوو عدد كثير، وشوكة وبأس شديد..؟! فما بالكم ..؟ الله أنتم من أين تؤتون، ومالكم تؤفكون..!! ولو أنكم عزمتم وأجمعتم لم تراموا. إلا أن القوم (جند معاوية) تناصحوا، وأنتم تغاششتم وافترقتم ..

فأجمعوا على حقكم، وتجردوا لحرب عدوكم .. إنما تقاتلون الطلقاء وأبناء الطلقاء وأُولى الجفاء، ومن أسلم كرها .. أكلةُ الرشاوي وعبدةُ الدنيا وأهلُ البدع، ويود هؤلاء لو ولوا عليكم، فأظهروا فيكم الفساد والفجور والتسلط، واتبعوا الهوى وحكموا بغير الحق، ولأنتم على ما كان فيكم من تواكل

وتخاذل خير منهم وأهدى سبيلاً فيكم العلماء والفقهاء، والنجباء والحكماء، وحملةُ الكتاب والمتهجدون بالأسحار، وعمار المساجد بتلاوة القرآن. أفلا تسخطون ..؟! أفلا تهتمون أن ينازعكم الولاية عليكم سفهاؤكم، والأشرار الأراذل منكم ..؟ فاسمعوا قولي وأطيعوا أمري. فوالله لئن أطعتموني لا تغوون، وإن عصيتموني لا ترشدون ..! خذوا للحرب أهبتها، وأعدوا لها عدتها، فقد شبت نارها، وعلا سنانها، وتجرد لكم فيها الفاسقون، كي يعذبوا عباد الله، ويطفئوا نور الله ...!".

ألا إنه ليس أولياء الشيطان من أهل الطمع والمكر والجفاء بأولى في الجد في غيهم وضلالهم، من أهل البر والزهادة والإخبات في حقهم وطاعة ربهم ..! إني والله لو لقيتهم فرداً وهم ملاء الأرض، ما باليت ولا استوحشت وإني

من ضلالتهم التي هم فيها، والهدى الذي نحن عليه، لعلى ثقة وبيّنة، ويقين وبصيرة، وإني إلى لقاء ربي لمشتاق، ولحسن ثوابه لمنتظر، ولكن أسفًا يعتريني، وحزنًا يخامرني، أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً (أتباعا)، والفاسقين حزبا، وأيم الله لولا ذلك لما أكثرت تأنيبكم وتحريضكم، ولتركتم إذ ونيتم وأبيتم حتى ألقاهم بنفسي، متى حم لي لقاؤهم. فوالله إني لعلى الحق، وإني للشهادة محب، فانفروا خفافًا وثقالاً، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، ولا تثاقلوا إلى الأرض فتقروا بالخسف، وتبوءوا بالذل، ويكن نصيبكم الخسران، إن أخا الحرب هو اليقظان، ومن ترك الجهاد كان كالمغبون المهين.

اللهم اجمعنا وإياهم على الهدى، وزهدنا وإياهم في الدنيا، واجعل الآخرة خيرا لنا من الأولى..

* * * *

وبادر علي إلى علاج الموقف بعد أن استولى عمرو على مصر، وقتل أميرها، فرأى أن يبعث أحد رجلين: قيس بن سعد، أو الأشتر، فكلاهما يستطيع أن يستنهض شيعة على

وهم أكثر الناس بمصر، ويجمعهم حوله، وينقض بهم علـى

عمرو. ولكنه كان قد ولى قيس بن سعد أمر الشـرطة، فتركـه ليعمل صاحب شرطته، واستدعى الأشْتَر وكان عامله علـى

نصيبين وكتب له عهدا طويلاً يرسم له فيه أسلوب الحكم.

وأرسل الإمام إلى أهل مصر: "أما بعد، فقد وجهت إليكم عبدا من عباد الله لا ينام في الخوف، ولا ينكل عن الأعداء حذر الدوائر، أشد على الفجار من حريق النار، وهو مالـك بن الحارث الأشْتَر أخو مذحج، فاسمعوا له وأطيعوه، فإنـه سيف من سيوف الله .. وهو حسام صارم، ومن أشد عباد الله بأ لله وأبعد الناس عن دنس وعار، رزين في الحرب، حلـيم في السلم، ذو رأي أصيل، وصبر جميـل. فـإن أمـركم أن تقيموا فأقيموا وإن أمركم أن تنفروا فانفروا، وإن أمـركم أن تحجموا فاحجموا، فإنه لا يقدم ولا يحجم إلا بـأمري، وقـد آثرتكم به على نفسي، لنصيحته وشدة شكيمته على عـدوه، عصمكم الله بالحق، وثبتكم بالتقوى، ووفقنا وإياكم لما يحـب ويرضى. والسلام عليكم ورحمة الله".

وقال له الإمام وهو يودعه: "استعن بالله على ما أهمك وأخلط الشدة باللين، وأرفق ما كان الرفق أبلغ، واعتزم على الشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة".

وسار الأشْتَر إلى مصر، حتى انتهى إلى القلزم (وهي مدينة كانت تقع قرب السويس على شاطيء الخليج وهي على الطريق بين مصر والحجاز).

وكان معاوية قد عرف من عيونه أن الأشْتَرَ قد ولى مصر، فخافه على مصر، وخشى أن يلتف حوله أهل مصر – وهم شيعة على – فيثبوا على عمرو بن العاص، ويستردوا مصر إلى دولة علي.

فبعث إلى صاحب خراج القلزم: "إن الأشْتَرَ قد ولى مصر، فإن كفيتنيه لم آخذ منك خراجا ما بقيت أنا وبقيت أنت! فلتحتل في هلاكه ما قدرت عليه" وكان خراج القلزم كثيرا ووفيرا.

فلما جاء الأشترَ القلزم أتاه صاحب الخراج مرحبا متوددا، فقال له: "أيها الأمير، هذا منزل فيه طعام وعلف، وأنا رجل من أهل الخراج، فأقم واسترح".

ثم قدم له طعاما، ثم سقاه عسلاً مترعاً بالسم، فمات الأشْتَر من فوره.

وعندما بلغ الخبر معاوية صفق طرباً، وقال: "إن الله جنودا من عسل ..!" وأعلن البشرى لأهل الشام، وقام في الناس خطيبا فقال: "أما بعد، فإنه كان لعلي بن أبي طالب يمينان، فقطعت إحداهما يوم صِفِّين وهو عمار بن ياسر وقد قطعت الأخرى اليوم، وهو مالك الأشْتَر!".

أما علي فلما بلغه موت الأشْتَر، حزن حزناً شديدا، وظل يقول: "إنا الله وإنا إليه راجعون ..! الحمد الله رب العالمين، اللهم إني أحتسبه عندك، فإن موته من مصائب الدهر!".

ثم غلبه الدمع فقال وهو يحاول أن يكفكف دمعه: "رحم الله مالكا فقد وفى بعهده، وقضى نحبه، ولقي ربه، مع أنا قد وطَّنا أنفسنا أن نصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله (ﷺ) فإنها أعظم المصيبات ..!".

ولكنه كان أحياناً يهمهم في أسى فاجع: "مالك وما مالك..!! لو أحبني جبل لتداعى..!!".

وأرسل صاحب خراج القلزم، إلى معاوية كتاباً طويلاً وجده في متاع الأشْتَر. كما كان قد أرسل إليه عمرو بن

العاص من قبل، كل ما وجده عند محمد بن أبي بكر من كتب علي..

فلما نظر معاوية في هذه الكتب جميعا وجد فيها علما غزيرا، فأبدى إعجابه بها وحرصه عليها، وبصفة خاصة عهد علي إلى الأشْتَر.

فاقترح عليه الوليد بن عقبة أن يحرق هذه الكتب جميعا فقال معاوية: "مه (مهلاً) لا رأى لك ...!" فقال الوليد: "أمن الرأي أن يعلم الناس أن أحاديث أبي تراب (علي كرم الله وجهه) عندك تتعلم منها ..؟!" فقال معاوية: "ويحك أتأمرني أن أحرق علما مثل هذا ..؟! والله ما سمعت بعلم هو أجمع منه ولا أحكم..!" فقال الوليد : "إن كنت تعجب من علمه وقضائه فعلام تقاتله ..؟".

فتأنى معاوية ولم يبادر بالإجابة، وبعد أن أعمل فكره قال للوليد ومن معه من الخلصاء : "إنا لا نقول إن هذه من كتب علي بن أبي طالب، ولكن نقول هذه من كتب أبي بكر الصديق، كانت عند ابنه محمد، فنحن ننظر فيها ونأخذ منها..!".

وكانت الكتب التي وجدوها عند محمد هي التي قرأها على أهل مصر كما مر بنا آنفاً .. وكان بعضها شرحا لما خفي على ابن أبي بكر من أمور السنة.

أما عهد علي إلى الأشتر، فقد أذهل معاوية ومن معه حقاً، لما جمع من الحكمة وإحكام في السياسة وكل أمور الدين

والدنيا.. وتساءل أحد ثقات معاوية ألا يخشى إن زعم لهم أنه

يدرس كتب أبي بكر ويعمل بها، أن يسأل لِمَ لمَ يدرس وصية عمر إلى الخلفاء من بعده. ويعمل بها..؟!

فسأله معاوية: "وما تلك ..؟" فقال الرجل: "أوصى عمر الخليفة من بعده فقال: "أوصيك بتقوى الله لا شريك له، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيرا، أن تعرف لهم سابقتهم، وأوصيك بالأنصار خيرا، فاقبل من محسنهم، وتجاوز عن مسيئهم، وأوصيك بأهل الأمصار خيرا، فإنهم درء (دفع وصد) العدو، وأوصيك بجباة الأموال والفيء، لا تحمل فيئهم إلا عن فضل منهم، وأوصيك بأهل البادية خيرا، فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام، أن تأخذ من حواشي أموال أغنيائهم فترد على فقرائهم ..!".

فوثب رجل من أغنياء بادية الشام وقال: "هذه لهجة أبي ذر..! وقول أبي تراب ابن أبي طالب ..!".

فاستمر صاحب معاوية يقرأ من ورقة معه بقية وصية عمر للخليفة من بعده: "وأوصيك بأهل الذمة خيرا: أن تقاتل من ورائهم، ولا تكلفهم فوق طاقتهم وأوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه، ومخافة مقته، وأن يطلع منك على ريبة، وأوصيك أن تخشى الله في الناس، ولا تخشى الناس في الله. وأوصيك بالعدل في الرعية، والتفرغ لحوائجهم وثغورهم، ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم".

فوثب البدوي الغني مرة أخرى : "هذه سيرة أبي تراب..!".

واستمر الرجل يقرأ وصية عمر: ".. فإن ذلك بإذن الله سلامة لقلبك وحط لوزرك، وخير في عاقبة أمرك، حتى تفضي بذلك إلى من يعرف سريرتك، ويحول بينك وبين قلبك. وآمرك أن تشتد في أمور الله، وفي حدوده ومعاصيه، على قريب الناس وبعيدهم، ثم لا تأخذك في أحد رأفة حتى تنتهك منه مثل ما انتهك من حرمة، واجعل الناس عندك سواء، لا تبالي على من وجب الحق ...!".

فصاح الرجل: "كأنك تقرع أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان..!".

فاستمر القاريء يقرأ بقية وصية عمر للخليفة من بعده:" ولا تأخذك في الحق لومة لائم. وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله مما أفاء الله على المؤمنين، فتجور وتظلم، واحرم نفسك من ذلك ما قد وسعه الله عليك. وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة، فإن اقترفت لدنياك عدلاً وعفة عما بسط الله لك، اقترفت إيمانًا ورضوانًا. وإن غلبك عليه الهوى ومالت بك شهوة، اقترفت سخط الله. وأوصيك ألا ترخص لنفسك ولا لغيرك من ظلم أهل الذمة .. فإن عملت بالذي وعظتك، وانتهيت إلى الذي أمرتك، أخذت به نصيبا وافرا، وحظًا وافيا، وإن لم تقبل ذلك ولم يهمك، يكن ذلك بك انتقاصا، ورأيك فيه مدخولاً؛ لأن الأهواء مشتركة، ورأس كل خطيئة إبليس وهو الداعي إلى الهلكة .. ثم اركب الحق وخض إليه الغمرات، وكن واعظًا لنفسك، وأنشدك الله لما ترحمت على جماعة المسلمين فأجللت كبيرهم، ورحمت صغيرهم، ووقرت عالمهم. ولا تضربهم فيذلوا، ولا تستأثر عليهم بالفيء فتغضبهم، ولا تحرمهم عطاياها عند محلها ..

فتفقرهم .. ولا تجعل المال دولة (متـــداولا) بـين الأغنيـاء منهم، ولا تغلق بابك دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم .. هذه وصيتي إياك، وأُشهِد الله عليك، وأَقرأُ عليك السلام".

فصاح أحد الحاشية المقربين يلوم الرجل الذي قرأ الوصية، ويتهمه بأنه يعرض بأمير المؤمنين معاوية ...!

وتساءل آخرون:"كيف يسمح معاوية لرجل كهذا بأن يغلظ له كل هذه الغلظة ..؟ فما قراءة وصية عمر إلى الخليفة من بعده..؟!"

فاستند معاوية على يسراه، ووضع إحدى رجليه على الأخرى وكسر عينه، وهو يتأمل الرجل قائلاً له مستهينًا به: "يا هناه..!" (كلمة تنكير) فقالوا له : " ياأمير المؤمنين أتحلم عن هذا..؟" فقال "إني لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا..!".

الملك إذن هو كل ما يعنيه!

الملك لا الخلافة!.

وبعد قليل قال: "رحم الله أبا بكر، لم يرد الدنيا ولم ترده الدنيا، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها، وأما عثمان

فأصاب من الدنيا وأصابت منه، أما نحن فتمرغنا فيها ..!
والله إنه لملك آتانا الله إياه..!".

وبعد أن سكت قليلاً قال: "دعوني أتأمل في عهد علي
للأشتر: فما قرأت علماً أجمع منه ولا أغزر ولا أحكم، ولا
أشد إلماما بالآداب والقضايا والأحكام والسياسة".

وأخذ يقأ عهد علي للأشتر، الذي وضع فيه الإمام دستور
الحكم في الإسلام.

* * * *

!..,a<fא fş,Q ... ½?ĩbא p1DĘ

كان هذا هو عهد الإمام للأشتر..

وهو أطول عهد كتبه خليفة إلى أحد عماله، وهو أجمعها للمحاسن، وأكثرها علما، وهو دستور للحكم، وناموس للتعامل، ونبراس يهتدي به الراعي والرعية على السواء.

ولقد عز علي الإمام أن تصير مصر وأهلها إلى ما صارت إليه ...!. إذ أعطى معاوية عمرو بن العاص مصر وأهلها هبة يتصرف فيها وفيهم كيف يشاء..!

وكان الإمام يحب مصر ويؤثر أهلها، فهو لا ينسى أنهم أصهار الرسول وأنه أوصى بهم: "استوصوا بالقبط خيرا" والقبط هم المصريون..

وهذا هو عهد الإمام أو كتاب الإمام للأشتر.. وهو حري بأن يكون وثيقة سياسية دستورية، تضبط موازين الأمور، لوأنها طبقت في عصرنا هذا المضطرب المتمزق المتوتر

بالمتناقضات، وهو مهما يكن من أمر تبيان للمباديء الشرعية في سياسة أمور الدولة.

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

"هذا ما أمر به عبد الله على أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشْتَر في عهده إليه حين ولَّاه مصر: جباية خراجها، وجهاد عدوها، واستصلاح أهلها، وعمارة بلادها.

أمره بتقوى الله، وإيثار طاعته، واتباع ما أمر به في كتابه: من فرائضه وسننه، التي لا يسعد أحد إلا باتباعها، ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها، وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه، فإنه جل اسمه، قد تكفل بنصر من نصره، وإعزاز من أعزه .

وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات، ويز ها عند الجمحات (يمنعها من الجموح)، فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله.

ثم اعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقوله فيهم، وإنما يستدل على الصالحين بما

يجري الله لهم على ألين عباده، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح. فاملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك، فإن الشح بالنفس الإنصاف فيما أحبت أو كرهت .. وأَشْعِر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل (أي يسبق الخطأ)، وتعرض لهم العلل، ويؤتي على أيديهم في العمد والخطأ (أي تأتي السيئات على أيديهم)، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم وولي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاك ..! وقد استكفاك أمرهم (طلب الله منك رعاية مصالحهم)، وابتلاك بهم، ولا تنصبن نفسك لحرب الله (حرب الله أي مخالفة شريعته)، فإنه لا يد لك بنقمته (لا طاقة لك)، ولا غنَى بك عن عفوه ورحمته، ولا تندمن على عفو، ولا تفرحن بعقوبة.. وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطان أبهة أو مخيلة فانظر على عظم ملك الله فوقك، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك، فإن ذلك يطامن

(يخفف) إليك من جماحك (جموحك)، ويكف عنك من غربك (حدتك)، ويفيء إليك بما عزب عنك من عقلك.

وإياك ومساماة (المباراة في السمو) الله في عظمته، والتشبه به في جبروته، فإن الله يذل كل جبار، ويهين كل

مختال". وبعد أن يضع الإمام هذه القواعد الصارمة السامية لما يجب أن يكون عليه سلوك الحاكم الصالح، وما ينبغي أن

يتصف به من ورع وأدب وتقوى، وخشية الله تمنحه الشجاعة، ورحمة بالناس تسلك به طريق العدل، وقدرة على أن يستميل إليه قلوب الرعية ليصلحوا بمودته .. بعد هذا كله يضع الإمام قواعد واضحة وحدودا بينة للعدل والحيدة، فيقول: "أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك، فإنك إن لا تفعل تظلم!ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدحض (أبطل) حجته وكان الله حربا حتى ينزع أو يتوب. وليس شئ أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامةٍ على ظلم، فإن الله سميع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد. وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق،

وأعمها في العدل وأجمعها لرضا الرعية، فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة (أي يذهب به)، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة".

وهذا المبدأ وضعه الإمام مستنبطًا مباديء الإسلام، وهو مبدأ أساسه احترام رأي الأغلبية، وجعل رضا الأغلبية أساس الحكم.

ثم يستمر الإمام في إرساء هذا المبدأ وتبيانه: "وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأفضلَ معونة له في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسألَ بالإلحاف (الإلحاح)، وأقلَّ شكرا عند الإعطاء، عذرا عند المنع، وأبطأَ وأضعفَ صبرا عند ملمات الدهر من أهل الخاصة، وإنما عماد الدين وجماع (جمع) المسلمين، والعدة للأعداء العامة من الأمة فليكن صفوك لهم، وميلك معهم".

من أجل موقفه هذا من الخاصة والعامة، أحبه العامة وارتضوه إماما وهاديا مهديا، وأنكره معظم الخاصة، وكرهه أقوام منهم، حتى لقد حاربوه وتمنوا قتله، وفروا من دينه إلى دنيا معاوية، الذي أحسن استمالة أهواء معظم الخاصة، فأشبع الأطماع، وأرضى الأهواء ..!!

ثم يمضي الإمام فيضع ناموسا خلقيا للتعامل بين الـوالـي والمحكومين، متحريا تحقيق مصالح الأمة التــي هــي كـل مقاصد الشريعة وأهدافها.

يستطرد الإمام فيقول: "وليكن أبعد رعيتك منك، وأشنأهم (أبغضهم) عندك أطلبهم لمعائب الناس، فإن في الناس عيوبا الوالي أحق من سترها، فلا تكشفن عما غاب عنك منها فإنما عليك تطهير ما ظهر لك واالله يحكم على ما غـاب عنـك، فاستر العورة ما استطعت، يستر االله منك ما تحب ستره من رعيتك. أطلق عن الناس عقدة كل حقد، واقطع عنك سـبب كل وتر (عداوة)، وتَغَابَ (تظاهر بالغباء) عن كـل مـا لا يصح لك، ولا تعجلن إلى تصديق ساع، فإن الساعي غـاش (الساعي بالوقيعة أو النميمة) وإن تشبه بالناصحين.

ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بـك عـن الفضـل، ويعدك الفقر، ولا جباناً يضعفك عن الأمـور، ولا حريصـا يزين لك الشره بالجور، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن باالله.

وبعد أن يوضح الإمام هذه الأصول من مكارم الأخـلاق التي لا تقوم السياسة الشرعية إلا بها .. بعد هـذا يمضـي

الإمام في شرح أصول أخرى للسياسة الشرعية فيكتب في عهده لمالك الأ شتر، مستخلصا حكمة التعامل مع تجارب الحياة فضلاً عن مباديء الإسلام: "إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيرا، ومن شركهم في الآثام، فلا يكونن لك بطانة فإنهم أعوان الأَثَمة (جمع آثم)، وإخوان الظَّلَمة، وأنت واجد منهم خير الخلف ممن لهم مثل آرائهم ونفاذهم، وليس عليه مثل آصارهم (ذنوبهم) وأوزارهم ممن لم يعاون ظالما على ظلمه، ولا آثما على إثمه، أولئك أخف عليك مؤونة، وأحسن لك معونة، وأحنى عليك عطفاً وأقل لغيرك إلفًا، فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك، ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك (مرارة الحق صعوبته على نفس الحاكم)، وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه واقعا من هواك حيث وقع. ألصق بأهل الورع والصدق، ثم رضهم على آلا يطروك (عودهم على ألا يمدحوك) أو يفرحوك بباطل لم تفعله، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو.

ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزهيدا لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريبا لأهل الإساءة على الإساءة ...! وألزم كلا منهم ما ألزم نفسه (من

شكر أو عقاب) واعلم أنه ليس شئ بأدعى إلى حسن ظن راع برعيته من إحسانه إليهم (لأن الإحسان يقودهم إلى الطاعة) وتخفيفه المؤونات عنهم، وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم (أي عندهم). فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك، فإن حسن الظن يقطع عنك نصبا طويلا، وإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك (صنعك) عنده، وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده.

ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة، واجتمعت بها الألفة، وصلحت عليها الرعية، ولا تحيين سنة تضر بشئ من ماضي تلك السنن فيكون الأجر لمن سنها، والوزر عليك لما نقضت منها.

وأكثر ممارسة العلماء، ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك، وإقامة ما استقام به الناس قبلك".

ثم يخلص الإمام من هذا إلى تقسيم الرعية إلى طبقات، ويحدد صفات وماهية كل طبقة، وحاجاتها، وما يجب على الحاكم الصالح لها، وما يجب عليها، ويوضح حتمية التكافل الاجتماعي: "واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا

ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض: فمنها جنود الله، ومنها كُتّاب العامة والخاصة (الكتاب هم الموظفون والمستخدمون بلغة عصرنا) ومنها قضاة العدل، ومنها عمال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأصحاب الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة .. وكلٌّ قد سمى الله له سهمه (أعطى نصيبه من الحق)، ووضع على حده فريضة في كتابه أو سنة نبيه - (❐) - عهدا منه عندنا محفوظاً"..

ويمضي الإمام فيفصل الطبقات ومهامها: "فالجنود، بإذن الله، حصون الرعية، وزين الولاة، وعز الدين، وسبل الأمن، وليس تقوم الرعية إلا بهم. ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقرون به على جهاد العدو (أي الرواتب والمكافآت ونحوها)، ويعتمدون عليهم فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم.

ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال (الولاة) والـكُتاب، لما يحكمون به من المعاقد (العقود وما شابهها) ويجمعون من المنافع (من حفظ الأمن والجباية

وتصريف الناس في المنافع العامة وما شابه ذلك)، ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها.

ولا قوام لهم جميعا إلا بالتجار وذوي الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم ، ويقيمونه من أسواقهم، ويكفونهم من الترفق (الانتفاع) بأيديهم ما لا يبلغه غيرهم.

ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم (مساعدتهم) ومعونتهم. وفي الله لكل (منهم) سعة. ولكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه.

وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك بالاهتمام والاستعانة بالله، وتوطين النفس على لزوم الحق، والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل".

ويشرح الإمام أسلوب التعامل مع كل هذه الطبقات: "فول من جنودك أنصحهم في نفسه الله ولرسوله ولإمامك، وأنقاهم جيبا (أطهرهم) وأفضلهم حلما: ممن يبطيء عن الغضب، ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء، وينبو على الأقوياء (يعلو عليهم ويشتد ليحمي منهم الضعفاء) وممن لا يثيره العنف، ولا يقعد به الضعف .. ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما، ولا يتفاقمن من نفسك شئ قويتهم به

(لا تعد شيئًا قويتهم به أعظم مما يستحقونه)، ولا تحقــرن لطفا تعاهدتهم به وإن قل، فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك، وحسن الظن بك، ولا تدع تفقد لطيف أمـورهم اتكـــالاً

على جسيمها، فإن لليسير من لطفك موضعا ينتفعون بــه، وللجسيم موقعا لا يستغنون عنه.

وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم في معونتـه (أي ساعدهم بمعونته لهم)، وأفضل عليهم من جِدته (أي جاد عليهم من غناه)، مما يسعهم ويسع من وراءهم من خلـوف أهليهم (مما يكفيهم ويكفي أهليهم الذين يخلفونهم وراءهم حين يخرجون للحرب)، حتى يكون همهم همًا واحدا فــي جهـاد العدو، فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليـك، وإن أفضـل قرة عين الولاة استقامة العدل في الـبلاد، وظهـور مـودة الرعية، وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسـلامة صـدورهم، ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة أمورهم (أي حفظهـم وصيانتهم) .. فأفسح في آمالهم وواصل حسن الثناء علـيهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم، فإن كثـرة الـذكر لحسـن أفعالهم تهز الشجاع، وتحرض الناكل إن شاء الله.

ثم اعرف لكل امريء منهم ما أبلى، ولا تضيفن بلاء امرئ إلى غيره ولا تقصرن به دون غاية بلائه، ولا يدعونك شرف امريء إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيرا، ولا ضعة امريء إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيما.

واردد إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب، ويشتبه عليك من الأمور، فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم:

﴿ يا أَيها الَّذِين آمنُوا أَطِيعوا اللهَ وأَطِيعوا الرسول وأُولِي الأمرِ مِنْكُم فإِن تَنازعتُم فِي شيءٍ فردوه إِلَى اللهِ والرسولِ ﴾

فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه، والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة" (وهي ما اتفق الرواة على نسبتها للرسول ولم يختلفوا على صحة هذه النسبة).

ثم انتقل للكلام عن القضاة بعد أن انتهى من الكلام عن الجند، فكتب:

: ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه (تغضبه وزنـًا ومعنـى) الخصوم، ولا يتمارى في الزلة، ولا يحصر من الفيء (لا يضيق من الرجوع) إلى الحق إذا عرفه، ولا تشرف نفسه

على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأوقفهم فـي

الشبهات، وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأصرمهم عند اتضاح الحكم، ممن لا يزدهيه إطراء، ولا يستميله إغراء، وأولئك قليل. ثم أكثر تعاهد قضائه (أي يجب مراجعة الأحكام وتصويب أخطائها) ما يزيل عنه هموم العيش، وتقل معه حاجته إلى الناس، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك، وانظر في ذلك نظرا بليغًا، فإن هذا الدين قد كان أسيرا في أيدي الأشرار، يعمل فيه بالهوى، وتطلب به الدنيا ...!".

وينتقل كتاب الإمام بعد ذلك إلى سائر الطبقات:

"ثم انظر في أمور عمالك (العمال: الولاة) فاستعملهم اختبارا (أي ولهم الأعمال بالامتحان)، ولا تولهم محاباة وأَثَرة .. وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدمة (أي الخطوة السابقة وهم المسلمون الأوائل)، فإنهم أكرم أخلاقًا، ، أصح أعراضا، وأقل في المطامع إشرافًا، وأبلغ في العواقب نظرا. ثم أسبغ عليهم الأرزاق (أغدق عليهم الرواتب الكبيرة) فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت

أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك (أي خانوها)، ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون (الرقباء) من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإن تعاهدك في السر لأمورهم حدوة لهم (أي حث لهم، أي يحدوهم) على استعمال الأمانة والرفق بالرعية.

وتحفظ من الأعوان فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهدا، فبسطت عليه العقوبة في بدنه، وأخذته بما أصابه من عمله، ثم نصبته بمقام المذلة، ووسمته بالخيانة وقلدته عار التهمة.

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله (الخراج هو ما يشبه الضرائب في أيامنا هذه)، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد، وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلاً".

ثم يمضي كتاب الإمام فيضع آدابا وسياسة لجباية الخراج، بقوله: "فإن شكوا ثقلاً (كثرة المفروض عليهم من

الضريبة) أو علة أو انقطاع شرب (الماء الذي تشربه الأرض لتنبت وتثمر) أو إحالة أرض (فساد البذر فيها) اغتمرها غرق، أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم. ولا يثقلن عليك شئ خففت به المؤونة عنهم، فإنه ذخر يعودون به إليك في عمارة بلادك، وتزيين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم، وفرحك باستفاضة العدل فيهم .. فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة ً أنفسهم به فإن العمران محتمل ما حملته، وإنما يؤتي خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع (جمع المال أثناء ولايتهم)، وسوء ظنهم بالبقاء، وقلة انتفاعهم بالعبر". ثم يتحدث الإمام بعد ذلك عن الكُتاب:

والـُكتاب في عصر الإمام هم أفراد الجهاز الإداري للدولة ..

وكان أمير المؤمنين يريد أن ينشئ جهازا جديدا للإدارة في مصر، بدل الجهاز الذي أنشأه عمر حين دون له الدواوين عقيل بن أبي طالب، إذْ كان الخليفة عمر قد اضطر إلى قبول النظم الإدارية القائمة في البلاد المفتوحة لا اللغة العربية هي اللغات الرسمية في الدواوين ..!

وقد تحرى الإمام ألا تجتمع سلطات إدارية واسعة في يد واحدة، بل وزع السلطات الإدارية بين المسئولين. كل وما يتقنه.

كتب الإمام:

"ثم انظر في حال كُتَّابك، فولِّ على أمورك خيرهم .. ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك (السكون والثقة) وحسن الظن منك، فإن الرجال يتعرضون لفراسات الولاة، بتصنعهم وحسن خدمتهم وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شئ، ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك، فاعمد لأحسنهم في العامة أثرا وأعرفهم بالأمانة وجها، فإن ذلك دليل على نصيحتك الله ولمن وليت أمره، واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأسا منهم لا يقهرها كبيرها، ولا يتشتت عليها كثيرها، ومهما يكن في كُتابك من عيب، فتغابيت عنه، ألزمته (أي لزمك فكان عيبك)".

ويتحدث عهد الإمام للأشتر بعد ذلك عن طبقة أخرى من طبقات الأمة وهي التُجار.

"ثم استوصِ بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيرا: المقيم منهم والمضطرب بماله (الذي يتنقل بماله بين البلاد) ،

والمترفق ببدنه (المرافق هي المنافع)، فإنه مواد المنافع، وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح في برك وبحرك وسهلك وجبلك ....

.. وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك .. واعلم – مع ذلك – أن في كثير منهم ضيقًا (عسر المعاملة) فاحشًا، وشحا قبيحا واحتكارا للمنافع، وتحكما في البياعات وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة. فامتنع من الاحتكار فإن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، منع منه، وليكن البيع بيعا سمحا بموازين عدل، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع (المشتري)، فمن قارف حكرة (احتكارا) بعد نهيك إياه فنكِّلْ به، وعاقبه في غير إسراف".

وينتهي الإمام في حديثه عن طبقات الأمة إلى الطبقة الفقيرة، فيوصي بها، ويأمر بحسن معاملتها، ورعاية كرامتها:

"ثم الله الله في الطبقة السفلى، الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمنى (أصحاب العاهات أو الأمراض المزمنة التي تمنعهم من العمل والكسب) فإن في هذه الطبقة قانعا ومعترا (القانع: السائل.

المعتر: المتعرض للعطاء بلا سؤال). واحفظ الله ما استحفظك (ما طلب منك حفظه) من حقه فيهم، واجعل لهم قسما من بيت مالك، وقسما من غلات صوافي الإسلام (من ثمرات أرض الغنيمة) في كل بلد فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى. وكل قد استرعيت حقه، فلا يشغلنك عنهم بطر (طغيان النعمة) فإنك لا تُعذر.. فلا تشخِّص همك عنهم (لا تصرف همك)، ولا تصعر خدك لهم (لا تتكبر عليهم)، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون، وتحقره الرجال، ففرغ لأولئك ثقتك (أي خصص للبحث عنهم رجالاً تثق بهم ليتعرفوا على أحوالهم) من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم، ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله (أي بما يكون لك عذر عنده تعالى) يوم تلقاه، فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج للإنصاف من غيرهم، وكل (منهم) فاعذر إلى الله في تأدية حقه إليه، وتعهد أهل اليتم وذوي الرقة في السن (كبار السن) ممن لا حيلة لهم، وممن لا ينصب للمسألة نفسه، وذلك على الولاة ثقيل، والحق كله ثقيل، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العافية فصبروا أنفسهم، ووثقوا بصدق موعود الله لهم".

ثم يتحدث عن واجبات الحاكم:

"واجعل لذوي الحاجات منك قسما تفرغ لهم فيه بشخصك، وتجلس لهم مجلسا عاما، فتتواضع فيه للذي خلقك، وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك (أي تأمر الحرس والشرطة والأعوان ألَّا يتعرضوا لذوي الحاجات) حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع (متردد ومتلعثم)، فإني سمعت رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم - يقول في غير موطن : لن تُقدس أُمة (أي لا يطهر الله أمة) لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متتعتع. ثم احتمل الخرق (العنف وزنًا ومعنى) والعي، ونح عنهم الضيق والأنف (الاستكبار) ، يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته، ويوجب لك ثواب طاعته. ثم أمور من أمورك لا بد لك من مباشرتها: منها إجابة عمالك بما يعيا (يعجز) عنه كُتابك، ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك بما تحرج به صدور أعوانك (فالموظفون المصريون يحبون المماطلة وتضيق صدورهم بسرعة قضاء الحاجات ..!)، وأَمضِ لكل يوم عمله، فإن لكل يوم ما فيه، واجعل لنفسك فيما بينك وبين

الله أفضل تلك المواقيت. وإن كانت كلها الله إذا صلحت النية، وسلمت منها الرعية.

وليكن في خاصة ما تخلص به الله دينك: إقامة فرائضه التي هي له خاصة، فأعط الله من بدنك في ليلك ونهارك، ووفِّ ما تقربت إلى الله من ذلك .. وإذا أقمت الصلاة فلا تكونن منفرا ولا مضيعا فإن في الناس من به العلة وله الحاجة وقد سألت رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – حين وجهني إلى اليمن: كيف أصلي ..؟. فقال: "صلِ بهم كصلاة أضعفهم، وكن بالمؤمنين رحيما".

ويمضي عهد الإمام للأشتر فيوصي بألا يحتجب عن الرعية، وهي وصية تعود الإمام أن يوصي بها كل من استعمله .. وقد ذكرناها آنفًا أكثر من مرة.

ثم يسترسل ناصحا:

"ثم إن للوالي خاصة وبطانة، وفيهم استئثار، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال (بمنعهم من التدخل في شئون الحكم) .. وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابرا محتسبا، واقعا ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع، وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه فإن

مغبة ذلك محمودة (إحقاق الحق وإن كان ثقيلاً فهو محمود العاقبة).

وإن ظنت الرعية فيك حيفاً (ظلما) فأصحر (أظهر) لهم بعذرك، واعدل عنك ظنونهم بإصحارك (بظهورك)، فإن في ذلك رياضة منك لنفسك (تعويدا لها على العدل)، وإعذارا (تقديم العذر وإظهاره) تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق".

ثم يمضي فيقدم منهجا للسياسة الشرعية الخارجية:

"ولا تدفعن صلحا دعاك إليه عدوك الله فيه رضا، فإن العدو ربما قارب ليتغفل (يستغفل) فخذ بالحزم، واتهم في ذلك حسن الظن. وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة (معاهدة) أو ألبسته منك ذمة (عهدا) فحط (احفظ) عهدك بالوفاء، وارع ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنة (وقاية. أي حافظ على ما أعطيت من العهد بحياتك)، فإنه ليس من فرائض الله شئ الناس أشد عليه اجتماعا مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود .. فلا تغدرن بذمتك ولا تخيس [illegible]ن [illegible] بعهدك (لا تنقضه)، ولا تختِلْ عدوك (تخدعه)، فإنه لا يجترىء على الله إلا جاهل شقي. وقد جعل الله عهده

وذمته أمنُاً أفضاه بين العباد برحمته، وحريما يسكنون إلى م[illegible]ذَع[illegible]تِه، ويستفيضون إلى جواره (أي يفزعون ويهرعون إليه) .. ولا يدعونك ضيق أمرٍ لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق، فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته".

ثم يمضي في نصح الحاكم:

"وإياك وسفك الدماء بغير حق، فإنه ليس شئ أدنى لنقمة، ولا أعظم تبعة، ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة، من سفك الدماء بغير حقها، والله سبحانه مبتديء بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة، فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله، ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمد لأن فيه قَو[illegible]دا

(قصاص)..". وإياك والإعجاب بنفسك، والثقة بما يعجبك منها، وحبالإطراء فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق

ما يكون من إحسان المحسنين.

وإياك والم[illegible]نعلى رعيتك بإحسانك، أو التزيد (إظهار

الزيادة عن الواقع) فيما وقع من فعلك، أو أن تعـدهم فتتبـع

موعدك بخلفك، فإن المن يبطل الإحسان، والتزيد يذهب بنور الحق، والخلف يوجب المقت عند الله والناس، قال الله تعالى: **﴿ كَبُرَ مقتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ﴾**.

ثم يمضي عهد الإمام للأشتر فيوضح مباديء الأخلاق والسلوك والعدالة التي يجب أن يتحلى بها الحاكم، ويتعامل مع الرعية على أساسها:

"وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها، أو التساقط فيها عند إمكانها (التساقط: الاسترخاء والتهاون)، أو اللجاجة فيها إذا تنكرت (لم يعرف وجه الصواب فيها)، أو الوهن عنها إذا استوضحت. فضع كل أمر موضعه، وأوقع كل أمر موقعه.

وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة (متساوون)، والتغابي عما تعني به مما وضح للعيون، فإنه مأخوذ منك لغيرك، وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور، وينتصف منك للمظلوم ..!

املك حمية أنفك (املك نفسك عند الغضب)، وسورة حدك (حِدة بأسك)، وسطوة يدك، وغَرب (حدة) لسانك، واحترس من ذلك بكف البادرة (ما يبدر من اللسان عند الغضب)، وتأخير السطوة، حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار، ولن

تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك.

والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك (سبقك من حكومة عادلة، أو سنة فاضلة، أو أثر عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، أو فريضة في كتاب الله، فتقتدي بما شاهدت مما عملنا به فيها، وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت إليك في عهدي هذا، واستوثقت به من الحجة لنفسي عليك، لكيلا تكون لك علة عند تسرع نفسك إلى هداها. وأنا أسأل الله بسعة رحمته، وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه (يريد العدل فهو عذر لك عند من قضيت عليه، وعذر عند الله فيمن وقعت عليه عقوبة أو حرمته من منفعة)، مع حسن الثناء في العباد. وجميل الأثر في البلاد، وتمام النعمة، وتضعيف الكرامة (أي مضاعفتها)، وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة، إنا إليه راجعون. والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين، وسلم تسليما كثيرا، والسلام".

* * * *

لما قرأ معاوية هذا الكتاب وسمعه خاصته وتناقلوه ونقلوه إلى غيرهم. اهتز يقين عدد منهم بدعوى معاوية، فمالوا إلى علي ..!

وكان قد استثار بعض الناس على معاوية ما سمعوه عما جرى لمحمد بن أبي بكر، فقد استبشع هؤلاء قتله على هذا النحو الوحشي .. فلما سمعوا أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تدعو على معاوية وعمرو في كل صلاة، نفروا من معاوية .....

ونفَّرهم من معاوية ما وجدوه من بذخ هو السفه بعينه، وما شاهدوه في دمشق من صور الترف المستبد، وإلى جواره غير بعيد صور من الفقر المدقع تثير الأسى والإشفاق والإحساس بالمهانة والعار..!

وشعر بعضهم أنهم قد تحولوا في دنيا معاوية إلى أثرياء حقًا .. ولكنهم فقدوا سمو الروح، ولم يعودوا إلا كائنات تأكل وتتشرب كالسوائم، وتتمرغ في الملذات كالبهائم...!ثم

إنهم ليؤولون القرآن، ويحرفون آيات القصاص عن مواضعها، وهم يعلمون ..!! فما قضى الله بأن يقتص أهل القتيل من القاتل حين أنزل الآية (ولكم في القصاص حياة يا

أولي الألباب). بل أراد أن يقوم بالأمر ولى الأمر، لكي يحقن الدماء، وتحيا أنفس كانت حرية بأن تُراق دماؤها إن تُـرك أمر القصاص لأهل القتلى..!!

ثم إن الذين لم يفرغوا قلوبهم من التقوى، وجدوا أنهم سيتحملون مع معاوية وعمرو إثم الشقاق الذي صرف الإمام عليا عن نشر الإسلام، وشغله بالفتن الداخلية .. هذا الخلاف الذي أزهق أكثر من مائة ألف من مهج المسلمين

المجاهدين..!! وهكذا انتفض الذين فروا بدنياهم إلى معاوية، ليندموا

ويتوبوا، ويفروا بدينهم إلى علي .

وجاءوا إليه أرتالاً.. فأخذ معاوية يستثير العصبية الجاهلية في القبائل..

ولكن الإمام رأى أن يكتب لآخر مرة إلى معاوية عسى أن يتوب، وعسى أن يعظه ما تسبب في سفكه من دماء المسلمين، وعسى أن يدخل فيما دخلت فيه جماعة المسلمين ..!

فكتب: "يا معاوية أرديت جبلاً من الناس كثيرا (أي

أهلكت صنفا) خدعتهم بغيك (ضلالك)، وألقيتهم فــي مـوج

بحرك، تغشاهم الظلمات، وتتلاطم بهم الشبهات، فجازوا عن وجهتهم (بعدوا عما كانوا يقصدونه وكان بعضهم قد انحاز لمعاوية متوهما أنه يطالب بقتلة عثمان حقًا ..!) ونكصوا على أعقابهم، وتولوا على أدبارهم، وعولوا على أحسابهم (تعصبوا لقبائلهم تعصب الجاهلية الأولى)، إلا من فاء من أهل البصائر فإنهم فارقوك بعد معرفتك، وهربوا إلى من موازرتك (مناصرتك)، إذ حملتهم على الصعب، وعدلت بهم عن القصد ...! فاتق الله يا معاوية في نفسك، وجاذب الشيطان قيادك، فإن الدنيا منقطعة عنك، والآخرة قريبة منك".

وذهب الإمام إلى المسجد الجامع يعظ الناس، ويعلمهم كما تعود منذ كان في المدينة في الأيام الرائعة الذاهبة.

وسمع همهمة تبرم منهم، وأحس أن النعرة القبلية التي أثارها معاوية وحشد الناس باسمها قد بدأت تتسلل إلى أعماقهم لتثير فيهم حمية الجاهلية .. فإذا هم يضيقون بمساواتهم بالموالي أهل البلاد المفتوحة: مصر وبلاد الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية.

لقد حسب الإمام أن الإسلام طهر المسلمين من هذه العصبية الجاهلية وهذه النعرة القبلية. ولكن معاوية كان يدس إلى أهل العراق من يثير فيهم العصبية الجاهلية ..! فهذه القبيلة خير من تلك، فهي إذن أولى بالرعاية ..!! والعرب جميعا هم مادة الإسلام، فهم خير إذن من أهل البلاد المفتوحة، فهم أولى بالرعاية من الموالي (..!!) ويجب أن يمتازوا في العطاء .. وخاصة الناس خير من العامة، فيجب أن ينالوا نصيبا أكبر..!!

وكان معاوية قد رسم خطتين لتمزيق رجال علي: "الأولى قائمة على الدهاء والخديعة، وهي إثارة العصبية فيما بينهم فلا يجتمعون، ثم استمالة رءوسهم بالإغداق عليهم ..!"

أما الخطة الثانية فهي إرهابهم، وضرب من يستعصي عليه حتى تصبح حياته وحياة أولاده أهم عليه من علي وإمامته .. وحتى من دينه..!!

وأحس علي بأن بعض رجاله قد استثارهم أنهم – هم أشراف العرب – يتساوون في العطاء بالموالي من أهل البلاد المفتوحة، وبالعامة من قبائلهم ..!

وإذ أحس أمير المؤمنين باشتعال العصبية والنعرات الجاهلية، وإذ أحس بالأطماع تشرئب من أعماق بعض الذين أنقذهم صلاحهم من التورط، وقف يخطب الناس فقال: "الحمد الله الذي لبس العز والكبرياء واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمى وحـ رمـ ا على غيره، واصطفاهما لجلاله، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده".

ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين، ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين فقال سبحانه، وهو العالم بمضمرات القلوب، ومحجوبات الغيوب: (إني خالق بشرا من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس ....)، اعترضته الحمية، فافتخر على آدم بخلقه، وتعصب عليه لأصله، فعدو الله (هو) إمام المتعصبين وسلف المتكبرين الذي وضع أساس العصبية .. فاحذروا عباد الله أن يعديكم بدائه، وأن يستفزكم بندائه، وأن يجلب عليكم بخيله ورجله. فلعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد (فوق السهم يفوقه أعده للرمي)، ورماكم من مكان قريب، وقال: (رب بما أغويتني لأُزيِّننَّ لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين) (سورة الحجر آية ٩٣) .. صدقه أبناء الحمية،

وإخوان العصبية، وفرسان الكبر والجاهلية، حتى إذا انقادت له الجامحة منكم (الشاردون المتأثرون بالروح القبلية، واستحكمت الطماعية منه فيكم فنجمت الحال من السر الخفي إلى الأمر الجلي، استفحل سلطانه عليكم، ودلف (تقدم) بجنوده نحوكم، فأقحموكم ولجات الذل (جمع ولجة وهي الملجأ)، وأَحـ□لُّوكـُم ورطات القتل، وأوطؤوكم إثخان الجراح (يقتل بعضكم بعضا) .. فأطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية، وأحقاد الجاهلية، فإنما تلك الحمية تكون في المسلم من شطرات الشيطان ونخواته، ونزغاته ونفثاته .. فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته ووقائعه ومثلاته، واستعيذوا بالله من لوائح الكبر، كما تستعيذونه من طوارق الدهر، واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال، وذميم الأعمال، فتذكروا في الخير والشر أحوالهم، واحذروا أن تكونوا أمثالهم ...! فإذا تفكرتم في تفاوت حالتهم، فالزموا كل أمر لزمت العزة به شأنهم، ومدت العافية به عليهم، وانقادت النعمة له معهم، ووصلت الكرامة عليه حبلهم: من الاجتناب للفرقة، واللزوم للألفة، والتحاض عليها والتواصي بها. واجتنبوا كل أمر

كسر فِقرتهم (بكسر الفاء فقرة النفوس، وتخاذل الأيدي .. فإن الله سبحانه قد امتن على جماعة هذه الأمة فيما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التي ينتقلون في ظلها، ويأوون إلى كنفها، بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة، لأنها أرجح من كل يمن وأجل من كل خطر.. .. ألا فالحذار الحذار من طاعة ساداتكم وكبرائكم الذين تكبروا عن حسبهم، فإنهم قواعد أساس العصبية، ودعائم أركان الفتنة، وسيوف اعتزاء (انتساب) الجاهلية، فاتقوا الله .. ولا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم كدرهم، وخلطتم بصحبتكم مرضهم، وأدخلتم في حقكم باطلهم، وهم أساس الفسوق، اتخذهم إبليس مطايا وجندا يصول بهم على الناس، وتراجمة ينطق على ألسنتهم، استراقًا لعقولكم، ودخولاً في عيونكم، ونفثًا في أسماعكم ..".

ولكن رشوة معاوية للناس كانت أبلغ تأثيرا فيهم من بلاغة الإمام، وورعه، وتقواه ..!

لقد تغير الزمان .. الله أكبر، صدق رسول الله (ص) يا علي..

وسجد علي الله حين تذكر تحذير الرسول للأمـة .. قـال عليه الصلاة والسلام أنه لا يخشى عليها الفقر، ولكن الغنى، وما يصنعه الغني ببعض الرجال ...!

وصدق أبو بكر رضي الله عنه حين نصح خليفته عمر أن يحذر هذا النفر من صحابة رسول الله الذين اشرأبت أعناقهم إلى الدنيا بعد أن فتح الله عليهم بلادا واسعة الغنى .. وصدق حين لامهم على مظاهر الترف آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة.

ورحم الله عمر بن الخطاب رضي الله عنـه، فقد منـع هؤلاء من مغادرة المدينة إلا للجهاد في سبيل الله، وألـزمهم جميعا أن يقيموا في عاصمة الدولة يستشـيرهم، ولا تغيـب عنه تصرفاتهم ..!

لكم تغير الزمن منذ عهد الرسول وعهد الشيخين يا علـي ..!! أين ذلك العصر الورع المشوب بالرهبة من خشية الله، المضيء بالفداء والتكافل، والمنافسة في البذل وبالرحمة..؟!

أين ذلك الزمن الذي كانت التقوى فيه هي زينة الرجـال والنساء، من هذا الزمن الذي يتباهى فيه الرجـال والنسـاء بالثراء .. حتى العلماء والفقهاء..!

لكل زمان دولة ورجال ..!! من أجل ذلك كان رجال الزمن الرائع الذاهب أبو بكر وعمر وعثمان وأبو عبيدة وابن عوف وطلحة والزبير وعمار وأبو ذر وسعيد بن زيد وسلمان وبلال وصهيب وغيرهم من شرفاء المهاجرين والأنصار.. أما رجال هذا الزمن .. فمن هم..؟! معاوية، وعمرو، وجنودهما..!!

كيف تغير هذان الرجلان، ولهما في تلك الأيام الرائعة الغابرة بلاء عظيم وجهاد في سبيل الله .. كيف تغير عمرو بن العاص أحد فاتحي الشام وفاتح مصر ..؟! كيف انحاز إلى باطل معاوية، وهو يعرف أنه على الباطل ..؟!

الآن معاوية حذره منذ أول يوم بويع فيه لك يا علي، وأعلنت أنك ستسترد إلى بيت المال، كل ما أخذ بغير حق من مال وضياع ومتاع، حتى لو كانوا قد تزوجوا به النساء، واشتروا به الإماء ..؟!

أليس من أجل ذلك أرسل معاوية إلى عمرو: "يا عمرو ما كنت صانعا فاصنع إذا قشرك ابن أبي طالب من كل ما تملكه كما تقشر من العصا لحاها" لكم أضلهم الحرص على الأموال والضياع والمتاع ..؟!!

من أجل ذلك نصبوا قميص عثمان على منبر جامع دمشق، واختفوا وراءه بما يحركهم من حرص على الغنى وأحلام في الثراء وأطماع في الجاه والملك ..؟!

من أجل ذلك استغل معاوية في رؤساء القبائل نعرات أطفأها الإسلام وأيقظ فيهم ما أنامته الحكمة وتقوى الله من عصبية الجاهلية الأولى ..؟!

وإذن فكيف المرجع يا علي ..؟! "كيف المرجع، ولقد أصبحت في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيسا (ذكاء وعقلاً)، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة ..؟! ما لهم..؟ قاتلهم الله ...!".

أسفاه يا علي..!! فقد يرى الرجل الحكيم الورع التقي "وجه الحيلة رأي العين، ودونه مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها بعد القدرة عليها"، وينتهزها من لا تحرج له في الدين، ولا ورع له ..!

وهكذا استطاع معاوية أن يصطنع لنفسه ولأهدافه الملكية كل أهل الشام .. كلهم جميعا إلا قليلاً ممن غلبهم ورعهم على إغراءات معاوية .. وأهل الشام كما قال عنهم معاوية لا

يعرفون فضل أحد في الإسلام، فهم حديثو عهد بالإسلام..!!
ولا يعرفون لشئ فضلاً إلا العطاء..!!

ولكم يغدق عليهم معاوية ..!.ثم

إن معاوية ليصطنع لنفسه كثيرين من رؤساء القبائل العربية: يثير فيهم العصبية القبلية، والنعرات المتعصبة، ثم يغدق عليهم ويجزل لهم من العطاء بغير حق أضعاف ما يعطيهم على بحق..!

علي يأخذهم بصرامة الحق، بما تحتمه سياسة إمام الدين، ومعاوية يجتذبهم بالرشوة بما تقتضيه حيلة رجل العصر الذي رأى أن يسبح على موجة العصر، وأن يروي الأطماع

التي استنبتها العصر في أعماق الرجال والنساء...!!على

لا يسكت على عوج أو خطأ يراه، بل يبادر فيقومه ويصلحه .. أما معاوية فيسترضي الناس بكل ما يرضيهم، ولا يجعل له على أحد سلطانًا ما دام لا ينازعه الملك، ولا يحول بين أحد وبين ما يقول أو يعمل ما دام هذا لا يحول بينه وبين الملك..

فما من شئ يعنيه أول الأمر وآخر الأمر غير الملك..!!

وإنه ليصرح بهذا في كل أقواله وأفعاله حتى لقد يبلغ الأمر حد الإهانة، فيحولها إلى دعابة، ويصطنع الحلم، ويمارسه حتى ليشتهر به ...!

تراهن جماعة من أهل الشام خليعا منهم على أن يقوم إلى معاوية إذا سجد فيضع يده على كفله ويقول: "سبحان الله ما أشبه عجيزتك بعجيزة أمك هند!".. ففعل الرجل السفيه ذلك، فلما انتهى معاوية من صلاته قال للرجل: "يا أخا العرب. إن أبا سفيان كان محتاجا إلى ذلك منها، فخذ ما جعلوه رهانا لك ..!".

كان اهتمام معاوية بالعرب، وبرؤساء القبائل العربية بصفة خاصة، أما الإمام فكان اهتمامه بكل المسلمين، ولم يكن اهتمامه بأهل الذمة أقل من اهتمامه بالمسلمين .. وكان يسوي في العطاء بين الخاصة والعامة .. بين الرؤساء والمرءوسين في القبائل العربية، وبين العرب وأهل البلاد المفتوحة المعروفين ..! على الرغم من أن بعض العرب يستنكف أن يسوي بالموالي..!!

ولكم نصحه ثقاته: "يا أمير المؤمنين، أعط هذه الأموال، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب ومن قريش على الموالي والعجم، واستمل من تخاف خلافه من الناس"..!!ولكم رد عليهم بالكلام نفسه: "إن المال مال الله، ويجب أن يقسم بالسوية". إنه من أجل إقامة العدل قبل الخلافة .. فإن لم يقم العدل، ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، ويدفع الباطل ويحمي حوض الشريعة وينشر مكارم الأخلاق، ويجعلها أساسا للتعامل بين الناس، فلماذا قبل البيعة ..؟!

دخل عليه عبد الله بن عباس فوجده يخصف نعله بنفسه .. فلما حدثه في أمر شدته على نفسه وعلى الناس قال أمير المؤمنين: "إن الخلافة أهون علي من النعل إن لم أقم بها العدل والحق، وأدفع الباطل ..!"

وعلي ليس كمعاوية: فقد ربته الطاهرة خديجة سيدة نساء العالمين، ومحمد سيد الخلق أجمعين .. أما معاوية فرباه أبو سفيان، وهند بنت عتبة..!! وما أبعد ما تنتجه تربية سيد الخلق وسيدة نساء العالمين، مما تنتجه تربية رأس الكفر وآكلة الأكباد .. بعد ما بين السماء والأرض ...!

إنه ليس كمعاوية: فقد كرم الله وجهه منذ كان صبيا فلـم يسجد لوثن أو صنم، وقد تربى على الفداء، فنام في فـراش رسول الله حين تآمر عليه كفار قريش ليقتلوه، مفتديا الرسول

بحياته..!! فما من خصلة من خصال علي إلا ناقضتها خصلة مـن

خصال معاوية ..!

رأى الإمام علي الناس من حولـه يتواكلـون، وذهـب بعضهم إلى أن كل شئ مقدر، فمـا جـدوى خـروجهم إذن لحرب معاوية وأهل الشام، والله غالب على أمره ..؟! فـإن كان قد قدر للإمام أن يظل أميرا للمؤمنين فسيخزي معاوية، وإن كان قد قدر لمعاوية أن يصبح هو الخليفة والملك، فـلا راد لقضاء الله ..!!

وفزع الإمام مما يسمع .. من أين جاءوا بهذه الأفكار..؟! وكيف يفهمون الإسلام ..؟

وجلس بين الناس يعظهم فقال: "كـان رسـول الله (ص) ذات يوم جالسا وفي يده عود ينكت به، فرفع رأسه فقال: ما منكم من نفس إلا وقد علم الله منزلها مـن الجنـة والنـار.

فقالوا: يا رسول الله فلم نعمل ..؟ أفلا نتكـل ..؟ قـال: لا،

اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له. ثم تلا قوله تعالى: ﴿ فأَمَّا من أَعطَى واتَّقَى * وصدَّقَ بِالْحسنَى * فسنُيسِّرُه لِلْيُسرى * وأَمَّا من بخِلَ واستغْنَى * وكذَّبَ بِالْحسنَى * فسنُيسِّرُه لِلْعُسرى ﴾".

وظل الإمام يعلمهم أن الله يحاسب كل إنسان بعمله، ولو أن الله قهر كل إنسان على ما يعمله وأجبره عليه، لما جاز له سبحانه أن يحاسب الناس، ولما كان هناك ثواب ولا عقاب، ولأصبح المحسن كالمسيء، والبر كالفاجر..!!

وفي الحق أن الإمام كان لا يحب أن يخوض الناس فيما لا يعلمون، وكان يؤثر لهم أن يتمسكوا بتعاليم دينهم في كل أمور حياتهم اليومية .. ولقد جعل من نفسه قدوة.

أُهدي إليه سمن وعسل، فضمه إلى بيت المال، وخرج يتفقد الأسواق ليقسمه عندما يعود، فلما عاد وجده ناقصا، وعلم أن ابنته أم كلثوم التي توفى عنها عمر بن الخطاب، قد أخذت منه، فأرسل الإمام من يقوم ثمن ما أخذته من العسل بخمس دراهم، فبعثتها، وباع السمن والعسل، وقسم الثمن على الناس.

وزاره رجل من أصحابه فطلب الطعام، ولم يكن أمير المؤمنين موجودا فأخرج إليه أبناؤه قصعة فيها مرق بحبوب.

فقال: "تطعمون هذا وأنتم أمراء الناس ..؟" قالوا: "كيف لـو رأيت طعام أمير المؤمنين..؟!".

وكان أمير المؤمنين يأتي السوق كل يوم يصنع ما تعـوّد أن يصنعه: يعين الحمال على حمولته، ويرشد الضال، ويعظ التجار.. وينصح من يجده في السوق ممن يلون أمـرا مـن أمور المسلمين (أي الموظفين والمستخدمين) ألا يقبلوا الهدايا من أهل السوق، ولا من أحد من الرعية، ويحـتج بالحـديث الشريف: "من استعملناه على عمل فرزقناه رزقًـا (راتبًـا)، فأخذ أكثر من رزقه فهو غلول (رشوة)".

وكان يرى تناول الطعام عند أحد من الرعية نوعا مـن الرشوة، إن لم يكن الداعي والمدعو صديقين .. وقـد دعـاه صاحب له عزيز عليه إلى الطعام فقال ضاحكًا: "سآتيك على ألا تتكلف ما ليس عندك، ولا تدخر عنا مـا عنـدك فشـر الإخوان ما تكلف له" فضحك صاحبه وقال: صدقت يا أميـر المؤمنين.

ثم روى الإمام لبعض عماله وقضاته وهـو يبتسـم: "أن عمر بن الخطاب حكى له، أن رجلاً أهدى له رجل جـزور (جمل أو ناقة)، ثم جاء يخاصم إليه بعد ذلك فجعل يقول: يا

أمير المؤمنين افصل بيننا كما تفصل رجل الجزور..! ثم قال عمر لعلي: "فو االله ما زال يكررها ويكزرها علي حتى كدت أقضى له ...! فاقض أنت أمره يا أبا الحسن ..!"

أضاف علي يعظ الناس أن عمر بن الخطاب رحمة االله عليه، مع منزلته في الإسلام، وشدته وصلابته في الحق، ومكانه من الدين، قد عرض له ما عرض في رجل جزور، أهديت إليه، مع قلتها وخساستها، فكيف بمن لا يدانيه في شئ من أشيائه، ولا يقاربه في فضله ودينه، وقد قبل هدية مهدٍ من رعيته أو غير رعيته، جليلاً خطرها، عظيما في قلبه موقعها، خاصم إليه خصما له، فما تراه فاعلاً ..؟!

وخطب التجار في السوق فقال ما تعود أن يقوله لهم: "قد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدبارا، والشرفيه إلا إقبالا، والشيطان في هلاك الناس طمعا، فهذا زمان قويت عدته (عدة الشيطان)، وعمت مكيدته، وأمكنت (سهلت) فريسته. اضرب بطرفك حيث شئت من الناس، هل تبصر إلا فقيرا يكابد فقرا، أو غنيا بدل نعمة االله كفرا، أو متمردا كأن بأذنه عن سمع المواعظ وقرا ..؟ أين خياركم وصلحاؤكم..؟ وأحراركم وسمحاؤكم ..؟ وأين المتورعون في مكاسبهم ..؟

والمتنزهون في مذاهبهم ..؟ أليسوا قد ظعنوا (رحلوا) جميعا عن هذه الدنيا الدنية والعاجلة المنغصة ..؟ وهل خلفتم إلا فيحثالة لا تلتقي بذمهم الشفتان استصغارا لشأنهم، وذهابا عن ذكرهم ..؟ فإنا الله وإنا إليه راجعون ..! ظهر الفساد فلا منكر متغير، ولا زاجر مزدجر..! أفي هذا تريدون أن تجاوروا الله في دار قدسه، وتكونوا أعز أوليائه عنده ..؟! هيهات ..! لا يخدع الله عن جنته، ولا تنال مرضاته إلا بطاعته. لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له، والناهين عن المنكر العاملين به".

ألا وإن أفحش الظلم ظلم الحاكم للمحكوم، والقوي للضعيف، والمحتكر للعامة ..! يا معشر التجار ألا إن التجار هم الفجار إلا من اتقى ربه وصدق، وبر، ووصل، وأدى الأمانة، والتاجر الصدوق مع النبيين والشهداء".

فما كان يمل من تكرار هذه الموعظة على التجار.

وذات يوم أقبل يتحدث مع التجار، فلاحظ أن فيهم عددا من الموالي (غير العرب)، وكانت الكوفة هي ملتقى التجار بين الشرق والغرب، فيها بضائع الأرض ومعارفها جميعا. ولاحظ أن الموالي الذين يتعلمون العربية يلحنون فيها، وكان

هذا اللحن يستملح من الإماء، أما الرجال فلحنهم معرة. ولقد أوشكوا أن يفسدوا اللغة ...!

واعتزم الإمام أن يأمر بوضع علم النحو لصيانة اللسان العربي.

ولقد كان الإمام يحض الناس على التعلم، ويقول في السوق وفي الطريق وفي المسجد وحيثما تجمع له الناس: "العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنحو للسان، والنجوم لمعرفة الأزمان" وكان يحض التجار على تعلم

الحساب.. وقد تعود أن ينصح بقوله: "العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم

يزكو على الإنفاق.. هلك خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر: أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة".

وكان يقول متحسرا: "لو أن حملة العلم حملوه بحقه، لأحبهم الله وأهل طاعته من خلقه، ولكنهم حملوه لطلب الدنيا، فمقتهم الله وهانوا على الناس !".

وقال: "إذا مات المؤمن العالم، ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها شئ إلى يوم القيامة".

وكان يكرر: "يا طالب العلم: إن العلم ذو فضائل كثيرة، فرأسه التواضع، وعينه البراءة من الحسد، وأذنه الفهم، ولسانه الصدق، وحفظه الفحص، وقلبه حسن النية، وعقله معرفة الأشياء والأمور، ويده الرحمة، ورجله زيادة العلماء، وهمته السلامة، وحكمته الورع، ومستقره النجاة، وفائدته العافية، ومركبه الوفاء، وسلاحه لين الكلمة، وسيفه الرضاء، وجيشه محاورة العلماء، وماله الأدب، وذخيرته اجتناب الذنوب، وزاده المعروف، ومأواه الموادعة، ودليله الهدى، ورفيقه محبة الأخيار، والعلماء غرباء لكثرة الجهال بينهم! العلم تحفة في المجالس وصاحب في السفر، وأنس في الغربة".

وكان ينصح هواة الطعام بأن يقتصدوا ويعظهم بقوله: "كثرة الطعام تميت القلب، كما تميت كثرة الماء الزرع".

* * * *

ذات يوم عاد أمير المؤمنين إلى بيته، فوجد على ابنته لؤلؤة من بيت المال كان قد عرفها. فسأل: "من أين لها هذه

اللؤلؤة ..؟ الله علي أن أقطع يدها ..!" فوثب إليه خازن بيت المال فقال له: "أنا والله يا أمير المؤمنين زينت بها ابنة أخي- واليوم عيد – على أن تردها، ومن أين كانت تقدر عليها لو لم تُعطَها ..؟" فوبخه، وحذَّره أن يعود لمثلها، ثم قال: "يا بنت ابن أبي طالب لا تذهبي بنفسك عن الحق ..! أكل نساء المهاجرين والأنصار يتزين في العيد بمثل هذا..؟!".

واعتذر خازن بيت المال، ورآه الإمام يرتعد من الخوف، فقال يهون عليه: "إنني لأرفع نفسي عن أن يكون ذنب أعظم من عفوي، وجهل أكثر من حلمي، وعورة لا يواريها ستري، أو إساءة أكثر من إحساني".

وإن الإمام لفي داره إذ جاءه كتاب من معاوية، وشاع الخبر بين الناس .. فتوافوا على الإمام، فقد حسب الناس أن معاوية تاب وأناب.

ولكن الكتاب كان فيه مسائل لم يعرفها معاوية، ولا أحد من أهل الفتيا الذين معه عرفها، فأرسل معاوية إلى الإمام علي يسأله عنها ..!

من ذلك أن رجلاً خطب إلى رجل آخر ابنته من امرأته الحرة، فزوجه ابنته من الأمة، فلما اكتشف الزوج الحقيقة بعد الدخول شكا إلى معاوية فسأل من حوله فقالوا: "إنما هي امرأة بامرأة".

فلم يطمئن الرجل إلى صحة هذا الرأي، وطلب أن يسألوا علي بن أبي طالب.

فرد عليهم الإمام: يجلد الأب لتدليسه وافترائه، وعليه أن يجهز الأخرى (بنت الحرة) من ماله، أما بنت الجارية فطالق، ولكنه لا يقرب أختها حتى تنقضي عدتها كيلا يجمع بين الأختين..!

ومنها أن رجلين تنازعا في ثوب فأقام أحدهما البينة، وقال الآخر: "اشتريته من رجل لا أعرفه". فلم يعرف معاوية ولا من معه ما حكم المسألة، فقضى الإمام لمن ادعى وأقام البينة.

ومنها أن رجلاً قال له بنو عمه وهم أيضا بنو عم امرأته: "إن امرأتك لا تحبك فإن أحببت أن تعلم ذلك فخيرها: فقال لها اختاري" قالت: "ويحك اخترت ولست بخياري" وكررتها ثلاث مرات. فقالوا له: "حرمت عليك".

ولم يقض معاوية ومن معه بحكم، حتى قضى الإمام بأنها لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره ..!

وقد غضب بعض أصحاب الإمام لأنه يجيب معاوية في أمور الدين ويهديه إلى الصواب، فقال: أما يكفيكم أنه احتاج إلينا وسألنا ..؟ الحمد الله الذي جعل عدونا يسألنا عما نزل في أمور ديننا" ثم أمرهم بأن يخلصوا في المشورة إذا ائتمنهم عدوهم واستشارهم..!

وقام الإمام يكتب أوامره كما تعود لمن يستعمله على الصدقات: "انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له، ولا تروع نمسلما، ولا تجتاز نعليه كارها، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله، فإذا قدمت على الحي فأنزل بمائهم .. ثم أمض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم، ولا تخدع (تبخل) بالتحية لهم، ثم تقول: عباد الله، أرسلني إليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل الله في أموالكم حق فتؤدوه إلى وليه ..؟ فإن قال قائل: لا ..! فلا تراجعه. وإن أنعم لك منعم (قال نعم)، فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعده أو تعسفه (ترهقه) ..! فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه،

فإن أكثرها له، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به، ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها، ولا تسوءن صاحبها فيها. ثم اصدع المال صدعين (اقسمه نصفين) ثم خيره، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله، فاقبض حق الله منه، فإن استقالك فأقله (إن طلب الإعفاء من هذه القسمة فأعفه منها)، ثم أخلطهما، ثم أصنع مثل الذي صنعت أولاً حتى تأخذ حق الله في ماله .. ولا تعمل بشئ من طاعة الله فيما تظهر، وتخالف إلى غيره فيما تُسِر! فمن لم يختلف سره وعلانيته، فعله ومقالته فقد أد□ى الأمانة، وأخلص العبادة. وآمرك بتقوى الله في سرائر أمرك، وخفيات عملك، حيث لا شاهد غيره سبحانه، ولا وكيل دونه.

وآمرك ألا ترغب عن الناس تفضلاً بالإمارة عليهم، وألا تجبههم، ولا تعضهم (أي تضرب جباههم وتؤذيهم) فإنهم الإخوان في الدين، والأعوان على استخراج الحقوق. وإن لك في هذه الصدقة نصيبا مفروضا، وحقًا معلومًا، وإن لك شركاء أهل مسكنة، وضعفاء ذوي فاقة، وإنا موفوك حقك فوف حقوقهم ..! وإلا فإنك من أكثر الناس خصوما يوم

القيامة، وبؤسا لمن خصمه عند الله الفقـراء، والمسـاكين، والسائلون، والغارم، وابن السبيل ..! ومن استهان بالأمانـة ورتع في الخيانة، ولم ينزه نفسه ودينه عنها، فقد أحل بنفسه في الدنيا الذل والخزي، وهو في الآخرة أذل وأخزى، وإن أعظم الخيانة خيانة الأمة، وأعظم الغش غش الأئمة".

وكان هذا دستورا للجباة وهم بلغـة عصـرنا مـأمورو الضرائب، فمن حاد عنه أخذه الإمام بالشدة، وحملـه علـى الطريق الصواب، وهداه إلى المحجة.

* * * *

خلا الإمام إلى نفسه يفكر في كل ما مر به .. وطالما خلا إلى نفسه ففكر وتدبر واعتبر..!!

وتذكر الإمام بعض ما تعلمه عن كتب الهنـد والفـرس واليونـان .. وتذكر ما قاله كسرى أنو شروان ملـك الفـرس الغابر قال: "إنما أفحص عن الأعمال لا السـرائر، وأحكـم الأجساد لا القلوب، وأحكم بالعدل لا بالرضا".

ثم تذكر نصيحة ملك فارس لولي عهده: "لا توسعن على عمالك توسعة يستغنون بها عنك فيطغوا، ولا تضيقن علـيهم ضيقًا يضجون به منك ...!".

صدق رسول الله .. علمنا أن نطلب العلم حيث وجدناه ولو في الصين وهي أقصى الأرض، وعلمنا أن الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها ..!

وتذكر الإمام مثلاً جاء في كتب الهند، فابتسم .. ودخل عليه بعض أصحابه، وما كانوا ليتركوه يخلو إلى نفسه، فثمة هموم ومشاغل أو مشاكل أو مسائل ..!فلما

سألوه أي شئ طاف بخاطر أمير المؤمنين فأضحكه .. قال: "حكاية من كتب الهند أو الفرس..!!" ثم استطرد يحكي الحكاية: "أثوار ثلاثة كن في أجمة، أبيض وأسود وأحمر، ومعهن فيها أسد، فكان لا يقدر منهن على شئ لاجتماعهن عليه. فقال للثور الأسود والثور الأحمر: لا يدل علينا في أجمتنا إلا الثور الأبيض، فإن لونه مشهور، ولوني على لونكما، فلو تركتماني آكله صفت لنا الأجمة ..! فقالا له: دونك فكُله. فأكله. فلما مضت أيام، قال للأحمر: لوني على لونك فدعني آكل الأسود، لتصفو لنا الأجمة ..! فقال: دونك فكُله! فأكله .. ثم قال للأحمر: إني آكلك لا محالة ..! فقال: دعني أنادي ثلاثًا، فقال: افعل فنادى: إني أكلت يوم أكل الثور الأبيض ..!".

وفهم الناس ما يعني الإمام بهذا المثل، فلو أنه نهض بالمهاجرين والأنصار فقاوموا المتطرفين من القراء يوم اتهموا عثمان بالكفر، لما غلب الثوار أهل المدينة على أمرهم فقتلوا عثمان ..!. ولو أنه قمع هؤلاء المتطرفين بعد أن بويع، لما أفسدوا عليه أمر ِفّين وقهروه على التحكيم، ثم أفسدوا عليه أمر الأمة إذ اتهموه بالكفر لأنه قبل التحكيم، ثم انطلقوا يحكمون بالكفر على من يخالفهم وعلى من لم ينخلع من طاعة علي..!

ووجد أصحاب الإمام أن المقام مقام اعتبار وعلم وموعظة، فسأله أحدهم عن صفة المؤمن، فقال الإمام: "المؤمن بشره في وجهه، وحزنه في قلبه، أوسع شئ صدرا، وأذل شئ نف ﷲ يكره الرفعة، ويشنأ (يبغض) السمعة، طويل غمه، بعيد همه، كثير صمته، مشغول وقته، شكور صبور، سهل الخليقة لين العريكة".

فسأله أحد الجهلاء سؤالاً غير واضح، وفيه عنت، عن معضلة مبهمة ..!.

فقال الإمام ناصحا: "اسأل تفقها ولا تسأل تعنتًا، فإن الجاهل المتعلم أشبه بالعالم، وإن العالم المتعسف شبيه بالجاهل المتعنت ..!".

فتجهم الرجل فقال الإمام له ضاحكًا: "من لان عوده كثفت أغصانه ..!".

فعاد صاحبه الذي سأله عن صفة المؤمن يسأله: "ما أفضل الإيمان يا أمير المؤمنين" فهش له الإمام وأقبل عليه قائلاً: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيث كنت".

ولاحت من الإمام نظرة عطف حانية أبوية على صاحبه الذي يسأله عن المؤمن والإيمان، فضاق الرجل الجاهل الذي سأل الإمام متعنتًا بمكانة صاحبه الآخر عند أمير المؤمنين!

وأدرك الإمام ما ينطوي عليه هذا الجاهل من حسد، فقد وشت به نظراته، فقال الإمام ناصحا مشفقاً: "ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد: نفس دائم، وقلب هائم، وحزن لازم مغتاظ على من لا ذنب له، بخيل بما لا يملك".

وشرد الإمام قليلاً، فأدرك بعض أصحابه ما يعانيه من تخاذل جنوده بعد أن استولى معاوية على مصر، وقتل محمد

بن أبي بكر والأشتر، ونفرا من شيعة الإمام ثم سرح سرايا ترشو الخوارج، وتغير بهم على أطراف البلاد، وتقتل الأبرياء لأنهم في طاعة علي، لم يحكموا بكفره ..!

فوثب بعض أصحاب الإمام فقالوا: "يا أمير المؤمنين نحن نكفيكهم" فقال ساخرا: "ما تكفوني أنفسكم فكيف تكفونني غيركم ..؟! إن كانت الرعايا قبلُ لتشكو حيف رعاتها، فإنني اليوم لأشكو حيف رعيتي، كأني المَقُود، وهم القادة ..!!".

وسكت أصحابه، ولكنه ابتسم في مرارة، وظل يفحص وجوههم، فوجد أحدهم متجهما فسأله عما به، فعلم أنه خرج من بيته مغاضبا بعد أن أغلظ لأهله، فذكره الإمام بالحديث الشريف: "خيركم خيركم لأهله".

فذم الرجل النساء جميعا، زاعما أن المرأة خلقت من ضلع أعوج، وأن النساء ناقصات عقل ودين ..! فحذرهم الإمام من النعرة الجاهلية، أيام كانوا يكرهون الإناث ويفضلون الذكور، وحين كانت المولودة توأد .. ثم ذكرهم بمكانة فاطمة الزهراء عند أبيها سيد المرسلين، وبحب الرسول لبناته .. وقال: "آمركم بالنهي عن المنكر، والإحسان إلى نسائكم" فلما

جادله أحدهم قال: "انصروا المظلوم، وخذوا فوق يد الظالم المريب، وأحسنوا إلى نسائكم".

وحاول الرجل الجاهل أن يقول في حدة ما يناقضه به، فقال له الإمام: "لا تجعلن ذرب لسانك على من أنطقك، وبلاغة قولك على من يسددك ..!. وليس جزاء من عظم شأنك أن تضع من قدره، ولا جزاء من سرك أن تسوءه ..!"

وتشعب حديث أصحاب الإمام، فتحدث أحدهم بنوع من الإعجاب عن مكر معاوية ودهائه، فقال الإمام: "واالله ما معاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت أدهى الناس ..! ولكن كل غدرة فجرة، ولكل فجرة كفرة، ولك غادر لواء يعرف به يوم القيامة، واالله ما استغفل بالمكيدة، ولا استغمز (استضعف) بالشديدة".

ولاحظ أحد أصحابه أنه يلبس قميصا جديدا ولكنه يضع عليه رداءً قديما فسأله في ذلك، فقال الإمام ضاحكاً: "إنما ألبس هذا الرداء ليكون أبعد لي عن الزهو والكبر".

وكان الإمام على الرغم من خشونة ملبسه نظيف الثوب، طيب الرائحة .. فقد كان يحب الرائحة الطيبة، ويرغب فيها .. وكان إذا رأى رجلاً يدخل المسجد في ثياب قذرة، أو له

رائحة منكرة، زجره، فليس هذا من النسك، فالنظافة من الإيمان، وقد قال تعالى: ﴿ **يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾.

وسأله بعض أصحابه: "ما تقول في أبي بكر وعمر..؟".

وعجب الإمام لهم ..!! ما جدوى هذا الآن، ومعاوية يهاجم أطراف البلاد وجنده يقتلون وينهبون ..؟!

أما زال هناك من يريد أن يسمع قول الإمام في أبي بكر وعمر..؟! لكم قال ..!! وقال: "إن الله اجتبى لرسوله من المسلمين أعوانا أيده الله بهم، فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام. فكان أفضلهم في الإسلام وأنصحهم الله ورسوله الخليفة (أبو بكر) وخليفة الخليفة (عمر) ولعمري إن مكانهما من الإسلام لعظيم، وإن المصاب بهما لجرح في الإسلام شديد، رحمهما الله وجزاهما أحسن ما عملا" .. وكم قال في عمر: "أقام السنة، وذهب نقي الثوب، قليل العيب، أصاب خيرها، أدى إلى الله طاعته، واتقاه بحقه". وطال الصمت فعادوا يسألون الإمام: "ما تقول في أبي بكر وعمر..؟" وكان السؤال يعني حق أبي بكر وعمر

رضي

الله عنهما في تولي الخلافة قبله ..! فقال لائما منكرا غاضبا مؤنبا: "أهذا ما أهمكم ..؟! وقد تفرغتم لهذا، وهذه مصر قد افتتحت وشيعتي قد قتلت ..!".

ثم ناشدهم أن يحرضوا أصحابهم على الخروج لمعاوية، فسكتوا .. فقال:

"أيتها النفوس المختلفة، والقلوب المشتتة، الشاهدة أبدانهم، والغائبة عنهم عقولهم .. هيهات أن أطلع بكم سرار العدل (سرار: الظلمة، يعني الظلمة التي غشيت العدل) أو أقيم بكم اعوجاج الحق ..! اللهم إنك تعلم أن لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شئ من فضول الحكام، ولكن لنرد المعالم من دينك، وتظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك".

جاء عليا فيء كثير ملأ بيت المال مرة بعد مرة، ثم مرة ثالثة، فقام فوزعه بالسوية بين المسلمين كما تعود، وأخذ هو نصيبه كواحد منهم .. ثم جاءه مال آخر كثير من أصبهان فخطب الناس فقال: "اغدوا إلى عطاء رابع، فو الله ما أنا لكم بخازن" وبعد أن وزع الأموال كنس بيت المال وصلى فيه .. كما تعود .. ثم تمدد على أرضه، فأغفى .....

فجاءه من يخبره أن معاوية أرسل جيشًا يغزو البصرة، وأنه رشا بعض كبارها، وأنه استثار العصبية الجاهلية في رؤسائها وبصفة خاصة رؤساء بني تميم، فقد جاء ابن الحضرمي على رأس جند كثيف، فاتجه إلى بني تميم وسائر أشراف البصرة، فقرأ ابن الحضرمي كتاب معاوية إلى أهل البصرة يعدهم فيه إن هم بايعوه وخلعوا بيعة على أن يعطيهم عطاءين لا عطاءً واحدا في السنة ..!! فاعتزل بعض شيوخ البصرة إذ شعروا بالمهانة من هذا العرض بالرشوة، وعلى رأسهم حكيمهم الأحنف .. ومال بعضهم إلى معاوية فقال قائلهم لابن الحضرمي: "لننصرنك بأيدينا وألسنتنا"..

وازدرى بعضهم هذا الأسلوب المهين، فأزرى بمبعوث معاوية وقال له: "والله لئن لم ترجع إلى مكانك الذي جئتنا منه لنجاهدك بأسيافنا ورماحنا، ولا يغرنك هذا الذي يتكلم فما هو بشئ ...!".

وقال رجلٌ حرٌ آخر: "لبئس ما جئتنا به، وما تدعونا إليه أنت ومعاوية ..!! أتيتنا والله بمثل ما أتانا به طلحة والزبير: إذْ أتيانا وقد بايعنا عليا واستقامت أمورنا، فحملانا على الفرقة حتى ضرب بعضنا أعناق بعض ونحن الآن مجتمعون

على بيعة علي، وقد أقال العثرة وعفا عن المسيء، أفتأمرنـاأن ننتضي أسيافنا ويضرب بعضنا بعضـا ليكـون معاويـة أميرا ..؟!".

وانقسم أهل البصرة، فمنهم من انحاز إلى مبعوث معاوية ابن الحضرمي ومنهم من قاتله .. وكان عبد الله بن عبـاس أمير البصرة عند علي بالكوفة حينئذ، ولهذا انتهـز فرصـة غيابه، وأرسل حملته الكثيفة ليستولي على البصرة..!

غير أن الأتقياء وأحرار الضمائر مـن أهـل البصـرة، رفضوا أن ينكثوا ببيعة علي .

ولما كان معاوية قد حاول أن يثير عصبية بني تميم فقـد أرسل علي جيشـًا بقيادة أحد رؤسائهم وهو جاريـة، فهـزم جارية، فهزم جارية جند الشام بقيادة ابن الحضرمي، وفـر ابن الحضرمي إلى قصرٍ حصينٍ أمامه خندق عميق ملـيء بالماء، فاحتمى به، ومعه ابن حازم، فأمرته أمـه – وهـي امرأة حبشية ـ أن ينزل من القصر، فأبى ابن حازم فقالـت تهدده: "لتنزلن أو لأنزعن ثيابي ..!" وبدأت تنـزع ثيابهـا، فأسرع بالنزول ونجا..!!

أما ابن الحضرمي، فقد ظل ممتنعـا بالقصـر، ودونـه الخندق العميق المليء بالماء، ولكن جارية عبر برجاله هـذا الخندق، فأحرق القصر على من فيه، وهلك ابن الحضـرمي ومعه سبعون رجلاً، ما بين حريق وغريق ..!!

وهدأ معاوية عن علي قليلاً..!

ولكنه حرض بعض الخوارج الذين لم يشهدوا النهـروان .. كان يعرف أن الخوارج يتهمونه كما يتهمون عليا بالكفر، ولكنه استطاع أن يخدعهم .. وتوافق النقيضان ضد علي..!!

وخرج هؤلاء المتطرفون يعربدون علـى النـاس بـأن مرتكب الكبيرة كافر، وأفتوا بتكفير كل من كان في طاعـة علي، وكل من رفض أن يجاريهم في اتهامهم عليا بـالكفر.. فأرسل إليهم أمير المؤمنين ناصحا: "إن أبيتم إلا أن تزعموا أني أخطأت وضللت، فلم تضللون عامة أمة محمد صلى الله عليه وعلى آله بضلالي..؟ وتأخذونهم بخطئي، وتكفرونهم بذنوبي ..؟! سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البـرء والسقم، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب. وقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وآله رجم الزانـي المحصـن ثـم صلى عليه، ثم ورثه أهله، وقتل القاتل وورث ميراثه أهلـه،

وقطع السارق وجلد الزاني غير المحصن، ثم قسم عليهما من الفيء ونكحا (تزوجا) المسلمات. فأخذهم رسول الله صلى الله عليه وآله بذنوبهم وأقام حق الله فيهم، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام. ولم يخرج أسماءهم من بين أهله ..! ثم أنتم شر الناس من رمى بهم الشيطان مراميه، وضرب بهم تيه (سلك في بادية ضلاله) .. وسيهلك في صنفان: محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق. وخير الناس في حالا النمط الأوسط، فالزموه والزموا السواد الأعظم. فإن يد الله مع الجماعة، وإياكم والفرقة فإن الشاذ من الناس للشيطان، كما أن الشاذ من الغنم للذئب ..! ألا من دعا إلى هذا الشعار (الخروج على الجماعة) فاقتلوه ولو كانت تحت عمامتي هذه".

له الله هذا الإمام فيما يلقاه ..! وإن الخوارج ليكفرونه إذ بآخرين يؤلهونه..!!

وأرسل الإمام إلى من يؤلهونه من يردهم إلى الهدى، ولكنهم أبوا، وغالوا في تأليهه .. وفروا وتفرقوا فلم يدركهم أحد من أصحاب الإمام..!!

ثم أرسل حملة يقودها أحد أصحابه إلى الذين يكفرونـه، فهزموها، وقتلوا صاحب الإمام، فأرسل إليهم حملة أخـرى كثيفة فهزمتهم .. وكان ذلك في رجب سنة ثمان وثلاثين.

وصعد الإمام المنبر ليشكو للناس خروج هؤلاء الخوارج الجدد وقال لهم: "لا تقتلوا الخوارج من بعدي، فلـيس مـن طلب الحق فأخطأه، كمن طلـب الباطـل فأصـابه" (يعنـي معاوية) .....

ثم أبدى الإمام ندمه لأنه لم يأخذ الخوارج بالشدة والحسم أول الأمر حين قهروه بمساعدة الأشعث بن قيس على الكف عن القتال في ◌ِّفين ليقبل التحكيم، ثم قادهم الأشـعث بعـد ذلك ليقهروه مرة أخرى على قبول أبي موسى حكما: عصبية جاهلية من الأشعث لأنه يماني مثله، ثم ندموا بعد ذلك لأنهم قبلوا التحكيم، فاتهموا عليا بالكفر لأنه خضع لهم..!!

فاعترضه الأشعث وقال: "يا أمير المؤمنين هذه عليـك لا لك..!".

الأشعث أيضا ....؟!

فخفض الإمام بصره وهو على المنبـر.. وانفجـر بكـل ضيقه مما يصنعه الأشعث منذ ◌ِّفيدوقال: "ما يدريك مــا
ن

علي مما لي ..؟! عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين ..! منافق ابن كافر (وكان هذا الأشعث من علي كابن سلول من رسول الله كل منهما رأس النفاق)، والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى (وكان الأشعث قد ارتد أيام أبي بكر فلجأ إلى حصن أثناء حروب الردة، فلما حوصر طلب أن يسلم المسلمين الحصن إذا أمنوه هو وعشرة من أقاربه، فأمنوه فأخذوه أسيرا هو وأقاربه العشرة فعفا عنهم أبو بكر لأنهم رجعوا إلى الإسلام. أما سائر من كان في الحصن من قومه فقد قتلوا جميعا فكان الأشعث يعير بهذا). فما فداك في واحدة منهما (يعني الأسر مرتين) مالك ولا حسبك .. وإن امرءا دلَّ على قومه السيف، وساق إليهم الحتف، أحرى أن يمقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد ..!".

* * * *

عاد معاوية يرسل حملات على بلاد متفرقة من أرض خلافلة على..

ليت معاوية وله بلاء سابق في الجهاد، وليت عمرو بن العاص وله سوابق مشهودة في الفتح، ليتهما جمعا دهاءهما ورجالهما إلى رجال علي وذكائه وعلمه وورعه وتقواه

وحكمته وفضله وشجاعته، وما يعمر قلبه وقلوب الصالحين من رجاله من حب الاستشهاد في سبيل الله ..!! ليت كل أولئك اجتمع وتوجه تحت راية الإسلام بقيادة علي إلى الفتح والجهاد ونشر الإسلام، إذن لأشرقت شمس هذا الدين على العالم كله، ولأصبحت البشرية كلها أمة واحدة مسلمة ..!!

ولكن الذي كان يشغل معاوية وأصحابه هو إسقاط علي بما يمثله علي وبكل ما ينادي به، لتبقى تحت أيديهم الأموال الطائلة والضياع الشاسعة، وليتمتعوا بزينة الحياة وطيباتها وملذاتها، فيتخموا، وإن التمس آخرون أقواتهم في مزابل أقوام أغنياء ...!.

ما كان يشغل معاوية وعمرو وجنودهما إلا الملك ..!!

من أجل ذلك بكى عمرو أحر بكاء، وندم أشد الندم على ما فرط منه عندما أحس بدنو الأجل..!!

* * * *

على أن الإمام حاول أن يتيح للأمة فرصة تلتقط فيها أنفاسها، لتستأنف الجهاد في سبيل الله، فلعلها إن اتجهت لنشر دين الله، تاب وأناب قوم توابون، وجاء نصر الله والفتح ..!

أرسل علي صاحبه المجاهد الجسور الحارث بن مرة العبدي إلى بلاد السند، في خيل عظيمة، وانضم إليه الكثيرمن المقاتلين، حتى من الذين تكاسلوا عن الخروج لحرب أهل الشام ..!! ذلك أنهم رأوا في فتح السند جهادا أعظم في سبيل الله، فخرجوا بتلك الروح المتوقدة المقدسة التي كانت تلهب عزائم الصحابة المجاهدين الأوائل في المغازي والفتوحات الكبرى، أيام الرسول والخلفاء الثلاثة الراشدين من بعده ..!

خرج هؤلاء المجاهدون بقيادة الحارث بن مرة العبدي ليضيئوا بنور الإسلام بلادا تلفها ظلمات الجهالة والشرك والجور، وإنهم لعلى يقين أن لهم إحدى الحسنيين: إما النصر وإما الشهادة ...!

وانتصر رجالُ علي انتصارا رائعا في بلاد السند، وغنموا أموالاً طائلة، وقسم الحارث ابن مرة العبدي قائد الجيش في يوم واحد ألفًا من السبايا ..!

وكانت أرض السند من أخصب الأراضي وأكثفها سكانًا، فأجرى فيها الإمام الحكم الذي أجراه عمر على الأرض المفتوحة .. وهو الحكم الذي اتفق عليه عمر وعلي وعثمان

في عهد عمر واقنعوا به بقية المهاجرين، وأيدهم الأنصار: أن تبقى الأرض في يد زارعيها من أهل البلاد المفتوحة،وأن يؤدوا عنها خراجا لبيت المال، ليسد حاجات الأمة وينفق منه أمير المؤمنين على المصالح العامة جميعا. وهذا هو الإنفاق في سبيل الله.

وكان علي قد أمر قائد جيشه الحارث بن مرة العبدي أن يعرض الإسلام على أهل البلاد التي فتحها، وأن يشرح لهم مباديء الدين الجديد، وأن يبين لهم ما يحققه الدين للإنسانية من كرامة وحرية ومساواة وحقوق .. فلا مفاضلة بين مسلم وآخر إلا بالتقوى، والعمل الصالح ..!!

فدخل في الإسلام كثير من أهل السند، ودفع الآخرون جزية ضخمة.

إن عليا ليعلم علم اليقين أن سكان العالم جميعا يتطلعون إلى الإسلام منقذًا لهم من غائلة الاستعباد والهوان، ومن ليل الشرك الداجي الظلمات ..!! ولو بلغهم الإسلام، لدخلوا في دين الله أفواجا..

ولكن كيف السبيل ..؟! ألا تتقي الله يا معاوية أنت وعمرو ..؟!

لكم دعا الإمام أن يهدي الله معاوية وعمرو بن العاص وجنودهما فيدخلوا في الطاعة، وينطلقوا جميعا تحت راية الإسلام، والأخوة الإسلامية شرقاً حتى الصين، وغربا حتى بحر الظلمات، فينشروا الإسلام في كل بلاد يحيا عليها بشر، ويحرروا الإنسانية المشوقة إلى الحرية والعدل والنور والإخاء، ويجعلوا كلمة الله هي العليا، فيصبح الإسلام وقد عمر قلوب الناس من أقصى الشمال إلى أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ليكون العالم كله أمة واحدة تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم حياتها على التراحم والتآخي ومكارم الأخلاق التي جاء بها الإسلام، وتصبح الإنسانية كلها أهل القبلة ..!!

يا للأحلام، ويا للأماني ..!!

فما كاد الإمام وأصحابه المتقون والمساكين، يفرحون بنصر اله والفتح المبين في السند، حتى روعتهم أنباء تقطع نياط القلوب ..!

فبدلاً من أن تتحد جيوش المسلمين لتنشر نور الله على أرض البشر، سلط معاوية بعض المسلمين ليسفكوا دماء إخوانهم المسلمين غدرا وعدوانا وبغيا .....

بعث معاوية سراياه إلى أطراف بلاد على، تنقض عليها، وتنتقضها وتقتل الآمنين، وتنهب الأموال:

فقد بعث النعمان بن بشير إلى عين التمر وهي بلدة قريبة من الأنبار قرب الكوفة، فاستولى عليها وقتل أهلها، ولما بلغ عليا الخبر حض الناس على الخروج لإنقاذ إخوانهم في عير التمر من بطش البغاة، فتثاقل الرجال ..! يا للرجال..!

وشجع هذا التخاذل معاوية فبعث سفيان بن عوف وأمره أن يستولي على هيت (قرب الأنبار)، وأن يوقع بأهل الأنبار والمدائن، فلما أتى هيتا وجدها خاوية على عروشها فقد ولى أهلها منه فرارا ثم جاء جند معاوية الأنبار وكانوا ستة آلاف، فلم يجدوا من جند على غير مائتين إذ كان قائدهم كميل قد خرج بثلثمائة رجل ليدافعه عن هيت حين علم أن أهل قرقيسيا يريدون الغارة عليها لحساب معاوية ..!! واستولى سفيان بن عوف قائد حملة معاوية على كل ما في الأنبار من

أموال: حتى حلى النساء ..!! فقد نهب ما في بيت مالها، كما نهب أموال أهلها ..!

فلما علم الإمام حض جنوده للخروج لإنقاذ الأنبار، فتثاقلوا، ثم خرجوا متكارهين، فوصلوا إلى الأنبار حين بلغ سفيان بن عوف دمشق، فسر معاوية بما صنع وكافأه أحسن مكافأة ..!!

وبعث معاوية عبد الله بن مسعدة إلى تيماء بين الشام ووادي القُرى، وأمره أن يستولي على الصدقة التي يؤديها أهل البادية لبيت مال علي، وأن يقتل من امتنع ..!! فاستولى على الصدقات وزحف حتى بلغ مكة والمدينة فأرسل علي إليه جندا يقودهم المسيب بن نجبة الفزاري، فتقاتل الجندان، وانتهز الأعراب الفرصة فنهبوا إبل الصدقة التي كان جند معاوية قد نهبوها وفر جماعة من جند معاوية عائدين إلى الشام، وبقي قائدهم ابن مسعدة وعدد قليل منهم، فاقتنعوا بأحد الحصون، فحاصرهم المسيب وجند علي وأوشكوا أن يحرقوا الحصن على م□ن فيه، ولكنهم استعطفوه وبكوا وعلا نشيجهم، فرق لهم المسيب، وكانت تعمر قلبه الرحمة

والمروءة كإمامه علي، فعفا عنهم، وخرجوا عائدين إلى الشام بعد أن عاهدوه على ألا يعودوا لمثلها ..!

لو أن رجال معاوية صنعوا كما صنع المسيب، لكبت معاوية، وخاب من حمل ظلما، ولحقنت دماء كثيرة ..!!

وأرسل إلى معاوية بعض المهاجرين والأنصار يعظونه وينصح له بأن يكف عن بغيه، حقنًا لدماء المسلمين..!

ولكن معاوية كان قد صمم على ألا يسكت حتى يسقط عليًا، ليصبح هو ملكاً على الأمة الإسلامية كلها، مهما يكلف هذا المطلب أمة محمد من دماء ..!!

وأرسل معاوية الضحاك بن قيس وأمره بأن يسير إلى الطريق بين الكوفة ومكة فيقطع الطريق، ويغير على كل من يمر بهذا الطريق ممن يدين بالولاء لعلي، فيستولي على أمواله ويقتله..!!

وهكذا قتل الضحاك وجنوده كثيرا من الأبرياء، واغتصب كثيرا من الأموال، ثم انحدر برجاله متجها إلى مكة يغير على الأعراب وأهل القرى، فإن أقروا بالطاعة لعلي قتلهم ونهب أموالهم .. فلما بلغ ذلك عليا أرسل إليه حجر بن عدي في أربعة آلاف مقاتل، فالتقيا واقتتلا حتى هبط الليل ففر

الضحاك بن قيس بما نهب من أموال وأنعام ومتاع .. ثم بعث معاوية يزيد بن شجرة على مكة، أميرا على الحج من قبله، وأمره معاوية أن يأخذ البيعة من الناس في الموسم، فمن رفض البيعة فليقتله ..! واستنهض قثم بن العباس عامل علي على مكة أهل مكة فلم ينهض معه أحد ..!! فاتفق ويزيد مبعوث معاوية أن يتركا أمر الحج بالناس؛ لكي لا يقتتلا في الموسم عند المسجد الحرام ...!

فحج بالناس شيبة بن عثمان، فلما انقضى موسم الحج أرسل علي مددا لقثم، فيه أبو الطفيل ومعقل بن قيس، فاقتتل الجيشان، وانهزم ابن شجرة وفر جند معاوية، كما أسر حجر بن عدي كثيرا من رجال معاوية ففاداهم علي بأسراه عند معاوية ..!

ثم أرسل معاوية سرايا إلى دومة الجندل، وإلى نصيبين، فأنفذ إليهم. على صاحبه كميل بن زياد وهو في هيت، فسار إليهم، وأمده برجاله، فهزموا جند معاوية، وأحدثوا فيهم مقتلة عظيمة، وفر الآخرون عائدين إلى الشام، فغنم جند كميل ماشية كثيرة وخيلاً ومتاعا، فأرسل إليه الإمام علي يأمرهم

ألا يغنموا من أموال المنهزمين إلا ما قاتلوا عليه وبه: الخيل والسلاح فحسب ..!

وسار معاوية بنفسه حتى بلغ دجلة .. رجع دون أن يحارب ..! وتذكر بعض أصحابه ما دار بينه وبين عمرو ذات يوم من أيام صِفِّين قال له عمرو: "والله يا معاوية قد أعياني أن أعلم أشجاع أنت أم جبان ..؟! لأني أراك تتقدم حتى أقول: أراد القتال، ثم تتأخر حتى أقول: "أراد الفرار" فقال معاوية: "والله ما أتقدم حتى أرى التقدم غنما، ولا أتأخر حتى أرى التأخر حزما، كما قال الشاعر الجاهلي القطامي :

شجاع إذا ما أمكنتني فرصة ..فإن
لم تكن لي فرصة فجبان

فلما أسرف معاوية في الإغارة على بلاد علي، وأعمل فيها النهب والقتل جمع الإمام الناس، وحضهم على الجهاد فسكتوا مليا .. فقال لهم :

"أتخرسون أنتم ..؟!" فقام قوم منهم فقالوا: "يا أمير المؤمنين إن سرت معنا سرنا معك".

فقال:

" ما بالكم لا سددتم لرشد، ولا ه□ديتم لقصد ..؟ أفي مثل هذا ينبغي أن أخرج ..؟! إنما يخرج في مثل هذا رجل ممن أرضاه من شجعانكم وذوي بأسكم، ولا ينبغي أن أدع المصر، والجند، وبيت المال، وجباية الأرض والقضاء بين المسلمين، والنظر في حقوق المطالبين، ثم أخرج في كتيبة أتبع أخرى، أتقلقل القدح (السهم قبل أن يلصق به الريش) في الجفير الفارغ ..! (الجفير: وعاء يوضع فيه السهم والسهم غير المراش يتقلقل في وعائه فالريش يمنع القلقلة). وإنما أنا قُطب الر□حى، تدور علي□ وأنا بمكاني، فإذا فارقتها استحار (اضطرب) مدارها، واضطرب ثفالها (ما يوضع بين الر□حى والأرض ليسقط عليه الدقيق). هذا – لعمر الله – الرأي السوء ..!! واالله لولا رجائي الشهادة عند لقائي العدو – لو قد حم لي لقاؤه – لقربت ركابي ثم شخصت عنكم، فلا أطلبكم ما اختلف جنوب وشمال. إنه لا غناء لي في كثرة عددكم مع قلة اجتماع قلوبكم. لقد حملتم على الطريق الواضح التي لا يهلك عليها إلا هالك (المحتم هلاكه لفساده). من استقام فإلى الجنة، ومن زل فإلى النار.. والسلام.

وانتظر الإمام أن ينهضوا، ولكنهم ظلوا ساكتين، كأنهم خُشُب مسندة ..! فقال ساخرا: "ليتني صرفتكم برجال معاوية صرف الدينار بالدراهم : الواحد بعشرة ..!".

ثم قال وقد أدرك شدة حرصهم على الحياة، ومتاع الدنيا: "أحذركم الدنيا .. قد تزينت بغروها، وغرت بزينتها وهانت على ربها: فخلط حلالها بحرامها، وخيرها بشرها، وحياتها بموتها، وحلوها بمرها، لم يُصفّها الله تعالى لأوليائه، ولم يضن بها على أعدائه، خيرها زهيد، وشرها عتيد (حاضر)، وجمعها ينفد، وملكها يسلب، وعامرها يخرب، فما خير دار تنقض نقض البناء. وعمر يفنى فيها فناء الزاد ..؟ إن الزاهدين في الدنيا تبكي قلوبهم وإن ضحكوا، ويشتد حزنهم وإن فرحوا، ويكثر مقتهم أنفسهم وإن اغتبطوا (غبطهم غيرهم) بما رزقوا.

قد غاب عن قلوبكم ذكر الآجال، وحضرتكم كواذب الآمال. فصارت الدنيا أملك بكم من الآخرة، والعاجلة أذهب بكم من الآجلة، وإنما أنتم إخوان على دين الله، ما فرق بينكم إلا خبث السرائر، وسوء الضمائر.. فلا تناصحون (تتناصحون)، ولا توادون (تتوادون) ما بالكم تفرحون

باليسير من الدنيا تملكونه، ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه ..؟! ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم حتى يتبين ذلك في وجوهكم وقلة صبركم عما زوى منها عنكم ..؟! كأنها دار مقام، وكأن متاعها باق عليكم ..!! وما يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه بما يخاف من عيبه إلا أن يستقبله بمثله..! قد تصافيتم على رفض الآجل، وحب العاجل".

وأعلن أمير المؤمنين آخر الأمر أنه سيسير بنفسه إلى قتال معاوية في معقلة بالشام حماية لمهج المسلمين من بغيه..

وأرسل الإمام إلى أُمرائه وعماله: "من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من يمر به الجيش من جباة الخراج وعمال البلاد. أما بعد، فإني قد سيرت جنودا هي مارة بكم إن شاء الله، وقد أوصيتهم بما يجب الله عليهم من كف الأذى، وصرف الشذى (الشر)، وأنا أبرأ إليكم وإلى ذمتكم من معرة الحبس (أذاه، فهو بغير رضاه) إلا من جوعة المضطر لا يجد عنها مذهبا إلى شبعه، فنكلوا (عاقبوا) من تناول شيئًا – ظلما – عن ظلمهم (جزاء ظلم بظلم)، وكفوا أيدي سفهائكم عن مضاربهم والتعرض لهم فيما استثناه منهم (أي في حالة

الاضطرار)، وأنا بين أظهر الجيش، فارفعوا إلى مظالمكم وما عراكم مما يغلبكم من أمرهم، وما لا تطيقون رفعه إلا بالله وبي، فأنا أغيره بمعونة الله إن شاء الله".

وقبل أن يفزغ علي من تجهيز جيش صالح للزحف على الشام، وخلال تثاقلٍ من أصحابه أسأمه، وتكارهٍ منهم فجعه، جاءته أنباء مروعة عن مذابح في الحجاز واليمن لم يعرفها الإسلام من قبل ..!!

فرأى أن يصرف ما جمع من جند لدفع هذه الغاشية .. وجهز أربعة آلاف جندي لإنقاذ أهل الحجاز وأهل اليمن، من شر المذابح.

ذلك أن معاوية بعث إلى الحجاز واليمن جيشًا كثيفًا بقيادة بسر بن أرطأة، وهو فاتك، فاسق، شرير، غليظ القلب، شديد الفجور، بذيء العداء لآل البيت وللإمام علي .. وبسر هذا بارز الإمام في ِّفيدفلما أوقعه الإمام كشف عورته لينجو
ن
من سيف الإمام، كما فعل عمرو، فانصرف عنه الإمام متقززا .. فهجاهما شاعر من الشام من جند معاوية بشعر فاحش ..!!

بلغ بسر بن أرطأة بجيشه الكثيف مدينة رسول الله، فقام أميرها أبو أيوب الأنصاري يحرض الناس على الخروج لحماية المدينة وأهلها من بطش الفاتك العربيد بسر بن أرطأة. فلما لم ينهض أحد مع أبي أيوب الأنصاري خرج على الكوفة يستنجد بعلي بنفسه، وأخبره أن بسر بن أرطأةقد

توعد أهل المدينة إن لم يخلعوا طاعة علي، ويبايعوا لمعاوية، أن يقتل الرجال ويسبي النساء والذراري ..!! ما أبشع هذا، وأبعده عن أخلاق العرب حتى في الجاهلية..!! لم تعرف العرب مثل هذا الهول في جاهلية ولا في إسلام..

وروع الإمام لهذا الصريخ، وأرسل حجر بن عدي على رأس الجيش الذي كان معدا للزحف على الشام.

وسيطر الذعر على أهل المدينة، ولم يستطع أحد منهم أن يفر فينجو برأسه ودينه، فقد أحكم بسر بن أرطأة حصار أبوابها لا يخرج أحد من رجالها قبل أن يخلع بيعة علي، ويبايع لمعاوية ..!!

وتناجى الناس: "إنها بيعة قهر..!! بيعة ضلالة ..!".ثم

زحف بسر بن أرطأة بعد ذلك إلى مكة، وكان أبو موسى الأشعري معتز ًلاالناس، يتعبد في البيت الحرام،

فخشي أبو موسى على نفسه، فهرب فلما علم ذلك ابن رطأة قال: "ما كنت لأطلب أبا موسى وقد خلع عليا ..!".

وكتب أبو موسى على قومه باليمن وكان علي قد استعمل عليها عبيد الله بن عباس، وهو من أسخى الناس يدا، وأرحمهم قلبا.

وزحف ابن أرطأة إلى اليمن، وفي طريقه إليها أثخن في الأرض، وقتل كل من رفض أن ينخلع من طاعة علي ويبايع لمعاوية ونهب أمواله.

ووصلت أخباره إلى اليمن قبل أن يصلها، ولم يكن في اليمن من جند علي إلا مئات قليلة، فأرسل عبيد الله بن عباس إلى علي يطلب منه مددا، فتثاقل الناس في الكوفة عن الخروج، فاضطر عبيد الله بن عباس أن يذهب إلى الكوفة ليعود بالمدد بنفسه، قبل أن يصل ابن أرطأة على اليمن.

ولكن الناس في الكوفة تكاسلوا عنه .. فلما دخل بسر بن أرطأة اليمن هدد أهلها بالقتل إن لم يبايعوا لمعاوية فرفضواأن ينخلعوا من طاعة على وأبوا أن يبايعوا لمعاوية، فأعمل فيهم ابن أرطأة القتل .....

بدأ بقتل عبد الله بن عبد مدان الحارثي، الذي استخلفه عبيد الله بن عباس بدلاً منه على اليمن..

ثم قتل مالك بن عبد الله بن عبد مدان.

وذهب على بيت عبيد الله بن عباس فلم يجد به أحدا، فأحرقه، وعلم أن امرأة عبيد الله وطفليهما في بادية بني كنانة .. فلما عرف مكانهما ذهب إليهما فأخذ الطفلين وأراد ذبحهما فقال له صاحب البيت : إن كنت قاتلهما فاقتلني معهما ..!!

وقاتل الرجل حتى قُتل، فأخذ بسر بن أرطأة الطفلين من أحضان أمهما فذبحهما أمامها وأمام نسوة بني كنانة، فقالت امرأة منهن : "ما هذا ..؟ قتلت الرجال فلِمَ تقتل الولدان ..؟ والله ما كانوا يقتلون في جاهلية ولا إسلام ..! والله إن سلطانًا لا يقوم إلا بقتل الضعيف والصغير والشيخ الكبير، وبرفع الرحمة وعقوق الأرحام لسلطان سوء ..!".

فقال لها بسر: "والله لقد هممت أن أضع فيكن السيف" فقالت: "والله إنها لأخت التي صنعتَ، وما أنا لها منك بآمنة" ثم قالت للنساء اللائي حولها: "ويحكن ..! تفرقن ..!"

وبعد أن فرغ ابن أرطأة من إبادة الرجال والولدان، سبى النساء المسلمات وباعهن في الأسواق ..!!

فكن أول مسلمات سبين في الإسلام..!! كما كانت رأس محمد بن أبي بكر أول رأس طيف به في الإسلام .. وكما كانت بيعة معاوية خليفة في عهد علي أول انقسام للدولة في الإسلام ..!!

وبكى الناس على الإسلام، فلم ير يوم أكثر باكيا وباكية من تلك الأيام السود ..!!

ومن خلال الدموع لاحت صورة أبي ذر الغفاري رحمه الله.

ها هو ذا يوم العورة الذي حذَّر منه أبو ذر قد حل..!!

حقًا ما كان أحد أصدق لهجة من أبي ذر، كما قال عنه الرسول (ص): ها هن النساء المسلمات يسبين ويبعن في أسواق الإماء ..!!

قال رجلان ممن شهدا أنهما سمعا أبا ذر رضي الله عنه يدعو ويتعوذ في صلاة صلاها، طال قيامها وقعودها

وركوعها. فسألناه: مم تعوذت..؟ وفيم دعوت.؟ فقال:

"تعوذت بالله من يوم البلاء أن يدركني، ويـوم العـورة أن

أدركه" فقلنا: "وما ذاك ..؟" قال: "أما يوم البلاء فتلتقي فئتان من المسلمين فيقتل بعضهم بعضا، وأما يوم العورة فإن نساء من المسلمات يسبين فيكشف عن سوقهن فأيتهن كانت أعظم ساقًا اشتُريت على عظم ساقها ..! فدعوتُ الله ألا يدركني هذا الزمان" وبكى الناس ..!!

أما زوجة عبيد الله بن عباس، فقد ذهب عقلها بعد أن ذبح ابن أرطأة ولديها فدعا الإمام عليه: "اللهم اسلبه عقله".

فلما بلغ به الكبر فقد عقله، فكان يمسك بسيف من خشب ويطوف به ويضرب به الهواء، أو زقًا منفوخًا والصبيان من حوله يتضاحكون، وطال به العمر في هذا الجنون .....

لقد قَتَلَ بسر خَلْقًا كثيرين من أنصار علي وشيعته من أهل الحجاز واليمن فكان في شيخوخته يصرخ فزعًا إذ يتخيل أشباحهم تطارده، وبصفة خاصة طفلا عبيد الله بن عباس .. كانت نظراتهم تعذبه عذابا هائلاً فيشعر في كل لحظة أنه يختنق، وظل يتدحرج في الطرقات، فيركله الصبيان ..!!

أرسل علي جيشًا إلى بسر يقوده جارية بن قدامة الفارس الصنديد، وجيشاً آخر يقوده وهب بن مسعود، ليطبقا عليه، ولكن بسر بن أرطأة قتل من قتل، ونهب ما نهب، وهرب

إلى الشام عائدا بما نهب، حيث استقبله معاوية استقبال الغزاة الفاتحين، وكافأه أجزل مكافأة، وأثنى عليه أعظم الثناء ..!

وكان عبيد الله بن عباس حسن السمعة محبا للخير محسناً إلى الناس، فبكى الناس طفليه، وحنقوا على معاوية حنقاً شديدا، ولعنوه .. واستبشعوا صنيعه..!! كيف يأمر ويرضى بهذه الأعمال الوحشية، التي لا تفعلها الوحوش ..!؟

وعبيد الله بن عباس هو أول من وضع الموائد بالطعام على الطرق يأكل منها من يشاء ....

وكانوا يقولون عنه: "إنه أجود من الريح إذا عصفت، وأسخى من البحر إذا زخر.. وكان من أرق الناس قلبا .. ما سمع عن صاحب حاجة إلا انهمرت عيناه إشفاقًا عليه، وحمل إليه كل ما يستطيع من مال، وإن استدان .ز!".

ويروى عنه "أن سائلاً أتاه وهو لا يعرفه فقال له: تصدق، فإني نُبئت أن عبيد الله بن عباس أعطى سائلاً ألف درهم واعتذر إليه" .. قال: "وأين أنا من عبيد الله ..؟" قال: "أين أنت منه في الحسب أم في كثرة المال" " قال: "فيهما" قال السائل: "أما الحسب في الرجل فمروءته وفعله وإذا شئت فعلت، وإذا فعلت كنت حسيبا" فأعطاه عبيد الله ألف درهم

واعتذر له عن ضيق الحال. فقال له السائل: "إن لم تكن عبيد الله ابن عباس فأنت خير منه. وإن كنت هو فأنت اليوم خير منك أمس" فأعطاه ألفًا أخرى. فقال السائل: "هذه هزة كريم حسيب".

ويروى عن جوده أيضا: أنه جاءه رجل من الأنصار.. وكان الأنصار أثيرين عند بني هاشم، وكانت فاطمة الزهراء رضي الله عنها تقول لهم: "أنتم حضنة الإسلام، وأعضاد الملة". فلما أتى النصارى عبيد الله قال له: "يا بن عم رسول الله (ﷺ) ، إنه و□لد لي في هذه الليلة مولود، وإني سميته باسمك تبركا مني به، وأن أمه ماتت" فقال عبيد الله: "بارك الله لك في الهبة، وأجزل لك الأجر على المصيبة" .. ثم دعا بوكيله فقال له "انطلق الساعة فاشترِ للمولود جارية تحضنه، وادفع إليه مائتي دينار للنفقة على تربيته" ثم قال للأنصاري: "ع□د إلينا بعد أيام فإنك جئتنا وفي العيش يبس وفي المال قلة" قال الأنصاري: "لو سبقت حاتما بيوم واحد ما ذكرته العرب أبدا، ولكنه سبقك فصرت له تاليا، وأنا أشهد أن عفوك أكثر من مجهوده، وطَلُّ كرمك أكثر من وابله".

حاول الإمام مرة أخرى أن يستنفر الناس ليزحف بهم إلى معاوية، فلا إنقاذ لحياة المسلمين وأموالهم إلا بهزيمة معاوية، وقهره على لزوم جماعة المسلمين.

ولكنهم تكاسلوا ..!

وجاءته الأنباء أن جندا لمعاوية عادوا إلى الأنبار فنهبوا أموالها حتى حلى النساء ..!! وانصرفوا آمنين، بعد أن قتلوا، ونهبوا، وفتكوا، وفسقوا، لم يعرض لهم أحد ..!!

وها هو ذا الإمام يجلس وحده حزيناً كئيبا يتمنى لو أن الله أراحه من هؤلاء الناس الذين لم يعد العار نفسه يستنفر نخوتهم ..!!وإنه

ليفكر فيما يصنع ليحرك هذه الهمم الميتة، وإنه ليدعو الله أن يقبضه إليه ليستريح، فقد ملهم وسئم عشرتهم، إذ برجل يسأله: يا أمير المؤمنين أين كان ربنا قبل أن يخلق الأرض والسماء ..؟ فقال: "أين: توجب المكان وكان الله عز وجل ولا مكان" ولاحظ أحد أصحاب الإمام كآبة الإمام فنهر السائل، ولكن الإمام نصحه ألا يغلظ على الناس وقال له: "من لانت كلمته وجبت محبته".

وسأله أحد أصحابه: "صف لنا المرائي يا أمير المؤمنين" وسكت الإمام مليا .. لكم كان يعاني في أعماقه .. ثم قال: "للمرائي أربع علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس ويزيد في العمل إذا أثنى عليه، وينقص منه إذا لم يثن عليه ..!".

وتحلق حوله عدد من أصحابه ومن الموالي وسألوه أن يعظهم .. فتنهد، ومسح بيديه دمعة أسى على ما يحدث للإسلام والمسلمين .. ثم قال: "من حلم ساد، ومن ساد استفاد، ومن استحيا حرم، ومن هاب خاب، ومن طلب الرئاسة صبر على السياسة، ومن أبصر عيب نفسه عمى عن عيب غيره، ومن سل سيف البغى قتل به، ومن احتفر لأخيه بئرا وقع فيها، ومن نسى زلته استعظم زلة غيره، ومن هتك حجاب غيره انتهكت عورات بيته، ومن كابر في الأمور عطب، ومن اقتحم اللجج غرق، ومن أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل، ومن تجبر على الناس ذل، ومن تعمق في العمل ملّ، ومن صاحب النُّذال حقر، ومن جالس العلماء وقر، ومن دخل مداخل السوء أتـُهم، ومن حسن خلقه سهلت له طرقه، ومن حسن كلامه كانت الهيبة أمامه،

ومن خشي الله فاز، ومن استفاد الجهل ترك طريق العدل، ومن عرف أجله قصر أمله..".

وسكت قليلاً وشرد عقله يفكر في أمر معاوية وما يصنعه بالناس .. حتى العلماء ..! لكم يدمر من نفوس، ويخرب من ضمائر، ويسفك من دماء..!!

وقال الإمام: "قال عيسى بن مريم عليه السلام : سيكون في آخر الزمان علماء يزهدون في الدنيا ولا يزهدون، ويرغبون في الآخرة ولا يرغبون، وينهون عن إتيان الولاة ولا ينتهون، ويقربون الأغنياء، ويبعدون الفقراء، ويتبسطون للكبراء، وينقبضون عن المساكين، أولئك إخوان الشياطين أعداء الرحمن .." وما كان يعني الذين رشاهم معاوية فحسب، بل يعني المرتشين وأهل الأهواء من العلماء في كل زمان ومكان ..!!

ومضى علي إلى رؤساء الكوفة يستفز غيرتهم على الدماء والأعراض، فلم يجد إلا تثاقلاً وتبلدا، كأن القوم فقدوا نخوة الرجال ..! فهم أشباه رجال لا رجال..!!

وإذا بأنباء رهيبة تأتيه : أن معاوية بعث سفيان بن عوف من بني عامر، مرة أخرى إلا بلاد علي، فغزوا الأنبار،

وقتلوا رجالها وانتهكوا نساءها، ونهبوا أموالها حتى حلى النساء ..! وخرجوا عائدين على معاوية، لم يمسسهم سوء، ولم يصبهم قرح، ولا تعرض لهم رجل ..! هكذا تعود جند معاوية أن ينتهكوا الأنبار ويعودوا آمنين سالمين ..!

ووقف علي كرم الله وجهه على مرتفع صنعه بيده من الأحجار، وسيفه على حمائل من ليف، فحمد الله وأثنى عليه وصلى وسلم على رسوله وآله ثم قال :

"أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة. فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل، وشمله البلاء، وديث بالصغار والقماءة (لوث وأصبح ديوثًا لا غيرة له)، وضرب على قلبه بالإسهاب (والإسهاب هو ذهاب العقل وكثرة الكلام بلا جدوى). وأديل الحق منه، بتضييع الجهاد، وسيم الخسف، ومنع النصف (الإنصاف)".

ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهارا وسر□ا وإعلانًا، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فو الله ما غُزي □ قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم، حتى شنت عليكم الغارات، وملكت عليكم الأوطان.

وهذا أخو غامد (عامل معاوية)، وقد وردت خيله الأنبار، وقد قتل حسان ابن حسان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها (المسلحة: المعسكر) "معسكرها" وقتل رجالاً ونساءً كثيرين. وقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة (ذات العهد: أي الذِّمية) وينتزع حجلها (خلخالها) وقلبها (أساورها) وقلائدها ورعاثها (قرط)، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام ثم انصرفوا وافرين وما نال رجل منهم كلم (جرح)، ولا أريق لهم دم ...!

فلو أن أمرءًا مسلما مات بعد هذا أسفاً، ما كان به ملوما، بل كان به عندي جديرا ..! فيا

عجبا ..! عجبا والله يميت القلب، ويجلب الهم، من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم على حقكم ..! فقبحًا لكم وترحًا (همًا وحزناً) حين صرتم غرضا يُرمى، يُغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزون ولا تَغزون، ويُعصى الله وترضون ..!.

فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم: هذه حمارة القيظ، (شدة الحر) أمهلنا ينصرم عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم هذه صبارة القرّ (شدة البرد)،

أمهلنا فينسلخ عنا البرد، فكل هذا فرارا من الحر والقر، فإذا كنتم من الحر والقر تفرون، فأنتم والله من السيف أفر ...!

يا أشباه الرجال ولا رجال ..! حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال، لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم، معرفة – والله – جرت ندما وأعقبت سدما (غيظًا) ..! قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحا، وشحنتم صدري غيظًا، وجرعتموني نغب التهمام (نغب جمع نغبة كجرعة لفظًا ومعنى، والتهمام: الهم) أنفاسا وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب .. لله أبوهم ..! وهل أحد منهم أشد لها مراسا وأقدم فيها مقاما مني ..! لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين وهأنذا قد ذرفت على الستين..! ولكن لا رأي لمن لا يطاع..!".

* * * *

!.. ph-±fϰa-±A .. a±A ph

أقبل العام الأربعون بعد الهجرة، والمسلمون في فزع شديد مما يصنعه جند معاوية بالرجال والنساء والأطفال والأموال ..!

وفي الحق أن ما أحدثه جند معاوية كان صدعا في الإسلام ما ابتلى دين بمثله من قبل قط ..!

لقد زلزل أركان الدين الجديد زلزا ًلاعنيفاً ..!

وقارن الناس بين ما يسفكه معاوية من دماء في طلب الملك، وبين ما يبذله على من عناء في التماس جمع الشمس .. فأطلقوا ألسنتهم في معاوية .....

لهذا نشط بعض المرتزقة من علماء معاوية يردون عليهم، فوضعوا أحاديث في فضل معاوية وفضل بني أمية، غير أن من الضمائر ما استيقظ في بلاط معاوية، فنصحه

بعض أهل الفتيا بأن يكف أذاه عن المسلمين .. وقالوا له إنهم لا يجدون في القرآن آية يؤولونها أو يحرفونها عن موضعها ليحللوا له ذبح الأطفال، وقتل الرجال، وانتهاك النساء وسبي المسلمات، وهدم الدور على ساكنيها كما فعل بسر بن أرطأة في مدينة رسول الله، وفي اليمن، وكما صنع أخو غامد في الأنبار..! ولئن كانوا قد استطاعوا أن يؤولوا آيات القصاص والفيء، ويجدوا في تأويلها ما ينفع معاوية ويخدم أهدافه، إنهم ليعجزون عن الفتيا بصحة ما صنعه ابن أرطأة والغامدي، وما من إنسان واحد حتى من الهمج يمكن أن يسكت عما يحدث ..!! وإن نفوسهم لتتقطع حسرات لما أصاب المسلمين وهم ينظرون، وإنه ليخشون أن يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون على صمتهم عن قتل النفوس الزكية، وعن هذا الفساد العريض البشع في الأرض ..!!

ونصح بعضهم معاوية أن يرفع السيف عن مهج المسلمين وحرماتهم ..!

وأدرك معاوية أنه خسر كثيرا بما فعله جنوده، وأن عليا هو الرابح الوحيد، وأن الذين بايعوا له تحت تهديد السيف من أهل الحجاز واليمن لن يلبثوا حتى ينقضوا عليه إن تمكنوا

منه ..! وأدرك أن هذه البيعة لا يعترف بصحتها أحد: لا الذين أعطوها مقهورين، ولا حتى المرتزقة من أهل الفتيا .. فهم آخر الأمر لا يستطيعون أن يذهبوا في الضلال والتضليل إلى هذا المدى كله، مهما يغدق عليهم ويملأ خزائنهم بالآلاف المؤلفة من الدراهم والدنانير.!

وزعم أقوام أن معاوية ليس أفقه من علي بصناعة الإمارة على المسلمين، ولا هو بأدهى منه ولا بأوسع حيلة، ولكنه رجل العصر حقًا ..! عصر كثرت فيه الثروات، وتوفرت الملذات، ورجاله يشرئبون إلى الغنى والمتاع والجاه، وما استمتعوا بالسمو الذي يثيره في القلب جهاد صادق في سبيل الله، ومحاماة أبيه عن العدل والحق وكرامة الإنسان ..!!

حقًا .. حقًا .. إن رجل هذا العصر هو معاوية، فهو وحده يخاطب الأطماع، ويشبعها، ويستنفر الأهواء فيرضيها، ملك قاهر، لا يعف عن شئ يخدم به هدفه، حتى الغدر نفسه .. وحتى سفك الدماء، ونهب الأموال، وانتهاك الحرمات، وسبي النساء المسلمات ..!!

أما على كرم الله وجهه .. فوا رحمتا لعلي ..! ولّى الله القانت .. إمام الورع والتقوى .. خليفة راشد .. لا يرضى

الدنية في دينه أو دنياه، يعرف طريق الغدر ولا يسلكه، الخدعة عنده لا تجوز إلا في الحرب، أما في زمن السلم فهي لون من الخيانة والكذب، ومسلك زرى لا يجمل بالإنسان التقي..

هو قدوة : له قيمه العليا ومثله السامية التي يتمسك بها ولا يتنازل عنها لأنه تربى عليها، ولأنها وحدها هي الجديرة – في رأيه – بإصلاح الناس .....

يعرف ما يرضي الناس – كما قال لهم – ولكنه لا يأتيه، لأنه يرى فيه ظلما لآخرين، وإغضابا الله ..!

علي رجل دولة بصير بسياسة أمور الرعية، ولكنه يريد أن يقيم سياسته على دعائم من مكارم الأخلاق، ولا يضيره ما يعاني وهو يشق الطريق الوعر إلى الحقيقة، ليقيم العدل، ويحقق للناس المساواة، ويدفع الظلم، ولو أنه عدل عن نهجه السوي لحظة، لتهدمت قيم نبيلة، وانهارت مثل عليا.

أما معاوية فهو يصنع كل شئ، وأي شئ، مهما يكن من شئ، للوصول إلى الغاية .. وغايته الملك .....

علي يرى أن صلاح الغاية لا يتم إلا بصلاح الوسيلة، وغايته مصلحة الأمة، وصلاحها.

ولأن يخسر أمنه، وراحته، خير من أن يهدر قيمه .. ولأن يهدي به الله رجلاً واحدا، خير له من الدنيا وما فيها ..!!

علي استقى من منبع النبوة، وتربى بخلق النبوة، فكان رباني هذه الأمة.

أما معاوية فقد استقى من منبع أبي سفيان وهند، وتربى على اكتساب المنفعة من أي سبيل، ووجد عصرا سلطانه المنفعة، وهدفه المنفعة، وقانونه المنفعة، فكان بحق رجل العصر.. بينما كان عصر المنافع هذا ينبذ أصحاب التقوى وينبو بأهل الورع، ولهذا عذب العصر الشرس إمام المتقين وإمام المساكين.

وإذ رأى معاوية أن حملاته الوحشية قد سفكت من الدماء أكثر مما كان يحسب، وروعت الناس وأسخطتهم عليه، وأكسبته معرة ذبح الأطفال، وسبي المسلمات، وقتل الأبرياء، ونهب الأموال، وانتهاك الحرمات .. إذ رأى معاوية هذا، اعتزم أن يكف عما أخذ فيه من فتك وغدر وفساد في الأرض، وأرسل إلى الإمام علي كتابا يطالبه فيه الموادعة

والمهادنة وقال : "أما إذا شئت فلك العراق ولي الشام، ونكف السيف عن هذه الأمة، ولا نهريق دماء المسلمين" ..!!!

ولم يكن لعلي حيلة بعد .....

فيمن من الرجال يجاهد في سبيل الله معاوية وحزبه، ويردهم إلى الجماعة ..؟! وتحكمت الظروف في الحكمة فسكت علي ، ولم يرد ..!!

وهكذا اضطر إلى ما ظل يرفضه منذ بويع له ..!!

ووجددها الإمام فرصة لالتقاط الأنفاس، ليحكم دستور الدولة، ويقيم أمر القضاء، ويجري العدالة، ويرعى حقوق الناس، ويصلح شئون الرعية وينظم السياسة الشرعية.

أزعجه اختلاف العلماء في الفتيا ومصدر التشريع واحد فقال : "ترد على أحدهم القضية فيحكم فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على آخر فيحكم فيها بخلافه، ثم يجتمع القضاء بذلك عند الإمام الذي استقضاهم (أي الخليفة الذي ولاهم القضاء) فيصوب آراءهم جميعا وإلههم واحد ..! ونبيهم واحد ..! وكتابهم واحد ..! أفأمرهم الله تعالى بالاختلاف فأطاعوه ..؟! أم نهاهم عنه فعصوه ..؟! أم أنزل عليهم دينًا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه ..؟ أم كانوا شركاء فلهم أن

يقولوا وعليه أن يرضى ..؟ أم أنزل الله سبحانه دينًا تامًا فقصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في تبليغه وأدائه، والله سبحانه يقول: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾

وقال: ﴿ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضًا وأنه لا اختلاف فيه فقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾. وإن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تُفنى عجائبه، ولا تُكشف الظلمات إلا به".

وفي ذلك العصر المضطرب، كان الرجل يمسي مؤمنًا بمباديء علي، ويصبح متطلعًا للحاق بمعاوية، ويروح في حال، ويغدو في حال ..! وفي هذا المضطرب تختلط الأشياء، وقد وجد الإمام الناس قابلين لتصديق أي شئ في أي إنسان، لكثرة ما كابدوه من تغيرات عجيبة في أمور الحياة وقلوب الناس .. فقال الإمام ناصحا: "أيها الناس من عرف من أخيه وثيقة دين (أي متانة في دينه وإيمانه)، وسداد طريق، فلا يسمعن فيه أقاويل الرجال. أما أنه قد يرمى الرامي وتخطيء السهام، ويحيك الكلام (من حاك القول في

القلب أثر فيه)، وباطل ذلك يبور، والله سميع وشهيد. أما أنه

ليس بين الباطل والحق إلا أربع أصابع" فلما سئل في ذلك جمع أصابعه ووضعها بين أذنه وعينه وقال: "الباطل أن تقول: سمعت، والحق أن تقول: رأيت".

فسألوه: "ما العمل: أيسكتون ..؟" فقال: "لا خير في الصمت عن الحكم، كما أنه لا خير في القول بالجهل، بل يستنبطون من كتاب الله وسنة رسوله".

ثم سئل عن التوحيد والعدل فقال : "التوحيد ألا تتوهمه (يعني الله تعالى، لأنك تحدده بوهمك) والعدل ألا تتهمه".

* * * *

ولكن الإمام قد سئم كل شئ .. ها هو ذا يرغم بعد ما سال طوفان من دم المسلمين على قبول ما رفضه أول الأمر – أن يستقل معاوية بالشام، ويضم إليه مصر..!! وهكذا تتمزق الدولة الواحدة لأول مرة في الإسلام ..!! والإمام الذي جاهد من أجل وحدة الأمة مقهور، بلا حيلة، ولا

حول..!! وتمنى لو أن الله تعالى قبضه فأراحه من هؤلاء الرجال

الذين ابتُلى بهم ..! إذن لأمن الغدر والكيد، وسفاهة السفهاء،

وتكبُّر الحمقَى والجبارين، وكذب الفجُار، وتخاذل الأنذال..!!

وإذن لاستراح من خيانة الأصدقاء، وسوء مكر

الأعداء..!! يا رسول الله صلى الله عليك وعلى آلك .. لقد وعدتني

يوما بالشهادة .. ألم يحن الوقت بعد .. فاتتني الشهادة في سبيل الله في بدر وأحد والخندق وخيبر، وفي كل أيامك المجيدة، أيام كنت تقودنا لنصنع بوهج السيوف فجر الحياة الرائعة العذبة القادمة، ونورنا بين أيدينا ومن خلفنا وعن اليمين وعن الشمال ..؟! أسفاه ..!! ما بال هذه الأسياف اليوم ..؟! واحزناه ...! إنما يصنع وهجها غسق الزمن السعيد، زمن الحق والحقيقة والعدل والمساواة واحترام الإنسان ..!! أيغرب هذا كله في مستنقع الفتنة ..؟! لا كانت الحياة إذن .. فيم أنت أمير المؤمنين يا علي إن لم تنصر الحق، وتدفع الباطل ..؟!

وصمم الإمام علي أن يصوغ قواعد الحكم ويعلمها للناس قبل أن يفارق دنياه لتكون من بعده دستورا متكاملا للسياسة الشرعية، يستنبط أحكامه من الكتاب والسنة.

وعاد يعظ الناس ويعلمهم أمور الدين .. وينفث حسراته

على تفرق الأمة. قال: "أما بعد، فإن الدهر لم يقصم جباري

دهر قط، إلا بعد تمهيل ورخاء، ولم يجبر عظم أحد من الأمم إلا بعد أزل (أي الشدة) وبلاء، وفي دون ما استقبلتم من عتب (شدة)، وما استدبرتم من خطب معتبر ..! وما كل ذي قلب بلبيب، ولا كل ذي سمع بسميع، ولا كل ذي نظر ببصير، فيا عجبا! وما لي لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها ..!؟ لا يقتصون أثر النبي، ولا يقتدون بعمل وصي، ولا يؤمنون بغيب، ولا يعفون عن عيب، يعملون في الشبهات، ويسيرون في الشهوات ..! المعروف عندهم ما عرفوا، والمنكر ما أنكروا ..! مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المبهمات على آرائهم، كل امريء منهم إمام نفسه، قد أخذ منها ما يرى بعرى وثقات (جمع عروة وثقى) وأسباب محكمات ..!" ثم قال: " ألا وإن الدنيا دار لا يسلم منها إلا فيها (من أراد السلامة من محنتها فليهيء وسائل النجاة وهو فيها)، ولا ينجي بشئ كان لها (أي عمل يقصد به الدنيا): ابتلى الناس بها فتنة، فما أخذوه منها لها أخرجوا منه وحوسبوا عليه، وما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه وأقاموا فيه، وإنها عند ذوي

العقول كفَيء الظل، بينا تراه سابغًا حتى قلص، وزائدا حتى نقص".

ثم أخذ يشرح للناس معاني آيات القرآن ويقول لهم: "اسألوني".

سأله رجل عن معنى الآية الكريمة: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

فقال كرم الله وجهه: "كان في الأرض أمانان من عذاب الله، وقد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به. أما الأمان الذي رفع فهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وأما الأمان الباقي فالاستغفار، وقد عجبت لمن يقنط ومعه الاستغفار..!!".

وسئل عن معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾. فقال: "إن قولنا: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾ إقرار على أنفسنا بالملك (أي العبودية لله تعالى}، وقولنا: ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ إقرار على أنفسنا بالهلك (أي الهلاك)"..

وسكت قليلاً ثم قال: "لا يترك الناس شيئًا من أمر دينهم

لاستصلاح دنياهم إلا فتح الله عليهم ما هو أضر منه".

واستمر: "لقد علق بنياط هذا الإنسان بضعة هي أعجب ما فيه (نياط: على وزن كتاب، عرق معلق به القلب) وذلك القلب: له مواد من الحكمة وأضداد من خلافها: فإن سنح له الرجاء أذله الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن ملكه اليأس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ، وإن أسعده الرضا نسى التحفظ، وإن ناله الخوف شغله الحذر، وإن اتسع له الأمن استلبته الغراة (يعني الغفلة)، وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع، وإن عضته الفاقة شغله البلاء، وإن جهده الجوع قعد به الضعف، وإن أفرط به الشبع كظته (آلمته) البِطْنة (امتلاء البطن حتى يضيق النفس)".

وسكت الناس قليلاً، ثم انهالوا عليه يسألونه، وشعر أن الناس في حاجة إلى كثير من النصح، وإن كثيرا من العادات التي اكتسبوها في حاجة إلى تغيير، ليصح المجتمع كله .. فقال: "لو قد استوت قدماي من هذه المداحض (المزالق، يعني الفتن والحروب التي استهلكت وقته منذ بويع) لغيرت أشياء! ".

ووجد أن الطمع الدنيوي هو أخطر ما ابُتلى بـه النـاس، فقال: "إن الطمع مورد غير مصدر (من ورده هلك فيه ولـم يصدر عنه)، وضامن غير وفي، وربما شرق شارب المـاء قبل ريه (قبل أن يرتوي به)، وكلما عظم الشئ المتنـافس عليه عظمت الرزية لفقده، والأماني تـُعمي أعين البصـائر، والحظ يأتي من لا يأتيه".

وجاءه أن أقواما ثاروا عليه في بعض الأمصار البعيـدة، فأرسل إلى عامله على ذلك المصر، يأمره بأن يدعوهم إلـى الطاعة بالحكمة والموعظة الحسنة: "فإن عادوا عادوا إلـى الطاعة فذلك الذي نحب، وإن توافت الأمـور بـالقوم إلـى الشقاق والعصيان، فانهد (انهض) بمن أطـاعـك إلــى مـن عصاك، واستعن بمن انقاد معك عمن تقاعس عنـك، فـإن المتكاره (المتثاقل كراهية للحرب) مغيبه خير من مشـهده، وقعوده أغنى من نهوضه".

وعاد الناس يسألونه.

سألوه ما معنى قوله تعالى: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ..؟ ﴾ فقال: "كم أكلت الأرض من عزيز جسد وأنيق لون، كان في الدنيا غذى (يتغذى) ترف، وربيب شـرف،

يتعلل بالسرور في ساعة حزنه، ويفزع إلى السلوة إن مصيبة نزلت به .. فبينما هو يضحك إلى الدنيا وتضحك الدنيا إليه في ظل عيش غفول، إذ وطيء الدهر به حسكه (نبات فيه شوك قوي)، ونقضت الأيام قواه ونظرت إليه الحتوف من كثب .. وإن للموت لغمرات ..".

وسألوه عن معنى قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾. فأجاب: "إن الله سبحانه وتعالى جعل الذِّكر جلاء القلوب (والذكر الحق هو استحضار الصفات الإلهية) تسمع به بعد الوقرة (ثقل السمع)، وتبصر به بعد العشوة (ضعف البصر)، وتنقاد به بعد المعاندة، وما برح الله – عزت آلاؤه – في البرهة بعد البرهة وفي أزمان الفترات (فترات الخلو من الأنبياء) عباد ناجاهم في فكرهم، وكلمهم في ذوات عقولهم، فاستصبحوا (أضاءوا المصابيح) بنور يقظة في الأبصار والأسماع والأفئدة، يذكّرون بأيام الله، ويخوفون مقامه، بمنزلة الأدلة في الفلوات، من أخذ القصد حمدوا له طريقه (القصد هو الاعتدال)، وبشروه بالنجاة، ومن أخذ يمينا أو شمالاً ذموا إليه الطريق، وحذَّروه من الهلكة، وكانوا كذلك مصابيح في الظلمات، وأدلة تلك

الشبهات، وإن للذِّكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً، فلم تشغل تجارة ولا بيع عنه، يقطعون به أيام الحياة، ويهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين، ويأمرون بالقسط (العدل) ويأتمرون به، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه، فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها فشاهدوا ما وراء ذلك، فكأنما اطلعوا على غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه .. فلو مثلتهم لعقلك في مقاومهم (مقاماتهم) المحمودة، ومجالسهم المشهودة، وقد نشروا دواوين أعمالهم، وفرغوا لمحاسبة أنفسهم على كل صغيرة وكبيرة أمروا بها فقصروا عنها، أو نهوا عنها ففرطوا فيها .. لرأيت أعلام ه دى، ومصابيح د جى، قد حفت بهم الملائكة، وتنزلت عليهم السكينة، وفتحت لهم أبواب السماء، وأعدت لهم مقاعد الكرامات، في مقام اطلع الله عليهم فيه فرضى سعيهم، وحمد مقامهم ..".

فلما انتهى من كلامه، سكت الناس، فقال : "اسألوني قبل ألا تسألوني ..!".

فبكى الناس، وأدركوا أن الإمام يشعر بدنو أجله ..!

وسألوه عن قوله تعالى: ﴿يا أَيها الإنسان ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ قال: "يا أيها الإنسان ما جرأك على ذنبك، وما غرك بربك، وما أنسك بهلكة نفسك ..؟ أليس من ذلك بلول ..؟ (من بلَّ من مرضه بلولاً أي شفاء) أليس من نومك يقظة ..؟ أما ترحم من نفسك ما ترحم من غيرك ..؟ فربما ترى الضاحي بالشمس فتظله (الضاحي بالشمس أي الماشي في وهجها) أو ترى المبتلى بألم يمض جسده، فتبكي رحمة له (يمض جسده أي نهكه إنهاكاً شديدا)، فما صبرك على دائك، وجلدك بمصائبك .. فكن الله مطيعا، وتمثل في حال توليك عنه إقباله عليك : يدعوك إلى عفوه، ويتغمدك بفضله، وأنت متولٍّ عنه إلى غيره. فتعالَى من قوي ما أكرمه ..! وتواضعتَ من ضعيفٍ ما أجرأك على معصيته، وأنت في كنفِ ستره مقيم، وفي سعة فضله متقلب، فلم يمنعك فضله، ولم يهتك عنك ستره ..!! فما ظنك به لو أطعته ..؟ وأيم الله لو أن هذه الصفة كانت في متَّفقين في القوة، متوازيين في القدرة، لكنت أول حاكم على نفسك بذميم الأخلاق، ومساويء الأعمال ..! وحقا أقول ما الدنيا غرتك ولكن بها اغتررت .. وإن السعداء بالدنيا غدا هم الهاربون منها اليوم".

ثم رفع يديه إلى السماء وأخذ يدعو، والناس وراءه يرددون دعاءه : "اللهم صُن وجهي باليسار (الغِنى)، ولا تذل جاهي بالإقتار، فأسترزق طالبي رزقك، وأستعطف شرار خلقك، وأُبتلى بحمد من أعطاني، وأُفتن بذم من منعني، وأنت من وراء ذلك كله وليّ الإعطاء والمنع، إنك على كل شيء قدير".

* * * *

ولاحظ أصحابه اكتئابه فحاولوا مواساته، فقال لهم كرم الله وجهه مهوّناً من شأن ما يعانيه : ".. ينحدر عني السيل، ولا يرقى إليّ الطير .. إني لمّا نهضت بالأمر (يعني الخلافة) نكثت طائفة، ومرقت أخرى، وقسط (ظلم وبغى) آخرون. كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه يقول: ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾..؟ والله لقد سمعوها ووعوها، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم، وراقهم زبرجها (زينتها)، أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر (من حضر البيعة من المهاجرين والأنصار)، وقيام الحجة بوجود

الناصر، وما أخذ الله به على العلماء أن لا يقاروا على كظة

ظالم (الكِظة امتلاء البطن من الطعام)، ولا سغب مظلوم (السغب: الجوع الشديد)، لألقيت حبلها على غاربها (أي تركتها".

وسأله رجل عن الأمير البر والأمير الفاجر فقال : "أما الإمرة البرة فيعمل فيها التقي، وأما الإمرة الفاجرة فيتمتع فيها الشقي، إلى أن تنقطع مدته وتدركه منيته".

وأراد رجل من أهل الكوفة أن يخفف عنه، وأن يواسيه، فقال: "ما كان أحرانا أن نغزو بلادا جديدة وننشر دين الله إلى أقصى الأرض لو لم يكفر أهل الشام" فقال الإمام: "لا تقولوا كفر أهل الشام، بل قولوا فسقوا وظلموا" فقال رجل من الأنصار: "يا أمير المؤمنين والله ما قاتلنا أهل الشام إلا على طمع الدنيا، وما قاتلناهم معك إلا على الآخرة، فكنا نتنادى في ِّفيديا معشر الأنصار أصدقوهم الضرب،
ن:
فإنهم قوم يقاتلون على طمع الدنيا وأنتم قوم تقاتلون على الآخرة".

ونال أقوام من طلحة تقربا إلى الإمام، فنهرهم، ذكرهم بأنه لما وجد طلحة في القتلى معفرا يوم الجمل، أجلسه واعتنقه، ومسح التراب عن وجهه وبكى عليه ..!

وقال سفيان الثوري للناس: "لما انقضى يوم الجمل خرج علي بن أبي طالب في ليلة ذلك اليوم ومعه مولاه وبيده شمعة يتصفح وجوه القتلى، حتى وقف على طلحة بن عبيد الله في بطن وادٍ متعفرا، فجعل يمسح الغبار عن وجهه ويقول : أعزز علي يا أبا محمد أن أراك متعفرا تحت نجوم السماء وفي بطون الأودية، إنا الله وإنا إليه راجعون:

شقيت نفسي وقتلت معشري.. إليك أشكو عجري وبجري

(العيوب والأحزان، وما أبدى وما أخفى).

ثم كرر الإمام ما كان يقوله كلما ذكروا له يوم الجمل:

"والله إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم: ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾، وإذا لم نكن نحن فمن هم ..؟!"

وفي الحق أن كل ما عانته الأمة منذ بغى معاوية بن أبي سفيان على أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب، يرجع إلى تغير طبيعة العصر، وإلى الخلاف الشاسع بين طبع كل من الرجلين :

علي صارم، حاسم كالسيف، لا يقبل المهادنة أو المساومة

في الحق، ولا التنازل عما يعتقد أنه حق مهما يخسر.

أما معاوية فيحسب حساب الكسب والخسارة ..! فالحياة عند معاوية صفقات، يبرم منها وينقض، ويساوم، ويتنازل، ويهادن بقدر ما تدر من ربح أو تجلب من خسارة !

والحياة عند علي موقف، لا يبالي إذا اتخذه عن اقتناع وإيمان بما يكسب أو يخسر، ما دامت الحقيقة هي التي تربح، وما دام العدل هو الذي يقضي .. ومادام ينصر بموقفه حقًا ويدفع باطلا ..!!

وما أبعد الفرق في هذه الحياة بين الموقف والصفقة ! فصاحب الصفقة يعطي أقل مما يأخذ وصاحب الموقف قد يعطي كل شئ ويفقد كل شئ حتى الحياة نفسها، ولا يفكر فيما يأخذ أبدا، بل يفكر فيما يفيد القضية التي يدافع عنها ..!

معاوية همه الدنيا وما تفيء به على الحاضر، وعلي همه الآخرة وما يكون عليه المستقبل.

وإن الإمام ليعرف ما صنعته النعرة الجاهلية والعصبية القبلية .. وهو إن ينس لا ينس يوم جاءه زعماء بني أمية، فما حدثوه عن قتلة عثمان كما أجلبوا فيما بعد، ولكنهم قالوا له متلطفين: "يا أبا الحسن لقد وترتنا جميعا (يشيرون إلى قتل آبائهم وكبارهم في معركة بدر وغيرها) .. ونحن نبايعك

على أن تضع عنا ما أصبناه أيام عثمان" .. ما كانوا يريدون منه إلا الإبقاء على أموالهم وضياعهم ..!

ولكنه ما كان ليساوم أو يهادن في دينه ولا في حقوق الأمة ..!! وكان يرى أن كل ما أصابوه أيام عثمان، إنما أصابوا به العدل نفسه في مقتل ..! فكان يجب أن يرده الإمام الجديد إلى بيت المال ليقسمه بالسوية بين المسلمين بلا تفرقة .. وإلا فلماذا قبل الخلافة إن لم يكن من أجل إقامة العدل ..!!

أما معاوية فقد كانت له سياسته التي يجذب بها رؤساء القبائل والعشائر: الإغداق عليهم، وبذل الوعود بالمناصب الكبرى، وإغراقهم فيما يثير فيهم الإحساس بالكبرياء، وإتخامهم من ملذات الحياة الدنيا ..

فعلي ومعاوية طرفا نقيض في كل ما يأخذان وما يعدان من صغار الأمور وعظائمها .....

فلكل واحد من الرجلين طبيعة تشي بهواجس النفس، وخفقات القلب، وخطرات العقل، واتجاه الضمير والخطوات..!

وهي طبيعة تنبيء عما عسى أن يفعله كل منهما في مواجهة ما تطرحه عليه الحياة الجديدة التي فتنت الكثيرين..!

وهي طبيعة صاغتها النشأة، وصهرتها البيئة، وثقفتها تقواه، والجهاد في سبيل الله.

في بيت الله الحرام ولد علي، وفي حجر النبوة نشأ ...

بيئة هي الطهر، والنقاء، والوضوح، والأمانة، والصدق، والقداسة ..!!

ربته الطاهرة خديجة سيدة نساء العالمين، فأنبتته نباتًا حسنًا، وكفله سيد الخلق أجمعين، فأدبه منذ سنواته الخضر بآداب الإسلام .. فكان أدب علي من أدب الرسول()، وأدب الرسول هو ما أدبه به ربه فأحسن تأديبه، فكان خلق علي هو القرآن..

وهكذا قُدِّر لعلي أن ينزهه الله منذ نعومة أظفاره عن الشرك بالله، وكرم الله وجهه عن عبادة الأصنام، والسجود لها، وصاغ القرآن الكريم والسنة الشريفة مشاعره وعقله وأحاسيسه وثقافته.

وشكله حب الفداء والإيثار وهو في مطلع الشباب، فافتدى الرسول بنفسه حين قررت قريش قتله، فنام في فراشه..!

وإذن فقد نشأ علي في حجر النبوة، وتربى بهديها الرباني، ثم صهره اضطرام المعارك، وهو يجاهد الكفار في سبيل الله ..!

أما معاوية فقد نشأ في بيت أبي سفيان، رأس الكفر في الحجاز، وربته أمه هند بنت عتبة التي عرفها المسلمون باسم آكلة الأكباد، منذ خرجت في معركة أُحد تقود نساء المشركين، ومعها وحشي الذي وعدته بكل ما يغري مثله إن هو قتل حمزة أسد الله فقتله قتلة ما كانت تعرفها العرب ..!! كان حمزة يفعل الأفاعيل بالمشركين يوم أحد .. فلما انجلى عنه الغبار دلت هند وحشيا على مكانه، فهز رمحه وقذفه على ظهر حمزة، فسقط سيد الشهداء. ولم تتركه هند حتى استخرج لها وحشي الكبد من جوف الشهيد العظيم، فمضغت الكبد وتجرعت الدم ..!!

وتربى معاوية منذ نشأ، في قصر ضخم يملكه رجل من أكبر أغنياء مكة، يعمر لياليه بالمتاع، وما من شئ يعنيه إلا قتل محمد وصحبه، وهدم الإسلام قبل أن يرتفع بنيانه، وتتوطد أركانه ..! كلا الوالدين يملأ قلبه الضغن وطلب

الثأر، وخوف ضياع المكانة، وفقدان السكينة إذا انتصر محمد، وأتباع محمد..

حتى إذ أسلم معاوية وأبوه وأمه وغيرهم من الطلقاء حرص أبو سفيان شيخ بني أمية على أن تكون له ولقومه مكانة في الدولة الجديدة، بعد أن دالت دولتهم .. وكان بنو هاشم هو أقرب قريش إليهم فكلهم من بني عبد مناف، فلما بويع أبو بكر رضي الله عنه بعد أن قبض الرسول(ص)، طاف أبو سفيان ببني عبد مناف وحاول أن يستفز صديقه العباس للبيعة لعلي لتكون الخلافة في بني عبد مناف، ولكن عليا أبى، واتهم أبا سفيان بإثارة الفتنة ..!!

ثم لم يرق لبني أمية أن يتولاها عمر رضي الله عنه وهو ليس من بني عبد مناف، ولكن أبا سفيان كان يعرف شدة عمر فأذعن له ..! فلما استعمل عمر على دمشق معاوية بن أبي سفيان مكان أخيه الذي مات، قدم معاوية على أمه هند فنصحته : "يا بني، إنه قلما ولدت حرة مثلك ..! وقد استعملك هذا (تعني أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه)، فاعمل بما وافقه، أحببت ذلك أم كرهته".

ثم دخل معاوية على أبيه، فقال له : "إن هؤلاء الرهط من المهاجرين والأنصار سبقونا وتأخرنا عنهم، فرفعهم سبقهم، وقصر بنا تأخرنا، فصرنا أتباعا وصاروا قادة، وقد قلدوك جسيمًا من أمرهم، فلا تخالفن أمرهم، فإنك تجري إلى أمد لم تبلغه، ولو قد بلغته لنوفست عليه" ..!

على هذه التعاليم والقيم التي يؤمن بها أبو سفيان وهند نشأ معاوية.. أما علي فقد نشأ ونما على أن المروءة هي النصيحة في الحق، لا الموافقة على الخطأ، وإن الرياء شرك بالله! وكان كرم الله وجهه يعظ الناس بقوله : "رأيت رسول الله(ص) يبكي فسألته. ما يبكيك ..؟ قال: إني تخوفت على أمتي الشرك، أما أنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا. ولكنهم يراءون بأعمالهم".

وما تعلم علي أنه قلما ولدت مثله حرة، كما تعلم معاوية من أمه هند، بل علم الرسول(ص) عليا أنه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى، وصاغت أسلوب حياته الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾،

فشكلت هذه الآية مكارم أخلاقه، وأساسها التقوى.

فما بالإمام من حرص على الإمارة بجاهها وسطوتها وسلطانها، ولكن ما يكابده حقًا هو حرص الإمامة على صياغة مجتمع فاضل على أساس وطيد من العدل، وفي ظل ظليل من التراحم .. من أجل ذلك فهو يناضل لكي يغرس قيمًا نبيلة شريفة تثمر في نفوس المسلمين، وتزدهر بالفضائل، لا أن يؤسس ملكًا شامخًا عضوضا يمنحه الجاه والعزة والكبرياء .. فهو يعرف أن الكبرياء والعزة الله جميعا..!

كان يخصف نعله ذات يوم قبل معركة الجمل، ودخل عليه صفيه ووزيره وتلميذه عبد الله بن عباس، فعجب ابن عباس من أن يخصف أمير المؤمنين نعله بنفسه وهو يحكم نصف الأرض التي يعرفها البشر حينئذ، فقال لابن عباس: "ما قيمة هذه ..؟" قال: "لا قيمة لها" فقال الإمام: "والله لهي أحب إلى من إمرتكم إلا أن أُقيم حقًا أو أدفع باطلاً".

تلك كانت قضيته ورسالته: إقامة الحق ودفع الباطل.

أما معاوية فكانت قضيته هي الاستيلاء على السلطة..!! لهذا كان لمعاوية حرس لا يفارقه حتى في الصلاة .. أما

على فقد رفض أن يتخذ له حرسا، ورأى في ذلك مظهرا من مظاهر الملك، وهو إمام ..!!

وثمة أوجهٍ أخرى للاختلاف بين علي ومعاوية:

فعلي إمام المساكين يضرب لهم مثلاً في الصبر والاحتمال، فهو زاهد ناسك، يحب من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشُن، فإن شعر بزهوٍ يتسلل إلى نفسه قمعه بإذلال باطنه الله، واخشيشان ظاهره للناس، فهو كما قال عنه الرسول (ﷺ) المساكين الذين ارتضوا عليا إماما ورضي بهم أصحابا وأتباعا، هم الذين انقطعت بهم أسباب الرزق لعله أو نحوها، أو لم يجدوا عملاً، فوجب على ولي الأمر أن يكفيهم مطالب الحياة. وأن يوفر لهم المقام الكريم في هذه الدنيا، وأن يوجههم إلى ما يتقنونه ويفيدون به الناس كطلب العلم أو التفرغ له، إن أعياهم النهوض بالأعمال البدنية.. وإن لم يجد ولي الأمر في بيت المال ما يسد حاجتهم، وما يبلغ بهم حد الكفاية، وجب عليه أن يفرض في أموال الأغنياء حقًا لهم، ففي أموال الأغنياء حقوق غير الزكاة، وإذا احتاجت الأمة فلا مال لأحد .. وقد لعن الله أقواما في الغابرين لأنهم كانوا يصنعون بأموالهم الخاصة ما يشاءون لا ما يقتضيه الصالح

العام، ولا ينفقون أموالهم في سبيل الله، والإنفاق في سبيل الله، هو الإنفاق على مصالح المجتمع كله، من جهاد لتوفير أمن الأمة، وإقامة ما يقتضيه صالح الأمة من مرافق في الصناعة والزراعة والتعليم والصحة والتثقيف ونحو ذلك .. والمسلمون يجب أن يعتبروا بقصص الأولين التي قص‍ها الله تعالى في القرآن، فما أنزلها الله عز وجل إلا عبرة لأولي الألباب .. أفلم يسمعوا الله تعالى يقول عن قوم شعيب ..؟

أفلم يعرفوا كيف عاقبهم الله بظلمهم هذا..؟

ولعل هذا الم‍نح‍ى في التفكير والسيرة، هو الذي كان يستفز ضد الإمام علي أكثر الأثرياء وطلاب الثراء، وأهل المطامع والأهواء.

وهذا التفكير نفسه هو الذي كان يجذب إليه أهل التقوى، والورعين والفقراء، والمساكين..

وزهد علي زهد لم يكن يقوى عليه كثير.. وكان معاوية على النقيض منه .. ما كان من الزاهدين .. فهو فتى مترف، يلبس كل يوم ح‍لَّتين ثمينتين، ويتحَّلى بالنفائس، وهو يحب الطعام الفاخر مهما يتكلف، وكان يتخير من أنواع الطيور والأحياء المائية ما يجلب إليه من أماكن بعيدة، وعلى مائدته

من الحلوى وحدها عشرة أصناف .. من أجل ذلك كان بعض المنتسبين إلى العلم يقولون: "الطعام مع معاوية أشهى والصلاة خلف علي أزكى" وهكذا كانوا ينتقلون في صفين بين مائدة معاوية ومصلى علي..!!

وقد انتهى النهم بمعاوية إلى المرض بأحد أمراض التخمة ..! وتركه وازداد تركه يوما بعد يوم فعجز عن القيام طويلا، فكان يخطب وهو جالس، فكان أول من جلس في خطبة منبرية.

معاوية يمرض من التخمة لكن علي يتحرج من أن يشبع وفي الأمة جائع واحد، ويبكي للمحرومين ويقول: "اضرب بطرفك حيث شئت من الناس، هل تبصر إلا فقيرا يكابد فقرا، أو غنيا بدل نعمة الله كفرا".

أجل .. هكذا كان الزمان .. غنى فاحش وبؤس مدقع، وكان واجب أمير المؤمنين خلال هذه الفوضى أن يقيم العدل ويدفع الباطل .. ولقد كان علي كرم الله وجهه يؤنب بخلاء الأغنياء بقوله: "فلا أموال بذلتموها للذي رزقها، ولا أنفس خاطرتم بها للذي خلقها. تكرمون بالله على عباده (أي تصبحون ذوي كرامة بنسبتكم للإيمان بالله تعالى) ولا

تكرمون الله في عباده ..! فاعتبروا بنزولكم من كان قبلكم"..
وكان يكتب لمن يحس فيه التطلع إلى الدنيا من عماله: "أما بعد، فإن المرء ليفرح بالشئ الذي لم يكن ليفوته، ويحزن على الشئ الذي لم يكن ليصيبه، فلا يكن أفضل ما نلت في نفسك من دنياك بلوغ لذة أو شفاء غيظ، ولكن إطفاء باطل أو إحياء حق .. ليكن سرورك بما قدمت، وأسفك على ما خلَّفت، وهمك فيما بعد الموت".

ويكتب لعامل آخر: "أما بعد، فإنك لست بسابق أجلك، ولا مرزوق ما ليس لك ..! واعلم بأن الدهر يومان: يوم لك، ويوم عليك، وإن الدنيا دار درك، فما كان منها لك أتاك على ضعفك، وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك ..!".

وكان يعظ أصحابه بقوله: "... اعلموا أن ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة خير مما نقص في الآخرة وزاد في الدنيا، فكم من منقوص رابح ومزيد خاسر. إن الذي أمرتم به أوسع من الذي نهيتم عنه. وما أحل لكم أكثر مما حرم عليكم، فذروا ما قلَّ لما كثُر، وما ضاق لما اتسع".

وبهذا الثراء الروحي الضخم، وبهذه التقوى التي تمنح صاحبها قوة خارقة كان علي يستقبل صروف الدهر،

ويستخلص منها العبرة، ولا يأسى على ما يستطيع دفعه، ويستقصى حكمة الله، ووجه الخير فيما ينوبه من نائبات.. ضاق بعض أهل المدينة بالتسوية في القسمة بينهم وبين العامة وهم الرؤساء، فلحقوا بمعاوية الذي كان يميز في القسمة، ويؤثر الرؤساء والأقوياء وأهل السطوة. فأرسل سهل بن حنيف إلى علي□ يخبره بأمر الهاربين من دينهم إلى دنيا معاوية، فأجابه الإمام: "أما بعد، فقد بلغني أن رجالاً من قِبَلِك (أي من عندك) يتسللون إلى معاوية، فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم، ويذهب عنك من مددهم، فكفى لهم غيا ولك منهم شافيا فرارهم من الهدى والحق، وإيضاعهم (إسراعهم) إلى العمى والجهل، إنما هم أهل دنيا مقبلون عليها، ومهطعون (مسرعون) إليها، وقد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعوه، وعلموا أن الناس عندنا في الحق أسوة (سواء) فهربوا إلى الأثَرَة، فبعدًا لهم وسحقًا ..!".

ويروي الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في حديثه عن نهم معاوية وإسرافه على نفسه في الأكل، "قال ابن عباس: كنت ألعب مع الغلمان فإذا رسول الله(□) قد جاء فقلت: ما جاء إلا إلى□، فاختبأت على باب، فجاءني، فخطاني

خطاة أو خطاتين ثم قال: اذهب فادع لي معاوية – وكان يكتب الوحي – فأتيت رسول الله فقلت: إنه يأكل فقال: اذهب فادعه، فقيل: إنه يأكل، فأخبرته فقال في الثالثة: لا أشبع الله بطنه. فما شبع بعدها ..!".

تربى معاوية على أن يبتغي مرضاة الناس: إما مرضاة أمير يخافه، أو رعية يرجوهم ..! فرق آخر بين علي ومعاوية:

كان معاوية يقول لخصومه: "ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا. قد عرفت أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم (لأحكم)". وكان يقول: "إن السلطان ليغضب غضب الصبي ويأخذ أخذ الأسد". أما علي فكان لا يريد أن يقاتل أحدا، وما قاتل إلا ليوطّد أركان الدين، وإلا لكي يأخذ الناس ما أتاهم به الرسول، وينتهوا عما نهاهم عنه. ما قاتل إلا مضطرا مكرها دفاعا عن العدل، ليقيم الحق ويدفع الباطل.

وكان علي وهو أمير المؤمنين، لا يغضب إلا لما يغضب له الصبور الحليم، وكان يعاقب كما يعاقب الأب الرحيم

الحكيم ..! فهو يقول: "إذا قدرتَ فاذكر قدرة الله عليك، وليكن عفوك شكرا لنعمته أن مكَّنك من عدوك".

وهو شديد التواضع، يقول لمن يفضله على غيره من الصحابة: "إن أنا إلا رجلٌ من المسلمين".

* * * *

لم يعد العصر عصر نبوة، ولا عصر خلافة راشدة، فقد تغير الزمان والناس..!! فإذا بالناس كما وصفهم أبو ذر رضي الله عنه: "كان الناس وردا بلا شوك، فأمسوا شوكاً بلا ورد ..!".

وأصبح التهادن أسلوب العصر وقانون التعامل بين الناس، ولكنه ما كان ليهادن.

ولقد خسر الخلافة نفسها لأنه لم يهادن، فعندما عرض عليه عبد الرحمن بن عوف البيعة على ألا يجعل أمرا من أمور المسلمين لأحد من عشيرة بني هاشم رفض الشرط ، وقال أنه سيولِّي أمور المسلمين أصلح المسلمين للأمر، وأنهضهم بالعبء، وأنفعهم للمسلمين، سواء كان من بني هاشم أم من غيرهم..

وعندما اشترط عليه ابن عوف أن يبايعه على أن يسير على كتاب الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين من بعده، رفض علي الشرط، لأنه رأى في التقيد بسنة أبي بكر وعمر حرجا، فهذا التقيد تقييد لحريته في الاجتهاد واستنباط أحكام جديدة لوقائع قد تستحدث، والعصر يتغير ويطرح على الفكر مسائل ومشاكل لم تطرح من قبل .. وما باله لا يجتهد وقد خالف أبا بكر وعمر في بعض الفتيا، فأخذا برأيه..؟!

من أجل ذلك لم يبايعه ابن عوف.

وبايع عثمان الذي قبل شروط ابن عوف جميعا، ثم ما لبث أن جعل عشيرته من بني أمية على رقاب الناس، ومازالوا يظلمون الأمة ويخالفون سنة الرسول والشيخين من بعده، حتى أثاروا الرعية على عثمان، فاستغل المتطرفون من القراء تلك الأخطاء وحكموا على عثمان بالكفر، ومخالفة القرآن، وما قرأ أحد منهم القرآن إلا بفضل عثمان، ثم نادوا بالبيعة لعلي ثم حكموا عليه من بعد بالكفر، وما فهم أحد منهم القرآن إلا بفضل علي وتلميذه عبد الله بن عباس..!!

وإنه لممضٍ ومحزن حقًا أن يصاب علي بمعاوية..!! فها هو ذا رجل تقي يسوس الناس بورع الزاهد، ويضبط الأمور

بحكمة الناسك، ويحكم بالتقوى .. يواجه رجـــلاً أدرك نـهـم الناس إلى الثراء والجاه واللذة، فأشبع كـل هـذه النزعـات والنزغات..

رجلٌ واجه الثروة بالعدل في قسمتها بلا تمييـز، وآخـر عرف أن رءوس الناس وخاصتهم هم الذين يقودون العامـة من عشائرهم وقبائلهم، فأغدق علـى الخاصـة والرؤسـاء، ليكسب ولاء العامة الأتباع، وتم له ما أراد ..!!

ولهذا كان الولاء لولاية علي ولاء تقوى وورع وحب في الله، والولاء لمعاوية ولاء تطلع وطمع وحب للدنيا ..! أمـا الذين والوا معاوية فقد ركبوا تيار عصرهم، وأما أتباع علي فقد كانوا يسبحون ضد التيار..

كان العصر عصر مساومات ومهادنات وصفقات وثـراء مقبل بلا حساب من خراج البلاد المفتوحة وجزيتها..

وكان عصر مراوغات .. فراوغ معاوية وساوم، وهادن، وعقد الصفقات، ووزع الثروات، بما تفرضه روح العصـر. أما الإمام علي فوقف صامدا حاسما لا يساوم ولا يتنازل ولا يهادن في الحق، ولا يسكت عن باطل ..!

من أجل ذلك رفض من أول يوم نصيحة الذين أشاروا عليه بأن يقر معاوية على الشام ليحصل على بيعته، وبأن يخص رؤساء القبائل والعشائر بعطاء أكبر ليضمن ولاء أتباعهم من العامة ..!

ورفض أن يقر الذين أثَّروا في زمن عثمان على ما لا حق لهم فيه .. وطالبهم برد الأموال والقطائع، وإن كانوا قد تزوجوا بها النساء واشتروا الإماء ..! بينما كان معاوية يمنح رؤساء القبائل ومن استرزق عنده من العلماء كما يشاء فهو يقطعهم أجود الأرض، ويعطيهم فيجزل العطاء، ويهبهم أجمل الإماء ..!!

وكان معاوية يفخر بسياسته، ويزهو بأنها جذبت إليه كثيرين من أتباع علي. وكان علي ينصح الناس أن يلتزموا جادة الحق، وألا يرهبوا طرق الحقيقة إن خلت من سالكيها، فالعقبى لهم ..!!

وفي الحق أن في أتباع معاوية من استيقظ ضميره فلحق بعلي كمصقلة بن هبيرة الذي فر من علي لأنه لم يستطع أن يؤدي ما عليه من ديون لبيت المال ثمن السبي الذي افتداه كما مر آنفاً. فلما علم علي بهربه قال: "ماله فعل فعل السيد

وفر فرار العبيد ..؟ أما لو أنه أقام لأخذنا ما قدر عليه، فإن أعسر أنظرناه (أمهلناه)، وإن عجز لم نؤاخذه بشئ ..!" وعاد مصقلة فارا من دنيا معاوية إلى دين علي، ففرح به وأثنى عليه.

ولكن بعض الذين فتنتهم الدنيا من أصحاب علي ضاقوا بما يعانون معه من خشونة العيش، والشدة في المال، ففروا إلى طيبات الرزق، والتميز والمتاع عند معاوية..

ولكن لقد فضل الإمام أن يقسم المال بالسوية، فيتساوى الناس في سد حاجاتهم وفي بلوغ حد الكفاية، بدلاً من أن يخص عددا قليلاً من رؤسائهم بالأموال الطائلة والعطاء الكبير، ويترك الكثرة الكاثرة تعاني من الحاجة ..!

هكذا تعلم من رسول الله (ﷺ).

وكان الإمام شديدا حاسما في حساب عماله، يأخذهم بالعنف إن اغتالوا حقًا من حقوق المسلمين، أو استأثروا دونهم بشئ..

من أجل ذلك كان يتسرب من عماله إلى معاوية من فتنتهم الحياة الدنيا ..!

والإمام لا يجهل أن المال والبنين فتنة، فقد سمع الله تعالى يقول: ﴿ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ .. وهو يعلم أن الناس إلا من رحم الله قد زين لهم حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ..!!

وكان الإمام يحب أن يعلِّم الرعية، ويأخذها إلى الطريق المستقيم، وكان في ذلك يجابه رجلاً يحب أن يداهن من رعيته أصحاب النفوذ على العامة، وإن أخذوه إلى الطرق الملتوية ..!

ولقد فُجع الإمام في أحد عماله، ممن اصطفاهم ليلوا بعض أمور الناس وكان هذا العامل مثالاً للأمانة والصمود والحكمة وحسن السياسة، وكان الإمام يثق به ويقر به، غير أنه لم يطق الحرمان والشظف والاستمرار طويلاً على نهج الإمام، فأصاب شيئًا من بيت المال وزعم أنه حقه ..!

فكتب إليه الإمام مؤنبا، وأنهى كتابه بقوله:

"كيف تسيغ شرابا وطعاما وأنت تعلم أنك تأكل حراما وتشرب حراما ..؟ وتبتاع (تشتري) الإماء وتنكح (تتزوج) النساء من مال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم هذه الأموال وأحرز بهم هذه البلاد ..؟!

فاتقِ الله وأد إلى القوم أموالهم، فإنك والله لـئن لـم تفعـل وأمكنني الله منك لأعذرن إلى الله فيك. فوالله لو أن الدسـن والد حين فعلا مثل الذي فعلت ما كانت لهما عندي هـوادة، ولما تركتهما حتى آخذ الحق منهما".

فكتب إليه عامله: "أما بعد، فقد بلغني كتابك عـن الـذي أصبت من بيت المال، ولعمري إن حقي في بيـت مـال الله أكثر من الذي أخذت. والسلام".

فكتب إليه علي: "أما بعد، فإن العجب كل العجب منك، إذ ترى لنفسك في بيـت مـال الله أكثـر ممـا لرجـل مـن المسلمين..!! وقد أفلحت إن كان تمنيك الباطل وادعاؤك مـا لا يكون ينجيك من الإثم، ويحل لك مـا حـرم الله عليـك. عمرك الله ..! إنك لأنت البعيد (يعني البعيد عن الصـواب)، قد بلغني أنك اتخذت مكة وطنًا وضربت بها عطنًا (مرابض الغنم والإبل والأنعام) تشتري المولدات من المدينة والطائف، وتخارهن على عينك، وتعطي بهن مال غيرك، وإني أقسـم بالله ربي وربك رب العزة، ما أحب أن ما أخذت من أموالهم حلالاً أدعه ميراثًا لعقبي، فمـا بـال اغتباطـك بـه تـأكلـه حراما..؟! ضحِ رويدا (أي لا تعجل في ذبح الأضحية، وهو

مثل يضرب في التَّهي عن العجلة في الأمر) فكأنك قد بلغت المدى، وعرضت عليك أعمالك بالمحل الذي ينادى فيه بالحسرة، ويتمنى المضيع التوبة، والظالم الرجعة".

فكتب إليه ذلك العامل: "والله لئن لم تدعني من أساطير لأحملن هذا المال إلى معاوية يقاتلك به ..!".

إلى هذا المدى أفسدت الأموال الناس ..!. وتلك هي روح العصر..!! صدق رسول الله حين قال أنه لا يخشى الفقر على أمته من بعده، وإنما يخشى إقبال الدنيا عليها، وكثرة المال، فيتحاسد الناس ويتفرقوا بعد أن أصبحوا بنعمة الله إخوانا ..! وها هو ذا رجل تقي من أصحاب علي وثقاته، يتأول نصوص الشريعة كالمرتزقة من أصحاب معاوية التماسا للمنفعة وتحقيقًا للمصلحة.. ثم يسمي تنبيهه إلى الحق وأداء الأمانة والتعفف عما لا يحق له، أساطير..!! ثم يهدد إمامه أن ينضم بما استباحه من مال إلى عدوه .. إلى هذا المدى فسد الناس بعد رسول الله وعهد الشيخين، فأصبحوا كما وصفهم أبو ذر شوكًا بلا ورد، بعد أن كانوا وردا بلا أشواك، في الزمن الرائع الذاهب ..!

وإن منهم من يقول عن نفسه للناس أن الدنيا مالـت بـه ومال بها، وأنه ابن الدنيا، "فهي أمي وأنا ابنهـا، فـإن لـم تجدوني خيركم فأنا خير لكم!".

معاوية هو الذي يصارح الناس بهذا..

وهذا حق كله، فهو ليس بخير الفئة الباغية، ولكنه أنفعهم لها، فهو ابن الدنيا بحقٍّ كما وصف نفسه!

أما علي فقد كان خير حزبه، ولكنه لم يكن خيرا لدنياهم، بل ربما كان عدو دنياهم، ولكنه خيرهم لدينهم وأخراهم..!!

من أجل ذلك كان الصالحون يقولون عن معاوية: "إنـه واسع الدنيا ضيق الآخرة" وما كان معاوية ليحفل بما يقال عنه ولا بما يقال له، ما دام هذا القول لا ينزع الملك منه..!!

سأل معاوية عمرو بن العاص: "ما أعجب الأشياء ..؟" قال عمرو: "غَلَبَةُ من لا حق له ذا الحق على حقـه" فقـال معاوية: "أعجب من ذلك أن تعطى الدنيا من لا حق لـه مـا ليس له بحق من غير غلبة".

* * * *

ظلَّ أهل الورع والتقوى ينصرون عليا على الرغم مـن كل شئ .. قال أحدهم: "إن الدنيا لم تبن شيئًا إلا هدمه الدين،

وإن الدين لم يبن شيئًا فهدمته الدنيا ..؟ ألا ترى أن قوما لعنوا عليا ليخفضوا منه، فكأنما أخذوا بناصيته جرا إلى

السماء". وكان الناس على الرغم من اكتشافهم أن معاوية وحزبه
لبسوا قميص عثمان ليخفوا وراءه الطمع في الملك والرياسة، ما انفكوا يسألون عليا عن عثمان ..!

قال علي لأحد أصحابه: "انطلق إلى قومك فأبلغهم كُتُبي وقولي" (أي مواعظه) فقال الرجل: "إن قومي إذا أتيتهم يقولون: ما قول صاحبك في عثمان" ..؟" فقال الإمام: "أخبرهم أن قولي في عثمان أحسن القول، إن عثمان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين":

ومن عجب أن معاوية استطاع أن يخفي الحقيقة فيما اصطنع من ضجيج وشغب، كما أخفى أطماعه وراء قميص عثمان .. فلما هدأت الحرب، واستقرت المهادنة، اكتشف الناس أن أحدا لم يتهم عليا بقتل عثمان حتى بويع، فلما بويع وأعلن في أول خطبة خطبها بعد البيعة أنه سيرد إلى بيت المال ما وزعه عثمان، وأنه سيسترد القطائع التي أقطعها

عثمان رضي الله عنه لهؤلاء، ليفلحها زارعوها ويدفعوا خراجها إلى بيت المال لا إلى أصحاب الإقطاعات .. لما أعلن الإمام علي سياسته تلك، فزع معاوية وأمثاله من الذين أترفوا في زمن عثمان، فقد تيقنوا أن عليا سينزع من الخاصة والرؤساء ما لا يحق لهم ويوجهه لمصالح العامة، فجاءه الملأ من بني أمية يسألونه أن يبقي على ما في أيديهم من عطايا عثمان، وأن يقرهم على أعمالهم، فأبى، فلما أبى اتهمه معاوية واتهموه جميعا بقتل عثمان، وأعلنوا أنهم لن يبايعوه ..! وأنهم ليعلمون أن عليا أبعد الناس عن هذه الشبهة، وأنه حاول أن ينقذ عثمان جهده ..!

وقد روى عثمان بن حنيف وهو من أصحاب علي الثقات: "إني شهدت مشهدا اجتمع فيه علي وعمار ومالك الأشْتَرَ، فذكروا عثمان فوقع فيه عمار، ثم أخذ مالك (الأشْتَر) فحذا حذوه، ووجه علي يتمعر (يتغير وزنًا ومعنى: يتغير من شدة الغيظ) ثم تكلم أحدهم، فقال: "ما على رجل يقول: كان والله أول من ولى فاستأثر، وأول من تفرقت عنه هذه الأمة" فقال علي: "لقد سبقت لعثمان سوابق لا يعذبه الله بها ..!".

وكان أسلوب علي في إدارة بيت المال يستفز ضده الأثرياء والخاصة .. فقد كان يدخل بيت المال مرة في كل جمعة وينظر إلى ما فيه من الذهب والفضة ويقول:

أبيضي واصفري وغري غيري إني من الله بكل خير

ثم يوزع ما في البيت فيسوى في القسمة بين الناس جميعا من الخاصة والعامة، والرؤساء والمرءوسين والعرب والموالي .. حتى إذا فرغ من القسم كنس بيت المال، وفرش له فيه فصلى فيه ركعتين، ولقد ينام فيه إذا كان الوقت صيفًا..

أحسن الذين قاوموه استغلال الأنفة والحمية الجاهلية عند رؤساء القبائل فأثاروا سخطهم على هذه المساواة .. ولأمر ما كان هذا النوع الشحيح الفاسد من الناس هم أعداء رسالات السماء، وقتلة الأنبياء .. فكيف بعلي وما هو بنبي..؟!!

والتقى ابن عباس بعمرو بن العاص في الحج، فقال له ابن عباس: "حملك معاوية على رقاب الناس، فأنت تسطو بحمله وتسمو بكرمه ..!".

فقال عمرو متوددا: "أما والله إني لمسرور بك، فهل ينفعني عندك ..؟" قال ابن عباس: "حيث مال الحق ملنا،

وحيث سلك قصدنا". وكانت هذه الصراحة في الحق، والتنزه عن الدنية من خلائق بني هاشم.

ثم التقيا بعد ذلك في موسم من مواسم العرب، حيث قام عمرو بن العاص خطيبا فمدح معاوية وبني أمية، وتناول بني هاشم، وافتخر بما شهده في صفين فاعترضه عبد الله ابن عباس قائلاً: "يا عمرو، إنك بعت دينك لمعاوية، وأعطيته ما بيدك ومنَّاك ما بيد غيرك (يعني مصر)، وكان الذي أخذ منك أكثر من الذي أعطاك، والذي أخذته منه دون الذي أعطيته، حتى لو كانت نفسك في يدك ألقيتها، وكلٌّ راضٍ بما أخذ وأعطى، فلما صارت مصر في يدك كدرها عليك بالعذل (اللوم) والتنقيص. وذكرت مشاهدك بصفين، فو الله ما ثقلت علينا يومئذ وطأتك، ولقد كشفت فيها عورتك، وإن كنت لطويل اللسان، قصير السنان، آخر الخيل إذا أقبلت، وأولها إذا أدبرت، لك يدان: يد لا تبسطها إلى خير، وأخرى لا تقبضها عن شر، ولسان غادر ذو وجهين، ووجهان: وجه موحش ووجه مؤنس، ولعمري إن من باع دينه بدنيا غيره، لحري أن يطول عليها ندمه. لك بيان وفيك

خطل، ولك رأي وفيك نكد، ولك قدر وفيك حسد، وأصغر عيب فيك أعظم عيب في غيرك".

فقال عمرو: "واالله ما في قريش أثقل علي مسألة، ولا أحر جوابا منك ولو استطعت ألا أجيبك لفعلت، غير أني لم أبع ديني لمعاوية، ولكني بعت االله نفسي، ولم أنس نصيبي من الدنيا، وأما ما أخذت من معاوية وأعطيته فإنه لا تعلم العوان الخمرة (تُعلَّم بالبناء للمجهول المرأة الثَّيب كيف تضع خمارها. والمثل يضرب للمجرب العارف بأمره)، وأما ما أتى إلي من معاوية في مصر، فإن ذلك لم يغيرني له ..! وأما خفة وطأتي عليكم بـ صِفّين، فلم استثقلتم حياتي، واستبطأتم وفاتي ..؟ وأما الجبن، فقد علمت قريش أني أول من يبارز، وأمر (من المرارة) من ينازل، وأما طول لساني فإني كما قال هشام ابن الوليد لعثمان بن عفان:

لساني طويلٌ فاحترس من شباتِه

عليك وسيفي من لساني أطولُ

وأما وجهاي ولساناي، فإني ألقى كل ذي قدر بقدره، وأرمي كل نابح بحجره، فمن عرف قدره كفاني نفسه، ومن

جهل قدره كفيته نفسي، ولعمري ما لأحد من قريش مثل قدرك ما خلا معاوية، فما ينفعني ذلك عندك ..؟

ثم أنشد:

بني هاشم مالي أراكم كأنكم

بي اليوم ج ه الٌ وليس بكم جهلُ ..!

ألم تعلموا أنِّي جسور على الوغى

سريع إلى الداعي إذا كثر القتلُ

وإني حسمت الأمر بعد اشتباهه

بدومةٍ (دومة: دومة الجندل) إذْ أعيا على الحكم الفصلُ

* * * *

برح الخفاء، وبان لكل ذي بصيرة أن معاوية لم يهمه دم عثمان، ولم يخرج مطالبا به إلا تعلة، وإخفاء لحقيقة هدفه وهو الملك .. وما أهمه غير الملك .. وما أهمه غير الملك..! هكذا لبس قميص عثمان المخضب بدم الخليفة المقتول ظلما كل من أراد أن يخفى حقيقة نواياه، وأن يظهر الرحمة وباطنه من قبله العذاب ..!

وعلى الرغم من كل شئ، فما زال الشغب الذي أحدثه معاوية ومن معه يشوش بعض العقول فيغم عليها موقف علي من عثمان.

قال رجل للإمام علي: "إني سائلك عن مسألة كانت منك ومن عثمان، فإن نجوت اليوم نجوت غدا إن شاء الله" (يعني إن نجوت من دم عثمان في الدنيا نجوت من العقاب في الآخرة).

ما كان سؤال كهذا ليوجه للإمام علي، ولكن عليا تعود أن يصبر نفسه وأن يتحمل في سبيل الحقيقة عناء عظيما.. ومن مثل هذه الأسئلة ما يمزق النفوس المرهفة كنفس علي، غير أنه كان قد أجمع أمره – بكل ما أوتي من علم وحكمة – أن يصبر على سوء الظن، وأن يعلم الناس، ويبصرهم بما لم تكشفه بصائرهم بعد ....

قال علي للرجل: "سل ما بدا لك". قال الرجل: "أخبرني أي منزلة وسعتك إذ قتل عثمان ولم تنصره ..؟" قال: "إن عثمان كان إماما، وإنه نهى عن القتال، وقال: من سل سيفه فليس مني، فلو قاتلنا دونه عصينا". قال الرجل: "فأي منزلة وسعت عثمان إذا استسلم حتى قتل ..؟" فأجاب الإمام:

"المنزلة التي وسعت ابن آدم، إذ قال لأخيه: (لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين)" فسأل الرجل: "فهلَّا وسعتك هذه المنزلة يوم الجمل ..؟" قال الإمام: "إنا قاتلنا يوم الجمل من ظلمنا. قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ فقاتلنا نحن من ظلمنا، وصبر عثمان، وذلك من عزم الأمور".

ما انفك علي يوضح للناس أن معاوية ومن معه من العلماء الذين انسلخوا من علمهم وثبوا على الدنيا بتأويل القرآن، فصرفوا قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾، وقوله: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾، ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا ﴾

ون و
ق
ولـ
ه:
﴿

فصرفوا هذه الآيات عن معناها وأفتى المفتون المرتشون بأن هذه الآيات تبيح لمعاوية الطلب بثأر عثمان دون ولي الأمر..

ثم قال علي: "عصبوا بي دم عثمان (حملوني مسئوليته) وألَّب عالمهم جاهلهم ..!!".

وقد أخذ أنصار معاوية يذيعون أن الصالحين يبغضون عليا ويحبون معاوية.

دخل رجل على الحسن البصري فقال: "إنهم يزعمون أنك تبغض عليا" فبكى الحسن حتى اخضلّت لحيته، ثم قال: "كان عليّ بن أبي طالب سهما صائبا من مرامي الحسن حتى اخضلت لحيته، ثم قال: "كان عليّ بن أبي طالب سهما صائبا من مرامي الله على عدوه، ورباني هذه الأمة، وذا فضلها وسابقتها وذا قرابة قريبة من رسول الله (ﷺ) ، لم يكن بالنَّومة عن رسول الله (ﷺ) ولا الملولة في ذات الله، ولا السروقة لمال الله، أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مونقة وأعلام بينة. ذلك علي بن أبي طالب يالُكَع".

فلما ذاعت في الناس مقالة الحسن البصري، بدأ أنصار معاوية يشهرون بالإمام .. وتزعمهم عمرو، فلم ينكر حق الإمام في الخلافة ولكنه أخذ عليه مآخذ تجعله غير أهل للخلافة ..!

قال عمرو بعد أن كافأه معاوية بولاية مصر، وترك له كل خراجها: "إن عليا رجل ذو مزاح ودعابة كبيرة فهو لا

يصلح أميرا للمؤمنين، أما معاوية فهو جاد حازم صارم فهو أصلح منه" ....

وسمع الإمام هذا، فقال: "عجبا لابن النابغة. يزعم أني ذو دعابة وأني رجل تلعابة، إني وشر القول أكذبه. إنه يسأل فيلحف، ويسأل فيبخل، فإذا احمر البأس، وحمى الوطيس، وأخذت السيوف مأخذها من هام الرجال، لم يكن له هم إلا نزعه ثيابه، ويمنح الناس إسته، أعطبه الله وأترحه (أحزنه)".

ثم سكت طويلاً فسألوه أن يتكلم، فقال: "إنا لأمراء الكلام: فينا تشعبت عروقه، وعلينا تهدلت غصونه" ثم قال:

"واعلموا رحمكم الله أنا في زمان القائل فيه بالحق قليل، واللسان عن الصدق كليل، واللازم للحق ذليل، أهله معتكفون على العصيان، مصطلحون على الإدهان، فتاهم عارم (شرس سيء الخلق)، وشائبهم آثم، وعالمهم منافق،.. لا يعظم صغيرهم كبيرهم، ولا يعول غنيهم فقيرهم .. واعلموا أن الله يحب الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذ حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، ينجون من كل غبراء مظلمة".

ولا ريب أن شر ما تصاب به أمة هو ما ذكره الإمام: ألا يعظم الصغير كبيرا، ولا يرحم الغنـــي فقيـرا، وأن ينــافق العلماء ..!!

وسكت الإمام قليلاً، وعيناه تنظران إلى بعيد .. ثم قـال: "رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبكي، فسألته: ما يبكيك يا رسول الله ..؟ قال: إني تخوفت على أُمتي الشـرك من بعدي. أما أنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ولكنهم يراءون بأعمالهم".

وكان الإمام يردد هذا الحديث على الناس كلما حذرهم من المراء.

وجاءه خبر من بعض نواحيه أن أقواما ثاروا على عامله وأوشكوا أن يغلبوه، فسيّر إليهم الإمام جندا، وكتب إلى أمراء بلاده التي سيمر بها الجند كتابا كان قد تعود أن يرسله كلمـا سيّر جندا: "من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من مر بـه الجيش من جباة الضرائب وعمال البلاد: أمـا بعد، فـإني سيرت جنودا هي مارة بكم إن شاء الله، وقد أوصـيتهم بمـا يجب عليهم من كفِّ الأذى، وصرف الشذى (الشـر). وأنـا أبرأ إليكم وإلى ذمتكم من معرة (أذى) الجيش إلا من جوعة

المضطر الذي لا يجد عنها مذهبا إلى شبعه فنكلوا (عـاقبوا)
من تناول منهم شيئًا ظلما عن ظلمهم، وكفوا أيدي
سفهائكم
عن مضارتهم والتعرض لهم فيما استثنيناه منهم" ....فقد
كان الإمام حريصا على حماية حقوق كل فـرد مـن أفراد
الرعية، وعلى ضبط الأمور، بحيث لا يجور العسكر
على الناس، ولا يبغي أحد على العسكر..!

* * * *

خلا الإمام إلى نفسه يستعرض ما مر به وبالأمـة مـن
أحداث ....

وعجب لأن بعض الأثرياء ينكرون عليه أنه يسوي فـي
القسمة بين الناس، ويريدون له أن يخصهم بمال أكثر ممـن
سواهم، لأنهم أشراف الناس ورؤساؤهم. مـن أيـن جاءوا
بهذا..؟ ألأن عمر كان يميز في العطاء ..؟ ولكن عمـر لـم
يميز رؤساء الناس، بل ميز السابقين إلى الإسلام، وميـز آل
البيت وأزواج النبي .. وعلي من آل البيت ينزل راضيا عن
هذا الامتياز ليسوي بين الناس ..؟ إن عمر علـى النقيض
حرم رؤساء من الذين كانوا يسمون المؤلفة قلـوبهم، حـين

وجد الإسلام قد قوى، فلما احتج شيخهم أبو سفيان أغلظ لــه عمر وأعلن أن الإسلام في غنى عن هؤلاء المؤلفة قلوبهم ..

أفلا تذكرون سنة الرسول في التسوية ..

أفلا تذكرون سيرة أبي بكر. فليسألوا أم المؤمنين عائشة .. ألم تقل عائشة رضي الله عنها: "قسم أبي أول عام الفيء فأعطى الحر عشرة، وأعطى المملوك عشرة، وأعطى المرأة عشرة وأمتها عشرة، ثم قسم في العام التالي فأعطاهم عشرين عشرين ..؟!".

بلى كان أبو بكر رضي الله عنه – وهو من هو حرصا على اتباع السنة – يسوي بين الناس في القسم: الحر والعبد، والذكر والأنثى، والصغير والكبير فيه سواء .. وكان لا يبقى في بيت المال شيئًا إلا قسمه ...

وعجب الإمام للذين يلومونه لأنه شديد الوطأة على عماله، يحاسبهم حسابا عسيرا .. أفلا تذكروا سيرة عمر.. ألم يقاسم عماله ما أصابوه من مال فوق عطائهم .. فليتذكروا أخذ عمر لأبي هريرة ..؟ ألم يحاسبه ويقاسمه ماله ..؟ (الطبقات الكبرى لابن سعد) .. لقد كان عمر يولي عمالاً هم أدنى من الذين لا يوليهم، فلما سئل: مالك لا تولي الأكابر من

أصحاب رسول الله كعثمان وعلي ..؟ قال: "أكره أن أدنسهم بالعمل" وفي الحق أنه كان يستبقيهم لا لأنه لا يريد أن يدنسهم بالعمل فحسب، بل ليكونوا أهل مشورته، ولكي لا يفتن بهم أهل الأمصار..ثم

لماذا يلومون علياً لأنه يؤثر الزهد ..؟! أفلا تدبروا خيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ..؟! لقد كان عمر يقول: "إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة وصي اليتيم من مال اليتيم: ﴿ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف﴾".

وقد اشتكى عمر يوما وكان دواؤه في العسل، ولم يكن عنده عسل، ولكن كان في بيت المال كثير منه. فجمع أهل مشورته فقال: "إن أذنتم لي، وإلا فإنه حرام" فأذنوا له.

وقد جاء المسلمون فدخلوا علي أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنهما فقالوا لها: "أبى عمر إلا شدةً على نفسه وحصراً، وقد بسط الله في الرزق فليبسط في هذا الفيء في ما شاء منه وهو في حل من جماعة المسلمين". فقالت حفصة بنت عمر لأبيها : "إن الله قد أوسع عليك الرزق، وفتح عليك الأرض وأكثر من الخير، فلو طعمت طعاما ألين

من طعامك، ولبست لباسـا ألـين مـن ثيابـك ..!" فقـال: "سأخاصمك إلى نفسك. أما تذكرين ما كان رسـول الله (ﷺ) يلقى من شدة العيش ..؟". ومازال يذكرها بما كان يصـنعه (ﷺ) حتى أبكاها..!! ثم قال لها عن الرسول وخليفتـه أبـي بكر: "إني قد قلت لك إني والله لئن استطعت لأشاركنَّهما في عيشهما الشديد لعلِّي ألقَى معهما عيشهما الرضي".

وعندما لامه بعض أصحابه قال: "أما والله لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وأرفعكم عيشاً، ولكني سمعت الله جـل ثنـاؤه عيّر قوما بأمر فعلوه وقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾. من أجل ذلك عندما كلمه عماله في أن يفرض لهم من بيت المال عطاء أكبر مما يفرضـه قـال لهم: "يا معشر الأمراء، أما ترضون لأنفسكم مـا أرضـاه لنفسي ..؟" قالوا: "يا أمير المؤمنين إن أرض المدينة العيش بها شديد ولا نرضى بطعامك وإنا بأرض ذات ريف.." فأمر لهم بعطاء يجعلهم يعيشون عيشة أواسط النـاس لا عيشـة أغناهم ولا أفقرهم.

ولكن الأمراء فسدوا في أيام عثمان، وكان عثمان، علـى الرغم من غناه يعيش عيشة الزاهدين، ويتصدق من حر ماله

فيطعم الفقراء أشهى الطعام، ولكنه أغدق على عماله من بيت المال، فعاشوا عيشة المترفين ....

وكان عمر قد اختار ع□ماله من ذوي القدرة على إدارة شئون الولايات، لا من أهل الصلاح والتقوى .. فقدرتهم للأمة، وصلاحهم لأنفسهم، ولكنه كان يقظًا لهم، ولا يغمض عنهم، وهد□دهم أن المخطيء منهم سيضع خده على الأرض، لكي يطأه بقدمه .. فخافوا، واستقاموا ما استطاعوا .. أما عثمان فقد ترك الأمر لعماله من بني أمية، فاستغلوا واستبدوا وأثاروا السد□خط على الخليفة ذي النورين، هذا السخط الذي استغله أعداء الإسلام، والذي استثمره غُلاة القراء والمتطرفون منهم، فأفتوا بأن عثمان ذا النورين قد كفر، وأهدروا دمه بدعوى الكفر، فبطش به الثائرون والساخطون..!

لقد أنكر الناس على عثمان أنه ولَّى الأحداث العارمين من عشيرته بني أمية، وفضد□لهم على أهل القدرة والصلاحية من أجِ□لَة أكابر الصحابة، فلاموا عبد الرحمن بن عوف الذي بايع عثمان على أن يتبع سد□نَّة الشيخين، وعلى ألا يجعل قومه بني أمية على رقاب الناس. قالوا لابن عوف: "هذا عملك

واختيارك لأمة محمد ..!" فقال: "لم أظن هذا به" وأتى عثمانفقال له: "إني إنما قدمتك على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر، وقد خالفتهما". قال عثمان: "عمر كان يقطع قرابته في الله، وأنا أصل قرابتي في الله". فقال عبد الرحمن: "الله عليّ ألاَّ أكلمك أبدا" .. فمات وهو لا يكلم عثمان ..! وما

زال المتجبرون من بني أمية يظلمون الناس، حتى أثاروا السخط على ذي النورين .. واشتعلت الثورة عليه تطالبه بالاعتزال أو الاعتدال أو بعزل أقاربه الظَّلمة .. وما فكر أحد من المهاجرين والأنصار الذين أنكروا بعض أعماله في قتله .. ولا الثوار.. ولكن قتل مظلوما ..!! فمن قتل عثمان؟! ومن قتل عمر من قبله ..؟!

ومن قبلهما من قتل أبا بكر..؟! نعم من قتل أبا بكر خفية؟!

من دس له السم قبل عام من وفاته..؟!

حدث الليث بن سعد إمام أهل مصر والنوبة عن عقيل عن ابن شهاب أن أبا بكر والحارث بن كلدة كانا يأكلان خزيرة أهديت لأبي بكر فقال الحارث لأبي بكر: "ارفع يدك يا خليفة رسول الله، والله إن فيها لسم سنة وأنا وأنت نموت في يوم

واحد" قال فرفع يده فلم يزالا عليلين حتى ماتا في يوم واحد عند انقضاء السنة. (الطبقات الكبرى لابن سعد).

لكم عانى من التفكير في استقصاء هذه الأسرار واستجلائها .. من يكيد للإسلام هذا الكيد كله .. وأي شيطان أغرى معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، بالخروج على وحدة الأمة وتمزيقها إلى دولتين، وإنهاك جيشها في حروب داخلية، بدلاً من أن يتجه هذا الجيش من رهبان الليل وفرسان النهار إلى الجهاد في سبيل الله، ونشر الإسلام .. لو أن ابن أبي سفيان وابن العاص مكّنا عليا من ذلك لارتفعت راية الإسلام على كل مكان من أرض البشر، ودخل كل الناس – كل بني آدم، في دين الله أفواجًا ..!

وجاء الإمام في إزاره الخشن، الذي يصل إلى نصف ساقيه، وعلى ظهره بردة كلاهما من صنع قطر، وعلى رأسه قَلَنْسُوة مصرية، لطيفة بيضاء، كان يستبدلها أحيانًا بعمامة سوداء، وفي يساره خاتمه المنقوش عليه: "الملك الله، محمد رسول الله" ومضى يتكفأ بمنكبيه الضخمين، ولحيته الطويلة العريضة البيضاء .. وبدا له أن يمر بالسوق ليفاجيء أهله .. فرأى منظرًا أغضبه فصاح: "لا تنفخوا اللحم" وأنذر من

يصنع هذا بعقاب شديد في الدنيا والآخرة، وذكر الناس بقول رسول الله "من غشَّنا فليس منا".

* * * *

وإن الإمام ليعاني من غلاة أعدائه، إذ بجماعة من غُـلاة محبيه تسب الخلفاء الراشدين الثلاثة السابقين، وتـدعو إلـى تقديس علي لأن روح الله حلت فيه ..! وقد استتابهم فلـم يتوبوا .. وقد كر م الله وجهه أن السد نة قتل الكافر، ولكنه علم

لما رأى جرما عظيما جعل العقوبـة أعظـم منـه، فـأمر بإحراقهم بالنار. فلم يرجعوا وقالوا: "بهذا يبين صدق قولنـا إنه لإله، حلَّت فيـه روح الله. لأن الرسـول (ﷺ) قـال: "لا يعذب بالنار إلا ربها ..!".

ولكنه على الرغم من هذه الهموم الكثيفة الممزقـة التـي توزعت جهده، كان يحاول أن يقيم أسسـا وطيـدة للحكـم وللسلوك .. فجعل أكبر همه حض الناس على التقوى، لأنها رأس كل الفضائل .. جعل همه أن يثقف النفوس بمكـارم الأخلاق، ويؤدبهم بالقرآن والسنة .....

ما عساه يملك إلا أن يعلم هذه النفوس أن تتنـزه عـن الطمع، وأن تضيء جوانبها بالورع ..؟!

قال يعلم الناس: "أوصيكم بتقوى الله والعمل بما أنتم عنه مسئولون، فأنتم به رهن، وإليه صائرون، فإن الله عز وجل يقول: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ وقال: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ وقال: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، فاعلموا عباد الله أن الله سائلكم عن الصغير والكبير، فإن يعذب فنحن الظالمون، وإن يغفر ويرحم فهو أرحم الراحمين، واعلموا أن أقرب ما يكون العبد إلى الرحمة والمغفرة حينما يعمل بطاعة الله ومناصحته في التوبة، فعليكم بتقوى الله عز وجل، فإنها تجمع من الخير ما لا يجمع غيرها، ويدرك بها من الخير ما لا يدرك بغيرها، خير الدنيا وخير الآخرة، يقول الله سبحانه: ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خير الدنيا وخير الآخرة ﴾، يقول الله سبحانه: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾.

وقد علم الناس حتى معاوية وعمر أن أصحاب رسول الله

(❐) كانوا إذا أشكل على أحدهم أمر سأل عليا....

وكان تفاعل الحضارات في الكوفة قد خلق فيها تيـارات فكرية متباينة، إذ كانت الكوفة ملتقى القوافل والتجـار مـن الشرق والغرب، فالتقت فيها حضارات الرومـان والفـرس والهند ويونان ومصر والصين .. فمن كل هؤلاء البلاد كان يجيء ويذهب تجار، ويختلطون ويتحاورون، ويتباحثون في غير شئون التجارة وهموم الـدنيا .. فنشـأ اتجـاه للعنايـة بالإلهيات ...

وقد جاء أحد هؤلاء المهتمين بالإلهيات فسأل الإمام عليا: "هل نرى ربنا"" فقال: "وكيف نعبد ما لم نره" .. ثم أضـاف كرم الله وجهه: "لم تره العيون في الدنيا بكشف العيان ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان. قال الله تعالى: ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى** ﴾ فأثبت الرؤية بالقلب في الدنيا. وقال النبـي (ﷺ): "اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

وكان التوزع الذي يمزق نفس الإمام يدعوه إلى التأمـل، ويشحذ عزمه ليجمع شتات نفس تفرقها اقتحامـات العصـر وأهل الهوى، والاهتمام بهموم التقوى، فقال يصف نفسه: "ما أنا ونفسي إلا كراعي غنم كلما ضمها من جانب انتشرت من جانب".

وقال يعلِّم الناس: "الخير كله مجموع في أربعة: الصمت والنطق والنظر والحركة، فكل نطق لا يكون في ذكر الله تعالى فهو لغو، وكل صمت لا يكون في فكر فهو سهو، وكل نظر لا يكون في عبرة فهو غفلة، وكل حركة لا تكون في تعبد الله فهي باطلة، فرحم الله عبدا جعل نطقه ذكرا وصمته فكرا، ونظره عبرة، وحركته تعبدا، ويسلم الناس من لسانه ويده".

وقد قال أحد تلاميذه مستخلصا ما تعلمه من الإمام: "من ترك الدنيا كلها وخرج من جميع ما يملك وجلس على بساط الفقر والتجريد فإمامه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ومن أخرج بعضها وترك البعض لعياله ولصلة الرحم وأداء الحقوق فإمامه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومن جمع الله ومنع الله وأعطى الله وأنفق الله فإمامه عثمان بن عفان رضي الله عنه، ومن لا يحوم حول الدنيا، وإن جمعت عليه من غير طلبه رفضها، فإمامه علي رضي الله عنه".

وكان الإمام إذا جاء وقت الصلاة يتزلزل ويتغير لونه، فيقال له: مالك يا أمير المؤمنين ..؟ فيقول: "جاء وقت أمانة عرضها الله تعالى (على السموات والأرض والجبال فأبين أن

يحملنها وأشفق منها وحملها الإنسان) فلا أدرى أأحسن حملها أم لا ..!".

وسأله أحد أهل الكوفة الذين دخلهم الاهتمام بالإلهيات: "ما حقيقة الإيمان ..؟" قال: "الإيمان على أربع دعائم: الصبر واليقين والعدل والجهاد. والصبر على عشر مقامات.." ومضى يحدد مقامات كل دعامة من هذه الدعائم. فكان أول من تحدث عن المقامات التي تحدث عنها الصوفية فيما بعد.

وسأله رجل آخر: "بم عرفت ربك ..؟" قال: "بما عرفني نفسه، لا تشبهه صورة، ولا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، قريب في بعده بعيد في قربه، فوق كل شئ ولا يقال شئ تحته، وتحت كل شئ ولا يقال شئ فوقه. أمام كل شئ ولا يقال شئ أمامه، داخل في الأشياء ولا كشئ، ولا من شئ، ولا في شئ، ولا بشئ، سبحان من هو، هكذا ولا هكذا غيره.. خلق الأشياء لا من شئ كان معه، ولا عن شئ احتذاه، ولا عن شئ امتثله، فكل صانع فمن شئ صنع، وكل عالم فمن بعد جهل علم، والله تعالى عالم لا من بعد جهل .. والإيمان يبدو لمظة بيضاء في القلب فكلما ازداد الإيمان ازداد القلب بياضا، فإذا استكمل الإيمان ابيض القلب، وإن

النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب، فكلما ازداد النفـاق ازداد القلب سوادا، فإذا استكمل النفاق أسود القلب .. وأسلم الناس من جعل عقله أميره، وحذره وزيره، والموعظـة زمامـه، والصبر قائده، والاعتصام بالتقوى ظهيره، وخوف الله تعالى جليسه، وذكر الموت والبلى أنيسه".

ورأى الإمام اقتحام أفكار غريبة على ورع بعض الناس، فإذا منهم من يدعو إلى التواكل، لأن الله تعالى قدر كل شـئ وقضاه، فلا جدوى من عمل الإنسان، وكـل سـعيه تحـت الشمس لن يغير ما كتبه عليه القضاء ....

ولقد قال له شيخ من شيوخ الكوفة: "أخبرنا عن مسـيرنا إلى الشام أكان بقضاء وقدر..؟" فقال كرم الله وجهه: "والذي خلق الحبة وبرأ النسمة ما هبطنا واديا ولا علونـا جـبلاً إلا بقضاء وقدر". فقال الشيخ: "عند الله احتسب عنائي. ما لـي من الأجر شئ ..!" فقال الإمام: "بل أيها الشيخ أعظم الله لكم الأجر في مسيركم وأنتم سـائرون، وفـي منقلـبكم وأنـتم منقلبون، ولم تكونوا في شئ من حالاتكم مكرهين، ولا إليها مضطرين" فقال الشيخ: "وكيف ذلك والقضاء والقدر ساقانا، وعنهما كان مسيرنا ..؟" فقال: "لعلك تظنـه قضـاءً واجبـاً

وقدرا حتما، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد، ولما كانت تأتي من الله لائمة لمذنب، ولا محمدة لمحسن، ولا كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسيء، ولا المسيء بعقوبة الذنب أولى من المحسن ..! تلك مقالة إخوان الشياطين، وعبدة الأوثان، وخصماء الرحمن، وشهود الزور، أهل العلماء عن الصواب في الأمور، هم قدرية هذه الأمة ومجوسها، إن الله تعالى أمر تخييرا، ونهى تحذيرا، ولم يكلف مجبرا ولا بعث الأنبياء عبثاً ..! ﴿ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾" فقال الشيخ: "فما ذلك القضاء والقدر اللذان ساقانا ..؟" قال الإمام: "أمر الله بذلك وإرادته" ثم تلا: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾.

فنهض الشيخ مسرورا بما سمعه من الإمام، وأنشأ يقول:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته — يوم النشور من الرحمن رضوانا

أوضحت من ديننا ما كان ملتبسا — جزاك ربك بالإحسان إحسانا

وابتسم الإمام وهو يتذكر يوم جاءوا بسارق إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فسأله: "لم سرقت ..؟" فقال

السارق: "قضى الله علي " فأمر عمر بقطع يده، وضربه أسواطًا. وقال: "قطع اليد للسرقة، والجلد لما كذب على الله".

وانبرى رجل يسأل الإمام: "أليس كل شئ في علم الله" قال الإمام: "بلى، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مثل علم الله فيكم كمثل السماء التي أظلتكم، والأرض التي أقلتكم، فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض، كذلك لا تستطيعون الخروج من علم الله، وكما لا تحملكم السماء والأرض على الذنوب، كذلك لا يحملكم علم الله عليها".

وكان أعداء علي يزعمون أن كل ما حدث منهم قضاء من الله وقدَر.. فليس لأحد أن يلومهم، وقد أفتاهم الذين يعيشون بدينهم في بلاط معاوية بذلك ..! وعلم الإمام بما يزعمون، وجاء إلى البصرة قوم منهم يحاولون إذاعة آرائهم تلك، ليصرفوا أهل البصرة عن علي ويأخذوا البيعة لمعاوية بما أن هذا هو قضاء الله وقدره. فأمر علي ابنه الأكبر الحسن بأن يكتب إلى أهل البصرة كي لا ينخدعوا بمزاعم المضلين من بطانة معاوية، فكتب: "من لم يؤمن بالله وقضائه فقد كفر، ومن حمل ذنبه على ربه فقد فجر، إن الله لا يطاع استكراها، ولا يعصى لغلبة، لأنه المليك لما ملكهم، والقادر

على ما أقدرهم عليه، فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا، وإن عملوا بالمعصية فلو شاء الله حال بينهم وبين ما فعلوا. فإذا لم يفعلوا فليس هو الذي أجبرهم على ذلك، فلو أجبر الله الخلق على الطاعات، لأسقط عنهم الثواب، ولو أجبرهم على المعاصي، لأسقط عنهم العقاب، ولو أهملهم لكان عاجزا في القدرة، ولكن له فيهم المشيئة التي غيبها عنهم، فإن عملوا بالطاعات كانت له المنة عليهم، وإن عملوا بالمعصية كانت له الحجة عليهم".

أما والى البصرة عبد الله بن عباس فقد أثاره ما يقوله الذين في بطانة معاوية من علماء انسلخوا من علمهم، وروعه أنهم يرسلون رسلهم إلى البصرة ليفسدوا رجالها، بأمور ليست من الدين في شئ، فقال لأهل البصرة: "سمعت أن قوما يقولون أن الله أجبرهم على المعاصي فلو أعلم أحدا قال هذا لقبضت على حلقه فعصرته حتى تذهب روحه ..! لا تقولوا أجبر الله على المعاصي، ولا تقولوا لم يعلم الله ما العباد عاملوه، فتجهلوا الله ..!".

ثم أرسل إلى بطانة معاوية من علماء الشام، الذين زعموا أن انضمامهم لمعاوية ضد أمير المؤمنين قضاء من الله

وقدر:" أما بعد .. أتأمرون الناس بالتقوى وبكم ضل المتقون..؟، وتنهون الناس عن المعاصي وبكم ظهر العاصون ..؟! هل منكم إلا مفتٍ رعلى الله يحمل إجرامه عليه

وينسبه علانية إليه..؟! وهل منكم إلا من السيف قلادته، والزور على الله شهادته ..؟ خالفتم أهل الحق حتى ذلوا وقلوا، وأعنتم أهل الباطل حتى عزوا وكثروا، فأنيبوا إلى الله وتوبوا، وتاب الله على من تاب، وقَبِلَ من أناب".

ها هو ذا عدو جديد يجب على الإمام أن يواجهه إلى جوار البغاة من أهل الشام، والخوارج، والمغالين في حبه الذين ألهوه .. ها هو ذا عدو جديد خطير يظهر: هو هذا الرأي الذي يبرر الخطأ الإنساني والخطيئة نفسها بأنها قدر الله .. فإذا برجال من المسلمين يسرقون، ويقتلون، ويفسدون في الأرض ويقولون: كان ذلك في علم الله فلم نجد منه بدا. فعاقبهم الإمام وأقام الحد على كل جريمة كما شرع الله، وقال: "كان في علم الله تعالى أنهم يرتكبون المعصية، ولكنه جل شأنه لم يحملهم على ارتكابها".

ثم مضى الإمام يجادل الناس في كل أمور الدين والدنيا، فما راعه إلا أن كثيرا منهم لا يفقهون معنى الأحاديث الشريفة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين" ففهم بعض الناس أن المسكين هو الفقير، فتكلفوا الفقر على الرغم من أن الإمام يلعن الفقر أمامهم، ويحذرهم منه، ويحضهم على العمل ليكسبوا ويغتنوا فيستغنوا عن الناس بما هيأ لهم الله من كسب أيديهم ....

فأخذ الإمام في شرحه للحديث الشريف يبين للناس أن المسكين ليس هو الفقير، والمسكنة ليست عدم المال فقد يكون الرجل بلا مال أو قليل المال وهو جبار شقي. وفي الحديث الشريف: "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: شيخٌ زانٍ، وملك كذَّاب، وعائل (فقير) مستكبر" فالمسكنة خُلق في النفس، وهي التواضع لله، والخشوع في ذات الله، ونبذ التكبر، كما قال عيسى عليه السلام: "وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا". والمساكين هم أهل الفضل والبر والتواضع والخشوع الذين وصفهم الله

تعالى بقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾.

أولئك هم المساكين الذين ارتضاهم علي أصحابا ورضوا به إماما ....

* * * *

وضع الإمام أصولاً كثيرة في التعامل أساسها حماية الإنسان والأمة، وهي أصول استنبطها من الكتاب أو السنة، إذ أخذ الإمام نفسه بقيود الشريعة لا يعدوها .. من أجل ذلك لم يكن هناك من شئ أو إغراء مهما يكن خطره يحمله على مخالفة الشرع .. من ذلك أنه نهى عن ضرب المتهم، ورفض الوصول إلى الاعتراف من ضرب المتهم أو تعذيبه، في عصر جعل التعذيب أسلوبا للتحقيق .. وكان يقول في حماية ضمانات المتهم: "إن يثبت عليه الجرم بإقرار أو بينة أقمت عليه الحد، وإلا لم أعترضه".

وهذا التمسك بقواعد الشريعة هو الذي حدد موقفه من معاوية، فقد علم أن الشريعة تحرم استعمال الفاسق، وإذا كان معاوية في رأيه فاسقًا، فقد عزله كما عزل غيره من عمال عثمان إعمالاً للقاعدة الشرعية: "لا تجوز ولاية الفاسق" ..

فلو أنه هادن معاوية وأقره حتى يأخذ بيعته ثم عزلـه، لمـا استطاع أن يبرر تصرفه هذا أمام المسلمين، إلا بأنه خدعـه حتى استقرت الخلافة، ولو أنه كان قد صنع ذلك فأقر علـى الولاية من يرى فيه الجور والعدوان والظلـم لهـد أركـان الشريعة، ولما حق له أن يأمر بمعروف أو ينهي عن منكر، ولشجع عماله الآخرين على ظلم الرعيـة وخيانتهـا وهـم آمنون،.!! ولما استطاع أن يقيم حقاً أو يـدفع بـــاطلاً، وإذن لأصلح أمر دنياه بفساد دينه .. ومن يدري فربما فسد عليـه أمر دنياه أيضا ..!! ذلك أن الناس لم تبايعه إلا على سـجايا فيه: أولها شجاعته في الحق، وحرصه على العدل، وغيرتـه على الشريعة، ومحاماته عن الإسلام بما جاء به من مكـارم الأخلاق جميعا، وحرصه على أن يكون عمله خالصا الله وفي سبيل الله .. وما من عمل في سبيل الله خيـر مـن رعايـة مصالح الأمة..

لقد نصب نفسه للناس إمام□ا فعليه كما قال: "أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبـه بسـيرته قبـل تأديبـه بلسانه".

فلو أنه هادن من اتهمهم بالجور والفسق وأقرهم على أعمالهم، لما صدقه أحد من شداة العدل وأهل التقوى..!! ولكنه كما قال متضرعا إلى الله تعالى. لم يصنع ما صنعه "منافسة على سلطان، ولا التماس شئ من فضول الحكام، ولكن لنرد المظالم عن دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطلة من سنتك".. أو كما كان يقول للناس: ".. ليس أمري وأمركم واحدا .. إني أريدكم الله وأنتم تريدونني لأنفسكم. أيها الناس أعينوني على أنفسكم، وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزامته حتى أورده منهل الحق وإن كان كارها".

وفي تمسكه اليقظ والواعي بقواعد الشريعة نهى الناس عن الشح، وربط بين الشح والإيمان، فهما يدوران وجودا وعدما، ذلك أن الله تعالى وصف أقواما بقوله: ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ وقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: "لا يجتمع الشح والإيمان في قلب أبدا" .. ومدح الله أقواما فقال: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ ... يُوقَ ... فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

ومن أجل ذلك كان أهل الشح هم ألد أعدائه فـي حياتـه وبعد موته. ولم يستطع أعداء مبادئـه عبـر الأجيـال أن يهاجموه، فمدحوا الخارجين عليه. قال الإمام أحمد بن حنبل في علي ومعاوية: "اعلم أن عليا كان كثير الأعداء ففتش لـه أعداؤه عن عيب، فلم يجدوا، فجاءوا إلى رجل قد حاربـه وقاتله فأطروه كيدا منهم له". وإذ

كان الإمام شديد الحرج في المال العام؛ فإن هذه الشدة نفرت منه أصحاب الأطماع.

نزل بابنه الحسين ضيف، فاشترى الحسين خبزا واحتـاج لإدام، فطلب من قنبر غلام أبيه أن يفتح له زقًا مـن زقـاق عسل، وجاءتهم هدية من اليمن، فأخذ منها مـا أطعـم بـه الضيف. فلما جاء أمير المؤمنين، وطلب الزقاق ليفحصـها قال: "يا قنبر أظن أنه حدث بهذا الزق حـدث ..!" فـأخبره، فغضب وسأل الحسين: "ما حملك على أن أخذت منـه قبـل القسمة" قال الحسين: "إن لنا فيه حقًا فإذا أعطيناه رددناه" قال الإمام: "وإن كان لك حق فليس لك أن تنتفع به قبل أن ينتفع المسلمون بحقوقهم" ثم دفع إلى قنبر درهما، وقال: اشترِ بـه

خير عسل تقدر عليه، ليقسم مع ما في الزقاق.

وكان الإمام حريصا على أن ينشئ نظاما للحكم يصون كرامة الإنسان، من أجل ذلك اهتم بتربية الفرد على مباديء الإسلام، الذي يجعل الإنسان حر الاختيار كريمًا، عفيفًا، جديرا بأن يكون خليفة الله في الأرض، وبتكريم الله إياه، فقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ فيجب على الإنسان أن يكون جديرا بالمكانة التي اختارها له خالقه .. وإذا كان هدف الشريعة هو تحقيق مصلحة الخلق، فقد استنبط الإمام أن هذه المصلحة تقوم على حماية الدين والنفس والمال والعقل والنسل .. "فمقصود الشرع من الخلق خمسة: أن يحفظ عليهم دينهم، وأنفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول الخمسة مفسدة، ودفعها مصلحة .. وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم، ومقاصد الشرع : جلب المصلحة، ودفع الضرر".

وجد الإمام الناس قد أسرفوا في طعن بعضهم على بعض، فمنهم من يتهم كل من خالفه بأنه كافر أو هو فاسق أو هو على الأقل زنديق ..!! فأوضح لهم بأن من يتهم إنسانًا

بغير دليل ولا بينة يرد عليه اتهامه، فمن اتهم من خالفه بأنه فاسق ولم يقم الدليل، يعتبر هو الفاسق دون من اتهمه..!!

وقد جعل الإمام للعقل سلطانًا في فهم الشريعة، فهو يستطيع أن يعرف الحسن فيأتيه، والقبيح فينتهي عنه، ما لم يكن في النص أمر واضح أو نهي واضح .. ويجب على العقل حين لا يجد نصا بحكم أن يستنبط الحكم بما يحقق المصلحة ويدفع المفسدة .. وما من واقعة تستجد في أي زمان أو مكان إلا أمكن إخضاعها لأحكام القرآن والسنة .. أو ما تقتضيه المصلحة العامة .. والسبيل إلى ذلك أن نعمل العقل، فحكم العقل يقضي بأن يترك ما فيه ضرر، ويؤخذ ما فيه منفعة ....

وكان المدين يحبس في الدين، فمنع الإمام هذا، وقال: "حبس الرجل في السجن بعد معرفة ما عليه ظلم".

وقد حكوا عن الإمام: "بينا علي رضي الله عنه جالس في مجلسه، إذ سمع ضجة. فقال: ما هذا..؟ قالوا: رجل سرق ومعه من يشهد عليه. فأمر بإحضارهم. فشهد شاهدان عليه أنه سرق درعا فجعل الرجل يبكي، ويناشد عليا أن يتثبت في أمره، فخرج علي إلى مجتمع الناس بالسوق، فدعا

بالشاهدين، فناشدهما الله وخوفهما، فأقاما على شهادتهما، فلما رآهما لا يرجعان دعا بالسكين وقال: ليمسك أحدكما يده ويقطع الآخر. فتقدما ليقطعاه فهاج الناس واختلط بعضهم ببعض، فقام علي من الموضع، فأرسل الشاهدان يد الرجل وهربا ...!".

فقال علي: "من يدلني على الشاهدين الكافرين ..؟" فلم يوقف لهما على خبر، فخلَّى سبيل الرجل.

كان لا يحكم بالظاهر، ويأمر القضاة بأن يحققوا ويتحققوا فلعل في الباطن ما يكذب الظاهر..

جاءوه برجل وجد في خربة بيده سكين ملطخة بالدم، وبين يديه قتيل غارق في دمه، فسأله أمير المؤمنين على كرم الله وجهه فقال الرجل: "أنا قتلته" قال: "اذهبوا به فاقتلوه" فلما ذهبوا به، أقبل رجل مسرعا، فقال: "يا قوم لا تعجلوا ردوه إلى أمير المؤمنين" فردوه، فقال الرجل: "يا أمير المؤمنين: ما هذا صاحبه، أنا قتلته" فقال علي للرجل الأول: " ما حملك على أن قلت، أنا قاتله، ولم تقتله" قال: "يا أمير المؤمنين، وما أستطيع أن أصنع وقد وقف العسس على الرجل يتشحط في دمه، وأنا واقف، وفي يدي سكين، وفيها

أثر الدم، وقد أخذت في خربة ..؟! ألا يقبل مني. فاعترفت بما لم أصنع، واحتسبت نفسي عند الله".

فقال علي: "بئس ما صنعت. فكيف كان حديثك ..؟". قال الرجل: "إني رجل قصاب، خرجت إلى حانوتي في الغلس، فذبحت بقرة وسلختها، فبينما أنا أسلخها والسكين في يدي أخذني البول، فأتيت خربة كانت بقربي فدخلتها، فقضيت حاجتي، وعدت أريد حانوتي، فإذا أنا بهذا المقتول يتشحط في دمه فراعني أمره، فوقفت أنظر إليه والسكين في يدي فلم أشعر إلا بأصحابك قد وقفوا علي، فأخذوني. فقال الناس: هذا قتل هذا ما له قاتل سواه، فأدركت أنك لا تترك قولهم لقولي، فاعترفت بما لم أجنه".

فسأل علي الرجل الثاني الذي أقر بالقتل: "فأنت كيف كانت قصتك ..؟" قال: "أغواني إبليس، فقتلت الرجل طمعا في ماله، ثم سمعت حس العسس فخرجت من الخربة، واستقبلت هذا القصاب على الحال التي وصف، فاستترت منه ببعض الخربة حتى أتى العسس، فأخذوه وأتوك به فلما أمرت يا أمير المؤمنين بقتله علمت أني سأبوء بدمه أيضا، فاعترفت بالحق" فقال علي لابنه الحسن: "ما الحكم في

هذا..؟" وكان يعلم أولاده على نحو ما تعلم هو من أستاذه العظيم رسول الله: يطرح القضية ويسأل عن الحكم ثم يجيز أو يصحح فقال الحسن: "يا أمير المؤمنين إن كان قد قتل نفسا فقد أحيا نفسا وقد قال الله تعالى: ﴿ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾. فأقر الإمام الحكم، وخلى عن الرجلين، وأخرج دية القتيل من بيت المال".

ثم إنه أصدر من الفتيا ما يلائم الظروف الجديدة، فقد تغير العصر، واستخدمت مشكلات فوجب عليه أن يواجهها باجتهاده.

من ذلك أن قد أمر بتضمين الصناع .. فإذا تلف عند صانع شئ عوض صاحبه، كالخياط إذا تلف عنده قماش، كان عليه أن يعوض صاحبه، والحداد إذا تلف عنده سيف أو سكين يشحذه كان عليه أن يعوض صاحبه، ولم يكن هذا الحكم موجودا من قبل، ولا أفتى الإمام بهذه الفتيا في عهد أحد من الخلفاء الثلاثة الراشدين، ولكنه وجد الزمان قد تغير، فأفتى بأن الصناع ضامنون لما تحت أيديهم .. وعلل ذلك بقوله: "فسد الزمان، ولا يصلح الناس إلا بهذا"..

ولم يتخل قط عن موعظة الناس .. وقال يعظ خاصة أصحابه وأبناءه: "إن أولياء الله هم الذين إذا نظروا إلى باطن الدنيا نظر الناس إلى ظاهرها، واشتغلوا بآجلها إذا اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم وتركوا منها ما علموا أنه اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم، ورأوا استكثار غيرهم منها استقلالاً، ودركهم لها فوتًا، أعداء ما سالم الناس، وسلم ما عادى الناس، بهم علم الكتاب وبه علموا، وبهم قام الكتاب وبه قاموا، لا يرون مرجوا فوق ما يرجون، ولا مخوفا فوق ما يخافون".

وقال: "كان لي فيما مضى أخ في الله، وكان يعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه، وكان خارجا من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد، وكان أكثر دهره صامتًا فإن قال بز القائلين، ونقع غليل السائلين .. وكان يقول ما يفعل، ولا يقول ما لا يفعل، وكان إذا غلب على الكلام لم يغلب على السكوت، وكان على ما يسمع أحرص منه على أن يتكلم، وكان إذا بدهه أمران ينظر أيهما أقرب إلى الهوى فيخافه. فعليكم بهذه الخلائق فألزموها وتنافسوا

فيها، فإن لم تستطيعوها فاعلموا أن أخذ القليل خير من ترك

الكثير". دخل الإمام المسجد، فإذا في انتظاره أبو الأسود الـدؤلـي

قاضيه على البصرة .. وهو أحد القـراء الفقهـاء الشـعراء الظرفاء، قرأ على الإمام، وكان من أصغى القراء وأكثـرهم حبا وولاء للإمام.

قال أبو الأسود: "يا أمير المؤمنين، ذهبت لغة العرب لما خالطت العجم!. ففسدت ألسنتها، وأوشكت لغـة العـرب إن□ تطاول عليها الزمن أن تضمحل".

وكان الإمام قد لاحظ في الكوفة فساد ألسنة بعض الصغار الذين تربيهم الإماء من الموالي .. ولكنه سأل أبـا الأسـود: "وما ذاك ..؟" أراد أن يعرف ما ألم□ بالبصرة.. فـروى أبـو الأسود: "إن ابنة لي دخلت على □ فقالت: ما أشد□ الحر□ (رفعت أشد □ وجر □ت الحر). فرأيتها تستفهم عن أي زمان الحر أشـد، فقلت لها: ما نحن فيه. قالت: إنما أخبرك ولم أسألك. فعلمت أنها قصدت التعجب، فقلت لها: يا بنية فقولي ما أشد□ الحـــر□ (بالنصب في الكلمتين) وأرادت بنت أخرى لي أن تتعجـب

من جمال السماء فقالت: "ما أحسن السماءِ (برفع أحسن وجر

السماء). فقلت لها: "نجومها" فقالت: "إني لم أُرِد أي شئ منها أحسن، إنما تعجبت من حسنها" فقلت: "إذن فقولى ما أحسن السماء (بنصب أحسن والسماء)".

ثم روى له أبو الأسود الدؤلي أن رجالاً جاءوا إلى أمير البصرة فقالوا: "أصلح الله الأمير، توفِّي أبانا وترك بنون" فصرخ فيهم أمير البصرة: "ليس هكذا. قولوا توفِّي أبونا وترك بنين ...!".

فنصح أمير المؤمنين لأبي الأسود الدؤلي أن ينهض في الوقت فيشتري صحفًا بدرهم، ثم أملى عليه: "الكلام كله لا يخرج عن اسم وفعل وحرف. والاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل" ثم قال كرم الله وجهه لأبي الأسود الدؤلي: "واعلم يا أبا الأسود أن الأشياء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، وشئ ليس بظاهر ولا مضمر.. فاكتب قواعد اللغة في هذا النحو". فسمي ما كتبه علم النحو. قال أبو الأسود: "فجمعت أشياء وعرضتها عليه، وكان من ذلك حروف النصب، فكان منها: إن وأن وليتَ ولعلَّ وكأن، ولم أذكر

لكن، فقال لي: لِمَ تركتَها ..؟ فقلت: لم أحسبها منها، فقال عليه السلام: بل هي منها فزدها".

ونصح الإمام من يكتب: "فراق بين السطور، وقلل بين الحروف، فإن ذلك أجدر بصباحة الخط".

وكتب إلى عماله وكُتَّابه: "أرقُّوا أقلامكم، وقاربوا بين سطوركم، واحذفوا من فضولكم، واقصدوا قصد المعاني، وإياكم والإكثار، فإن أموال الأمة لا تحتمل الإضرار (يدعو إلى الاقتصاد في استهلاك ما يكتب عليه وأدوات الكتابة ونحوها)"..

كذلك تفرغ الإمام في تلك الفترة، لإصلاح كل أمور الرعية..

قال في أمر المال: "قلة العيال أحد اليسارين"، فحض بذلك على الاعتدال في الإنجاب ....

وقال: "ما ذهب من مالك ما وعظك".. وقال لابنه محمد المعروف بابن الحنفية (لأن أمه من قبيلة بني حنيفة): "إني أخاف عليك الفقر فاستعذ بالله منه، فإن الفقر منقصة للدين، مدهشة للعقل، داعية للمقت".

ولاحظ أبو الأسود أن أمير المؤمنين عليا لم يعد ضاحك السن كما عرفه من قبل، فأراد أن يسري عنه فقال له: "يا أمير المؤمنين ما زلت أعمل بنصيحتك: سل عن الجار قبل الدار وعن الرفيق قبل الطريق، حتى ابتليت بجار حسبته صالحا، فإذا به يقذفني بالحجارة كل يوم، فبعت الدار، فعيرني الناس بأني بعت داري، فقلت لهم: "ما بعت داري بل بعت جاري ..!".

فلما وجد أبو الأسود سحابات الهموم مازالت على وجه الإمام، قص أبو الأسود عليه قصته مع أحد الثقلاء عساها تسري عن الإمام، قال أبو الأسود أنه كان جالسا في دهليز داره وبين يديه رطب، فجاءه رجل من الأعراب شديد الجفوة، غليظ القفا، ثقيل الوطأة، فقال: "أأدخل ..؟" قال له أبو الأسود: ما وراءك أوسع لك ..! ولكن الرجل تقدم ودخل على أبي الأسود فسأله: هل عندك شئ تطعمنيه ..؟ قال أبو الأسود: "نأكل ونطعم العيال، فإن فَضَلَ شئٌ فأنت أحق به من الكلب ..!" فقال الأعرابي: "ما رأيت قط ألأم منك ..!" فقال أبو الأسود: "بلى قد رأيت، ولكنك قد أُنسيت ..!" قال الأعرابي: "أنا ابن أبي الحمامة". فقال أبو الأسود: "انصرف،

وكن ابن أي طائر شئت" قال: "أسألك بالله ألا أطعمتني مما تأكل" فألقى إليه أبو الأسود ثلاث رطبات، فوقعت إحداهن في التراب، فأخذها فمسحها بثوبه – وكان قذرا – فقال له أبو الأسود: "دعها فإن الذي تمسحها منه أنظف من الذي تمسحها به". قال الرجل: "إنما كرهت أن أدعها للشيطان"

فقال أبو الأسود: "لا والله، ولا لجبريل وميكائيل تدعها".

وكان أبو الأسود معدودا في الفرسان والظرفاء والدهاة والحاضري الجواب، فسأله أحد الحاضرين: "يا أبا الأسود أنت حريص وداهية كما قد علمنا. ألم يغلبك أحد على دهائك وحرصك" ..؟ فضحك أبو الأسود وقال: "بلى ..! ما غلبني قط إلا رجل أخذت منه ثوبا بعشرين، ومررت بجماعة فسألوني عنه، فقلت متباهيا: أخذت هذا الثوب بأربعين، فلما وفيت للرجل العشرين قال: ما آخذ إلا أربعين وهؤلاء شهود عليك".

فضحك الإمام وضحكوا جميعا.

وسأل أبو الأسود الإمام: "ما رأي أمير المؤمنين فيما قاله أمير البصرة عبد الله بن عباس حين سئل عن أحب كلمات العباد إلى الله، فقال: أحب كلمة إلى الله هي: (لا إله إلا الله)

لا يقبل العمل إلا بها، وهي المنجية، والثانية هي: (سبحان الله) وهي صلاة الحق، والثالثة هي: (الحمد الله) وهي صلاة الشكر، والرابعة (الله أكبر) فواتح الصلاة والركوع والسجود، والخامسة (لا حول ولا قوة إلا بالله) وهي كلمة الإسلام الله. فما رأي أمير المؤمنين فيما قال ..؟" فقال الإمام في إعجاب بابن عباس: " الله أبوه. إنه لكما قال:".

وسأل أبو الأسود، أحد الحاضرين: "أنت أحد أصفياء أمير المؤمنين وقد قرأت عليه وإني سائلك عن ثلاث" قال الرجل ضاحكًا: "اسأل عن ثلاثين إن شئت، أُجبك إن شاء الله" قال أبو الأسود: "من الناس ..؟ ومن الملوك ..؟ ومن العلماء ..؟" فقال تلميذ الإمام: "أما الناس فهم العلماء. وأما الملوك فهم الزهاد، وأما السفلة فهم .. هم الذين يعيشون بدينهم كهؤلاء الذين اصطنعهم معاوية ..!".

وضحك، وضحكوا .. ولكن أمير المؤمنين لم يضحك، فقد عاودته أحزانه وإشفاقه على الدين منذ رأى بعض العلماء ينسلخ عن علمه، ويرتشي في دينه ....

وكان أبو الأسود يلبس رداءً مرقعا فقال له أحد الحاضرين: "لقد أدمنت لبس هذه المقطعة" فقال أبو الأسود:

"ربّ مملوك لا يستطاع فراقه ..!" فعلم الحاضرون أنه ملَّ هذا الثوب القديم، وأنه احتاج إلى كسوة فأهداه أحدهم كسوة. فقال أبو الأسود: "ألم نسمع من أمير المؤمنين عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيّما عامل أصاب في عمله فوق رزقه الذي فُرض له، فهو غَلول" فقال صاحب الإمام الذي أراد أن يهديه الكسوة: "هذا إن كنت من رعيتك. ولكنك قاضي البصرة، وأنا من أهل الكوفة ..!" فأمر الإمام أبا الأسود أن يقبل الهدية، فليست فيها شبهة الرشوة .. وإن برئت الهدية من شبهة الرشوة وجب قبولها، وذكرهم بالحديث الشريف: "تهادوا تحابوا".

وإنهم لجالسون إذ جاءت امرأة تبكي، فشكت من زوجها وقالت أنه يضربها ضربا مبرحا. فتغير وجه أمير المؤمنين ونهى الرجال عن ضرب زوجاتهم وقال: "أتت امرأة الوليد بن عقبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، تشتكي الوليد، تزعم أنه يضربها، فقال لها: ارجعي فقولي له إن رسول الله قد أجارني فلا تضربني .. فانطلقت، فمكثت ساعة، ثم رجعت، فقالت: يا رسول الله، ما أقلع عني ..! فقطع رسول الله هدبةً (قطعة من طرف الثوب) من ثوبه فقال لها: اذهبي

بهذه فقولي له: إن رسول الله قد أجارني فلا تضربني، فانطلقت فمكثت ساعة، ثم رجعت فقالت: يا رسول الله ما زادني إلا ضربا ...! فرفع يديه فقال: اللهم عليك الوليد، مرتين أو ثلاثا"..

فقال أحد الحاضرين إن الرجل يحب امرأته هذه حتى ليكون أطوع لها من بنانها، ثم يبغضها حتى يوجعها من الضرب، فذكرهم الإمام بالحديث الشريف الذي يدعو المؤمن إلى الاعتدال والقصد في كل أموره: "أحبب حبيبك هونًا ما، عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما..".. فقال فتى من تلاميذ الإمام: "على المرء أن يعتدل ويقتصد ويترك الغلو حتى في عبادة الله تعالى. ولقد أفرط أقوام في حب أقوام فهلكوا، وأفرط أقوام في بغض أقوام، فهلكوا أفرطت النصارى في حب عيسى بن مريم حتى قالوا: هو ابن الله، جل الله عما قالوا وعز، وأفرطت الغالية من الرافضة في حب أمير المؤمنين على بن أبي طالب، حتى قال بعضهم: هو إلههم، وقال بعضهم هو نبي مبعوث، وقال آخرون فيه أقوا ًلا عجيبة، وأبغضت اليهود عيسى بن مريم حتى قذفوا أمه

بالفرية، وأبغضت المارقة من الخوارج إمامنا علي بن أبي طالب رضوان الله عليه حتى أكفروه ...!".

* * * *

مضى الإمام يؤسس قواعد العلوم والفقه والقضاء فقد أتاحت له الهدنة مع معاوية الفرصة ليعلم الناس، ويحكم القواعد، ويؤدي ما شغلته عنه الحرب من إصلاح الرعية، وتهذيبها، ودحض ما قد يغزو نفوسها من أباطيل. وظل يقول: "اسألوني..".

وسألوه عن الراسخين في العلم فقال: هم الذين أغناهم الله عن اقتحام السدود المضروبة دون الغيوب، والإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله تعالى اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخًا في

العلم". وقال عن آداب العلماء وشرف العلم، وفي الإزراء على ما يهدر منهم هذا الشرف، وينتهك آداب العلم وأخلاقه: "لو
أن حملة العلم أحبوه بحقه لأحبهم الله وأهل طاعته من خلقه،

ولكنهم حملوه لطلب الدنيا، فمقتهم الله وهانوا على الناس".

ثم قال: "إن أبغض الخلائق إلى الله رجلان: رجل وكَّلـه الله إلى نفسه فهو جائر عن قصد السـبيل، شـغوف بكـلام بدعة، ودعاء ضلالة، فهو فتنة لمن افتتن به، ضال عن هدى من كان قبله، م□ضل لمن اقتدى به في حياته وبعـد وفاتـه، حم□ال خطايا غيره، رهن بخطيئته. ورجل موضع (مسـرع) في جهال الأمة، عار في أغباش (ظلمات) الفتنة .. قد سـماه أشباه الناس عالما وليس به .. ما قل منه خير مما كثر، حتى إذا ارتوى من ماء آجن (فاسد)، واكتنز من غير طائل، جلس بين الناس قاضيا ضامناً من التبس على غيره. فإن نزلت به إحدى المبهمات هيأ لها حشوا رثاً من رأيه، ثم قطـع بــه. جاهل خباط جهالات، عاش ركاب عشـوات .. لا يحسـب العلم في شئ مما أنكره، ولا أهل لما فوض لـه. وإن أظلـم عليه أمر اكتتم به، لما يعلم من جهل نفسه. تصرح من جور قضائه الدماء، وتعج منه المواريث .. إنما النـاس رجـلان: متبع شرعة، ومبتدع بدعة وليس معه من الله سبحانه برهان سنة ولا ضياء حجة".

وسئل "كم المسافة بين المشـرق والمغـرب ..؟" قـال: "مسيرة يوم للشمس" وسئل: "كم بين السـماء والأرض ..؟" فقال: "دعوة مستجابة ..!".

وقال وهو يعظ أصحابه: " يضر الناس أنفسهم في ثلاثـة أشياء: الإفراط في الأكل أتكالاً على الصحة، وتكلف عمل ما لا يطاق اتكالاً على القوة، والتفريط في العمل اتكـــالاً علــى عوقـب

القدَر!". وسئل: "لماذا إذا أكل لا يشبع ..؟" قال: "من شبع في الحال ثلاث عقوبات: يلقى الغشاء على قلبه، والنعاس في عينه والكسل على بدنه .. وكثرة الطعام تميت القلـب كمـا تميت كثرة الماء الزرع .. فلا تطلب الحياة لتأكل، بل اطلب الأكل لتحيا .. ولا تجلس إلى الطعام إلا وأنت جائع ولا تقـم منه إلا وأنت تشتهيه، وجو د المضغ، وأعرض نفسك علـى الخلاء إذا نمت، فإذا استعملت هذا استغنيت عن الطب..".

وكان ينصح الأمهات: "ما من لبن يرضع به الوليد أعظم بركة من لبن أمه".

وقال يضع قواعد للإنفاق: "إن الله وضع في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما متع به غني، والله تعالى سائلهم عن ذلك"..

وكان هذا المبدأ هو ما أثار ضده البخلاء من الأغنياء والذين لا يحبون أن ينفقوا في سبيل الله، والذين يريدون أن يستأثروا بالمال دون غيرهم .. أثارهم هذا المبدأ ضد الإمام منذ نادى به إلى يومنا هذا، وسيظل يثير أقواما من أهل الأطماع والأهواء والشح حتى يرث الله الأرض ومن عليها..!

ومبدأ آخر أثارهم عليه، وما زال يثير أمثالهم حتى اليوم .. ذلك قوله كرم الله وجهه: "من آتاه الله مالاً فليصل به القرابة، وليحسن منه الضيافة، وليفك به الأسير والعاني، وليعط منه الفقير والغارم (المدين)، وليصبر نفسه على النوائب ابتغاء الثواب، فإن فوزا بهذه الخصال شرف مكارم الدنيا، ودرك فضائل الآخرة".. وقوله: "اسع في كدحك ولا تكن خازنًا لغيرك". وموعظته في أمر المال: "أما بعد، فإن الذي في يدك من الدنيا قد كان له أهل قبلك، وهو صائر إلى أهل بعدك، وإنما أنت جامع لأحد رجلين: إما رجل عمل فيما

جمعته بطاعة الله فسعد بما شقيت به، وإما رجل عمل فيه بمعصية الله فشقيت بما جمعت له. وليس أحد هذين أهلاً لأن تؤثره على نفسك، ولا أن تحمله على ظهرك، فارج لمن مضى رحمة الله، ولمن بقي رزق الله .. الفقر هو الموت الأكبر.. الفقر يخرس الفطن عن حجته .. والمقل غريب في بلدته .. ما أقبح الخضوع عند الحاجة، والجفاء عند الغني! لا حاجة الله فيمن ليس الله في ماله ونفسه نصيب ..! الغني في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة .. من أتى غنيا فتواضع له لغناه ذهب ثلثا دينه".. "يا ابن آدم، كن وصى نفسك في مالك، واعمل فيه ما تؤثر أن يعمل فيه من بعدك.. ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلبا لما عند اللهو أحسن تيه الفقراء على الأغنياء اتكالاً على الله" .. " لكل امريء في ماله شريكان، الوارث والحوادث .. ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وسرف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة، ويكرمه في الناس ويهينه عند الله .. ولم يضع امرؤ ماله في غير حقه ولا عند غير أهله، إلا حرمه الله شكرهم، وكان لغيره ودهم، فإن زلت به النعل يوما فاحتاج إلى معونتهم، فشر خليل، وألأم خدين".

وقال يحض على الخير:"الفرص تمر من السحاب، فانتهزوا فرص الخير" وقال: "إضاعة الفرصة غصة..".

وكان من مبادئه التي أخذ يغرسها في قلوب الناس: "ما ظفر من ظفر الإثم به، والغالب بالشر مغلوب.. زهدك في راغب فيك نقصان حظ، ورغبتك في زاهد فيك ذل نفس.. الشقي من حرم نفع ما أوتي من العقل والتجربة .. من التوفيق حفظ التجربة .. لا تكونن ممن لا تنفعه العظة إلا إذا بالغت في إيلامه، فإن العاقل يتعظ بالآداب، والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب.. ثلاثة إن تظلمهم ظلموك: عبدك، وزوجتك، وابنك .. لا تقسروا أولادكم على آدابكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم".

* * * *

كان من أحسن الناس وجها، وكان كثير التبسم، ولكنه منذ حين تغشى الكآبة وجهه الحسن ..!

وتذكر قول رسول الله (ص): "سألت ربي ألا يهلك أمتي بسنة عامة فأعطانيها، وسألته ألا يسلط عليهم عدوا فيستبيح بيضتهم فأعطانيهم، وسألته ألا يسلط بعضهم على بعض فمنعنيها.."!

هذا هو ما يكربه ويعذبه حقًا: إن المسلمين تسلط بعضهم على بعض وقد أصبح بأسهم بينهم شديدا وما عادوا كما كانوا وكما يجب أن يكونوا رحماء بينهم.

فها هم أولاء أهل الشام قد أخرجهم عليه وعلى الجماعة فئة باغية يقودها معاوية، وعمرو، والمرتشون ممن انسلخوا عن علمهم، وركضوا في الجهالة والهوى وحب الشهوات، وحكمتهم بطنتهم ونهمهم، ومع ذلك وجدوا من يسمى الواحد منهم عالما أو شيخاً أو إماما ..! وإنهم ليعلمون أن رسول الله عليه الصلاة والسلام أمر بقتل من يدعو إلى نفسه أو إلى غيره وفي الأمة إمام ..! ولكنهم يخالفون الرسول إذ ينصرون الباغي على الإمام الشرعي..!!

ومن الحق أن العلماء جميعا وأهل السنة بلا استثناء، قد اتفقوا على أن الصواب مع علي، وأن ما رآه في أمر القصاص من قتلة عثمان هو الشريعة .. فالقصاص بغير دعوى ولا إقامة بينة ليس من الشريعة في شئ، والشريعة تحتم على مخالفي علي أن يدخلوا في طاعته بعد أن بايعه الناس أميرا للمؤمنين، ثم يقوم أولياء دم عثمان وهم أبناؤه

فيدعون بالدم، فيعمل أمير المؤمنين بما توجبه الشريعة: القصاص من القتلة الذين تثبت عليهم الجريمة.

* * * *

اجتمع نفر من الخوارج، فبكوا على إخوانهم الذين قتلهم على يوم النهروان فقالوا: "ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئًا..! إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم، والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم، فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم، فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم إخواننا" فقال ابن ملجم: "أنا أكفيكم علي بن أبي طالب" وقال البرك بن عبد الله: "أنا أكفيكم معاوية" وقال عمرو بن بكر: "أنا أكفيكم عمرو بن العاص" فتعاهدوا وأقسموا بالله: "لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت

دونه". ثم انطلق كلٌّ إلى وجهته، وتواعدوا أن يفتك كل واحد منهم بمن توجه إليه، في صلاة الفجر في اليوم السابع عشر

من رمضان، وكان ذلك في السنة الأربعين للهجرة.

فأما البرك بن عبد الله، فقد توجه إلى معاوية، فرفع

السيف ليضربه وهو يسجد في صلاة الفجر فتكاثر عليه

حرس معاوية فوقع السيف في إلْيةِ معاوية. فقال له طبيبه لما فحص الجرح: "يا أمير المؤمنين، اختر إما أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف، وإما أن أسقيك شربة تقطع منك الولد" فقال معاوية: "أما النار فلا صبر لي عليها، وأما الولد ففي يزيد وعبد الله ما تقر□ به عيني" فسقاه الطبيب شربة فشُفِي □، ولم ينجب □ بعدها. وأمر معاوية بقتل البرك، فأخذوه فقتلوه.

وكان لمعاوية حرس كبير لا يتركه حتى في المسجد ، وما حاول علي □ أن يجعل عليه حرس□ا..!!

وأما عمرو بن بكر، فإنه جلس لعمرو بن العاص في تلك الليلة ولكن ابن العاص تخلف عن الصلاة لألم باغته في بطنه، فأمر صاحب الشرطة واسمه خارجة أن يصلي بالناس. فشد عليه ابن بكر وهو يحسبه ابن العاص فقتله، فأوثقوه وجروه إلى عمرو بن العاص فقال: "من هذا ..؟" قالوا: "عمرو بن العاص" فقال: "ومن قتلت" قالوا: "خارجة". وكان خارجة يعدل ألف فارس، وقد جاء إلى مصر في المدد الذي أرسله عمر ابن الخطاب لفتح مصر، وأرسل فيه الزبير

بن العوام. قال القاتل لعمرو: "والله ما ظننته غيرك" قال عمرو: "أردتني وأراد الله خارجة" وأخذوه فقتلوه.

وأما عبد الرحمن بن ملجم فقد أتى الكوفة واشترى سيفًا بألف، وظل يسقيه السم أربعين يوما حتى لفظه، وكان في خلال تلك الأيام الأربعين يقصد باب علي فيسأله، فيعطيه أمير المؤمنين ويكرمه، فرأى امرأة جميلة رائعة من نساء الكوفة تُدعى قطام، ففُتن بها، وكلَّمها وكلَّمته، فوجدها على رأي الخوارج.

وأسرته المرأة بجمالها الفائق وظرفها وحسن حديثها، فأخذت قلبه واستولت على مجامع لبه، فتقدم إليها خاطبا. فقالت له: "لا أتزوجك حتى تشتفي لي فقد آليت ألا أتزوج على مهر لا أريد سواه " قال: "وما تريدين ..؟ "قالت: "ثلاثة آلاف، وعبد، وقينة (جارية)، وقتل علي". وعلم منها أن عليا قتل أباها وأخاها يوم النهروان، فقال لها: "أما قتل علي فما أراك ذكرته وأنت تريدينني" قالت: "بلى ألتمس غرته، فإن أصبته شفيتَ نفسي ونفسك، ونفعك العيش معي. وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وما فيها". قال: "والله ما جاء بي إلى الكوفة إلا قتل علي. فلك ما سألت". قالت: "سأطلب لك

من يشد ظهرك ويساعدك " وبعثت إلى ابن عم لها اسمه وردان، فكلمته في ذلك فوافق.

فلما أهل رمضان زار ابن ملجم صاحبًا له اسمه شبيب فقال له: "هل لك في شرف الدنيا والآخرة" ..؟ قال: "وما هو ..؟" قال: "تساعدني على قتل علي بن أبي طالب" ففزع شبيب فزعا شديدا، وقال: "ثكلتك أمك ..! لقد جئت شيئًا إدا..! كيف تقدر على قتله ..؟!". قال ابن ملجم: "إنه رجل لا حرس له، ويخرج إلى المسجد منفردا دون من يحرسه، فنكمن له في المسجد، فإن خرج إلى الصلاة فجرا قتلناه، فإن نجونا نجونا، وإن قَتلَنَا سعدنا بالذكر في الدنيا وبالجنة في الآخرة" فقال شبيب: "ويلك ..! إن عليا ذو سابقة في الإسلام وذو فضل، والله ما تنشرح نفسي لقتله" قال ابن ملجم: "ويلك..! إنه حكَّم الرجال في دين الله، وقتل إخواننا الصالحين، فنقتله ببعض من قتل فلا تشكَّن في دينك".

فاتفقا، وانطلقا إلى قُبة ضربتها قطام في المسجد فاعتكفت فيها منذ أول رمضان تصوم النهار، وتقوم الليل.

أما علي كرم الله وجهه، فقد كان منذ دخل رمضان يفطر مرة عند الحسن، ومرة عند الحسين، ومرة عند ابن أخيه

جعفر، ويقوم عن الطعام قبل أن يملأ بطنه، ويقول: "يـأتيني أمر الله وأنا خميص".

وكان عبد الرحمن بن ملجم يسم سيفه علانيـة ويقـول متباهيا: "يأفتك به فتكة يتحدث بها العرب".

فقالوا ذلك لعلي، وكان يغدق على ابن ملجم كلما سـأله، وكثيرا ما كان يسأله ..!

وقد اشترى ابن ملجم سيفه وتعهده بالشحذ والسم من المال الذي يغدقه عليه الإمام .. فبعث إليه الإمام فسأله: "لم تسـم سيفك ..؟!" قال: "لعدو وعد وك".

ونذكر وهو ينظر إلى ابن ملجم أن رسول الله صـلى الله عليه وسلم قال يوما: "يا علي من أشقى الأولـين ..؟" قـال: "الذي عقر الناقة" (ناقة الله التي أرسلها الله في ثمـود قـوم صالح ليرعوها فعقرها واحد منهم فعذبهم الله جميعا) قـال النبي: "ومن أشقى الآخرين ..؟" قال على: "لا أدري" قـال: "الذي يضربك على هذا (يعني يافوخه)، فيخضب هذه (يعني لحيته) ..!".

وكان الإمام علي كلما أعطى ابن ملجم مالاً، نظـر إلـى سيفه فقال: "أما إن هذا قاتلي" فقالوا لـه: " وما يمنعـك مـن

قتله" فيبتسم قائلاً: "إنه لم يقتلني بعد...!" ثم ينظر إلى ابن ملجم ويقول: "أريد حياته ويريد قتلى ..!".

ويتصدق عليه كما ألِفَ أن يتصدق بالمال الذي يأتيه من أرض له في الحجاز.. وقد آثر كرم الله وجهه أن يعيش على هذا المال، وألا يتقاضى من بيت المال عطاء نظير نهوضه بأعباء الحكم.

ولما تأكد لأصحاب الإمام أن خطرا يتهدده نصحوه مرة أخرى أن يتخذ حرسا يحميه، ولكنه أبى....!.

ونذكر أنه في صدر شبابه مرض مرضا شديدا حتى أشرف على التلف، فزاره النبي (❐)، وكان عنده أبو بكر وعمر يعودانه، فهمس أبو بكر للرسول أن عليا ميت في مرضه هذا ..! فقال الرسول "إن عليا لن يموت في مرضه هذا، وهو لن يموت ولكن سيقتل بعد أن يتجرع الغيظ ..!!".

الله أكبر يا علي .. صدق رسول الله .. لكم تجرعت من الغيظ حتى اكتظ به بدنك وعقلك وقلبك .. وكادت روحك تزهق منه .. هاأنتذا ترى الباطل يصول على الحق ويكاد يسحقه، وأنت لا تملك أن تقيم الحق فقد خذلك رجالك ..؟! فبمن تقيم الحق بعد..؟

وهاأنتذا ذا ترى أمة محمد تتوزع على دولتين، وتمزقها الخلافات والأطماع..!! إن كل المسلمين ليعرفون أن رسول الله أمرهم بقتل من دعا إلى نفسه، وعلى الناس إمام .. فما بالهم يتركون معاوية يزعم أنه أمير المؤمنين ..؟!

وثقل على الإمام أن يدع أهل الباطل يركضون في وديان الضلال، ويفتنون الناس بالرشوة عن دينهم، والفتنة أشد من القتل..!

وعز عليه أن يسكت عن الظالم فيقره بهذا السكوت على ظلمه..!

لكم يحزنه أن أتباع محمد الذين كانوا أعداء فألف الله بين قلوبهم، فأصبحوا بنعمة الله إخوانا، يتفرقون اليوم إلى شيع متناحرة، ويتقطعون فيما بينهم إلى دولتين..!! بالشقاء ما صنعه معاوية وعمرو بوحدة أمة محمد..!!

أمر الإمام المنادين أن ينادوا الناس فاجتمعوا في فضاء عريض بالكوفة يتسع لأضعاف ما يتسع له المسجد.

وأمر الإمام فنصبوا له حجارة، فوقف عليها، وعليه قميص من صوف كان يلبسه في الحرب، وحمائل سيفه من ليف، وفي رجليه نعلان من ليف، وعلى جبينه علامة

واضحة من أثر السجود، ولحيته العريضة الضخمة بيضاء كالقطن، فقال: "الحمد الله الذي إليه مصائر الخلق، وعواقب الأمر، نحمده على عظيم إحسانه، ونير برهانه، ونوامي (زوائد) فضله وامتنانه، حمدا يكون لحقه قضاء ولشكره أداء .. ونستعين به استعانة راجٍ لفضله، مؤملٍ لنفعه.. ونؤمن به إيمان من رجاه مؤمنًا، وأناب إليه موقنًا، وخضع له مذعنًا، وأخلص له موحدا، وعظَّمه ممجدا، ولاذ به راغبا مجتهدا. لم يولد سبحانه فيكون في العز مشاركًا، ولم يلد فيكون موروثًا هالكًا، ولم يتقدمه وقت ولا زمان، ولم يتعاوره (يتبادله ويتداول عليه) زيادة ولا نقصان، بل ظهر للعقول بما أرانا من علامات التدبير المتقن والقضاء المبرم، فمن شواهد خلقه السموات موطدات بلا عمد، قائمات بلا سند .. جعل نجومها أعلاما يستدل بها الحيران في مختلف فجاج الأقطار.. ويعلم مسقط القطرة ومقرها، ومسحب الذرة ومجرها، وما يكفي البعوضة من قوتها، وما تحمل الأنثى في بطنها".

"الحمد الله الكائن قبل أن يكون كرسي ولا عرش، أو سماء أو أرض أو جان أو إنس. لا يدرك بوهم، ولا يقدر بفهم، ولا يشغله سائل، ولا ينقصه نائل، ولا يبصر بعين، ولا يحد بأين

(بمكان) .. ولا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس، لا إلـه إلا هو أضاء بنوره كل ظلم، وأظلم بنوره كل نور".

أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ألبسكم الرياش (اللبـاس الفاخر) وأسبغ عليكم المعاش. ولو أن أحدا يجد إلى البقـاء سلما أو إلى دفع الموت سبيً لاًلكان ذلك سليمان بـن داود – عليه السلام – الذي سخر له ملك الجن والإنس مـع النبـوة وعظيم الزلفة، فلما نال طعمته (المأكل أو ما يؤكل والمـراد رزقه المقسوم)، واستكمل مدته، رمته قُسِي الفنـاء (جمـع قوس) بنبال الموت، وأصبحت الديار منه خالية، والمسـاكن معطلة، وورثها قوم آخرون، وإن لكم في القـرون السـالفة

عبرة. "أين العمالقة وأبناء العمالقـة..؟ أيـن الفراعنـة وأبنـاء

الفراعنة..؟ أين أصحاب مدائن الرس (كانوا يسكنون علـى نهر يسمى الرس في أذربيجان وكانوا يعبدون الشجر. وكلما أرسل الله إليهم نبيا يدعوهم إليه، ألقوا نبيهم في حفرة وتركوه حتى يهلك صبرا وجوعا وهم يتلذذون بأنينه، فسلط الله عليهم بركانًا أفنى مدائنهم وأذاب أجسادهم، وهذا هو ملخـص مـا رواه الإمام لما سئل عن مدائن الرس). أين أصحاب مـدائن

الرس الذين قتلوا النبيين وأطفأوا سنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبارين..؟! وأين الذين ساروا بالجيوش وهزموا الآلاف، وعسكروا العساكر ومدنوا المدائن..؟!"...

"أيها الناس، إني قد بثثت لكم المواعظ التي وعظ الأنبياء بها أممهم، وأديت إليكم ما أد□تْ الأوصياء إلى من بعدهم، وأدبتكم بسوطي فلم تستقيموا، وحدوتكم بالزواجر فلم تستوسقوا (تجتمعوا) الله أنتم ...! أتتوقعون إمام□ا غيري يطأ بكم الطريق، ويرشدكم السبيل ..؟!".

"ألا إنه قد أدبر من الدنيا ما كان مدبرا، وأزمع الترحال عباد الله الأخيار، وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى بكثير من الآخرة لا يفنى".

"ما ضر إخواننا الذين سـ□فكت دماؤهم – وهم بـ ِّفين – ألا يكونوا اليوم أحياء يسيغون الغصص ويشربون الرنق (الكدر) ..؟! قد والله لقوا الله فوفاهم أجورهم، وأحلهم دار الأمن بعد خوفهم".

"أين إخواني الذين ركبوا الطريق، ومضوا على الحق، أين عمار..؟ وأين ابن التيهان..؟ وأين ذو الشهادتين..؟ (كلهم من الصحابة الذين قتلوا في ِّفين، وذو الشهادتين هو

خزيمة بن ثابت الأنصاري من أهل بدر، قد قبل الرسول شهادته بشهادة رجلين) وأين نظراؤهم من أخوانهم الذين تعاقدوا على المنية، وأبرد بروؤسهم إلى الفجرة (أي أرسلت رؤوسهم مع البريد إلى البغاة للتشفِّي منهم) (شرح الشيخ محمد عبده)".

ثم ضرب الإمام علي بيده الشريفة الكريمة على لحيته وبكى فأطال البكاء. ثم قال: "أ ِوه..! (كلمة توجع) أواه على إخواني الذين تلوا القرآن فأحكموه، وتدبروا الفرض فأقاموا..؟ أحيوا السنة وأماتوا البدعة. دعوا للجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتبعوه".

ثم نادى بأعلى صوته :

"الجهاد الجهاد عباد الله..! ألا وإني معسكر في يومي هذا، فمن أراد الرواح إلى الله فليخرج..!".

وخرج، وخرج معه بعض الناس. ثم

عقد لابنه الحسين في عشرة آلاف مقاتل، ولقيس بن سعد

في عشرة آلاف، ولأبي أيوب الأنصاري ولغيرهم، وهو يريد الزحف إلى الشام. وكان ذلك في اليوم العاشر من رمضان، وانتظر أن يكتمل الجيش مائة ألف أو نحوها

ليستطيع أن يواجه بهم ما سيحشده معاوية وعمرو من جند الشام ومصر، وهم أكثر من مائة وعشرين ألفًا.

وظل علي يحرض الناس على الجهاد، وينتظر خروجهم فلم يخرج إليه أحد بعد غير الذين خرجوا ..!!

وشعر بمضض رهيب..!!

فأخذ المصحف فوضعه على رأسه ثم قال: "اللهم إنهم منعوني أن أقوم في الأمة بما فيه (يعني المصحف) فأعطني ثواب ما فيه. اللهم إني مللتهم وملوني، وأبغضتهم وأبغضوني، وحملوني على غير طبيعتي وخلقي وأخلاق لم تكن تعرف لي..! اللهم فأبدلني بهم خيرا منهم، وأبدلهم بي شرا مني، اللهم أمت قلوبهم موت الملح في الماء".

* * * *

شعر أصحاب الإمام من نظرات ابن ملجم، أنه يريد الفتك بالإمام .. وقدروا أن معه عددا آخر من الخوارج أهل التعنت والتطرف.

فاختار أصحاب علي كل ليلة عشرة منهم يبيتون بالسلاح ساهرين على حراسته دون أن يستأذنوه .. ورآهم ذات ليلة فسألهم: "ما يجلسكم ..؟" قالوا: "نحرسك يا أمير المؤمنين"

فقال ساخرا: "من أهل السماء ..؟!" ثم قال: "إنه لا يكون في الأرض شئ حتى يقضي في السماء، وإنه ليس من الناس أحد إلا وقد وكل به ملكان يدفعان عنه فإذا جاء القدر خليا عنه، وإنه لا يجد عبد عرف حلاوة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه".

لقد كره الإمام الحياة وتمنى الموت، منذ فقد الأمل في أن ينصره أهل العراق .. كان أهل الشام كلما ازدادوا حول معاوية قوة وفتكًا، ازداد أهل العراق تمزقًا وتفرقًا حول على .. فضاق بهم وسئم وملأت نفسه الكآبة..! فكان يقول: "والله لتخضبن هذه من هذه (يشير إلى لحيته ورأسه) فما يحبس أشقاها..؟ ما له لا يقتل ..؟! ما ينتظر..؟!".

كان كرم الله وجهه يتعجل نهايته فقد سئم الناس وملَّها، وإنه ليتعذب من الغيظ الذي أحرق به أهل العراق قلبه الشريف..!

وهكذا كان الاختلاف بين على ومعاوية حتى في اللحظات الأخيرة من عمر علي..!! رفض الحراسة، فسهل الأمر على قاتليه.

أما معاوية فكانت حوله حراسة كثيفة، فلما رفع قاتله السيف ليقتله، انقض الحراس على الفاتك فوقع سيفه على إلية معاوية، ولولا الحرس الكثيف لقتله...!

وفي ليلة الجمعة التي توافق السابع عشر من رمضان، صبيحة ذكرى غزوة بدر الكبرى، أغلظت قطام لابن ملجم، فاتهمته بالجبن، وبأنه استكان إليها ولن يضرب عليا .. وكان قد تزوجها، فطالبته بانجاز وعده، فأفهمها أن موعده الليلة.

وكانا في المسجد هو وابن عمها وشبيب بعد ما عصبتهم قطام بالحرير فجلسوا مقابل الباب الذي ألِفَ الإمام أن يدخل منه.

وقبل أن يخرج الإمام إلى الناس قال لابنه الحسن: "يا بنيّ إني بتُّ أوقظ أهلي لأنها ليلة الجمعة صبيحة بدر، فملكتني عيناي فنمت، فسنح (عرض) لي رسول الله (ﷺ) فقلت: يا رسول الله ماذا لقيت من أمتك من الأود واللدد (العوج والخصومة). فقال لي: ادع عليهم. فقلت: "اللهم أبدلني بهم من هو خير منهم، وأبدلهم بي من هو شر مني".

ثم خرج كعادته ليوقظ الناس ويناديهم: "الصلاة الصلاة" ثم يؤمهم في صلاة الفجر. فلما خرج من المسجد زعق الأوز

في وجهه، فحاول الناس إسكاتهن فقال: "ذروهن، فانهن

نوائح..!". فلما دخل الإمام المسجد، ضربه شبيب فأخطأه، وضربه

عبد الرحمن بن ملجم على رأسه وقال: "الحكم الله يا علي لا لك ولا لأصحابك..!" فقال علي: "فزت ورب الكعبة..! لا يفوتنكم الكلب..!".

فتكاثر الناس على ابن ملجم لعنه الله وهو يطوح بسيفه، فرموا عليه قطيفة وصرعوه وقعدوا على الصدر، أما الآخران فقد هربا في الزحام..!

فقال علي ودمه ينزف من رأسه فيخضب لحيته، وقد أخذ أصحابه ابن ملجم: "احبسوه فإن مت فاقتلوه ولا تمثلوا به، وإن لم أمت فالأمر إلي في العفو أو القصاص..! النفس بالنفس. إن هلكتُ فاقتلوه، وإن بقيتُ رأيت فيه رأيي..! يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين..! ألا لا يقتلن إلا قاتلي..! إن عشت فالجروح قصاص وإن متُ فاقتلوه، لكن أحبسوه وأحسنوا".

ثم طلب الإمام أن يأتوه بابن ملجم، فجاءوا به، فقال له:"أي

عدو الله، ألم أُحسن إليك ..؟" قال: "بلــى"، قـال: "فمـا

حملك على هذا ..؟" قال: "شحذته أربعين صباحا وسألت الله أن يقتل به شر خلقه" فقال الإمام: "لا أراك إلا مقتولاً به، ولا أراك إلا من شر خلقه".

وكان الحسن ما يزال في داره لم يخرج إلى الصلاة بعد، فلم يحن وقتها، فدخل الناس فزعين عليه، ومعهم ابن ملجم مكتوف اليدين. فبكت أم كلثوم بنت علي – التي مات عنها عمر بن الخطاب – ونادت ابن ملجم: "أي عدو الله، لا بأس على أبي، الله مخزيك..!" قال: "على م ن تبكين ..؟ والله لقد شريت السيف بألف، وسممتّه بألف، ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل المصر ما بقي منهم واحد..!" قالت باكية: "لا بأس على أمير المؤمنين" قال: "ما هو أمير المؤمنين ولكنه

أبوك..!". ونظر ابن ملجم إلى الحسن فقال له: "أريد أن أساررك

بكلمة فضع أذنك على فمي". قال الحسن: "تريد أن تعض أذني ..؟" قال ابن ملجم: "والله لو أمكنتني منها لأخذتها من صماخها".

وحان وقت الصلاة، فأذن لها، فطلب الإمام من جعدة بن هبيرة أن يصلي بالناس، وجعدة هو ابن أم هانيء بنت أبـي طالب أخت الإمام.

وجاء الطبيب ليعالج جرح الإمام، فلما فحص جرحـه وجسده وجد الجرح غائرا، والسم يسري في بدنه، وأيقن أنه لا علاج له، فصارح أصحاب الإمام بما رآه، وأشار علـيهم أن يطلبوا من الإمام أن يستخلف الخليفة بعده. فقالوا له وهم يحاولون أن يغمضوا عيونهم لكـي لا يـرى الإمـام فيهـا الدموع: "يا أمير المؤمنين، إن فقدناك – ولا نفقدك – أنبـايع للحسن ..؟" فقال: "ما آمركم ولا أنهاكم. أنتم أبصر بأموركم" فأعادوها عليه وكلماتهم تغيض في الأسى العميـق.. فقـال: "لا.. أترككم كما ترككم رسول الله، فإن يرد الله بكم خيـرا يجمعكم على خيركم كما جمعكم على خيركم بعد رسول الله".

وأخذ ابن ملجم يتلو وهو مطروح مكبل: (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد).

وأخذ الإمام يردد: "لا إله إلا الله" ثم تلا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

ثم دعا ولديه الحسن والحسين فقال: "أوصيكما بتقوى الله، وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شئ زوي عنكما، وقولا الحق، وارحما اليتيم، وأغيثا الملهوف، واصنعا للآخرة، وكونا للظالم خصما، وللمظلوم ناصرا، واعملا بما في كتاب الله، ولا تأخذكما في الحق لومة لائم". ثم نظر إلى ابنه محمد بن الحنفية وهو أصغر منهما فقال: "هل حفظت ما أوصيت به أخويك ..؟" قال: "نعم" قال: "فإني أوصيك بمثله، وأوصيك بتوقير أخويك، لعظيم حقهما عليك، فاتبع أمرهما، ولا تقطع أمرا دونهما" ثم قال للحسن والحسين: "أوصيكما به، فإنه أخوكما وابن أبيكما، وقد علمتما أن أباكما كان يحبه".

ثم قال للحسن: "أوصيك أي بُنَي بتقوى الله، وإقام الصلاة لوقتها وإيتاء الزكاة عند محلها، وحسن الوضوء، فإنه لا صلاة إلا بطهور، ولا تقبل صلاة من مانع زكاة وأوصيك بغفر الذنب، وكظم الغيظ، وصلة الرحم، والحلم ضد الجهل، والتفقه في الدين، والتثبت في الأمر، والتعاهد للقرآن، وحسن الجوار، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واجتناب الفواحش".

ثم قال لهم مرة أخرى: "ألا لا يُقتلن إلا قاتلي، انظـر يـا حسن، إن أنا متُ من ضربته هذه فاضربه ضربة بضـربة، ولا تمثل بالرجل، فإني سمعت رسول الله صـلى الله عليـه وآله وسلم يقول: "إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور..!".

ثم طلب كرم الله وجهه أن يملي وصيته، فأملى: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أوصى به علي بـن أبـي طالـب: أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شـريك لـه، وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشـركون. ثـم إن صـلاتي ونسـكي ومحياي ومماتي الله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أُمرت وأنا من المسلمين، ثم أوصيك يا حسن وجميع ولدي بتقوى الله ربكم، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون. واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، فإنني سمعت أبا القاسم صـلى الله عليـه وآله وسلم يقول: إن صلاح ذات البين أفضـل مـن عامـة الصلاة والصيام"..!

"انظروا إلى ذوي أرحامكم فصـلوهم يهون الله علـيكم الحساب. الله، الله، في الأيتام فلا يضيعن بحضرتكم. والله الله في جيرانكم، فإنهم وصية نبيكم (ﷺ) ما زال يوصي بالجـار

حتى ظننا أنه سيورثه. والله الله في القرآن، فلا يسبقكم إلى العمل به غيركم، والله الله في الصلاة، فإنها عمود دينكم، والله في بيت ربكم فلا يخلو ما بقيتم .. والله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم. والله الله في الزكاة فإنها تطفيء غضب الرب. والله الله في ذمة نبيكم (أهل الكتاب من غير المسلمين) فلا يظلمن بين أظهركم. والله الله في أصحاب نبيكم، فإن رسول الله أوصى بهم. والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معايشكم، والله الله فيما ملكتْ أيمانكم. الصلاة الصلاة، لا تخافن في الله لومة لائم، فإنه يكفيكم من أرادكم وبغى عليكم (أي يحميكم منه)، وقولوا للناس حسنًا كما أمركم الله، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيولى الأمر شراركم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم..! وعليكم بالتواصل والتباذل، وإياكم والتدابر والتقاطع والتفرق، وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان. واتقوا الله إن الله شديد العقاب. حفظكم الله من أهل بيت، وحفظ فيكم نبيكم، أستودعكم الله. وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله".

ولم يسمع له حينئذ صوت بعد حتى قبض وهو يتمتم: لا إله إلا الله.

ولكن صوته العظيم اخترق الآماد والمسافات والقرون، لتضيء كلماته الرائعة ظلمات النفوس، وتنير طريق الهداية للسالكين..

وقُتل اللعين ابن ملجم، وحل الحسن بن علي محل أبيه.. وياله من أب للصالحين في عصره، وفي كل العصور!

* * * *

وهكذا، ووري التراب جسده النبيل..

جسد رجل لم تعرف الإنسانية حاكما ابتلى بمثل ما ابتلى به من فتن، على الرغم من حرصه على إسعاد الآخرين، وحماية العدل وإقامة الحق ودفع الباطل..!

قبض الشهيد، واستقر في وعي الزمن أنه كلما قيلت كلمة الإمام فهو الإمام علي، على كثرة الأئمة في الإسلام..! ذلك أن ما امتلكه من علم وفقه في الدين وما أوتى من الحكمة لم يتوفر لفقيه أو عالم..

قبض الشهيد الرائع البطولة، الأسطوري، المثالي، واستقر في ضمير الزمن، أنه كلما نطق أحد باسم أمير المؤمنين

فحسب فهو الإمام علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، على الرغم من كثرة الخلفاء في كل عصور الإسلام، فكل خليفة بعد أبي بكر هو أمير المؤمنين .. ذلك أن عليا اجتمع له من عناصر القدوة وشرفها، واجتمع فيه من مقومات القيادة ونبالتها ما لم يجتمع قط لحاكم.

وهكذا كان فريدا حقاً: عالما وحاكما..!

فسلام عليه يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يبعث حيا..

وسلام عليه إذ توارى جسده في التراب، وبقيت كلماته منارات إشعاع ومنابع حكمة، ومثار عزائم، وعدة للمتقين والمساكين بعد كتاب الله والأحاديث النبوية الشريفة..

وسيظل القلب ينبض بما قال، وتشرق به النفس، وزهو به العقل!

والله در حكمته وعظمته حين قال: "اسأل عن الجار قبل الدار، وعن الرفيق قبل الطريق.. انصروا المظلوم وخذوا فوق يد الظالم وأحسنوا إلى نسائكم.. ما جفت الدموع إلا لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب.. من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه.. الناس أبناء ما يحسنون.. أو أقنع في نفسي أن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهن مكاره الدهر

..؟! ألا وإني قاتل رجلين: رجلاً ادعى ما ليس له، وآخر منع الذي عليه .. ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيع .. ما جاع فقير إلا بما متع به غني .. لو تمثل لي الفقر رجلاً لقتلته .. إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بالعامة وبضعفة الناس .. إذا كان الراعي ذئبا فالشاة من يحفظها ..؟! إذا غضب الله على أمة غلت أسعارها، وغلبها أشرارها..!" إذا تغير السلطان تغير الزمان .. إن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة .. اعلموا أنكم في زمان القائل فيه بالحق قليل، واللسان عن الصدق كليل، واللازم للحق ذليل .. الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه. أحب لغيرك ما تحب لنفسك، وأكره له ما تكرهه لها، ولا تظلم كما تحب ألا تظلم .. لا تقل ما لا تعلم وإن قلَّ ما تعلم.. من ظن بك خيرا فصدق ظنه، ولا تضيعن حق أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه .. إن أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقية يرجع إليها إن بدا له ذلك يوما ما .. استقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ..

ولا ترغبن فيمن زهد عنك .. أستودع الله دينك ودنياك، وأسأله خير القضاء..

"أيها الناس، ألا لا يقولن رجل منكم غدًا ممن قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا القفار وفجروا الأنهار وركبوا الخيل واتخذوا الوصائف المرققة، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه وصيرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا..! ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته، فإن الفضل غدًا عند الله. فأنتم عبد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية لا فضل فيه لأحد على أحد .. أما بعد فإنما أهلك من كان قبلكم أنهم منعوا الناس الحق فاشتروه (بالرشوة)، وأخذوهم بالباطل فاقتدوه (أي صار الباطل قدوة) .. لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله، فإن الناس اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل (يقصد الدنيا) .. إياكم والمراء والخصومة فإنهما يمرضان القلب وينبت عليهما النفاق .. أشقى الرعاة من شقيت به الرعية .. لا تقبلن في استعمال ع مالك وأُمرائك شفاعة إلا شفاعة الكفاية والأمانة .. المسئول حر حتى يعد .. إذا أخطأتك

الصنيعة إلى من يتقي الله، فاصنعها على من يتقي العار.. إذا أردت أن تصادق رجلاً فانظر من عدوه .. من حفر بئرا وقع فيها .. من تجرأ لك تجرأ عليك .. من تذكر بعد السفر استعد .. لا يكونن أخوك على مقاطعتك أقوى منك على صلته، ولا يكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان .. لا يكن أهلك أشقى الخلق بك ولا تهن من يكرمك .. لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال .. لا تهدمن محاسنك بالفخر والتكبر.. لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان، ولا على البخل أقوى منك على البذل، ولا على التقصير أقوى منك على الفضل .. لا تلتبس بالسلطان في وقت اضطراب الأمور عليه: فإن البحر لا يكاد يسلم صاحبه في حالة سكونه، فكيف يسلم مع اختلاف رياحه واضطراب أمواجه ..؟! لا تمار سفيها ولا فقيها: أما الفقيه فتحرم خيره، وأما السفيه فيحزنك شره .. لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل ويرجى التوبة بطول المل: يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين، إن أعطى منها لم يشبع، وإن منع منها لم يقنع، يعجز عن شكر ما أوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي، يحب الصالحين ولا يعمل عملهم،

ويبغض المذنبين وهو أحدهم .. لاتكثر العتَب في غير ذنب .. لا تقبل الرئاسة على أهل مدينتك فإنهم لا يستقيمون لك إلا بما تخرج به من شرط الرئيس الفاضل...! الكلام في وثاقك ما لم تتكلم به، فإذا تكلمت به صرت في وثاقه .. أضر الأشياء عليك أن تعلم رئيسك أنك أعلم بالرئاسة منه .. أصحاب السلطان كقوم رقوا جبلاً ثم سقطوا منه، فأقربهم إلى الهلكة والتلف، أبعدهم في المرتقى..! ارض من الناس لك ما ترضى لهم به منك .. ارحموا ضعفاءكم، فالرحمن لهم سبب رحمة الله لكم .. اذكر عند الظلم عدل الله فيك، وعند القدرة قدرة الله عليك .. أذل الناس معتذر إلى لئيم .. إذا نزل بك مكروه فانظر: فإن كان لك فيه حيلة فلا تعجز، وإن لم تكن فيه حيلة فلا تجزع .. إذا غضب الكريم فألن له الكلام، وإذا غضب اللئيم، فخذ له العصا .. إذا فعلت كل شئ فكن كمن لم يفعل شيئًا .. إذا ُقذفتَ بشئ فلا تتهاون به وإن كان كذبا بل تحرز من طرق القذف جهدك، فإن القول وإن لم يثبت يوجب ريبة وشكاً .. إذا أيسرت فكل الرجال رجالك، وإذا أعسرت أنكرك أهلك .. إذا رفعت أحدا فوق قدره فتوقع منه أن يضعك دون قدرك .. إذا رغبت في

المكارم فتجنب المحارم .. عمّر قلبك بذكر الله والاعتصام بحبله وأي سبب أوثق مما بينك وبين الله إن أنت أخذت به".وكم

من الكلمات المشرقة، والمواقف المضيئة خلفها الإمام ميراثا للإنسانية كلها، ودليلاً ونبرا سا..!

وصدق رسول الله حين قال لعلي: "أنت سيد في الدنيا، سيد في الآخرة .. من أحبك فقد أحبني، وحبيبك حبيب الله ، ومن أبغضك فقد أبغضني، وبغيضك بغيض الله، وويل لمن أبغضك من بعدي..!".

وقبل أن يموت كان قد أوصى بربع أرضه التي في الحجاز لأصحاب الحاجات..

فقضى، ولم يخلّف تراثًا غير الحكمة، والقدوة الحسنة، وما مات أحد من رعيته إلا خلف من المال أكثر مما ترك الإمام.

عاش يناضل دفاعا عن الشريعة، والعدل، والحق، والمودة، والإخاء والسلام، والمساواة بين الناس .. فسلام عليه !

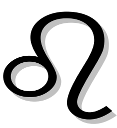
سلام عليه يوم قال فيه رسول الله عليه الصلاة والسلام: "رحم الله عليا اللهم أدر الحق معه حيث دار".

ودار الحق معه حيث دار، وما عاداه في حياتـه وبعـد موته إلا البغاة، وفرسان الضلال، وعبيد الشـهوات، وأهـل البدع والشح والأهواء..!

سلام عليه يوم قال عنه الرسول عليه الصلاة والسـلام: " من اتخذ عليا إماما لدينه، فقد استمسك بالعروة الوثقى".

وعبر أجيال متطاولة تعاورت فيها الأحـداث والمآسـي العظام، والهزائم التـي تقصـم الظهـر وتكسـر القلـب، والانتصارات التي تثير الكبرياء في الـنفس .. عبـر تلـك الأزمان اتخذه المتقون إماما .. فقد كان دعاؤه مع عبـاد الله الصالحين: واجعلنا للمتقين إماما....

واتخذه المساكين إماما .. واتخذه الفتيان والنساك والزهاد والعلماء والمجاهدون والشجعان إماما .. سلام عليه .. عليه السلام.



أهم المراجع

- القرآن الكريم: كتب التفسير، وبصفة خاصة الطبري وابن كثير والزمخشري والسيوطي والنسفي والقرطبي.
- الحديث الشريف: الستة الصحاح.
- الأدب المفرد: الإمام البخاري.
- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم: محمد فؤاد عبد الباقي
- منهج البلاغة: للإمام علي بن أبي طالب، اختيارات الشريف الرضي، شرح الإمام محمد عبده.
- الإحكام في أصول الأحكام: ابن حزم.
- أحمد بن حنبل: عبد الحليم الجندي.
- أحمد بن حنبل: الشيخ محمد أبو زهرة.
- إحياء علوم الدين: الإمام الغزالي (المتوفي في القرن السادس الهجري).
- الاختيارات الفقهية: ابن تيمية.
- الاستيعاب: ابن عبد البر.

- أسد الغابة: ابن الأثير.
- الإسلام وحقوق الإنسان: د. القطب محمد القطب طبلية.
- الأشياء والنظائر في القرآن: البلخي.
- الإصابة في معرفة الصحابة: ابن حجر.
- أصول الفقه: الشيخ عبد الوهاب خلاف.
- إعجاز القرآن: الباقلاني.
- أعلام الموقعين: ابن قيم الجوزيه.
- الأغاني: الأصفهاني.
- الأم: الإمام الشافعي.
- الإمامة والسياسة: ابن قتيبة (مع مراعاة ما قيل عنه أنه منتحل).
- إنباه الرواة على أنباء النحاة: القفطي.
- البداية والنهاية: ابن كثير.
- بلاغة الإمام علي: د. أحمد الحوفي.
- البيان والتبيين: الجاحظ.
- تاريخ التشريع الإسلامي: د. محمد يوسف موسى.

- تاريخ الأمم والملوك: ابن جرير الطبري.
- تهذيب الآثار، وتفصيل الثابت عن رسول الله (ص) من الأخبار: الطبري (قرأه وخرج أحاديثه محمود شاكر).
- التوابون: ابن قدامة..
- ثلاث رسائل في إعجاز للقرآن: الروماني والخطابي والجرجاني.
- حسن المحاضرة: السيوطي.
- خزانة الأدب: البغدادي.
- خصائص العشرة الكرام البررة: الزمخشري.
- خلفاء الرسول: خالد محمد خالد.
- الذيل على رفع الإصر: السخاوي.
- رجال حول الرسول: خالد محمد خالد.
- الروض الأنف: السهيلي.
- سجع الحمام في حكم الإمام: جمع وضبط وشرح علي الجندي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد يوسف المحجوب.
- السياسة الشرعية: ابن تيمية.

- السيرة النبوية: ابن هشام.
- صبح الأعشى: القلقشندي.
- الطبقات الكبرى: ابن سعد.
- الطرق الحكمية: ابن قيم الجوزية.
- عبقرية الإمام: عباس محمود العقاد.
- العقد الفريد: ابن عبد ربه.
- علي بن أبي طالب: جورج جرادق.
- عيون الأخبار: ابن قتيبة.
- الفاخر: ابن سلمة بن عاصم تحقيق عبد العليم الطحاوي.
- الفاروق عمر: د. محمد حسين هيكل.
- الفتاوى الكبرى: ابن تيمية.
- الفتنة الكبرى: د. طه حسين.
- فضائح الباطنية: الإمام الغزالي (أبو حامدن المتوفي في القرن السادس الهجري).
- تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية: الشيخ مصطفى عبد الرازق (شيخ الأزهر الأسبق).
- الفهرست: ابن النديم.

- القاموس المحيط: الفيروز ابادي.
- الاقتصاد الإسلامي: شوقي الفنجري.
- قضاة مصر وولاتها: الكندي المصري.
- القضايا الكبرى في الإسلام: للشيخ عبد المتعال الصعيدي.
- الكامل: المبرد.
- الكامل: ابن الأثير.
- لسان العرب: ابن منظور.
- اللمع في التصوف: الإمام الطوسي.
- المال في الإسلام: عبد الكريم الخطيب.
- مروج الذهب: المسعودي.
- معاوية: عبد العقاد.
- معاوية بن أبي سفيان: إبراهيم الأبياري.
- معجم البلدان: ياقوت الحموي.
- المغني في أبواب التوحيد والعدل: عبد الجبار (القاضي أبو الحسن).
- المقدمة: ابن خلدون.

- الملكية في الشريعة الإسلامية: الشيخ علي الخفيف.
- النجوم الزاهرة: ابن تغرى بردي.
- النظم الإسلامية: د. القطب محمد القطب طبلية.
- نهاية الأرب: النويري.
- وفيات الأعيان: ابن خلكان.
- وقعة فِّيدنصر بن مزاحم.
ن:
- يتيمة الدهر: الثعالبي.

الحمد الله